بسم الله الرحمن الرحيم

إنسان بعمر ٢٥٠ سنة

نصوص و محاضرات قائد الثورة الإسلامية
سماحة آية الله السيد علي الخامنئي (دام ظله)
في الحياة السياسية و
الجهادية للمعصومين عليهم السلام

صهبا

انسان بعمر ٢٥٠ سنة

نصوص و محاضرات قائد الثورة الإسلامية

سماحة آية الله السيد علي الخامنئي دام‌ظله

في الحياة السياسية و الجهادية للمعصومين عليهم‌السلام

جمع وإعداد: مؤسسة صهبا

ترجمة: دارالمعارف الإسلاميّة الثقافية

التدقيق اللغوي و التصحيح: دائرة العلاقات الإسلامية للعتبة الرضوية المقدسة

تشرين الثاني - ٢٠١٨

ISBN: ٩٧٨-٦٠٠-٦٢٧٥-٥٣-٦

arabic.SAHBABOOKS.com

info@SAHBABOOKS.com

العتبة الرضوية المقدسة

معاونية الإعلام والعلاقات الإسلامية

المعارف

دار المعارف الإسلاميّة الثقافيّة

صهبا

محتويات الكتاب

المقدّمه	٧
التمهيد	٩
الفصل الأول	
النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم	٢١
الفصل الثاني	
الإمامة	٥٣
الفصل الثالث	
الإمام علي عليه السلام	٦٥
الفصل الرابع	
السيدة فاطمة الزهرا عليها السلام	٩٣
الفصل الخامس	
الإمام الحسن المجتبى عليه السلام	١٠٥
الفصل السادس	
الإمام الحسين عليه السلام	١٢٩
الفصل السابع	
السيدة زينب الكبرى عليها السلام	١٤٧
الفصل الثامن	
الإمام السّجاد عليه السلام	١٦٧

الفصل التاسع	
الإمام الباقر عليه السلام	٢٠٣
الفصل العاشر	
الإمام الصّادق عليه السلام	٢٢٣
الفصل الحادي عشر	
الإمام الكاظم عليه السلام	٢٤٣
الفصل الثاني عشر	
الإمام الرضا عليه السلام	٢٥٩
الفصل الثالث عشر	
الإمام الجواد عليه السلام و الإمام الهادي عليه السلام و الإمام العسكري عليه السلام	٢٧٥
الفصل الرابع عشر	
غاية حركة الإنسان بعمر ٢٥٠ سنه	٢٨٧

المقدّمه

هذا الكتاب عبارة عن مجموعة من المحاضرات والدراسات التي ألقاها ودوّنها الإمام الخامنئي دام ظله في سيرة الأئمّة الأطهار عليهم السلام، تمّ جمعها وتنسيقها وتبويبها بحيث تحقّق الهدف والغرض من طرح فكرة هذا الكتاب الجديدة والإبداعية؛ فقد كان أوّل طرح لهذا المفهوم الكبير والمتقدّم بعنوان «إنسان بعمر ٢٥٠سنة» من قبل الإمام الخامنئي دام ظله في المؤتمر العالمي للإمام الرضا عليه السلام عام ١٩٨٦م.

والكتاب الحاضر، قبل أن يكون كتابًا تاريخيًا صرفًا، هو متن تحليلي تاريخي؛ يتضمّن بالإضافة إلى السرد والشرح التاريخي لوقائع من حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمّة الأطهار عليهم السلام، طرحٌ وبيان رؤية تحليلة كلّية لحياة كل معصوم بالنظر إلى المسار التاريخي لمرحلة إمامته، وفي إطار رؤية متكاملة ومترابطة مع باقي الأئمّة الأطهار عليهم السلام، بحيث غدت سيرتهم الجهادية بمثابة عرض منسجم ومترابط لحركة واحدة متّصلة ومتواصلة نحو مقصد واحد وغرض مشخّص.

وهو يهدف بشكل أساسي إلى تكوين رؤيا واضحة عن الحياة السياسية للأئمّة الأطهار عليهم السلام، وإلى تسليط الضوء والبحث عن عنصر الجهاد والمواجهة السياسية التي اتّسمت بها حياتهم المباركة، والمقصد الحقيقي الذي كانوا يرمون الوصول إليه.

والفكرة المركزية التي تبتني عليه هذه الرؤية هي النظر إلى الأئمّة عليهم السلام على أنّهم شخص واحد يحيا بأهداف واضحة ومحدّدة على المستوى المرحلي والاستراتيجي؛ يسعى دون كلل أو ملل للوصول إلى هذه الأهداف، والتي هي نفسها أهداف هذا الدين الحنيف والرسالة المحمدية الأصيلة. وقد امتدت حياة هذا الإنسان على طول حياة الأئمّة عليهم السلام، أي من سنة ١١ للهجرة حتى عام ٢٦٠ للهجرة، ليكون إنسانًا بعمر ٢٥٠سنة، ومن هنا اقتبس عنوان هذا الكتاب؛ من كلمات القائد نفسها.

في الختام لا بدّ من الإشارة إلى أنّ حجم الكلام الذي صدر عن الإمام الخامنئي في الأبعاد المختلفة لحياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمّة عليهم السلام وخاصة حياة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم والإمام أميرالمؤمنين والإمام الحسين عليه السلام وكذلك في دائرة السيرة الشخصية لكل واحد من المعصومين عليهم السلام أكثر بكثير من المقدار الوارد في هذا الكتاب. وعليه يمكن اعتبار هذا الكتاب مقدمة أساسية وديباجة مفيدة للدخول إلى المعارف الأساسية والأصيلة في حياة المعصومين عليهم السلام والواردة في كلمات الإمام الخامنئي دام ظله وخطاباته.

ولا يسعنا في النهاية إلا أن نتقدّم بجزيل الشكر والامتنان إلى جميع الذي ساهموا في انجاز هذا العمل واتمامه حتى النهاية، ونخصّ بالشّكر فضيلة السيد عبّاس نورالدين الذي كان له الفضل في ترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية، فاسحًا بذلك المجال أمام إخراجه إلى المكتبة العربية.

التمهيد

إنّ غربة الأئمّة عليهم السلام لم تقتصر على الفترة الزمنيّة الّتي عاشوها في حياتهم، بل استمرّت لعصور متمادية من بعدهم. والسّبب في ذلك يرجع إلى إهمال الجوانب المهمّة بل والأساسية من حياتهم. ومن المؤكّد أنّ هناك كتبًا ومؤلّفاتٍ كثيرة قد حَظِيَت بمكانة رفيعة لا نظير لها، وذلك لما حملته في طيّاتها من روايات تصف حال الأئمّة عليهم السلام، ولما نقلته للأجيال المتعاقبة من أخبار تصف سيرتهم، ولكنّ عنصر المواجهة السياسية الحادّة، والّتي تمثّل الخطّ الممتد لحياة أئمّة الهدى عليهم السلام طيلة ٢٥٠سنة، قد ضاع في طيّات الروايات والأحاديث، وذكر الأحوال الناظرة إلى الجوانب العلميّة والمعنويّة.

يجب علينا أن ننظر إلى حياة الأئمّة عليهم السلام كدرس وأسوة، لا كمجرّد ذكريات قيّمة وعظيمة حدثت في التاريخ. وهذا لا يتحقّق إلّا بالإهتمام والتركيز على المنهج والأسلوب السياسي من سيرة هؤلاء العظماء عليهم السلام.

أنا شخصيًا عندي رغبة شديدة في الاطّلاع على هذا الجانب المهمّ من حياتهم. وأوّل مرّة شعرت بأهميّة هذه المسألة كان عام ١٣٥٠هـ.ش. (١٩٧١م.) أي في مراحل المحنة الّتي سبقت الثورة. ومع أنّني قبل تلك الفترة كنت أنظر إلى الأئمّة عليهم السلام بعنوان أنّهم شخصيّات مجاهدة ومكافحة لإعلاء كلمة التوحيد وإقامة الحكومة الإلهية، إلّا أنّ النقطة المهمّة الّتي وصلت إليها في تلك الفترة هي أنّه على الرغم من الاختلاف الظاهري بين سيَرهم عليهم السلام (حتّى أنّ بعض الناس ليشعر

بالاختلاف الشاسع وبالتناقض فيها)، إلا أنّها عبارة عن مسيرة واحدة استمرّت ٢٥٠سنة ابتداءً من سنة ١١هـ.ق. إلى ٢٦٠هـ.ق. أي انتهت ببداية الغيبة الصغرى للإمام عليه السلام.

هؤلاء العظماء كانوا شخصًا واحدًا. ولا ينبغي الشكّ بأنّ هدفهم هو واحدٌ. ولذلك فإنّنا وبدل أن ندرس حياة كلّ من الإمام الحسن عليه السلام والحسين عليه السلام والسجّاد عليه السلام بصورة منفصلة عن الأخرى، حتّى لا نقع في فخّ هذا الخطأ الخطر من وجود التناقض والتعارض بين سيرة هؤلاء الأئمّة الثلاثة بسبب وجود هذا الاختلاف الظاهريّ، يجب أن نفرض وجود إنسان عمّر ٢٥٠سنة، وفي سنة ١١ للهجرة وضع أوّل قدمٍ له على الطريق، حتّى قطعه عام ٢٦٠ للهجرة.

عندها سوف تصبح كلّ حركات هذا الإنسان، العظيم والمعصوم، قابلةً للفهم والتفسير وفق هذا المنظار. فإنّ أيّ إنسان يملك شيئًا من العقل والحكمة، ولا نقول يملك شيئًا من العصمة، تكون له تكتيكات ومواقف موضعيّة خاصّة خلال حركته البعيدة المدى. وقد يجد هذا الإنسان أنّه من الضروريّ أن يُسرع في حركته تارةً، وأن يبطئ تارةً أخرى، أو حتّى أن يتراجع تراجعًا حكيمًا في مواضع أخرى. والإنسان العاقل والحكيم والعارف سيرى في هذا التراجع، بالنظر لهدف هذا الإنسان، حركة وتقدّمًا نحو الأمام.

من هذا المنظار تُعتبر حياة الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام، والإمام المجتبى عليه السلام، والإمام الحسين عليه السلام، والأئمّة الثمانية المعصومين عليهم السلام من ولدهم، حركة واحدة ومستمرّة حتّى سنة ٢٦٠ للهجرة. وقد التفتُّ في تلك السنة (١٩٧١م) إلى هذا الأمر، ودخلت في دراسة حياتهم، من هذا المنظار، وعاودتُ النظر مرّةً أخرى وكلّما توغّلت وجدتُ أنّ هذه الفكرة صائبة. إنّ الالتفات إلى الحياة المستديمة لهؤلاء المعصومين والعظماء من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالتلازم مع التوجّه السياسيّ، يستحقّ أن يُفرد له فصلٌ خاصّ مستقلّ، وقد قرّرتُ القيام بهذا الأمر. وإن شاء الله أرغب بالحديث عن هذه الجملة بشيءٍ من الشرح والتفصيل.

أوّلًا: ماذا نقصد عندما ننسب المواجهة السياسية أو النضال السياسيّ الحادّ للأئمّة عليهم السلام؟

إنّ المقصود من هذا الكلام هو أنّ جهاد الأئمّة المعصومين عليهم السلام لم يكن منحصرًا بالجهاد

العلميّ والعقائديّ والكلاميّ، من قبيل النزاعات الكلامية الّتي تشاهدونها عبر كلّ تلك الفترة من تاريخ الإسلام، مثل النزاع بين المعتزلة والأشاعرة وغيرهم. فلم يكن هدف الأئمّة عليهم السلام من اجتماعاتهم العلميّة، وحلقات دروسهم، والأحاديث، ونقل المعارف الإسلامية وبيان الأحكام أن يثبتوا مدرستهم الكلامية أو الفقهية ويفحموا خصومهم فحسب، بل كان هدفهم أبعد من ذلك. وأيضًا لم تكن مواجهتهم مواجهة مسلّحة كما كان في عهد زيد والّذين جاؤوا من بعده، أو كما كان في عهد بني الحسن وبعض آل جعفر وغيرهم من الّذين مرّوا في حياة الأئمّة عليهم السلام. بالطبع، إنّ الأئمّة عليهم السلام لم يخطّئوا هذه التحرّكات بصورة مطلقة، وحكمهم على بعضٍ منها بالخطأ لم يكن بداعي كونها حركات مسلّحة وإنّما لأسباب أُخرى مختلفة. لذا نجد أنّ مواقف الأئمّة عليهم السلام كانت مؤيّدة لهذه الحركات في بعض الأحيان، بل واشتركوا في بعضها، بصورة غير مباشرة، عن طريق المساعدات الّتي كانوا يقدّمونها للثورة. ومن الجدير الالتفات إلى حديث الإمام الصادق عليه السلام الّذي يقول: «لوددت أنّ الخارجيّ يخرج من آل محمّد صلى الله عليه وآله وسلم وعليَّ نفقة عياله»[1]: كالنفقات الماليّة وتقديم العون المعنويّ، والدعم في تقديم الملاجئ والمخابئ وأمثالها. إلا أنّ الأئمّة عليهم السلام أنفسهم، تلك السلالة الّتي نعرفها، لم يخوضوا في مثل هذه المواجهات المسلّحة أو يشتركوا فيها بشكلٍ مباشر. إنّ الجهاد السياسيّ، لا ذاك الأوّل ولا ذاك الثاني، عبارة عن مواجهة ذات هدفٍ سياسيّ. فما هو ذاك الهدف السياسي؟ هو عبارة عن تشكيل «حكومة إسلاميّة» وبحسب تعبيرنا «حكومة علويّة».

فكان سعي الأئمّة عليهم السلام ومنذ وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وحتّى عام ٢٦٠ هـ.ق. هو إيجاد وتأسيس حكومة إلهيّة في المجتمع الإسلاميّ، وهذا هو الأصل المدّعى. ولا نستطيع القول إنّ كلّ إمام كان بصدد تأسيس حكومة في زمانه وعصره، ولكن كلّ إمام كان يهدف إلى تأسيس حكومة إسلامية مستقبلية، أكان ذلك في المستقبل البعيد أو القريب. مثلًا هدف الإمام المجتبى عليه السلام كان تأسيس حكومة إسلامية في المستقبل القريب، فقوله عليه السلام قال تعالى: ﴿وَ إِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ وَمَتَٰعٌ

---

١. بحار الأنوار، كتاب تاريخ علي ابن الحسين و...، أبواب تاريخ سيدالساجدين، باب ١١، ح ٢١.

إِلَى حِينٍ﴾[١]، في جوابه للمسيّب بن نجبة ولآخرين، عندما سألوه عن سبب سكوته، لهو خير دليل وإشارة إلى هذا المستقبل. وأمّا الإمام السجّاد عليه السلام، وبحسب اعتقادي، فقد كان يهدف إلى تأسيس حكومة إسلامية في المستقبل المتوسّط، ولدينا شواهد في هذا المجال نذكرها فيما بعد. أمّا الإمام الباقر عليه السلام فيوجد احتمال كبير أنّه سعى لتأسيس حكومة في المستقبل القريب، وأمّا بعد شهادة الإمام الثامن عليه السلام فأغلب الظنّ أنّ الأمر صار متوجّهًا إلى المدى البعيد. إذًا، إنّ هدف تأسيس الحكومة كان نصب أعين الأئمّة عليهم السلام دائمًا، لكن الزمن المنشود لتأسيسها وقيامها كان يختلف من إمامٍ إلى آخر. وهذا هو معنى النضال السياسي.

إنّ كلّ الأعمال الّتي كان يقوم بها الأئمّة عليهم السلام، بغضّ النظر عن الأمور المعنوية والروحية الّتي تهدف إلى تكامل النفس الإنسانية ورقيّها وقربها من الله تعالى، كانت أعمالًا تهدف إلى تأسيس هذه الحكومة الإسلامية. فنشاطاتهم في نشر العلم والمناظرات الّتي كانوا يقومون بها ضدّ خصومهم في السياسة، ووقوفهم إلى جانب جماعة، ووقوفهم في وجوه أخرى، كلّها تصب في هذا المجال ألا وهو تأسيس الحكومة الإسلامية. هذا هو المدّعى. ١٩٧٧/٧/١٩

السؤال الأساس هو هل كان للأئمّة عليهم السلام حياة سياسية أم لا؟ هل كانت حياتهم عبارة عن جمع مجموعة من التلامذة والمريدين والمحبّين حولهم من أجل أن يبيّنوا لهم أحكام الصلاة والزكاة والحجّ والأخلاق الإسلامية والمعارف والأصول الدينية والعرفان وأمثالها فقط لا غير أم لا؟

كان هناك أشياء أخرى غير الّتي ذُكرت، وهناك إطار آخر في قلب وروح ما ذُكر في حياة الأئمّة، وهو عبارة عن تلك الحياة السياسية، فهذا أمرٌ مهمٌّ جدًا، ومطلبٌ ينبغي أن يتّضح. بالطبع، لا مجال للبحث الاستدلاليّ والمفصّل في الفرص المختصرة. فأنا أعرض رؤوس مطالب، لعلّ الّذين يرغبون، يتابعون هذه القضية. ونحتاج في هذا الإطار إلى أن ننظر إلى الروايات مرّة أخرى، ونتأمّل في كتب التاريخ وعندها سيُعلم ما هي حقيقة حياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام أو أئمّتنا الآخرين عليهم السلام، الّتي ما زالت إلى يومنا هذا غامضةً وغير مذكورة أو معروفة. بعد أن لوحظ في محيط الإمامة وإمامة

---

١. سورة الأنبياء، الآية: ١١١.

أهل البيت أنّ هدف النبيّ لم يتحقّق أي ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[١]، وبعد أن رأى الأئمّة عليهم السلام أنّ تشكيل نظامٍ إسلاميّ وتحقيق عالمٍ إسلاميٍّ كما أراده الأنبياء، وبعد عصر صدر الإسلام، قد تمّ نسيانه بالكامل، وأنّ الملَكيّة قد حلّت مكان النبوّة والإمامة، وأن الكسرويين والقياصرة والطواغيت الاسكندريين (نسبة للاسكندر) وغيرهم، من المعروفين بالظلم والطغيان عبر التاريخ، قد سيطروا ولبسوا لباس الخلافة باسم سلالة بني أمية وبني العبّاس، وأنّ القرآن أضحى يُفسّر كما يريد أصحاب الملك والقدرة، وأنّ أذهان الناس قد وقعت تحت تأثير العمل الخيانيّ لأولئك العلماء الّذين جلسوا على معلف المطامع والتعلّقات المادّية للحكّام والملوك، فبعد أن رأى الأئمّة عليهم السلام كلّ ذلك، ظهرت خطّة عامّة في حياتهم.

ونحن عندما نقول الأئمّة نقصد بذلك جميع الأئمّة، من أميرالمؤمنين وحتى الإمام العسكريّ عليهما السلام. وقد كنت ذكرت مرارًا أنّه علينا النظر إلى حياة الأئمّة عليهم السلام، والّتي استمرّت لمدّة ٢٥٠سنة، كحياة إنسانٍ واحد، إنسانٌ عاش لـ٢٥٠ سنة، فلا ينفصلون عن بعضهم بعضًا، «كلّهم نورٌ واحد»[٢]. فأيّ واحدٍ منهم يتفوّه بكلمة، تكون هذه الكلمة في الحقيقة قد جرت على لسان غيره من الأئمّة، وأيّ واحدٍ منهم يقوم بعملٍ ما، فإنّ هذا العمل يكون في الحقيقة صادرًا عن غيره من الأئمّة، وكأنّ هناك إنسانًا عاش ٢٥٠سنة. فجميع أعمال الأئمّة، وطيلة الـ٢٥٠سنة، هي عمل إنسانٍ له هدفٌ واحد ونيّة واحدة وتكتيكات مختلفة.

عندما شعر الأئمّة عليهم السلام أنّ الإسلام صار غريبًا وأنّ المجتمع الإسلاميّ لم يتشكّل، وضعوا عدّة أهدافٍ أساسية لهم، أحدها تبيين الإسلام بالصورة الصحيحة. فالإسلام بنظر أولئك، الّذين كانوا على رأس السلطة طيلة هذه السنوات المتمادية، هو أمرٌ يعارض (مطامعهم). فإسلام النبيّ، وإسلام القرآن، وإسلام معركة بدر وحُنين، والإسلام الّذي يعارض الأرستقراطية والتمييز الطبقيّ، والإسلام الّذي ينصر المستضعفين ويقمع المستكبرين، لا يمكن أن يكون في مصلحة أولئك الّذين

---

١. سورة آل عمران، الآية: ١٦٤.

٢. بحارالأنوار، كتاب الإمامة، أبواب خلقهم و طينتهم و ارواحهم، باب ١.

يريدون أن يرتدّوا اللباس الموسوي بالحقيقة الفرعونية، واللباس الإبراهيميّ بالحقيقة النمرودية، فكانوا مضطرّين لتحريف الإسلام. ولمّا لم يكن بالإمكان إبعاد الإسلام دفعةً واحدة عن قلوب الناس وأذهانهم، لأنّ الناس كانوا مؤمنين به، اضطرّوا إلى أن يبدّلوا الإسلام من حيث الرّوح والماهيّة وأن يُفرّغوه من محتواه.

ففي النظام البائد لم يكن هناك مخالفة للمظاهر الإسلامية، ولكنّ الأمر لم يكن كذلك فيما يتعلّق بمضمون الإسلام وروحه وجهاد الإسلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الإسلاميين، وبيان الحقائق الإسلامية، فلم يعارضوا المظاهر الإسلامية الّتي لا تضرّ مصالحهم. ومثل هذه الحالة كانت حاصلة في زمن الخلافة الأموية والعبّاسيّة، لهذا ومن أجل أن يُفرّغوا الإسلام من روحه وحقيقته، استأجروا مجموعة من المرتزقة، من أصحاب القلم وأرباب الكلام ليختلقوا الأحاديث وكانوا يغدقون عليهم الأموال من أجل أن يخترعوا لهم منقبة، أو يكتبوا لهم كتابًا. يُقال إنّه عندما هلك سليمان بن عبدالملك، قد شوهدت كُتب فلان العالم الكبير ـ والّذي لا أذكر اسمه الآن ـ قد وُضعت على ظهور الإبل والحيوانات وأُخرجت من خزانة سليمان بن عبدالملك. أي أنّ هذا الكاتب والمحدّث الكبير وهذا العالم المشهور، الّذي يُذكر اسمه في كلّ هذه الكتب الإسلامية، كان يؤلّف لسليمان بن عبدالملك. فهل تتوقّعون من كتابٍ يؤلَّف لسليمان بن عبدالملك أن يُذكر فيه ما لا يرضي سليمان بن عبدالملك؟ فسليمان بن عبدالملك الّذي يظلم ويشرب الخمر ويصالح الكفّار ويقمع المسلمين ويميّز بين الناس ويضيّق على الفقراء وينهب أموال الناس، أيّ إسلامٍ سيعجبه؟ لقد كان هذا هو المرض الكبير للمجتمع الإسلاميّ طيلة القرون الأولى. وقد شاهد الأئمّة عليهم السلام هذه الأمور وشعروا أنّ تراث النبيّ العظيم صلى الله عليه وآله وسلم، أي الأحكام الإسلامية الّتي ينبغي أن تبقى على مرّ التاريخ وتهدي البشرية في كلّ عصوره، أضحى عرضةً للتحريف. وكان من أهداف الأئمّة الأساسية التبيين الصحيح للإسلام والتفسير الحقيقيّ للقرآن، وكشف تلك التحريفات والمحرّفين.

انظروا في كلمات الأئمّة عليهم السلام، سترون أنّ ما ذُكر في العديد من الموارد ناظرٌ إلى تلك الأمور الّتي ذُكرت باسم الإسلام من قبل العلماء والفقهاء والمحدّثين التابعين للأجهزة الحاكمة والعاملة لدى

بلاط السلاطين من أجل ردّها وبيان حقائقها. لقد كان هذا من الأهداف الأساسية والكبرى للأئمّة، وهو عبارة عن تبيين الأحكام الإسلامية.

إنّ نفس هذا العمل له بعدٌ سياسيّ؛ أي أنّنا عندما نعلم أنّ التحريف يحصل من قبل أجهزة السلطة والخلافة، وأنّ أصحاب القلم المرتزقة، والّذين كانوا يظهرون في لباس العلماء، يحرّفون الأمور من أجل السلاطين والحكّام، فمن الطبيعيّ أنّ كلّ من ينهض بوجه هذه التحريفات يكون في الواقع قد قام بعملٍ يعارض سياسة أولئك الحكّام والسلاطين. و في يومنا هذا، وفي بعض الدول الإسلامية، نجد أصحاب القلم والكتّاب والعلماء العملاء من قبل تلك الأجهزة يؤلّفون كتبًا من أجل بثّ الفرقة بين المسلمين، أو من أجل تشويه صورة إخوانهم المسلمين، فلو ظهر في تلك البلاد كاتبٌ حرٌّ وألّف كتابًا حول الوحدة الإسلامية والأخوّة بين الجماعات الإسلامية، فإنّ مثل هذا العمل سيكون في الواقع عملًا سياسيًّا مخالفًا للأجهزة الحاكمة. لقد كان بيان تلك الأحكام الإسلامية من جملة الأعمال والأنشطة الأساسية للأئمّة، ولا يعني هذا أنّ الأحكام الإسلامية لم تكن تُعلن في تلك الأيّام وداخل المجتمع الإسلاميّ. كيف لا، وفي كلّ زاويةٍ من العالم الإسلامي كان هناك من يتلو القرآن، وينقل الأحاديث عن النبيّ ﷺ، وكان هناك بعض المحدّثين الّذين حفظوا آلاف الأحاديث، ولم يكن الأمر مختصًّا بمكّة والمدينة والكوفة وبغداد وأمثالها، بل كان شائعًا في جميع أقطار العالم الإسلاميّ ـ انظروا إلى التاريخ ـ هناك في خراسان ذاك العالم الشابّ الّذي يدوّن عدّة آلاف من الأحاديث، وفي طبرستان، ذاك العالم الكبير الّذي ينقل آلاف من الأحاديث عن النبيّ ﷺ وعن الصحابة. لقد كانت الاحاديث موجودةً وكانت تُبيّن الأحكام الإسلاميّة، ولكن ما لم يكن يُبيّن كان هو التفسير والتبيين الصحيح للإسلام في جميع المجالات، وفي كلّ ما يتعلّق بأمور المجتمع الإسلاميّ، وهذا ما أراد الأئمّة عليهم السلام أن ينهضوا به. لقد كان هذا العمل من الأعمال المهمّة للأئمّة عليهم السلام.

العمل الآخر الّذي كان له أهميّة هو تبيين موضوع الإمامة. الإمامة هي حاكمية المجتمع الإسلاميّ والقضية الأساسية الّتي لم تكن واضحةً لمسلمي ذلك الزمان، قضية قد تمّ تحريفها

من الناحية العملية والنظرية. فلِمن تكون إمامة المجتمع الإسلاميّ؟ لقد وصل الأمر بحيث إنّ الّذين لايلتزمون بالأحكام الإسلامية عادةً، ويرتكبون أكثر المحرّمات علانيةً، يدّعون خلافة النبيّ ويجلسون على مسنده، ولا يخجلون. فلم يكن الأمر بحيث يخفى على الناس، بل كانوا يرون أنّ شخصًا اسمه الخليفة يأتي ليصلّي الجمعة مخمورًا سكرانَ ويصبح إمامًا يأتمّ به الناس. كان الناس يعلمون أنّ يزيدبنمعاوية مصابٌ بالأمراض الأخلاقية ويرتكب الذنوب الكبيرة، وفي نفس الوقت، عندما يُقال لهم ثوروا على يزيد كانوا يقولون إنّنا بايعنا يزيد ولا يجوز القيام عليه. فقضيّة الإمامة لم تكن واضحةً للناس. كان الناس يتصوّرون أنّ إمام المسلمين وحاكم المجتمع الإسلاميّ يمكن أن يكون متلوّثًا بهذه المعاصي والمفاسد والمظالم وهذه الأعمال الّتي تخالف صريح القرآن والإسلام، فلم تكن القضية من هذه الناحية مهمّة بالنسبة للناس. لقد كانت هذه مشكلةً كبيرةً، حيث وبالالتفات إلى أهمية قضية الحكومة في أيّ مجتمع وتأثير الحاكم على توجّهاته، فإنّ ذلك كان يُعدّ أخطر شيءٍ على عالم الإسلام. لهذا رأى الأئمّة ﷺ ضرورة تبيين أمرين للناس:

أحدهما: أن يذكروا للناس الشروط والخصائص الّتي ينبغي أن يتمتّع بها الحاكم الإسلاميّ والإمام. فالعصمة والتقوى والعلم والمعنويات وحسن السلوك مع الناس، والعمل تجاه الرّب، هي خصائص الإمام أي الحاكم الإسلاميّ.

ثانيهما: هو تشخيص من يتحلّى بهذه الخصائص في يومهم. وهذا ما قاموا به بأنفسهم. وقد كان عملًا كبيرًا من قبل الأئمّة. وأنتم ترون أنّه كان ذلك من أهمّ الأعمال السياسية والإعلامية والمفاهيم السياسية.

لو لم يكن للأئمّة ﷺ سوى هذين العملين اللّذين ذكرتهما، لكانا كافيين لتكون حياة الأئمّة من بدايتها وحتى نهايتها حياةً سياسية. وحينما كانوا يفسّرون القرآن ويبيّنون المعارف الإسلامية أيضًا فإنّهم كانوا في الواقع يقومون بعملٍ سياسيّ. وحينما كانوا يتحدّثون عن خصائص الإمام فإنّهم كانوا أيضًا يزاولون عملًا سياسيًا. أي لو تمّ اختصار بيانات الأئمّة بذكر هاتين الخاصّيتين وهذين الموضوعين المذكورين، لكانت حياتهم حياةً سياسية، لكنّهم لم يكتفوا بذلك. فبالإضافة

إلى كلّ هذه الأمور، بدأ الأئمّة عليهم السلام من عصر الإمام الحسن المجتبى عليه السلام إلى ما بعد ذلك، بحركات سرية لها أبعاد سياسية وثورية في جميع الجهات من أجل الإمساك بزمام الحكم والحكومة. ولا يبقى هناك أيّ شكٍّ، لكلّ باحثٍ في حياة الأئمّة، أنّ الأئمّة عليهم السلام كانوا أصحاب هذه الحركة. وما ذكرته هنا مغفول عنه. والمشكلة هي أنّ الكتب الّتي أُلّفت حول حياة الأئمّة، حول حياة الإمام الصادق عليه السلام وحياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، وبشأن حياة أكثر الأئمّة الآخرين، للأسف لم تبيّن هذه القضية.

فإنّ وجود حركةٍ سياسية عند الأئمّة، وبالرغم من كلّ هذه الشواهد الموجودة وتلك التنظيمات الواسعة والمنتشرة الّتي بنوها، قد بقيت خفيّةً ولم تُذكر، وكان هذا الأمر يُعدّ المشكلة الأساسية في فهم حياة الأئمّة عليهم السلام. فحقيقة الأمر أنّ الأئمّة قد بدأوا هذا العمل. وبالتأكيد، توجد شواهد كثيرة على ذلك.

على جميع الإخوة والأخوات أن يعلموا هذا الأمر، وبصورة إجمالية، أنّ الأئمّة عليهم السلام كانوا جميعًا بمجرّد أن يُلقى عليهم حمل أمانة الإمامة فإنّ من الأعمال الّتي كانوا يبدأون بها هي تلك المواجهة السياسية والمساعي السياسية من أجل الإمساك بزمام الحكومة. إنّ هذا السعي السياسيّ كان يشبه جميع المساعي الّتي يقوم بها من يريد أن يشكّل نظامًا. وهو ما قام به الأئمّة عليهم السلام. ١٩٨٥/٤/١٢

إنّ كلّ هذا النزاع الّذي تشاهدونه عبر مسير حياة الأئمّة عليهم السلام فيما بينهم وبين أجهزة الظلم والجور، إنّما كان حول هذه القضيّة. فالّذين خالفوا أئمّتنا وقتلوهم بالسمّ وسجنوهم وحصروهم وضيّقوا عليهم، إنّما كان بسبب أنّ الأئمّة عليهم السلام كانوا دعاة الحكومة. فحتى لو كان الأئمّة عليهم السلام يدّعون علوم الأوّلين والآخرين، ولكنّهم لم يكونوا دعاة الحكومة، والقضية لم تكن لتمسّ القدرة السياسية وادّعاء القدرة، لما تعرّضوا لهم بأي شكلٍ من الأشكال، أو على الأقل، لما تعاملوا معهم بهذه الشدّة والعنف. فالقضية من الأساس هي موضوع إمامتهم. ومن هنا نرى أنّه من بين دعوات الأئمّة عليهم السلام وكلماتهم، توجد حساسية فائقة حول كلمة الإمامة وقضيّتها فمثلًا أنّ الإمام الصادق عليه السلام عندما يريد أن يدّعي الحاكمية الإسلامية والقدرة السياسية فإنّه يقول: «أيّها الناس إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان الإمام»، وذلك في اجتماع الحجّاج في عرفات، فإنّ إمام المجتمع وحاكمه وقائده هو رسول

الله ﷺ، «ثمّ كان عليّ بن أبي طالب، ثمّ الحسن، ثمّ الحسين»[١]، إلى أن يصل إلى نفسه. أي أنّ كلّ بحث الأئمّة مع مخالفيهم، وبحث أصحاب الأئمّة في جهادهم إنّما كان حول قضية الحكومة والحاكمية، والولاية المطلقة والعامّة على المسلمين وكذلك حول القدرة السياسية، ولم يكن النزاع حول المقامات المعنويّة للأئمّة.

فكثيرًا ما نجد أشخاصًا في زمن الخلفاء، من أهل الزهد والعلم المعروفين بالتفسير والعلم ومثل هذه الأمور، لا يعارضهم الخلفاء، بل إنّهم كانوا يوادّونهم ويظهرون المحبّة لهم ويختلفون إليهم ويطلبون نصائحهم!! لماذا؟ لأنّ مثل هؤلاء لم يكونوا دعاةً سياسيّين أمام الخلفاء، من أمثال الحسن البصري وابن شبرُمة وعمرو بن عبيد، هؤلاء من كبار العلماء الّذين كانوا مورد عناية الخلفاء وقبولهم. وكانوا يدّعون العلم والزهد والمعنويات والتفسير وعلوم النبيّ ومثل هذه الادّعاءات، لكنّ الخلفاء لم يظهروا أيّة معارضة أو تعرّضٍ لهم بأي شكلٍ من الأشكال. لأنّه لم يكن هناك أيّ ادّعاء للقدرة السياسية. أمّا موقف الأئمّة مع خلفاء بني أميّة وبني العبّاس فقد كان حول قضية الإمامة والولاية هذه، وهو هذا المعنى الّذي نستخدمه اليوم بشأن الإمامة. ١٩٨٨/١/٢٢

قائد الثورة الإسلامية سماحة آية الله السيد علي الخامنئي(دام ظله)

---

١. الكافي، كتاب الحج، باب الوقوف بعرفة و حد الموقف، ح ١٠.

الفصل الأول

النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم

إنّ العمل المهمّ لرسول الله ﷺ هو الدعوة إلى الحقّ والحقيقة والجهاد في سبيل هذه الدعوة. ولم يُبتلَ النبيّ الأكرم ﷺ بأيّ تشويشٍ أو تردّد مقابل الدنيا الظلماء في زمانه. سواءٌ في تلك الأيّام الّتي كان فيها في مكّة وحيدًا، أم في ذلك الجمع الصغير من المسلمين الّذين أحاطوا به وفي مواجهة زعماء العرب المتكبّرين من صناديد قُريش وطواغيتهم، بجلافتهم وبكلّ اقتدارهم، أم أمام عامّة الناس الّذين تاهوا في سبات الجهل والجاهلية. فلم يستوحش. وقال كلمة الحقّ وأعادها وبيّنها وأوضحها وتحمّل الإهانات واشترى كلّ تلك الصعاب والآلام بالنفس حتّى تمكّن من أسلمة عدد كبير منهم.

أم في ذلك الوقت الّذي تشكّلت فيه الحكومة الإسلامية، وكان هو نفسه في موقع رئاسة الحكومة، وكانت السلطة بيده. في تلك الأيّام أيضًا، كان هناك أعداءٌ ومخالفون متنوّعون يواجهون النبيّ ﷺ، سواء تلك المجموعات العربية المسلّحة ـ البدو المتفرّقون في صحاري الحجاز واليمامة[1]، والّتي كانت دعوة الإسلام تريد إصلاحهم وهم يقاومون ـ أم ملوك العالم وسلاطينه ـ القوّتان العظميتان في ذلك الزمان ـ أي إيران والإمبراطورية الرومانية، الّذين كتب إليهم رسول الله ﷺ وجادلهم وتوجّه إليهم وجيّش الجيوش نحوهم، وعانى الصعاب ووقع في الحصار الاقتصاديّ، حتّى وصل الأمر إلى حد أنّه كانت تمرّ على أهل المدينة عدّة أيّام

---

١. في الجزيرة العربية ـ بين نجد والبحرين ـ التي تحتوي على الكثير من القرى والقلاع والعيون وبساتين النخيل.

أحيانًا، لا يجدون فيها خبز يومهم. لقد كانت التهديدات الكثيرة من كلّ حدبٍ وصوب تحيط بالنبيّ ﷺ. كان بعض الناس يقلقون، وبعضهم يتزلزلون، وآخرون يتذمّرون، والبعض يلوم النبيّ ﷺ ويحثّه على التنازل، لكنّ النبيّ ﷺ لم يتردّد أو يضعف في ميدان الجهاد هذا، وتقدّم بالمجتمع الإسلاميّ بكلّ اقتدار حتّى أوصله إلى أوج العزّة والقدرة. هذا هو النظام والمجتمع، الّذي استطاع ببركة صمود النبيّ في ميادين الجهاد والدعوة، أن يصبح القوّة الأولى في العالم في السنوات الّتي تلت. ١٩٩١/٩/٢٧

بعثة النبيّ الخاتم ﷺ وإرساء قواعد النظام

وكما روي عنه ﷺ، في حديث مشهور ومتواتر، أنّه قال: «بُعثت لأتمّم مكارم الأخلاق»[١]، فإنّ البعثة وُجدت في هذا العالم لأجل هذا الهدف، من أجل تعميم المكارم الأخلاقيّة، والفضائل الروحيّة وتكميلها عند الناس.

وطالما أنّ المرء لم يتحلَّ بأفضل المكارم الأخلاقية، فإنّ الله تعالى لن يوكل إليه هذا المهمّة العظيمة والخطيرة، ولهذا فإنّ الله سبحانه يخاطب النبيّ ﷺ في أوائل البعثة قائلًا: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٢]. أي أنّ الرسول ﷺ كان على درجة من الاستعداد تجعله قادرًا على تلقّي الوحي الإلهيّ، وهذا الأمر يعود إلى ما قبل البعثة. ولهذا فقد ورد أنّ النبيّ الأكرم ﷺ كان يشتغل بالتجارة في شبابه، وقد كسب من ذلك أرباحًا طائلة، فما لبث أن أنفقها جميعًا على المساكين قربةً إلى الله تعالى.

وفي هذه المرحلة الّتي كانت نهاية كمال النبيّ ﷺ وقبل نزول الوحي ـ ولم يكن قد نبّئ بعد ـ كان النبيّ يعتزل في غار حراء ويجول بفكره في الآيات الإلهية من سماء ونجوم وأرض، ويتأمّل في هذه الخلائق والموجودات الّتي تعيش على وجه البسيطة بما لها من مشاعر مختلفة وطبائع شتّى. لقد كان يشاهد كافّة هذه الآيات الإلهية فيزداد خضوعًا يومًا بعد آخر أمام عظمة الحقّ،

---

١. بحارالأنوار، كتاب الإيمان والكفر، أبواب مكارم الاخلاق، باب ٩٢، ح ١.

٢. سورة القلم، الآية: ٤.

ويتضاعف خشوع قلبه أمام الأمر والنهي الإلهيين والإرادة الرّبانية، وتتفتّح في وجدانه، مع مرور الأيّام، براعم الأخلاق النبيلة. ولهذا فقد ورد أنّه ﷺ «كان أعقل الناس وأكرمهم»[١]، حيث كان يزداد تكاملًا قبل البعثة بمشاهدة الآيات الإلهية حتّى بلغ الأربعين، «فلمّا استكمل أربعين سنة ونظر الله عزّوجل إلى قلبه فوجده أفضل القلوب وأجلّها وأطوعها وأخشعها وأخضعها أذن لأبواب السماء ففُتحت، ومحمّد ينظر إليها، وأذن للملائكة فنزلوا ومحمّد ينظر إليهم»[٢]، حتّى نزل عليه جبرائيل الأمين وقال: ﴿اقْرَأْ﴾[٣] فكانت بداية البعثة.

إنّ هذا المخلوق الإلهيّ الّذي لا نظير له، وهذا الإنسان الكامل الّذي كان قد بلغ تلك الدرجة من الكمال في هذه المرحلة قبل نزول الوحي، قد شرع منذ اللحظة الأولى من البعثة في دخول مرحلة من الجهاد الشامل والبالغ والمشقّة والمكابدة، استغرقت ثلاثًا وعشرين سنة، وكل هذا كان نموذجًا للكفاح والمجاهدة والعمل الدؤوب. لقد كان جهاده ﷺ جهادًا مع نفسه، ومع أناس لا يدركون من الحقيقة شيئًا، ومع ذلك المجتمع الّذي كان يعمّه ظلّامٌ حالك ومطبق. ويقول أميرالمؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة في وصف ذلك: «فِي فِتَنٍ دَاسَتْهُمْ بِأَخْفَافِهَا، وَوَطِئَتْهُمْ بِأَظْلاَفِهَا، وَقَامَتْ عَلَى سَنَابِكِهَا»[٤]. لقد كانت الفتن تهاجم الناس من كلّ جانب: حبّ الدنيا، واتّباع الشهوات، والظلم والجور، والرذائل الأخلاقية القابعة في عمق وجود البشر، وأيادي الطغاة الجائرة الّتي كانت تمتدّ على الضعفاء بلا أدنى مانعٍ أو رادع. ولم يكن هذا التعسّف مقتصرًا على مكّة أو الجزيرة العربية، بل كان يسود أعظم الحضارات في العالم آنذاك، أي الإمبراطورية الرومانية العظيمة، والإمبراطورية الشاهنشاهية في إيران. فإذا ما تأمّلتم في التاريخ لوجدتّم صفحات تاريخية مظلمة كانت تضرب بأطنابها على كافّة نواحي الحياة الإنسانية.

---

١. بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث، ص٢٦٠، وأصل الحديث عن رسول الله ﷺ: «أفضل الناس أعقل الناس» وفسره ابن عبّاس برسول الله ﷺ.

٢. بحارالأنوار، كتاب تاريخ نبينا، أبواب معجزاته، باب ٢، ح ١٥.

٣. سورة العلق، الآية: ١.

٤. نهج البلاغة، الخطبة ٢.

لقد بدأ النبيّ ﷺ جهاده منذ الوهلة الأولى للبعثة متسلّحًا بقوّة خارقة، وسعيٍ متواصل يستعصي على التصوّر، فتحمّل الوحي، ذلك الوحي الإلهيّ الّذي كان ينزل على قلب الرسول ﷺ كما ينزل الغيث العذب ويهطل على الأرض الخصبة، فيمنحه الطاقة ويمدّه بالقوّة، فانبرى موظّفًا كلّ طاقته ليأخذ بِيَد العالَم إلى زمن من التّحول العظيم، ولقد حالفه التوفيق.

إنّ الرسول ﷺ بنى الخلايا الأولى لجسد الأمّة الإسلامية بِيَده المقتدرة في تلك الأيّام العصيبة من تاريخ مكّة، فبنى قواعد الأمّة الإسلامية ورفع عمادها، فكان المؤمنون الأوائل، هم أوّل من اعتنق الإسلام، وأوّل من كانت لديهم تلك المعرفة والشجاعة والنورانية الّتي مكّنتهم من الوقوف على حقيقة الرسالة النبويّة والإيمان بها، ﴿فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ﴾[1]. لقد كان الرسول ﷺ هو الّذي لامس بأنامله الرقيقة شعاع تلك القلوب الوالهة، وفتح بيده القويّة أبواب الأفئدة على عالَمٍ رحبٍ من المعارف والأحكام الإلهية، فتفتّحت الأذهان والقرائح، وازدادت الإرادات صلابة، ودخلت تلك الثلة المؤمنة ـ الّتي كان يزداد عددها يومًا بعد يوم ـ في صراعٍ مريرٍ لا يمكن تصوّره بالنسبة لنا في المرحلة المكية. لقد تفتّحت هذه البراعم في بيئة لم تكن تعرف سوى القيم الجاهلية، فكان يسودها العصبية الخاطئة، ويعمّها الحقد العميق، وتتصارع بين جنوبها قوى القسوة والشرّ والظلم والشهوة الّتي تضغط بشدّة على حياة البشر وتحيط بها من كلّ جانب، فنبتت تلك الغرسات وأينعت من بين كلّ هذه الأحجار والأشواك الجامدة والملتفّة، وهذا هو معنى قول أميرالمؤمنين عليه السلام: «وَإِنَّ الشَّجَرَةَ الْبَرِّيَّةَ أصلبُ عودًا، وأَقْوَى وَقُودًا»[2]. ولذلك فإنّ كافّة العواصف والأنواء لم تستطع النيل من هذه النباتات والبراعم والأشجار الّتي نمت وترعرعت وانبثقت أعوادها من بين الصخور الصمّاء، وانقضى ثلاثة عشر عامًا، ثم ما لبث صرح المجتمع الإسلاميّ ـ المجتمع المدنيّ والنبويّ ـ أن قام على أساس هذه القواعد القويّة.

---

١. سورة الأنعام، الآية: ١٢٥.

٢. نهج البلاغة، كتاب ٤٥.

العمل السياسي

لم تكن السياسة هي العنصر الوحيد في بناء هذه الأمّة، بل كانت تمثّل جانبًا من هذه العمليّة. والقسم الأساس الآخر فيها كان يتركّز على بناء الأفراد ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[١]، ومعنى ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أنّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان يعمل على تربية القلوب وتزكيتها، قلبًا قلبًا، كما كان يغذّي العقول عقلًا عقلًا، وذهنًا ذهنًا، بالحكمة والعلم والمعرفة، ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾، والحكمة أعلى درجة ومكانة. فلم يكن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يعلّمهم القوانين والأحكام فحسب، بل كان يعلّمهم الحكمة أيضًا، وكان يفتح عيونهم على حقائق الوجود. وهكذا سار النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فيهم لمدّة عشر سنوات. فمن ناحية كان اهتمامه منصبًّا على السياسة وإدارة الحكومة والدفاع عن كيان المجتمع الإسلاميّ ونشر الإسلام وفتح المجال أمام تلك الجماعات الّتي كانت تعيش خارج المدينة، ليدخلوا الساحة النورانيّة للإسلام ويتعرّفوا على المعارف الإسلامية، ومن ناحية أخرى كان يعمل على تربية أفراد المجتمع. وهذان الأمران لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر.

لقد اعتبر بعض الناس أنّ الإسلام مسألة فرديّة، وفصلوه عن السياسة.

في حين أنّ نبيّ الإسلام المكرّم صلى الله عليه وآله وسلم في بداية الهجرة، ومن اللحظة الأولى الّتي تمكّن فيها من النجاة بنفسه من مصاعب مكّة، فإنّ أوّل ما قام به هو السياسة. إنّ إقامة المجتمع الإسلاميّ وتشكيل الحكومة والنظام والجيش الإسلاميّ، وإرسال الرسائل إلى حكّام العالم الكبار، والدخول في معترك السياسة العظيم آنذاك، تُعدّ كلها من شؤون السياسة. فكيف يمكن فصل الدين عن السياسة؟! وكيف يمكن إعطاء السياسة معنىً ومضمونًا وشكلًا بيَد غير يد الهداية الإسلامية؟! ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾[٢]، ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾[٣]. إنهم يؤمنون بالقرآن، لكنهم لا يؤمنون بسياسته! ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ

---

١. سورة الجمعة، الآية: ٢.

٢. سورة الحجر، الآية: ٩١.

٣. سورة البقرة، الآية: ٨٥.

لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[١]. فما معنى القسط؟ إنّ القسط يعني إقرار العدالة الاجتماعية في المجتمع. فمن الّذي يستطيع تحمّل هذا العبء؟ إنّ إقامة مجتمع يعمّه العدل والقسط هو عملٌ سياسيّ يقوم به مدراء البلاد، وهذا هو هدف الأنبياء جميعًا. فليس الأمر مقتصرًا على نبيّنا فقط، بل إنّ عيسى وموسى وإبراهيم وجميع الأنبياء الإلهيين عليهم السلام قد بُعثوا من أجل العمل السياسيّ وإقامة النظام الإسلاميّ. ٢٠٠٦/٨/٢٢

إنّ سيرة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم في السنوات العشر لحاكميّة الإسلام في المدينة، تُعدّ من ألمع عهود الحكم طيلة التاريخ البشريّ، ولا نقول ذلك جزافًا، وإنّما يجب التعرّف إلى هذا العهد القصير والمليء بالنشاط والّذي له تأثيرٌ خارقٌ على تاريخ البشرية. إنّ المرحلة المدنيّة هي الفصل الثاني من عصر رسالة النبيّ، الّذي امتدّ لـ٢٣ سنة. الفصل الأوّل، الّذي كان مقدّمةً للفصل الثاني، كان عبارة عن ١٣ سنة في مكّة. أمّا السنوات العشر الّتي قضاها النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة فهي تمثّل سنيّ إرساء قواعد النظام الإسلاميّ وبناء نموذج الحكم الإسلاميّ لجميع أبناء البشرية على مرّ التاريخ الإنسانيّ في مختلف الأعصار والأمصار. وهذا الأنموذج الكامل، لا نجد له نظيرًا في أيّ حقبة أخرى. وبمقدورنا من خلال إلقاء نظرة على هذا الأنموذج الكامل تحديد المعالم الّتي ينبغي للبشر وللمسلمين الحكم بها على الأنظمة وعلى الناس.

لقد كانت غاية النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم من هجرته إلى المدينة هي مقارعة الواقع السياسيّ والاقتصاديّ والاجتماعيّ بظلمه وطاغوتيّته وفساده الّذي كان مهيمنًا على الدنيا آنذاك، ولم يكن الهدف مكافحة كفّار مكّة فحسب، بل كانت القضية ذات بعد عالميّ أيضًا. كان النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم يتعقّب هذا الهدف، فكان يغرس بذور الفكر والعقيدة أينما وَجد الأرضية المساعدة لذلك، على أمل أن تنبت تلك البذور في الوقت المناسب. وكانت غايته من ذلك إيصال رسالة الحريّة والنهوض إلى كافّة القلوب وسعادة الإنسان. وكان ذلك يتعذّر إلّا عن طريق إقامة النظام النموذجيّ القدوة. لذلك فقد جاء النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة لإقامة مثل هذا النظام النموذجيّ. لكن

١. سورة الحديد، الآية: ٢٥.

إلى أي مدى تسعى الأجيال اللاحقة لمواصلة ذلك والاقتراب من هذا النموذج، فذلك منوط بهممها ومساعيها.

فالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يبني النموذج ويقدّمه للبشرية والتاريخ. والنظام الّذي شيّده النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم كان له الكثير من المعالم، أبرزها وأهمّها سبعة:

المعْلَم الأوّل: الإيمان: فالدافع الحقيقي بالنظام النبويّ إلى الأمام هو الإيمان المنبثق من قلوب الناس وعقولهم، يأخذ بأيديهم وكلّ كيانهم نحو الصواب. إذًا المعلم الأوّل يتمثّل في نفخ روح الإيمان وتقويته وترسيخه وتغذية أبناء الأمّة بالمعتقد والفكر السليمين، وهذا ما باشره النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في مكّة ورفع رايته في المدينة بكلّ اقتدار.

المعْلَم الثاني: العدل والقسط: فمنطلق العمل كان يقوم على أساس العدل والقسط وإعطاء كلّ ذي حقّ حقّه دون أدنى مداهنة.

المعْلَم الثالث: العلم والمعرفة: فأساس كلّ شيء في النظام النبويّ هو العلم والمعرفة والوعي واليقظة، فهو لا يحرّك أحدًا في اتّجاهٍ معيّن حركةً عمياء، بل يحوّل الأمّة عن طريق الوعي والمعرفة والقدرة على التشخيص، إلى قوّة فعّالة لا منفعلة.

المعْلَم الرابع: الصفاء والأخوّة. فالنظام النبويّ ينبذ الصراعات الّتي تغذّيها الدوافع الخُرافية والشخصية والمصلحية والنفعية ويحاربها. فالأجواء هي أجواء تتّسم بالصدق والأخوّة والتآلف والحميميّة.

المعْلَم الخامس: الصلاح الأخلاقيّ والسلوكيّ: فهو يزكّي الناس ويطهّرهم من رذائل الأخلاق وأدرانها، ويصنع إنسانًا خلوقًا ومزكّىً ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[١]، فالتزكية هي أحد المرتكزات الأساس الّتي كان يستند إليها النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في عمله التربويّ مع أبناء الأمّة فردًا فردًا لبناء الإنسان.

المعْلَم السادس: الاقتدار والعزّة: فالمجتمع والنظام النبويّ لا يتميّز بالتبعيّة والتسوّل من

---

١. سورة آل عمران، الآية: ١٦٤.

الآخرين، بل يتميّز بعزّته واقتداره وإصراره على اتّخاذ القرار؛ فهو متى ما شخَّص موطن صلاحه سعى إليه وشقّ طريقه إلى الأمام.

المَعْلَم السابع: العمل والنشاط والتقدّم المطّرد: فلا مجال للتوقّف في النظام النبويّ، بل الحركة الدؤوبة والتقدّم الدائم. ولا معنى لدى أبنائه للقول إنّ كلّ شيء قد انتهى فلنركن إلى الدّعة! وهذا العمل ـ بطبيعة الحال ـ مبعث لذّة وسرور وليس مدعاة للكسل والملل والإرهاق، بل هو عمل يمنح الإنسان النشاط والطاقة والاندفاع.

قدِم النبيّ ﷺ إلى المدينة ليقيم هذا النظام ويعمل على تكامله ويجعله أنموذجًا إلى أبد الدهر، ليقتدي به اللاحقون على امتداد التاريخ، ممّن تتوفّر لديهم القدرة على إقامة نظام مماثل له، من أجل أن يزرعوا الاندفاع في القلوب كي يحثّ بنو البشر الخطى نحو إيجاد مثل هذا المجتمع. وبديهيّ أن تحتاج إقامة مثل هذا النظام إلى دعائم عقائدية وإنسانية، فلا بدّ:

أوّلًا: من وجود معتقدات وأفكار سليمة كي يقام هذا النظام على أساسها. وقد بيّن النبيّ ﷺ هذه الأفكار والرؤى في إطار كلمة التوحيد والعزّة الإنسانية وسائر المعارف الإسلامية خلال فترة السنوات الثلاث عشرة الّتي أمضاها في مكّة، ثم علّمها وفهّمها الآخرين بشكل متواصل وعلى مدى لحظات حياته حتّى وافاه الأجل في المدينة، وكان على الدوام بصدد تعليم الجميع وتفهيمهم مثل هذه الأفكار والمعارف الساميّة الّتي شكّلت أسس هذا النظام.

وثانيًا: من الضروريّ وجود القواعد والدعائم الإنسانية كي يستقيم هذا البناء عليها، وذلك يعود إلى عدم ارتكاز النظام الإسلاميّ على فرد واحد. وقد باشر النبيّ ﷺ إعداد هذه الركائز في مكّة وحقّقها، فكان منهم مجموعة من كبار الصحابة ـ على اختلاف مراتبهم ـ هم ثمرة الجهود المضنية والجهاد المرير خلال فترة السنوات الثلاث عشرة في مكّة، فيما كانت هنالك مجموعة من الّذين تمّ بناؤهم في يثرب بواسطة رسالة النبيّ ﷺ وذلك قبل هجرته ﷺ من قبيل سعد بن معاذ وأبي أيوب وغيرهما.

وعندما حلّ النبيّ ﷺ في المدينة باشر من لحظة دخوله إليها عملية بناء الإنسان. ومع

مرور الأيّام أخذت ترد إلى المدينة شخصيّات تتّسم بجدارتها الإدارية وجلالة القدر والشجاعة والتضحية والإيمان والاقتدار والمعرفة حتّى أصبحت أعمدةً صلبة لهذا الصرح الشامخ الرفيع.

لقد كانت هجرة النبيّ ﷺ إلى المدينة ـ الّتي كانت تسمّى قبل حلوله فيها بـ«يثرب» ثمّ سُمّيت «مدينة النبيّ» بعد دخوله إليها ـ بمثابة نسائم ربيع عمّت أجواء المدينة فشعر أهلها كأنّ انفراجًا حلّ فيهم جذب القلوب وأيقظها. وحينما سمع أهل المدينة بوصول النبيّ ﷺ إلى قبا ـ وهي على مقربة من المدينة ومكث فيها خمسة عشر يومًا ـ كان الشوق لرؤيته يزداد في قلوبهم يومًا بعد يوم، وكان بعضهم يتوجّه إلى قبا لرؤية النبيّ ﷺ، فيما بقي الآخرون ينتظرونه في المدينة. وعندما دخل النبيّ ﷺ المدينة تبدّل ذلك الشوق وذلك النسيم إلى عاصفة ألهبت قلوب الناس فغيّرتها. وسرعان ما نما لديهم الشعور بأنّ جميع ما لديهم من مبتنيات وعواطف وارتباطات وعصبيات قبليّة قد ذابت بطلوع محيّا هذا الرجل وسلوكه ومنطقه، وأشرفوا على نافذة جديدة تطلّ بهم على حقائق عالم الخلق والمعارف الأخلاقية. في بادئ الأمر أحدثت هذه العاصفة ثورةً في القلوب، ثمّ امتدّت إلى تخوم المدينة، لتخرج فيما بعد إلى قلاع مكّة وتسيطر عليها، وتنطلق في خاتمة المطاف لتشقّ طريقها إلى ما هو أبعد، فتتقدّم إلى أعماق امبراطوريتي ذلك الزمان العظيمتين، وحيثما توجّهت كانت تهزّ القلوب وتحدث ثورةً في باطن البشر. ففي صدر الإسلام فتح المسلمون بقوّة إيمانهم بلاد إيران والروم، وأيّما قوم طالهم هجوم المسلمين كان الإيمان يداعب قلوبهم بمجرّد رؤيتهم للمسلمين. كانت الغاية من السيف إزالة العراقيل عن الطريق، والقضاء على المتسلّطين والمترفين. أمّا السواد الأعظم من الناس فقد استقبل هذه العاصفة في جميع الأمكنة، فكان أن نفذ النظام والدولة الإسلامية إلى أعماق امبراطوريتي ذلك الزمان ـ أي إيران والروم ـ فأصبحتا جزءًا من النظام والدولة الإسلامية. وكلّ ذلك حصل في خلال أربعين سنة، عشر منها في عهد الرسول ﷺ، وثلاثون منها بعد رحيله.

لقد باشر النبيّ ﷺ عمله بمجرّد أن حلّ في المدينة. ومن العجائب الّتي حفلت بها حياته ﷺ هي أنّه، وطوال تلك السنوات العشر، لم يهدر لحظةً واحدة، فلم يُرَ ﷺ غافلًا عن إنارة مشعل

الهداية والإيمان والتعليم والتربية ولو للّحظةٍ واحدة؛ فلقد كانت يقظته ونومه، ومسجده وداره، ودخوله ساحة الحرب، ومسيره في الطرقات والأسواق، ومعاشرته لأسرته، وكلّ وجوده أينما حلّ دروسًا.

يا لها من بركة زخر بها هذا العمر! فالشخص الّذي شغل التاريخ برمّته وترك بصماته عليه. ولقد قلت مرارًا إنّ الكثير من المفاهيم الّتي اكتست وشاح القدسية على مدى القرون التالية، من قبيل المساواة والأخوّة والعدالة والسيادة الشعبيّة، كلّها كانت تحت تأثير تعاليمه ﷺ. وفي تعاليم سائر الأديان، لم يكن من وجود لمثل هذه الأمور، أو لنقل إنّها لم تبلغ منصّة الظهور مع أنّ نشاطه الحكوميّ والسياسيّ والاجتماعيّ قد دام عشرًا من السنين لا غير! فيالها من حياة ميمونة! لقد حدّد ﷺ موقفه منذ الوهلة الأولى لدخوله المدينة.

لمّا دخلت ناقته يثرب أحاط بها الناس. وكانت يثرب يومها مقسّمة إلى أحياء تضمّ بيوتًا وأزقّة ومتاجر، يعود كلّ منها إلى واحدة من القبائل التابعة إمّا للأوس أو للخزرج... كانت الناقة تمرّ من أمام قلاع هذه القبائل فيخرج كبارها ويأخذون بزمام الناقة منادين: إلينا يا رسول‌الله، فقال ﷺ: «دعوا الناقة فإنّها مأمورة»[1]. لكنّ كبار القوم وأشرافهم، شيوخهم وشبابهم اعترضوا ناقة النبيّ ﷺ قائلين: انزل هنا يا رسول الله، فالدّار دارك، وكلّ ما لدينا في خدمتك، لكنّه ﷺ، كان يقول لهم: «دعوا الناقة فإنّها مأمورة». وهكذا طوت الناقة الطريق حيًّا بعد حيّ، حتّى وصلت إلى حيّ بني النجّار الّذين تنتمي إليهم أمّ الرسول ﷺ، وباعتبارهم أخوال النبيّ ﷺ جاؤوه وقالوا: يا رسول الله! إنّ لنا بك لقرابة فانزل عندنا، فقال ﷺ: «دعوا الناقة فإنّها مأمورة»، فانطلقت الناقة حتّى حطّت رحالها في أكثر أحياء المدينة فقرًا، فمدّ الناس أعناقهم ليعرفوا مَنْ صاحب الدار الّتي حطّت عندها الناقة، فإذا به أبو أيّوب الأنصاريّ أفقر أهل المدينة أو أحد فقراءها. عمد أبو أيّوب الأنصاريّ وعياله الفقراء المعوزون إلى أثاث النبيّ ﷺ فنقلوه إلى دارهم وحلّ النبيّ ﷺ ضيفًا عليهم، فيما رُدّ الأعيان والأشراف والملأ وذوو الأنساب وأمثالهم، أي أنّه حدّد موقعه الاجتماعيّ، فاتّضح من خلال ذلك عدم تعلّق هذا الرجل بالثروة والنسب القبليّ والزعامات القبلية والانتماء

---

۱. بحارالأنوار، كتاب تاريخ نبينا، أبواب أحواله من البعثة إلى نزول المدينة، باب ۷، ح ۱.

الأسريّ والعائليّ وعدم ارتباطه بالمتحايلين الوقحين ولن يكون كذلك. فهو ﷺ حدّد منذ الوهلة الأولى طبيعة سلوكه الاجتماعيّ، وأيًّا من الفئات يساند، ولأيّ من الطبقات ينحاز، ومَنْ هم الّذين سينالون القسط الأوفر من فائدة وجوده... فالجميع كانوا ينتفعون من وجود النبيّ ﷺ وتعاليمه، بيد أن الأكثر حرمانًا كان أكثر انتفاعًا منه، دافعهم في ذلك هو التعويض عن حرمانهم.

كانت قبال دار أبي أيوب الأنصاريّ قطعة أرض متروكة فسأل ﷺ عن صاحبها، فقيل إنّها ليتيمين، فدفع لهما ثمنها واشتراها ثمّ أمر ببناء مسجد عليها، كان بمثابة مركز سياسيّ عباديّ اجتماعيّ وحكوميّ ومركز يتجمّع فيه الناس؛ حيث اقتضت الضرورة بناء مركز يمثّل المحورية، ومن هنا تمّت المباشرة ببناء المسجد. ولم يطلب ﷺ قطعة أرض من أحد أو يستوهبها، بل اشتراها بأمواله، وبالرغم من عدم وجود محام عن هذين اليتيمين فإنّ النبيّ ﷺ راعى الدقّة في أداء حقوقهما كاملة تامّةً كالأب والمدافع عنهما. وعندما باشروا بناء المسجد، كان النبيّ ﷺ من أوائل المسلمين، أو أوّلهم، الّذين أمسكوا بالمعوّل وباشروا حفر أرض المسجد. ولم يكن عمله هذا رمزيًا، بل كان عملًا حقيقيًا بحيث كان العرق يتصبّب منه ﷺ، فكان عمله بالمستوى الّذي أثار بعض الّذين تنحّوا جانبًا، فقالوا: أنجلس والرسول يعمل؟! فلنذهب ونعمل، فجاؤوا وانهمكوا في العمل حتّى شيّدوا المسجد خلال برهة وجيزة. وبذلك أثبت النبيّ ﷺ ـ ذلك القائد العظيم والمقتدر ـ أنّه لا يرى أيّ حقّ لشخصه، فإذا ما كان هنالك عمل فلا بدّ أن تكون له مساهمة فيه.

ثمّ إنّه ﷺ، وضع الأطر الإدارية والسياسية لذلك النظام. ولو أنّ المرء ألقى نظرة على التطوّر الّذي خطاه بذكاء وفطنة، لأدرك أيّ عقل وفكر ودقّة وحنكة تقف وراء تلك العزيمة القاطعة والإرادة الصلبة الّتي لا يمكن تحقّقها ظاهرًا إلاّ برفد من الوحي الإلهيّ. وحتّى يومنا هذا، إنّ الّذين يحاولون تتبّع وقائع تلك السنوات العشر خطوةً خطوة يعجزون عن استيعاب أيّ شيء. وإذا ما حاول المرء دراسة كلّ واقعة على حدة فإنّه لا يدرك منها شيئًا، بل عليه أن يدقّق النظر ويلحظ تسلسل الأعمال وكيفية إنجاز كلّ تلك المهامّ بتدبير ووعي وحسابات دقيقة.

تمثّلت الخطوة الأولى في إرساء الوحدة، فلم يدخل أهل المدينة بأجمعهم الإسلام. إلا أنّ

أكثرهم اعتنق الإسلام، فيما بقيت قلّة منهم خارج إطار الإسلام. كما أنّ ثلاثة من قبائل اليهود المهمّة كانت تقطن المدينة، أي في القلاع الخاصّة بهم المحاذية للمدينة، وهي قبائل بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة. هذه القبائل كانت قد جاءت إلى المدينة قبل قرن أو قرنين من ذلك التاريخ، وقصّة مجيئهم إلى المدينة هي قصّة طويلة لها تفاصيلها، وعند دخول النبيّ ﷺ إلى المدينة كانت لهؤلاء اليهود ثلاث مزايا:

أوّلها: سيطرتهم على الثروات الأساس في المدينة، وعلى أهمّ مزارعها وتجارتها ومنافعها، وعلى أهمّ صناعاتها الّتي تدرّ الأرباح وهي صناعة الذهب وغيرها. وكان الغالبية من أهل المدينة يرجعون إليهم لسدّ حوائجهم والاستقراض منهم وتسديد الربا إليهم، أي أنّهم كانوا يقبضون على كلّ شيء من الناحية المالية.

ثانيها: تفوّقهم على أهل المدينة من الناحية الثقافية، فهم كانوا أصحاب كتاب وعلى اطّلاع على مختلف المعارف والعلوم الدينية والمسائل الّتي تجهلها عقول أهل المدينة ذات الطبيعة شبه البدائية. من هنا كانت لهم الهيمنة الفكرية. وإذا ما أردنا وصفهم وفقًا للمصطلحات المعاصرة فبإمكاننا القول إنّهم كانوا يشكّلون طبقة مثقفة، لذلك كانوا يستهينون بأهل المدينة ويسخرون منهم، وربّما كانوا يتصاغرون حينما يتعرّضون للأخطار أو عند الضرورة، غير أن التفوّق كان لهم في الحالات الطبيعية.

ثالثها: اتّصالهم بالمناطق النائية عن المدينة، فلم يتقوقعوا داخل حدود المدينة. لقد كانوا يمثّلون واقعًا قائمًا في المدينة، لذا كان على النبيّ ﷺ وضعهم في الحسبان، فكان أن أوجد ﷺ، ميثاقًا جماعيًا عامًّا. ولدى حلول النبيّ ﷺ في المدينة اتّضح أنّ قيادة مجتمعها إنّما هي منحصرة به ﷺ من دون أن يبرم عقدًا أو يطلب شيئًا من الناس أو يدخل في مباحثات مع أحد، أي أنّ الشخصية والعظمة النبويّة أخضعت الجميع لها بشكل طبيعيّ. لقد تجلّت قيادته وجعلت الجميع يتحرّكون ويبادرون حول محوريتها.

لقد كتب النبيّ ميثاقًا، وصار موضع قبول من قبل الجميع، فكان شاملًا للسلوك الاجتماعيّ

و المعاملات و النزاعات و الديات و علاقة النبيّ ﷺ مع معارضيه وموقفه من اليهود ومن غير المسلمين، وكلّ ذلك كان مدوّنًا ومفصّلًا ولعلّه يحتل صفحتين أو ثلاث صفحات كبيرة من كتب التاريخ القديمة.

الخطوة الثانية كانت في غاية الأهمية وهي إشاعة روح الأخوّة. فلقد كانت الأرستقراطيّة والعصبيات الخرافية والأبّهة القبلية وحالة الانفصال بين مختلف الطبقات، أبرز الأمراض الّتي كانت تعاني منها المجتمعات الجاهلية العربيّة المتعصّبة يومذاك. والنبيّ ﷺ بإشاعته للأخوّة سحق هذه النعرات تحت قدميه. فقد آخى بين رئيس القبيلة وبين من هو في مستوى دانٍ أو متوسط. وهؤلاء بدورهم ارتضوا هذه الأخوّة طائعين. ووضع السادة والأشراف إلى جانب العبيد من المسلمين والعتقاء، وبذلك فقد قضى على العوائق في طريق الوحدة الاجتماعية.

وعندما أراد ﷺ اتّخاذ مؤذّن لمسجده، كان ذوو الحناجر الجهوريّة والهندام الجميل والشخصيات المشهورة من الكثرة بمكان، لكنّه اختار من دونهم بلالًا الحبشيّ الّذي كان يفتقد الجمال والصوت الحسن والشرف العائلي والنّسبي. فالمناط كان الإسلام والإيمان والجهاد والتضحية في سبيل الله لا غير. لاحظوا كيف أنّه ﷺ حدّد القيم على صعيد العمل، فقبل أن يترك كلامه بصماته على القلوب، كانت أعماله وسيرته وهديه هي الّتي تؤثّر.

حماية النظام الإسلاميّ

وبغية إنجاز هذه المهمّة كانت هنالك ثلاث مراحل هي:

المرحلة الأولى: إرساء قواعد النظام.

المرحلة الثانية: صيانة هذا النظام؛ فمن الطبيعيّ أن يكون هناك من يعادي هذا الكيان المتنامي والمتعاظم الّذي لو أحسَّ به أصحاب السلطة لشعروا بالخطر إزاءه. ولو لم تكن لدى النبيّ ﷺ القدرة على الدفاع عن هذا الوليد الطبيعيّ الميمون بحنكة في مقابل الأعداء، فسيزول هذا النظام وتذهب جهوده سدى، فلا بدّ له من صيانته.

المرحلة الثالثة: إكمال البناء وإعماره؛ إذ لا تكفي عملية الإرساء وإنّما هي الخطوة الأولى.

وهذه المراحل الثلاث تسير إلى جانب بعضها بعضًا عرضيًا. إنّ عمليّة إرساء القواعد تأتي بالدرجة الأولى، بيد أنّه يتعيّن الحذر من العدوّ أثناءها، وهكذا تأتي مرحلة الصيانة، حيث يتم خلالها الاهتمام ببناء الأشخاص والكيانات الاجتماعية ومن ثمّ تتواصل في المراحل اللاحقة.

كان النبيّ ﷺ يرى خمسة أصناف من الأعداء يتربّصون بهذا المجتمع الفتيّ:

العدوّ الأول: وهو عدوٌّ ضئيل الأهميّة ومحدود، ولكن ينبغي عدم التغافل عنه في نفس الوقت، فلربّما يتسبّب في بروز خطر داهم. من هو هذا العدوّ؟ إنّه القبائل شبه الهمجيّة الّتي تحيط بالمدينة؛ فعلى بعد عشرة أو خمسة عشر أو عشرين فرسخًا من المدينة تعيش قبائل شبه بدائيّة، جلّ حياتها عبارة عن الاقتتال وإراقة الدماء والإغارة والنهب والسلب. وإذا كان النبيّ ﷺ يصبوَ إلى إقامة مجتمع سليم آمنٍ ووادع في المدينة، فما عليه إلا أن يحسب لهؤلاء حسابهم، وهكذا فعل ﷺ، حيث تعاهد مع مَنْ تتوفّر فيه أمارات الصلاح والهداية، ولم يبادرهم بالدعوة للإسلام بادئ الرأي، بل عاهدهم مع بقائهم على كفرهم وشركهم بغية تجنّب انتهاكاتهم. لقد كان النبيّ ﷺ ملتزمًا أشدّ الالتزام بتعهّداته ومواثيقه، وهذا ما سأتطرّق إليه أيضًا، لكنّه لاحق الأشرار ومَن لا عهد لهم وعالج مشكلتهم. وما يُذكر من بَعْثِ النبيّ ﷺ للسرايا، حيث كان يرسل الخمسين أو العشرين من المسلمين في سرايا، لملاحقة هؤلاء الّذين تأبى طبيعتهم الوئام والهداية والصلاح ولا يستقرّ لهم حال إلا بإراقة الدماء والتوسّل بالقوّة، فكان أن لاحقهم النبيّ ﷺ وقمعهم وأخمد نارهم.

العدوّ الثاني: هو مكّة الّتي كانت لها مركزيّة. وبالرغم من عدم وجود حكومة بالمعنى المتعارف عليه فيها، بيد أن ثمّة مجموعة من الأشراف المتكبّرين العتاة أصحاب النفوذ كانت تحكم مكّة، وهم على اختلافهم كانوا متّحدين بوجه هذا المولود اليافع الجديد. وكان النبيّ ﷺ على علم بأنّ الخطر الجسيم إنّما ينطلق منهم، وقد حصل ذلك عمليًا. وكان الشعور يراود النبيّ ﷺ أنّه لو انتظر حتّى يداهموه فإنّهم باليقين لن يتوانوا عن ذلك، فكان بمرصد لهم، لكنّه لم يقصد مكّة، بل اعترض قافلتهم الّتي كانت تمرّ على مقربة من المدينة. وكانت معركة بدر أهم عمليات التعرّض

وتمثّل باكورة عمله. لقد تعرّض لهم النبيّ ﷺ فجاؤوا لحربه تدفعهم العصبيّة والعناد والإصرار على محاربته. ٢٠٠١/٥/١٨

بحسب الوعد الإلهيّ أُخبر المسلمون أنّهم سينتصرون على مجموعة من الكافرين. وقد كان ذلك في السنة الثانية للهجرة. كانت القافلة محمّلة بمتاع وبضائع قريش آتيةً من الشام إلى المدينة، لتعبر أطراف المدينة نحو مكّة. وبمجرّد أن اتّضح لكفّار قريش تهديد أبطال ومجاهدي العرب والمسلمين، أرسلت قوّاتٍ مسلّحة نحو المدينة لأجل الدفاع عن متاعها وبضائعها. كان المسلمون يميلون أكثر إلى إيقاف هذه القافلة المحمّلة بالثروة والمتاع والّتي لم يكن لديها أيّ دفاع يُذكر. لكنّ الله قضى أن تكون المواجهة المسلّحة بين المسلمين وكفّار قريش، ﴿وَ إِذۡ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحۡدَى الطَّائِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ الشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ﴾[1]. فقد كان المسلمون يعلمون أنّهم سينتصرون في هذه المواجهة ولكنّهم لم يكونوا يعلمون بأنّ ذلك سيكون على قوّات قريش المسلّحة، بل كانوا يظنّون أنّ انتصارهم سيكون على هذه القافلة التجارية الآتية من الشام. ولكنّ النبيّ بدّل طريقهم وأخذهم نحو المواجهة العسكرية، فعبرت القافلة، لكنّ المسلمين التقوا بالكفّار في محلّةٍ تُدعى بدرًا. فماذا كانت العلّة وراء تبديل الله تعالى طريق المسلمين من مواجهة القافلة إلى معركة مع المقاتلين المسلّحين؟ السبب هو أنّ المسلمين كانوا يرون ما هو قريب وكانت إرادة الله ومشيئته تريد هدفًا بعيدًا، ﴿وَيُرِيدُ اللهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾. فإنّ الله تعالى أراد أن يعمّ الحقّ هذا العالم ﴿لِيُحِقَّ الۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ الۡبَاطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ الۡمُجۡرِمُونَ﴾[2] وأراد أن يزهق الباطل، الّذي هو بطبيعته زاهق. ألم يكن المقرّر هو أن يقوم الإسلام بالقضاء على جميع القوى والسلطنات الشيطانية والطاغوتية؟ ألم يكن المقرّر أن تصبح الأمّة الإسلامية ﴿لِتَكُونُواْ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾[3] ألم يكن المقرّر أن ترتفع راية الإسلام خفّاقةً على قمم الإنسانية والبشرية؟ فمتى يكون ذلك؟ وكيف؟ وعن أيّ طريقٍ؟

---

١. سورة الأنفال، الآية: ٧.

٢. سورة الأنفال، الآية: ٨.

٣. سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

لقد كان المسلمون في ذلك الوقت يفكّرون في أنفسهم أنّهم لو صادروا هذه القافلة الثرية، وحصلوا على بعض المال فإنّ الإسلام الفتيّ سوف يقوى. كانوا يفكّرون بشكلٍ صحيح، لكن كان الفكر الأعلى والأكثر قيمةً في محلٍّ آخر. الفكر الأعلى أنّنا نحن المسلمون الّذين نحيط بالنبيّ اليوم، قد وصلنا إلى حدّ يمكننا أن نرسّخ فكرنا وطريقنا في المجتمعات المستضعفة المحرومة وفي وسط عوالم الظلام والظلمانية، ذاك الحوض كان فيه من الماء بحيث إنّه يمكن أن يجري ويروي كلّ هذه الغرسات والأشجار والأراضي الميّتة واليابسة، هذه هي الفكرة الأهمّ. فإذا كان المقرّر أن يصل الإسلام إلى النصر الواقعيّ، وإذا كان المقرّر أن تتحرّك هذه النواة الجليلة للإسلام نحو المناطق المستضعفة، وإذا كان المقرّر أن تتساقط قصور الظلم والجور واحدًا بعد الآخر، فينبغي أن يبدأ ذلك من مكانٍ ما. لم يكن المسلم المخلص المحبّ في صدر الإسلام يعلم من أين يبدأ، وقد علّمه الله تعالى ذلك، وهيّأ له فأخرجه الله تعالى من أجل مصادرة أموال قريش ليجرّه إلى معركةٍ لم يردها، لكي يتحقّق من خلال ذلك، إرجاع العدوّ إلى الوراء وفتح الطريق أمام قوّة الحقّ وسيلانه وجريانه وتقدّمه ونفوذه وثبات طريقه مع قلّة العتاد ولكن مع الإيمان الراسخ، لكي يفهم العدوّ أنّ الإسلام موجودٌ فيجب أن يأخذه على محمل الجدّ ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾[1]. لقد جعلناكم أيّها المسلمون مقابل الجيش الجرّار للعدوّ دون أن تريدوا ذلك، وذلك من أجل أن توجّهوا قبضتكم نحوهم، فتظهر قدرة الله أمام ناظريهم. ۱۹۸۰/۱۰/۳

بعد أن كان النّصر الإلهيّ في معركة بدر، بفضل الله ورحمته وبهمّة المسلمين، من نصيب مجاهدي الإسلام، فإنّه لم يكن المتوقّع من العدوّ أن يقلع عن عداوته بهذه السرعة، ولذلك بدأ بالتخطيط لمعركة أُحد. وفي معركة أُحد كان الأمر في البداية لصالح المسلمين بسبب اتّحادهم وتوافقهم، واستطاعوا في البداية أن يهزموا المشركين، ولكن بعد أن حصلوا على النصر بسرعة، فإنّ أولئك الـ٥٠ رجلًا الّذين أُمروا أن يحافظوا على موقعهم على أكتاف الجبل مقابل العدوّ، ومن أجل أن لا يتخلّفوا عن جمع الغنائم، تركوا مهمّتهم ولحقوا بالمسلمين الّذين كانوا بدورهم مشغولين

---

١. سورة الأنفال، الآية: ٨.

بجمع الغنائم. بقي عشرة أشخاص فقط من المسلمين عند ذلك الجبل، وأدّوا ما عليهم، لكنّ العدوّ اغتنم هذه الفرصة والتفّ عليهم، واخترق صفوفهم من مكان نقطة ضعفهم وعدم وجود العدد الكافي، وهجموا على بقيّة المسلمين. وقد دفع المسلمون ثمنًا باهظًا بسبب هذا الهجوم؛ لم يُهزم الإسلام، ولكنّ انتصاره تأخّر بالإضافة إلى خسارة أبطالٍ شجعان وأعزّاء في هذا الطريق، كحمزة سيّد الشهداء. والله تعالى يدعو المسلمين إلى الاعتبار والتأمّل ويقول لهم إنّنا صدقنا وعدنا وقلنا إنّكم ستنتصرون على العدوّ وقد انتصرتم، ولكن بعد أن ظهرت فيكم تلك الحالات وتلك الخصال الثلاث، تلقّيتم الضربة، وتلك الخصال الثلاث هي عبارة عن:

أوّلًا: ﴿وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ﴾، فشققتم وحدة الكلمة وفرقتم الصفوف.

ثانيًا: ﴿فَشِلْتُمْ﴾، أي ضعفتم وفقدتم حماسكم وجهوزيّتكم وثباتكم، وإقدامكم.

ثالثًا: ﴿وَعَصَيْتُم﴾[1]، فتخلّفتم عن أوامر الرسول والقائد وأولئك الّذين كانوا مسؤولين عن إدارة أموركم.

فهذه الصفات الثلاث الّتي ظهرت فيكم أعطت العدّو الفرصة ليلتفّ عليكم ويوجّه لكم الضربة وسقط فيها أعزّ أبناء الإسلام مضرّجين بدمائهم، بالغين بذلك مقام الشهادة والمفاخر، وخسر العالم الإسلاميّ بسبب هذا الأمر أمثال هذه الشخصيات. ١٩٨٠/٥/٩

كانت معركة خندق آخر المعارك الّتي شنّت ضدّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم - وهي واحدة من أهمّها - حيث استجمع كفّار مكّة كلّ قواهم واستعانوا بالآخرين أيضًا وقالوا فلنذهب الى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ونقتله و نقتل مئات من أنصاره المقرّبين، وننهب المدينة، ونرجع مطمئنّين، ولن يبقى بعدها عينٌ ولا أثر للنبيّ ومن معه. وقبل أن يصلوا إلى المدينة كان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قد علم بالأمر فبادر إلى حفر خندق عرضه أربعون مترًا تقريبًا من الجّهة الّتي يسهل اختراقها. كان ذلك في شهر رمضان والمناخ قارس البرودة كما تنقل الروايات، ولم يهطل المطر ذاك العام، من هنا فقد عمّ الجدب وعانى الناس من المصاعب. كان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أكثر الناس عملًا في حفر الخندق؛ فحيث وقعت

---

١. سورة آل عمران، الآية: ١٥٢.

عيناه على من أعياه العمل وأصابه الإرهاق أو عجز عن المواصلة، كان ﷺ يتناول معوله ويمارس العمل والبناء بدلًا عنه. فلم يسجّل حضوره بإصدار الإيعازات فقط، بل كان يشارك المسلمين بكيانه ووجوده أيضًا. ولمّا رأى الكفّار الخندق ولمسوا عجزهم أصيبوا بالإحباط والهزيمة وافتُضح أمرهم، وأخيرًا اضطرّوا للانسحاب. عندها نادى النبيّ ﷺ بأنّ الأمر قد انتهى، وهذه كانت آخر المعارك الّتي يشنّها كفّار مكّة ضدّ المسلمين، وقد جاء دور المسلمين للتوجّه نحو مكّة وملاحقة الكفّار.

بعد عام من تلك الواقعة أراد النبيّ ﷺ التوجّه إلى مكّة لأداء العمرة ـ وأثناء ذلك عقد صلح الحديبية الغنيّ بالمعاني والأهداف ـ وكان مسير النبيّ ﷺ إلى مكّة في شهر محرّم الحرام ـ حيث كانوا يحرّمون فيه القتال ـ فأصبحوا في حيرة من أمرهم ما عساهم صانعين، أيسمحون له بالتقدّم في مسيره؟ وماذا سيفعلون إزاء نجاحه هذا؟ وكيف يواجهونه؟ أيقاتلونه وهم في شهر محرّم؟ وكيف يقاتلونه؟ وأخيرًا قرّروا عدم السماح له بالمجيء إلى مكّة وإبادته هو وأصحابه إن وجدوا لذلك مبرّرًا. تميّز تصرّف النبيّ ﷺ بأسمى درجات التدبير، حيث قام بما دفعهم لأن يُبرِموا معه صلحًا يقضي بأن يعود إلى المدينة على أن يأتي في العام القادم لأداء العمرة. وتوفّرت الظروف جميعها أمام النبيّ ﷺ من أجل التبليغ في كلّ أرجاء المنطقة وفُتحت أمامه الأبواب. كان ذلك صلحًا، بيد أنّ الباري تعالى يصرّح في كتابه بالقول: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾[1]. ومن يراجع مصادر التاريخ الصحيحة والموثّقة يدهشه كثيرًا ما جرى في واقعة صلح الحديبية. وفي العام التالي توجّه النبيّ ﷺ لأداء العمرة ورُغم أنوفهم أخذت شوكته تزداد قوّة يومًا بعد يوم. ولمّا نقض الكفّار العهد في العام اللاحق ـ أي العام الثامن للهجرة ـ تقدّم نحوهم النبيّ ﷺ وفتح مكّة، فكان فتحًا عظيمًا ينبئ عن اقتدار النبيّ ﷺ وتمكّنه. وتأسيسًا على ذلك فقد اتّسم تعامل النبيّ ﷺ مع هذا العدوّ بالتدبير والاقتدار والتأنّي والصبر بعيدًا عن الارتباك، ولم يتراجع أمامه ولو خطوة واحدة، بل كان يتقدّم نحوه يومًا بعد يوم وآنًا بعد آن.

---

١. سورة الفتح، الآية: ١.

العدوّ الثالث: وهم اليهود، أي الدخلاء الّذين لا يوثق بهم والّذين أسرعوا بالتعبير عن استعدادهم لمعايشة النبيّ ﷺ في المدينة، لكنّهم لم يقلعوا عن أعمال الإيذاء والتخريب والخيانة. بالتدقيق في سورة البقرة وبعض السور الأخرى من القرآن الكريم، نجد أنّها تختصّ بطريقة تعامل النبيّ ﷺ وصراعه الثقافي مع اليهود. فقد تقدّم القول إنّ هؤلاء كانوا على قدر من العلم والوعي والثقافة، وذوي تأثير كبير على أفكار ضعاف الإيمان من الناس، ويحوكون الدسائس ويزرعون اليأس في قلوبهم ويثيرون الفتن بينهم، فكانوا يمثّلون عدوًّا منظّمًا. وكان النبيّ ﷺ يسلك معهم سبيل المداراة ما أمكنه، لكنّه لمّا لمس منهم عدم استجابتهم لهذه المداراة بادر إلى معاقبتهم. ولم تأتِ مباغتة النبيّ ﷺ لهم دون سبب أو مقدّمات، بل إنّ كلاًّ من هذه القبائل الثلاث ارتكبت أفعالًا فعاقبهم النبيّ ﷺ بما يوازي فعلتهم.

الفئة الأولى: بنو قينقاع الذين خانوا النبيّ ﷺ فتوجّه نحوهم وأمرهم بالجلاء وأخرجهم من ديارهم تاركين ثرواتهم للمسلمين.

والفئة الثانية: هم بنو النضير الّذين خانوا النبيّ ﷺ أيضًا ـ وقصّة خيانتهم مهمّة ـ فأمرهم النبيّ ﷺ بحمل بعض أمتعتهم والرحيل، فاضطرّوا لذلك وارتحلوا.

الفئة الثالثة: وهم بنو قريظة، فقد منحهم النبيّ ﷺ الأمان وسمح لهم بالبقاء في المدينة ولم يخرجهم منها، وأبرم معهم عقدًا على ألّا يسمحوا للعدوّ بالتسلّل من أحيائهم في معركة الخندق، لكنّهم غدروا وتعاقدوا مع العدوّ على الوقوف إلى جانبه لمقاتلة النبيّ ﷺ، أي أنّهم لم يكتفوا بتنصّلهم من عهدهم مع النبيّ ﷺ، بل في الوقت الّذي بادر رسول الله ﷺ إلى حفر الخندق في الجهة الّتي يسهل اختراقها وسلّمهم الجّهة الّتي تقع عليها أحياؤهم ليمنعوا العدوّ من التسلّل عبرها، ذهبوا للتفاوض والتباحث مع العدوّ ليدخلوا معًا من تلك الجهة ويطعنوا النبيّ ﷺ من الخلف.

وفي تلك الأثناء علم الرسول ﷺ بهذه المؤامرة، وكان حصار المدينة قد استمرّ شهرًا، وكانت خيانة هؤلاء في منتصف هذا الشهر، فلجأ ﷺ إلى عملٍ في غاية الذكاء ألق من خلاله الوقيعة

بينهم وبين قريش ـ ووردت تفاصيله في كتب التاريخ ـ فقد قام ﷺ بعمل أطاح بالثّقة الّتي تربطهم بقريش، وفيه تجلّت واحدة من الخطط السياسية العسكرية الرائعة للرسول الأكرم ﷺ، أي أنّه ﷺ عاجلهم ليوقفهم عن توجيه أيّة ضربة للمسلمين. وحينما انهزمت قريش وحلفاؤها وابتعدوا عن الخندق ورجعوا فاشلين إلى مكّة، صلّى النبيّ ﷺ الظهر، ثمّ دعا إلى صلاة العصر قبالة قلاع بني قريظة، فتوجّه نحوهم، أي أنّه لم يمهلهم ولو ليلة واحدة، فحاصرهم لمدّة خمسةٍ وعشرين يومًا تواصلت خلالها المناوشات بين الطرفين. ثمّ إنّ النبيّ ﷺ قتل مقاتليهم لفداحة خيانتهم وعدم إمكانية إصلاحهم.

هكذا تميّز تعامل النبيّ ﷺ مع هؤلاء، أي أنّه أزال عداوة اليهود من طريق المسلمين ـ بشكل أساس في قضية بني قريظة، وقبلها مع بني النضير، وبعدها مع يهود خيبرـ بكلّ تدبير وقوّة وإصرار مقترن بالأخلاق الإنسانية العالية. وفي كلّ هذه المواطن لم ينقض النبيّ ﷺ عهدًا أبدًا، وهذا ما يذعن له حتّى أعداء الإسلام، بل أولئك هم الّذين نقضوا العهود.

العدوّ الرابع: وهم المنافقون. كان المنافقون يعيشون بين الناس. وكانوا من الّذين آمنوا بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم. كانوا أشخاصًا منحطّين معاندين يتميّزون بضيق الرؤية، وبالاستعداد للتعاون مع العدوّ؛ لكنّهم كانوا يفتقدون التنظيم وهذا ما كان يميّزهم عن اليهود. لقد كان النبيّ ﷺ يتعامل مع العدوّ المنظّم المتوثّب لمهاجمة المسلمين كتعامله مع اليهود ولم يمهلهم أبدًا، لكنّه كان يتحمّل العدوّ غير المنظّم ممّن تلوّث أفراده بالعناد والعداوات والخبائث الفردية وعدم الإيمان؛ فلقد كان عبدالله بن أُبيّ من ألدّ أعداء النبيّ ﷺ وقد عاصر الرسول ﷺ حتّى آخر سنة من عمره تقريبًا، ولم يسئ ﷺ التعامل معه مع علم الجميع بنفاقه، وكان ﷺ يداريه ويعامله كباقي المسلمين من حيث عطائه من بيت المال وصيانة أمنه وحرمته. كان ذلك منه ﷺ بالرغم من خبث هذه الفئة وإساءتها، وفي سورة البقرة آيات تختصّ بهؤلاء المنافقين.

ولمّا اتّخذ تجمّع بعض المنافقين طابع التنظيم بادر إليهم النبيّ ﷺ، كما في قضية مسجد ضرار حيث اتّخذوا منه مركزًا وأقاموا اتّصالات مع عناصر من خارج النظام الإسلاميّ، من قبيل

الراهب أبي عامر من بلاد الروم، وأعدّوا مقدّمات تحشيد الجيوش لمحاربة النبيّ ﷺ، فبادر إليهم النبيّ ﷺ وهدم المسجد الّذي بنوه وأحرقه، معلنًا أنّه ليس بمسجد بل بؤرة للتآمر على المسجد وعلى اسم الله والمسلمين، أو تلك الحفنة من المنافقين الّذين أعلنوا كفرهم وخرجوا من المدينة وحشدوا قواهم فقاتلهم النبيّ ﷺ وقال: «لئن دنَوا من المدينة لأخرجنّ لقتالهم». رغم أنّه ﷺ سالم المنافقين في داخل المدينة ولم يتعرّض لهم أبدًا. وهكذا فقد واجه النبيّ ﷺ الفئة الثالثة مواجهة منظّمة صارمة، ولكنّه سلك طريق المداراة مع الفئة الرابعة لافتقادهم التنظيم، لأنّ الخطر الصادر عنهم يمثّل خطرًا فرديًّا، كما أنّه ﷺ كان غالبًا ما يخجلهم بسلوكه.

أما العدوّ الخامس: فهو عبارة عن العدوّ الكامن في باطن كلّ مسلم ومؤمن وهو الأخطر من بين جميع الأعداء. وهذا العدوّ معشش فينا أيضًا، إنّه الأهواء النفسية والأنانية والجنوح نحو الانحراف والضلال والانزلاق الّذي يهيّئ الإنسان بنفسه أرضيّته. وقد خاض النبيّ ﷺ مع هذا العدوّ صراعًا مريرًا. غاية الأمر أن آلة الصراع مع هذا العدوّ لا تتمثّل بالسيف، بل بالتربية والتزكية والتعليم والتحذير. لهذا، عندما عاد المسلمون من الحرب مع كلّ ذلك التعب، قال لهم الرسول ﷺ: «مرحبًا بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر». فتعجّب المسلمون من قوله وسألوه: ما الجهاد الأكبر يا رسول الله؟! لقد خضنا غمار هذا الجهاد المرير، فهل من جهاد أكبر منه؟! قال: «جهاد النفس»[١]. فإذا ما صرّح القرآن الكريم: ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾[٢] فذلك لا يعني أنّهم منافقون، بل بعض المنافقين في عداد الّذين في قلوبهم مرض. ولكن ليس كلّ ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ من المنافقين، فربّما يكون المرء مؤمنًا لكن في قلبه مرض. فماذا يعني هذا المرض؟ إنّه يعني ضعف الأخلاق والشخصية، والشهوانية والجنوح نحو مختلف الأهواء الّتي إن لم تبادر للحدّ منها ومقارعتها فإنّها ستأتي على الإيمان من الداخل وستؤدّي بالتالي إلى خواء داخليّ. وإذا ما استُلب الإيمان من القلب وخلا الباطن وظلّ الإيمان ملاصقًا للظاهر إذ ذاك سيدخل المرء ضمن الّذين يُطلق عليهم اسم «المنافق».

---

١. وسائل الشيعة، كتاب الجهاد، أبواب جهاد النفس و ما يناسبه، باب وجوبه، ح ١.

٢. سورة التوبة، الآية: ١٢٥.

فلو خلت قلوبنا، لا سمح الله، من الإيمان وبقي ظاهرنا متلبّسًا بالإيمان، وقطعنا أواصر الإيمان وعلائقه، بيد أن ألسنتنا ظلّت تلهج بالتعابير الإيمانية، فهذا هو النفاق وهو من الخطورة بمكان. والقرآن الكريم يصرّح: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِؤُون﴾[1]، وذاك هو السوء المبين، ألا وهو التكذيب بآيات الله. ويقول في موضع آخر: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُواْ اللهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾[2]. وهذا هو الخطر الكبير الّذي يهدّد المجتمع الإسلاميّ، وحيثما شاهدتم في التاريخ انحرافًا في المجتمع الإسلاميّ فإنّه من هنا قد بدأ. ربّما يشنّ العدوّ الخارجيّ هجومه ويدمّر ويخرّب لكنّه لا قدرة له على الإفناء. ففي النهاية سيبقى الإيمان، وينبعث في مكانٍ ما ويؤتي أكله. غير أن جيوش العدوّ الداخليّ إن هجمت على الإنسان وأفرغت باطنه إذ ذاك سيطال الانحراف سبيله، وأينما وُجد الانحراف فإنّ منشأه يكون هو ذاك. ولقد تصدّى النبيّ ﷺ لهذا العدوّ أيضًا.

امتاز سلوك النبيّ ﷺ بالتدبير والسرعة في العمل فلم يدع الفرصة تفوته في أية قضية. كان ﷺ طاهرًا قانعًا لا وجود لأيّة نقطة ضعف في وجوده المبارك. كان معصومًا نقيًّا، وهذا بحدّ ذاته يمثّل أهم عوامل التأثير. إنّ التأثير بالعمل هو أوسع وأعمق بدرجات من التأثير باللسان. لقد كان قاطعًا وصريحًا. ولم يتحدّث النبيّ يومًا بلسانين. بالطبع، عندما كان يواجه العدوّ كان يستخدم معه أسلوبًا سياسيًا يوقعه في الخطأ؛ فلقد كان يباغت العدوّ في الكثير من الحالات، سواء في المواقف العسكرية أم السياسية، لكنّه كان صريحًا وشفّافًا مع المؤمنين ومع قومه على الدوام، نقيًّا واضحًا في كلامه بعيدًا عن الألاعيب السياسية، يبدي المرونة في المواطن الضرورية ـ كما في قضية عبدالله بن أبيّ ـ ذات الأحداث المفصّلة، ولم ينكث عهدًا مع قومه أو مع الفئات الّتي عاهدها وإن كانوا أعداءً له، وخاصة مع كفّار مكّة، الّذين نقضوا عهودهم فردّ عليهم النبيّ ﷺ ردًّا قاطعًا، ولم ينقض ﷺ موثقًا أبرمه مع أحد قطّ، لذلك كان الجميع على ثقة بالعهد الّذي يبرمه معهم.

---

١. سورة الروم، الآية: ١٠.

٢. سورة التوبة، الآية: ٧٧.

ومن ناحية أخرى لم يفقد النبيّ ﷺ تضرّعه إلى الله سبحانه وكان مواظبًا على توطيد أواصر علاقته بالباري جلّ وعلا يومًا بعد يوم. فلقد كان يرفع يد الضراعة إلى بارئه في تلك الأثناء الّتي ينظّم عساكره ويحثّهم ويحضّهم على القتال، وفي ساحة الوغى، عندما كان يمسك بسيفه ويقود جيشه بحزم، أو يعلّمهم ما يصنعون؛ يجثو على ركبتيه رافعًا يديه باكيًا مناجيًا ربّه سائلًا منه العون والإسناد ودفع الأعداء. لم يؤدِ به الدّعاء إلى تعطيل قواه، ولا أنّ استثماره لقواه أغفله عن التوسّل والتضرّع والارتباط بالله سبحانه، بل كان حريصًا على كلا الجانبين، لم يعتوره التردّد أو الخوف وهو يواجه عدوًّا عنيدًا؛ ولقد قال أميرالمؤمنين عليه السلام ـ وهو مظهر الشجاعة ـ «كنّا كلّما اشتد الوطيس لذنا برسول الله»، وكان يلوذ به كلّ من شعر بالضعف. استمرّ حكمه عشر سنوات، لكنّنا لو أردنا إيكال العمل الّذي أنجز خلالها إلى مجموعة في غاية النشاط لعجزوا عن إنجاز كلّ تلك الأعمال والخدمات على مدى مئة عام، ولو قارنّا أعمالنا بما قام به النبيّ ﷺ حينها سندرك المهمّة الّتي اضطّلع بها رسول الله ﷺ؛ فإدارة الحكم وبناء ذلك المجتمع وصياغة ذلك الأنموذج بحدّ ذاته يمثّل واحدة من معاجزه ﷺ.

فعلى مدى عشر سنوات، عاشره الناس ليلًا ونهارًا، وتردّدوا إلى داره وتردّد هو إلى دورهم، وكانوا معه في المسجد وفي الطرقات وفي حلّه وترحاله، وتحمّلوا الجوع معًا، وتذوّقوا طعم السرور معًا؛ فقد كان الوسط الّذي يعيش فيه النبيّ ﷺ مفعمًا بالمسرّة وكان ﷺ يلاطف الآخرين ويقيم السباقات ويشترك فيها، وعلى امتداد تلك السنوات العشر تعمّقت محبّة أولئك الّذين عاشروه له، وازداد إيمانهم به عمقًا ورسوخًا في قلوبهم. وعندما فتح ﷺ مكّة، جاء أبو سفيان متخفّيًا يلوذ بالعبّاس ـ عمّ النبيّ ﷺ ـ إلى معسكر النبيّ يطلب الأمان. ولما حلّ الفجر، رأى النبيّ ﷺ يتوضأ وقد أحاط به القوم ليحظى كلّ منهم بقطرات الماء الّتي تتناثر من وجهه ويديه، فقال أبو سفيان: لقد رأيت كسرى وقيصر ـ وهما من ملوك الدنيا المعروفين بجبروتهم وسطوتهم ـ لكنّني لم أرَ عليهما مثل هذه العزّة!. أجل، فالعزّة المعنوية هي العزّة الحقيقية ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]، فالعزّة من نصيب المؤمنين أيضًا، إن هم سلكوا ذات الطريق. ٢٠٠١/٥/١٨

---

١. سورة المنافقون، الآية: ٨.

تثبيت النظام الإسلاميّ

إنّ واقعة غدير خم هي واقعة مصيرية ومهمّة جدًّا في تاريخ الإسلام. ويمكن النظر إليها من حيثيّتين أو بعدين: الأوّل يختصّ بالشيعة، والثاني يرتبط بجميع الفرق الإسلامية. وبالنظر إلى البعد الثاني لهذه الواقعة، يجب إيجاد هذه الروحية وهذا الشعور عند جميع مسلمي العالم وهو أنّ عيد الغدير الّذي يذكّر بهذه الواقعة الكبرى ليس مختصًّا بالشيعة.

البعد الأوّل لهذه الواقعة، وكما ذكرنا، يختصّ بالشيعة، لأنّ أميرالمؤمنين عليه‌السلام في هذه الواقعة قد نصُب للخلافة من قبل النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم. وفي ذلك اليوم وفي تلك الواقعة سُئل رسول الله: يا رسول الله هل أنّ إعلانك هذا هو من نفسك أو من الله؟ فقال: «من الله ورسوله»[١]، أي أنّه أمرٌ إلهيّ وكذلك هو منّي. والشيعة تعظّم هذه الواقعة من هذه الجهة، لأنّ اعتقادهم أنّ الخلافة المباشرة لأميرالمؤمنين عليه‌السلام ترتبط بهذه الواقعة أكثر من سائر الدلائل. بالطبع إنّ البحث في مجال الاستنباط والاستدلال لهذه الواقعة في الكتب كثيرة ومتنوّعة على مرّتاريخ الإسلام، قد استمرّمن اليوم الأوّل وإلى يومنا هذا. ولا أنوي هنا أن أضيف شيئًا على ما كتبتها وذكرتها آلاف الألسنة والأقلام بشأن هذا المطلب.

وأمّا البعد الثاني لهذه الواقعة والّذي لا يقلّ أهمية عن البعد الأوّل، فهو أمرٌ مشتركٌ بين الشيعة والسنّة. سوف أفصّل فيه قليلًا.

ما جرى هو أنّ رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم، وفي السنة العاشرة للهجرة، توجّه إلى الحجّ مع جمعٍ من مسلمي المدينة وسائر مناطق الجزيرة العربية الّتي أسلمت. وفي هذا السفر، اعتنى النبيّ الأكرم صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم واستفاد استفادةً تامّة من حجّ بيت الله من أجل بيان المفاهيم الإسلامية سواء على المستوى السياسيّ أم العسكريّ أم الأخلاقيّ أم العقائديّ. وقد نُقل عن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم خطبتان إحداهما، على الظاهر، في اليوم العاشر أو قريبًا منه، والأخرى في نهاية أيّام التشريق[٢]. وعلى ما يبدو أنّهما كانتا خطبتين لا خطبة واحدة. في هاتين الخطبتين، بيّن رسول الله جميع

---

١. الإحتجاج، باب في رواية سليم‌بن‌قيس الهلالي.

٢. يُطلق هذا الاسم على الأيّام من ١١ إلى ١٣ من شهر ذي الحجة. ويطلق عليها في القرآن «أيّام معدودات»، سورة البقرة، ٢٠٣.

المسائل الأساس الّتي ينبغي أن يلتفت إليها المسلمون بعمق وهي في الأساس قضايا سياسيّة. ويدرك الإنسان جيّدًا كم أنّ أولئك الّذين يفصلون بين الحجّ والقضايا السياسية في العالم الإسلاميّ اليوم، ويتصوّرون أنّ الحجّ ينبغي أن يكون عبادة فقط بالمعنى الرائج والعاديّ، وأنّ كلّ عملٍ سياسيّ هو عملٌ خارج عن نطاق الحجّ، كم أنّهم غرباء وبعيدون عن تاريخ الإسلام وعن سيرة النبيّ الأكرم ﷺ.

ما بيّنه رسول الله ﷺ في هاتين الخطبتين من مسائل، وقد ذُكرت في بعض كتب الشيعة والسنّة بالإجمال، هي هذه. أولًا تحدّث عن الجهاد، والجهاد ضدّ المشركين والكفّار، وأعلن أنّ الجهاد سيستمرّ حتّى تنتشر كلمة لا إله إلا الله في كلّ العالم. وبشأن الوحدة الإسلامية بيّن رسول الله في هذه الخطاب عدّة مطالب، وصرّح أنّ على المسلمين أن لا يقتتلوا فيما بينهم، وأكّد على وحدة المسلمين وانسجامهم. وفيما يتعلّق بالقيم الجاهلية صرّح بكلامٍ واضحٍ، أنّ هذه القيم بنظر الإسلام هي لا شيء ولا قيمة لها «ألا إنّ كلّ مالٍ ومأثرةٍ ودمٍ يُدّعى تحت قدَميَّ هاتين»

فقد تبرّأ بالكامل من القيم الجاهلية. وكلّ الخلافات المالية الّتي كانت بين المسلمين من أيّام الجاهلية، كأن يكون أحدهم قد أقرض أخاه وله عليه ربا، فإنّه أصبح منسوخًا، «ألا وكلّ ربا من الجاهلية فهو تحت قدميّ هاتين، وأوّل ربا أضعه هو ربا عمّي العبّاس»[1]، الّذي كان قد أقرض في الجاهلية كثيرين وله عليهم ربا، فقد أعلن النبيّ أنّه رفعه ونسخه. وقد أكّد على قيمة التقوى كأعلى قيمة إسلامية، وصرّح أنّه لا فضل لأحدٍ على أحد إلا بالتقوى. وبيّن ضرورة النصيحة لأئمّة المسلمين، أي التدخّل في القضايا السياسية وإبداء الرأي للحكّام والأئمّة وجعل ذلك كفريضة، حيث يجب على جميع المسلمين أن يُسْدوا للحكّام الإسلاميين نصيحتهم وآراءهم النافعة.

لقد بيّن النبيّ الأكرم ﷺ في هاتين الخطبتين المسائل السياسية والاجتماعية الأساس للعالم الإسلاميّ. وفي هاتين الخطبتين ذكر حديث الثقلين أيضًا، وهو حديث قال فيه: «إنّي قد

---

١. تفسير القمي، ص ١٧١.

تركتُ فيكم أمرين (نفيسين) لن تضلّوا بعدي ما إن تمسّكتم بهما كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فإنّ اللطيف الخبير قد عهد إليّ أنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض، كهاتين (السبابتين) وجمع بين مسبِّحتيه، ولا أقول كهاتين وجمع بين المسبّحة والوسطى، فتسبق إحداهما الأخرى فتمسّكوا بهما...»[١].

وقد عرض قضية العترة. وبعد إنهاء أعمال الحجّ توجّه مباشرةً إلى المدينة. وأثناء الطريق، وعلى مفترق ثلاثة طرق، حيث كان ينبغي أن تفترق القوافل اليمانية عن قوافل المدينة، وقف ﷺ في محلّةٍ يُقال لها«غدير خم»، وكما نقل الشاهد والحاضر، أنّ الحرارة كانت شديدة إلى درجة أنّه لو وضعوا قطعة لحمٍ على الأرض لشُويت، ففي مثل هذه الحال يقف ﷺ على مرتفعٍ وينادي في الناس، وعندما رأى الجميع أعلن قضية الولاية، «من كنت مولاه فهذا عليٌّ مولاه»[٢] وأخذ بيد أميرالمؤمنين عليه السلام ورفعها حتّى يراها الجميع. وفي رواياتٍ عديدة نُقل أنّه شوهد بياض إبطي النبيّ ﷺ وعليّ بن أبي طالب عليه السلام، عندما رفع يده من أجل أن يظهر الأمر للناس جميعًا، هذه هي الواقعة في الإجمال.

إنّ البُعد الّذي اقصده ـ البعد الدّوليّ الإسلاميّ والمتعلّق بالفرق الإسلامية الّتي لا تنحصر بالشيعة ـ هو أنّه لو فرضنا أنّ النبيّ ﷺ في هذا الإعلان، الّذي حصل حتمًا وقد صدر عنه هذا الكلام، لو فرضنا أنّه لم يُرد أن يبيّن أنّ خليفته المباشر هو أميرالمؤمنين عليه السلام، فإنّه بالحدّ الأدنى أراد أن يثبّت الولاء والرابطة العميقة للمسلمين مع أميرالمؤمنين عليه السلام وعترته. والسبب في أنّ النبيّ قرن عترته بالقرآن سواء في خطبة منى أم في حديث الثقلين ـ وعلى ما يبدو أنّ هذا الحديث قد صدر عن النبيّ عدّة مرّات ـ وأيضًا في حديث الغدير وفي هذه الواقعة ـ الّتي يركّز فيها على أميرالمؤمنين عليه السلام وشخصه ـ أنّه أراد أن يثبّت هذه الرابطة من أجل أن يظهر للناس وعلى مرّ الزمان نماذج كاملة للإنسان الّذي يريده الإسلام ويكون ذلك لجميع الأجيال الآتية. فيجعل النموذج

---

١. الكافي، كتاب الإيمان والكفر، باب أدنى ما يكون به العبد مؤمنًا أوكافرًا أو ضالًّا، ح ١.

٢. الكافي، كتاب الايمان والكفر، باب فيه نكت و نتف من التنزيل فى الولاية، ح ٤٢.

الكامل للإنسان بصورة مجسّمة وعينية بحالاته الواضحة الّتي لا شكّ فيها أمام أعين جميع البشر، وليقول إنّ التربية الإسلامية ينبغي أن تكون في هذا الاتّجاه، وإنّ شخصية الإنسان المسلم هي تلك الشخصية الّتي تجعل غايتها ونموذجها هذا الإنسان الكامل.

هؤلاء الّذين كانت طهارتهم وعلومهم وتقواهم وصلاحهم وعبوديتهم لله، واطّلاعهم على القضايا الإسلامية، وتضحيتهم وشجاعتهم من أجل تحقّق الأهداف والقيم الإسلامية، وإيثارهم واضحٌ بيّنٌ للجميع. لقد تمّ تعريف أميرالمؤمنين عليه السلام كأنموذج يمكن للناس أن يرتبطوا به سواء كان في ذلك الزمان أم في الأزمان الآتية. وهنا، وإن لم تتحقّق الخلافة المباشرة عمليًا إلا بعد مرور ٢٥ سنة، فإنّه في النهاية اصبح خليفة النبي، وثبّت مقام إمامته، وقبل به جميع المسلمين، إمامًا للمجتمع. هذه الخصوصية، وهذه الرابطة الموجودة عند جميع المسلمين مع هذه الشخصية، الّتي يقبل الجميع أنّها خليفة النبيّ ﷺ ـ كلّ ما هنالك أنّ بعض الناس يقول إنّه الخليفة المباشر وبعض يعتقد بخلاف ذلك، وإنّه خليفة بعد ٢٥ سنة ـ هذه الشخصية الّتي يقبل جميع المسلمين بها على أنّها خليفة يجب أن تكون لجميع المسلمين أنموذجًا خالدًا وقدوة كاملة للإنسان الإسلاميّ. ويجب أن تبقى هذه الرابطة بينه وبين جميع المسلمين وإلى الأبد كرابطة فكرية واعتقادية وعاطفية وعملية.

فمن هذه الناحية لا يختصّ أميرالمؤمنين عليه السلام بالشيعة بل هو لجميع المسلمين. كما أن هذا الكلام لا يختصّ بأمير المؤمنين عليه السلام بل يشمل العترة الشريفة وأئمّة الشيعة الّذين هم من أولاده، الّذين هم أيضًا من العترة، والّذين يجب أن يبقوا دائمًا كنماذج كاملة للإنسان الإسلاميّ في أعين المسلمين.

وبجعل العترة إلى جانب القرآن وبالإعلان عن ضرورة الارتباط بين المسلمين والعترة، بيّن الرسول الأكرم ﷺ في الحقيقة الموقف تجاه كلّ أنواع التحريف الّذي سيتعرّض له القرآن والانحراف عن المفاهيم القرآنية الأساس. فحينما تقوم الأجهزة الجائرة بتحريف المفاهيم الإسلامية من أجل منافعها وتسيء إلى معاني القرآن وتفسّر القرآن بصورة خاطئة وتضلّ المسلمين وتحرمهم من فهم الدين الإسلاميّ، فإنّ ذاك المرجع والمحور والقطب الّذي ينبغي أن يوعّي الناس حول الحقيقة والمفاهيم والمعارف الصحيحة وينجي الناس من الضلالة وعليهم أن يستمعوا إليه هو العترة الطاهرة.

وهذا هو الأمر الّذي يُعدّ اليوم بالنسبة للعالم الإسلاميّ ضرورة ومطلبًا لازمًا. يحتاج جميع المسلمين اليوم أن ينهلوا المعارف الإسلامية عن طريق أهل بيت النبيّ، دون فرق بين أن يكونوا معتقدين أنّ الإمامة المباشرة هي لأميرالمؤمنين وأولاده أو لا. وبالطبع إنّ الشيعة يعتبرون أنّ العقيدة الحقّة والاستفادة القطعية من هذا الحديث هي الخلافة المباشرة وهم يعتقدون بذلك ويتمسّكون به. والّذين لا يعتقدون بذلك ولا يتمسّكون به ـ أي الإخوان من أهل السنّة ـ لا ينبغي أن يقطعوا رابطتهم الفكرية والعقلانية والاعتقادية والعاطفية مع العترة ومع أميرالمؤمنين عليه السلام. لهذا فإنّ قضية الغدير من هذا البعد الثاني، الّذي هو بعد إيجاد الرابطة بين علي بن أبي طالب وعترة النبيّ من جهة وجميع المسلمين من جهة ثانية، هي قضية جميع المسلمين. ١٩٨٧/٨/١٤

إنّ قضية الغدير ليست قضية تاريخية بحتة، بل إنّها علامة على جامعية الإسلام. وإذا ما افترضنا أنّ النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم لم يترك للأمّة منهاجًا لبناء مستقبلها، بعد عشر سنوات أمضاها في تحويل ذلك المجتمع البدائيّ، الملوّث بالعصبيات والخرافات، إلى مجتمعٍ إسلاميٍّ راقٍ، بفضل سعيه الدؤوب وما بذله أصحابه الأوفياء من جهود، لظلّت كلّ تلك الإنجازات مبتورة وبلا جدوى.

لقد كانت تراكمات العصبيّة الجاهليّة على قدرٍ عظيم من العمق، بحيث إنّها كانت بحاجة إلى سنوات طويلة للتغلّب عليها والتخلّص منها. لقد كان كلّ شيء على ما يرام كما يظهر، وكان إيمان الناس جيدًا، حتّى ولو لم يكونوا على مستوًى واحد من العقيدة. فبعضهم كان قد اعتنق الإسلام قبل وفاة الرسول الأكرم بعام واحد أو ستة أشهر أو عامين، وذلك بفضل هيمنة البُنية العسكرية الّتي أسّسها النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم مع ما رافقها من حلاوة الإسلام وجاذبيّته. إنّهم لم يكونوا جميعًا من طراز المسلمين الأوائل من حيث العمق، ولهذا فقد كان من الضروريّ اتّخاذ ما يلزم من التدابير بغية إزالة تلك التراكمات الجاهلية من أعماق المجتمع الجديد، والحفاظ على خطّ الهداية الإسلامية سليمًا وممتدًّا بعد عشر سنوات من زمن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، وذلك لأنّ جهوده الجبّارة خلال تلك السنوات العشر ستبقى بلا ثمار فيما لم يتمّ اتّخاذ تلك التدابير. وهذا ما صرّحت به الآية المباركة من سورة المائدة، وهي قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ

وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾[١] فهذه إشارة إلى أنّ هذه النعمة هي نعمة الإسلام ونعمة الهداية ونعمة إرشاد العالمين جميعًا إلى الصراط المستقيم. وهذا ما لا يمكن أن يتمّ بلا خارطة للطريق بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا أمرٌ طبيعيّ. وهذا عين ما فعله النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في الغدير، حيث نصّب للولاية خليفةً متمايزًا لا نظير له وهو أميرالمؤمنين عليه السلام، لما كان يتمتّع به من شخصية إيمانية فريدة، وأخلاق سامية حميدة، وروح ثورية وعسكرية متميّزة، وسلوك راق مع جميع الناس، وأمر الناس باتّباعه.

ولم يكن هذا من عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بل كان هداية ربّانية، وأمرًا إلهيًّا، وتنصيبًا من الله تعالى، كما هو شأن كافّة أقوال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأفعاله الّتي كانت وحيًا إلهيًا، وهو الّذي لا ينطق عن الهوى. لقد كان هذا أمرًا إلهيًّا صريحًا للرسول صلى الله عليه وآله وسلم فقام بتنفيذه وإطاعته. وهذه هي قضية الغدير، أي بيان جامعية الإسلام وشموليته، والتطلّع إلى المستقبل، وذلك الأمر الّذي لا تتمّ هداية الأمّة الإسلامية وزعامتها إلا به. فما هو ذلك الأمر؟ إنّها تلك الأمور الّتي تجسّدها شخصية أميرالمؤمنين، أي التقوى والتديّن والإيمان الراسخ، وعدم التوكّل إلا على الله، وعدم السير إلا في سبيله، والجدّ والاجتهاد في طريق الحقّ، والاتّصاف بالعلم، والتميز بالعقل والتدبير، والتمتّع بقدرة العزم والإرادة. إنّه عملٌ واقعيّ ونموذجيّ في نفس الوقت. لقد نُصّب أميرالمؤمنين عليه السلام لاتّصافه بتلك الخصوصيات، الّتي باتت لازمة في كلّ زعيم للأمّة الإسلاميّة، أيًّا كان، مدى الدهر، أي أنّ هذا هو النموذج الأمثل للقائد الإسلاميّ على مدى حياة الإسلام، وهو ما تجسّد في الاصطفاء الإلهيّ لأميرالمؤمنين عليه السلام. والغدير هو هذه الحقيقة. ٢٠٠٧/١/٨

---

١. سورة المائدة، الآية: ٣.

الفصل الثاني

الإمامة

الإمامة هي تلك القمّة للمعنى المنشود من إدارة المجتمع، قبال ضروب وأصناف الإدارة المنبثقة من مكامن الضعف والشهوة والحميّة في الإنسان ومطامعه. والإسلام يطرح أمام البشرية نهج الإمامة ووصفتها، أي ذلك الإنسان الطافح قلبه بفيض الهداية الإلهية، العارف بعلوم الدين المتميّز بفهمه ـ أي الّذي يجيد تشخيص الطريق الصحيح ـ ذو القوّة في عمله ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾[1]، ولا وزن لديه لنفسه ورغباته الشخصية، في حين أنّ أرواح الناس وحياتهم وسعادتهم تمثّل كلّ ما لديه. وهذا ما عبّر عنه أميرالمؤمنين عليه السلام عمليًا أثناء حكمه الّذي استمرّأقل من خمس سنوات. تلك الفترة الّتي كانت أقل من خمس سنوات، تمثّل أنموذجًا يُحتذى لن تنساه البشرية أبدًا، وسيبقى خالدًا وضّاءً لقرون متمادية. وهذه هي ثمرة واقعة الغدير، والدرس والمغزى والتفسير المستقى منها. ٢٠٠٢/٣/٣

إنّ كلمة «الإمامة» الّتي تعني في الأصل القيادة بمعناها المطلق؛ غالبًا ما تُطلق في الفكر الإسلاميّ على مصداقها الخاصّ، وهو القيادة في الشؤون الاجتماعيّة، والفكريّة والسياسية. وأينما وردت في القرآن مشتقّات لكلمة الإمامة ـ كإمام، وأئمّة ـ يُراد بها هذا المعنى الخاصّ، أي قيادة الأمّة وقدوتها. سواءً القيادة الفكريّة، أم القيادة السياسية، أم الاثنين معًا. وبعد رحيل النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وظهور الانشقاق الفكريّ والسياسيّ بين المسلمين، اتّخذت كلمة الإمامة والإمام مكانة خاصّة، حيث إنّ مسألة القيادة السياسية شكّلت المحور الأساس للاختلاف. وكان لهذه الكلمة في البداية مدلولها السياسيّ

---

١. سورة مريم، الآية: ١٢.

أكثر من أيّ مدلول آخر، ثمّ انضمّت إليها بالتدريج معانٍ أخرى، حتّى أصبحت مسألة «الإمامة» تشكّل في القرن الثاني الهجريّ أهمّ مسائل المدارس الكلامية ذات الاتّجاهات الفكرية المختلفة، وكانت هذه المدارس تطرح آراءها بشأن شروط الإمام وخصائصه، أي شروط الحاكم في المجتمع الإسلاميّ، وهو معنًى سياسيّ للإمامة. في هذه القضية، جرت العادة أن يتمّ الحديث عن شروط الإمام وخصائصه ـ أي حاكم المجتمع وزعيمه ـ وكان لكلّ فرقة في هذا المجال عقيدة وكلام.

إنّ الإمامة في مدرسة التشيّع أيضًا ـ الّتي يرى أتباعها أنّها أكثر القضايا الفكرية الإسلامية أصالةً ـ لها المعنى نفسه. ونظرية هذه المدرسة بشأن الإمام تتلخّص فيما يلي:

الإمام والزعيم السياسيّ في المجتمع الإسلاميّ يجب أن يكون منصوبًا من قبل الله، بإعلان من النبيّ، وأن يكون قائدًا فكريًّا ومفسّرًا للقرآن وعالمًا بكلّ دقائق الدين ورموزه، وأن يكون معصومًا مبرأً من كلّ عيب خَلقيّ وأخلاقيّ وسببيّ، ويجب أن يكون من سلالة طاهرة ونقية ويجب، ويجب... وبذلك فإنّ الإمامة في عرف مسلمي القرن الأوّل والثاني كانت تعني القيادة السياسية، وفي العرف الخاصّ بأتباع أهل البيت، تعني إضافةً إلى القيادة السياسية، القيادة الفكرية والأخلاقية أيضًا.

فالشيعة تعترف بإمامة الفرد حين يكون ذلك الفرد متمتّعًا بخصائص هي ـ إضافةً إلى مقدرته على إدارة الأمور الاجتماعيّة ـ مقدرته على التوجيه، الإرشاد والتعليم في الحقل الفكريّ والدينيّ، والتزكية الأخلاقيّة. وما لم تتوفّر فيه هذه المقدرة لا يمكن أن يُعترف به كإمام بحقّ. وفي نظرهم، لا يكفي حسن الإدارة السياسية والاقتدار العسكريّ والصلاح وفتح البلدان وأمثالها من الخصائص.

إذًا، وبناءًا على فهم الشيعة للإمامة فإنّ إمام أيّ مجتمع هو، تلك القدرة الفائقة الّتي توجّه الحركة الجمعيّة والفرديّة لأبناء المجتمع وتقودها، وفي نفس الوقت، يكون معلّم الدين والأخلاق والموجّه لحياة الناس ومساعيهم. ومن هنا، كان النبيّ ﷺ إمامًا أيضًا، لأنّه كان القائد الفكريّ والسياسيّ للمجتمع الّذي أقام بنفسه دعائمه. وبعد النبيّ تحتاج الأمّة إلى إمام يخلفه ويتحمّل عبء مسؤولياته، (بما في ذلك المسؤولية السياسية). ويعتقد الشيعة أنّ النبيّ نصّ على خلافة

عليّ بن أبي طالب عليه السلام، ثمّ انتقلت الإمامة من بعده إلى الأئمّة المعصومين من ولده (ولأجل المزيد من التفاصيل والأدلّة ينبغي الرجوع إلى الكتب المتعلّقة بهذا المجال).

ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ تداخل المهامّ الثلاث للإمامة: القيادة السياسية، والتعليم الدينيّ، والتهذيب الأخلاقيّ والروحيّ في الخلافة والحكومة الإسلاميّة ـ حيث جُعلت الإمامة والحكومة الإسلاميّة ذات أبعاد وجوانب ثلاثة، كما بيّنه بعض المفكرّين البارزين في هذا الزمان بشكل صحيح ـ ناشئ من عدم وجود تفكيك بين هذه الجوانب الثلاثة في المشروع الإسلاميّ للحياة البشرية. فقيادة الأمّة يجب أن تشمل هذه الحقول الثلاثة أيضًا. وبسبب هذه السّعة والشموليّة في مفهوم الإمامة لدى الشيعة، كان لابدّ أن يُعيِّن الإمام من قبل الله سبحانه.

نستنتج ممّا سبق أنّ الإمامة ليست، كما يراها أصحاب النظرة السطحية، مفهومًا يقابل «الخلافة» و«الحكومة»، أو منصبًا منحصرًا بالأمور المعنويّة والروحيّة والفكريّة، وإنّما هي في الفكر الشيعيّ تعني «قيادة الأمّة» في شؤون دنياها، وما يرتبط بذلك من تنظيم للحياة الاجتماعية والسياسية للناس في المجتمع (رئيس الدولة). وأيضًا في شؤون التعليم والإرشاد والتوجيه المعنويّ والروحيّ، وحلّ المشاكل الفكريّة وتبيين الأيديولوجية الإسلامية، «القائد الفكريّ».

وهذه المسألة الواضحة أضحت، مع الأسف، غريبة على أذهان أكثر المعتقدين بالإمامة، ولذلك نرى أنّ عرض بعض النماذج من مئات الأدلّة القرآنية والحديثيّة، ليس بالأمر الكثير كما يبدو، في هذا المجال:

في كتاب «الحجّة» من «الكافي» حديث مفصّل عن الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام يذكر فيه بالتفصيل ما يرتبط بمعرفة الإمام ووصف الإمام، ويتضمّن معاني عميقة ورائعة. من ذلك ما ورد بشأن الإمامة من أنّها: «منزلة الأنبياء، وإرث الأوصياء، إنّ الإمامة خلافة الله، وخلافة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ومقام أمير المؤمنين عليه السلام وميراث الحسن والحسين عليهما السلام، إنّ الإمامة زمام الدين ونظام المسلمين، وصلاح الدنيا، وعزّ المؤمنين، إنّ الإمامة أسّ الإسلام النامي، وفرعه السّامي، بالإمام تمام الصلاة والزكاة والصيام والحجّ والجهاد، وتوفير الفيء والصدقات، وإمضاء الحدود والأحكام، ومنع الثغور والأطراف».

وحول الإمام أنّه: «النجم الهادي، والماء العذب، والمنجي من الرّدى، والسحاب الماطر، ومفزع العباد في الداهية، وأمين الله في خلقه، وحجّته على عباده، وخليفته في بلاده، والداعي إلى الله، والذابّ عن حرم الله، ونظام الدين، وعزّ المسلمين، وغيظ المنافقين، وبوار الكافرين»[١].

وفي روايةٍ أخرى عن الإمام الصادق ذكر صراحةً:

أنّ كلّ ما كان يمارسه النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم من مسؤوليات ومهامّ يتحمّلها الإمام عليّ عليه السلام والأئمّة من ولده أيضًا[٢].

وفي رواية أخرى عن الإمام الصادق عليه السلام نرى تأكيدًا على إطاعة «الأوصياء» وتوضّح الرواية[٣] أنّ الأوصياء هم انفسهم الّذين عبّرعنهم القرآن بـ ﴿أُوْلِي الأَمْرِ﴾[٤].

إنّ مئات الروايات المتفرّقة في الأبواب والكتب المختلفة، تصرّح أنّ مفهوم الإمام والإمامة في الثقافة الشيعيّة ما هو إلّا القيادة وإدارة شؤون الأمّة المسلمة، وأنّ أئمّة أهل البيت عليهم السلام هم الأصحاب الحقيقيّون للحكومة. وتدلّ جميع (هذه الروايات)، بما لا يبقي أيّ شكّ أو ترديد، لأيّ باحثٍ منصف، على أنّ أئمّة أهل البيت عليهم السلام في ادّعائهم الإمامة ذهبوا إلى ما هو أبعد من المقام الفكريّ والمعنويّ، ليطالبوا بالحكومة أيضًا كحقٍّ ثابتٍ لهم. ودعوتهم على هذا النطاق الواسع الشامل إنّما هي دعوة لنضالٍ سياسيّ عسكريّ لتسلّم السلطة. القائد الصادق

لو تصوّر أحدٌ أنّه لم يكن للأئمّة التسعة والثمانية، من الإمام السجّاد إلى الإمام العسكريّ، سوى ذكر أحكام الدين ومعارفه، وأنّه لم يكن لهم أيّ نوع من الجهاد السياسيّ بما يتناسب مع زمانهم، فإنّه حتمًا لم يحقّق غورًا كافيًا في حياة هؤلاء العظماء. فهذا ما يبرز بوضوح من أحوال هؤلاء العظماء، وفي الأساس لا يمكن قبول معنى الإمامة في الإسلام والفلسفة الّتي يطرحها الشيعة

---

١. الكافي، كتاب الحجة، باب نادر جامع في فضل الإمام وصفاته، ح ١.

٢. الكافي، كتاب الحجة، باب إنّ الائمة هم اركان الأرض، ح ١، نص الحديث: جرى له من أفضل ما جرى لمحمّد... ولقد حملت على مثل حموله... وكذلك يجري لأئمّة الهدى واحدًا بعد واحد.

٣. الكافي، كتاب الحجه، باب فرض طاعة الأئمه ع، ح ١٦.

٤. سورة النساء، الآية: ٨٣.

حولها إلّا في هذا الطريق وبما يتناسب معه. ولو لم يكن لدينا دليلٌ واضحٌ على جهاد الأئمّة، ينبغي الاعتقاد أنّهم قد جاهدوا، وإن لم نعلم، أو لم يصلنا دليل. ولا يصحّ أن نعتقد بالإمامة بمعناها في ثقافة الإسلام ـ ليس فقط في ثقافة التشيّع ـ وفي نفس الوقت نقبل مثلًا أنّ ائمتنا عليهم السلام، جلسوا في بيوتهم طيلة المائة والخمسين سنة أو أكثر، ولم يفعلوا شيئًا بل اشتغلوا ببيان أحكام القرآن والمعارف الإسلامية دون أن يكون لهم أيّة مواجهة سياسيّة:

فمثل هذا الشيء ليس صحيحًا بأيّ شكلٍ من الأشكال. بالطبع، عندما نقول إنّ الأئمّة جاهدوا، يجب علينا أن نلتفت إلى أنّ الجهاد يكون في كلّ زمانٍ بشكلٍ خاصّ. فأحيانًا، يكون الجهاد من خلال العمل الثقافيّ، والعلميّ، والسياسيّ، والتنظيميّ، والحزبيّ، وتأسيس المنظّمات، وأحيانًا من خلال التضحية والأنشطة العسكريّة والقتال الظاهريّ. وفي كلّ زمانٍ جهادٌ بنحوٍ ما. ١٩٨٧/٧/٣١

من الممكن أن يستشكل البعض ويقول كيف كان الأئمّة عليهم السلام يجاهدون ويناضلون من أجل الإمساك بزمام الحكومة، في حين أنّهم بعلمهم الإلهي كان يعلمون بأنّهم لن يصلوا إلى الحكم؟ فمن المعلوم أنّ حياة الأئمّة عليهم السلام تدلّ على أنّهم لم يتمكّنوا من الوصول إلى الحكومة، ولم يشكّلوا المجتمع والنظام الإسلاميّ بحسب ما كانوا يرونه وبحسب تكليفهم. لكن كيف يمكن للأئمّة أن يقوموا بهذا الأمر، مع أنّهم كانوا يعلمون، وقد اطّلعوا بواسطة الإلهام الإلهيّ على ذلك؟

والجواب عن هذه الفكرة: إنّ معرفة عدم الوصول إلى الهدف لا تمنع من أداء الوظيفة والتكليف. فعلى سبيل المثال نجد في حياة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، أنّه كان عالمًا بهزيمة المسلمين في معركة أُحد، وكان يعلم أنّ أولئك الّذين وقفوا على كتف الجبل لن يصمدوا وسوف تحرّكهم أطماعهم نحو الغنائم. وكذلك عندما ذهب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إلى الطائف من أجل هداية بني ثقيف، ولجأ إليهم من شرّ أهل مكّة، كان يعلم أنّهم سيستقبلونه بالحصى والحجارة. لقد رموه بالحجارة إلى درجة أنّ الدم سال من ساقيه المباركتين واضطُرّ إلى الرجوع. والأئمّة عليهم السلام كانوا يعلمون ذلك كلّه. كان أميرالمؤمنين عليه السلام يعلم أنّه سوف يستشهد في الواحد والعشرين من شهر رمضان، لكنّه في نفس الوقت، وقبيل شهر رمضان، أقام معسكرًا كبيرًا خارج الكوفة من أجل أن يكمل حربه مع معاوية. لو كانت معرفة

أميرالمؤمنين عليه السلام موجبة لأن لا يعمل طبق المسار العاديّ، فلماذا نصب ذاك المخيّم؟ ولماذا جيّش الجيوش فأخرج الناس إلى خارج الكوفة وجعلهم ينتظرون؟ لماذا؟ ما هي الفائدة؟ إنّ معرفة الأئمّة عليهم السلام بأنّهم لن يصلوا إلى الحكم لا ينبغي أن تؤدّي إلى إيقاف مساعيهم. بل يجب السعي والجهاد والقيام بكلّ ما ينبغي كشخصٍ لا يعلم ما ينتظره. ١٩٨٥/٤/١٢

المراحل الأربع لمسيرة الإمامة

ظهرت مسيرة الإمامة منذ اليوم الأوّل لرحيل النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ـ في شهر صفر من السنة الحادية عشرة للهجرة ـ واستمرّت حتّى عام وفاة الإمام الحسن العسكريّ عليه السلام ـ في شهر ربيع الأوّل سنة ٢٦٠ هـ.ق. ـ وسط مجتمع المسلمين. وطوت المسيرة، خلال هذه السنوات، أربع مراحل بصورة تقريبيّة، وكان لكلّ مرحلة خصائصها بلحاظ مواقف الأئمّة عليهم السلام مقابل القوى السياسية المهيمنة.

المرحلة الأولى: هي مرحلة السكوت، أو مرحلة التعاون مع الحكّام والسلطات.

تميّزت هذه المرحلة بأنّ المجتمع الإسلاميّ الحديث الولادة والفتيّ كان محفوفًا بأعداء مقتدرين تربّصوا بالإسلام من الخارج، وبوجود عناصر من جماعات حديثة العهد بالإسلام، لا يتحمّل المجتمع أن يرى تشتّتًا فيه، وكلّ ثغرة في جسد الأمّة كانت تشكّل تهديدًا لأساس المجتمع الإسلاميّ ووجوده. ومن جانب آخر، لم يكن منحنى انحراف الواقع عن الحقيقة كبيرًا بحيث لم يعد قابلًا للتحمّل بالنسبة لشخص مثل أميرالمؤمنين عليبنأبي‌طالب عليه السلام ـ الّذي هو أحرص الناس على سلامة الرسالة وسلامة المجتمع الإسلاميّ وأكثرهم التزامًا بها ـ ولعلّ هذه الحالة الّتي حدثت في المجتمع الإسلاميّ، هي الّتي أشار إليها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين أوصى تلميذه الفذّ بالصبر عند وقوعها[1].

لقد استوعبت هذه المرحلة الّتي امتدت لـ ٢٥سنة حياة الإمام عليّ عليه السلام منذ وفاة الرسول

---

١. بحارالأنوار، كتاب الفتن والمحن، باب ٤، ح ٧. عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يا علي إن القوم نقضوا أمرك واستبدّوا بها دونك وعصوني فيك فعليك بالصبر حتى يُنزِل الله الأمر، وإنهم سيغدرون بك لا محالة فلا تجعل لهم سبيلًا إلى إذلالك وسفك دمك، فإن الأمّة ستغدر بك بعدي، كذلك أخبرني جبرئيل عليه السلام من ربي تبارك وتعالى».

الأكرم ﷺ ـ عام ١١ للهجرة ـ حتّى تولّيه الخلافة ـ سنة ٣٥ للهجرة ـ وقد شرح الإمام موقفه في هذه المرحلة من خلال الكتاب الّذي وجّهه إلى أهالي مصر عبر مالك الأشتر عندما ولّاه إمارتها، حيث جاء فيه: «فأمسكت يدي، حتّى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام يدعون إلى محق دين محمّد ﷺ فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلمًا أو هدمًا تكون المصيبة به عليّ أعظم من فوت ولايتكم»[١].

إنّ حياة أميرالمؤمنين عليه السلام في هذه السنوات الـ ٢٥ لهذه المرحلة، تحكي عن التدخّل الفعّال والدعم والعون الحاصل من الحرص الكبير على الإسلام ومجتمع المسلمين. إنّ أجوبة هذا الإمام لخلفاء زمانه و إرشاداته، فيما يتعلّق بالقضايا السياسية والاجتماعية وغيرها، قد نُقلت في نهج البلاغة وغيرها من كتب الحديث والتاريخ، وهي شاهدة على عدم تردّده في هذا الأسلوب.

المرحلة الثانية: هي مرحلة تسلّم الحكم ووصول الإمام إلى السلطة.

هذه المرحلة استغرقت أربعة أعوام وتسعة أشهر من خلافة أميرالمؤمنين عليّ عليه السلام، وبضعة أشهر من خلافة ولده الحسن عليه السلام. وبالرغم من قصر هذه المرحلة، وما اكتنفته من آلام وهموم ومشاكل ومصاعب لا تُحصى لا تنفكّ عادة عن كلّ حكومة ثوريّة، إلا أنّها سجّلت أنصع الصفحات وأروعها في تاريخ الحكومة الإسلامية، بما قدّمته من طريقة إنسانية في التعامل، ومن عدل مطلق والتزام دقيق بأحكام الإسلام بأبعاده المختلفة في إدارة المجتمع الإسلاميّ. هذا إلى جانب الحزم والصراحة والجرأة في التطبيق واتّخاذ المواقف.

هذه المرحلة من تاريخ الإمامة كانت النموذج الّذي دعا أئمّة أهل البيت عليهم السلام، خلال القرنين التاليين، إلى تطبيقه في الحياة السياسية والاجتماعية وسعوا على طريقه. وكان الشيعة يذكرون مثل هذه الذكريات العظيمة ويتحسّرون عليها، ويندّدون بالأنظمة الّتي تلتها عند مقارنتهم بها. و في نفس الوقت كانت درسًا وتجربةً ملهمة يمكن أن تدلّ على أحوال أيّة حكومة ثوريّة وإسلاميّة صرفة داخلَ مجتمعٍ فاسدٍ وجماعةٍ منحرفة لم تتربَّ، ومنذ ذلك الوقت كانت تُفرض

---

١. نهج البلاغة, كتاب ٦٢.

الأساليب والمناهج البعيدة المدى والمتلازمة مع كلّ أنواع التربية الصعبة والحزبية الشديدة على الأئمّة اللاحقين.

المرحلة الثالثة: هي الّتي استوعبت السنوات العشرين، بين صلح الإمام الحسن عليه السلام سنة٤١ هـ.ق.، وشهادة الإمام الحسين عليه السلام سنة ٦١هـ.ق.

بعد صلح الإمام الحسن عليه السلام بدأ نوع من العمل شبه السرّيّ للشيعة، كان هدفه إعادة القيادة الإسلامية إلى عترة النبيّ في الفرصة المناسبة. وهذه الفرصة، ووفق الاستنتاج الطبيعيّ، لم تكن بعيدة المنال، وكان تحقّقها مأمولًا بعد انتهاء حياة معاوية الشريرة، لهذا، يمكن تسمية المرحلة الثالثة «مرحلة السعي البنّاء القصير المدى لإيجاد الحكومة والنظام الإسلاميّ»[1].

المرحلة الرابعة: وهي مرحلة متابعة ذلك النهج في برنامج بعيد المدى. في زمنٍ قارب القرنين، وشهد انتصاراتٍ وهزائم في مراحل مختلفة، وتلازم مع الانتصار القاطع في مجال العمل الإيديولوجيّ، وامتزج بمئات التكتيكات المتناسبة مع الزمان، والمزيّنة بآلاف مظاهر الإخلاص والتضحية وعظمة الإنسان الّذي يريده الإسلام. القائد الصادق

إنّ أهمّ شيء في حياة الأئمّة عليهم السلام، ممّا لم يتمّ الالتفات إليه بصورةٍ لائقة، هو عنصر الجهاد السياسيّ الحادّ في بداية النصف الثاني من القرن الأوّل للهجرة، حينما امتزجت الخلافة الإسلامية وبصورة علنية بزخارف السلطنة والملكية وتبدّلت الإمامة الإسلامية إلى حكومة ملكية جائرة. هناك شدّد أئمّة أهل البيت عليهم السلام نضالهم السياسي بما يتناسب مع الأوضاع والظروف. وكان الهدف الأكبر لهذا النضال هو تشكيل النظام الإسلامي وتأسيس الحكومة على أساس الإمامة. ولا شكّ بأنّ تبيين الدين وتفسيره بحسب الرؤية الخاصّة لأهل بيت الوحي، ورفع التحريفات والتفسيرات المغلوطة للمعارف الإسلامية والأحكام الدينية، كانت أيضًا هدفًا مهمًّا لجهاد أهل البيت عليهم السلام. إلّا أنّه وبناءًا للقرائن الحتميّة لم يكن جهاد أهل البيت منحصرًا بهذه الأهداف، و كان أكبر هدفهم تشكيل الحكومة العلويّة وتأسيس النظام الإسلاميّ العادل.

---

١. في هذا المجال قد بحثت وضمن عدّة خطب بشرح وتفصيل وذكر الوثائق والشواهد. (الكاتب)

وإنّ أشدّ الصعاب في حياة الأئمّة وأنصارهم، المليئة بالمرارة والإيثار، كانت بسبب وجود هذا الهدف، وقد كانوا منذ عهد الإمام السجّاد عليه السلام وبعد واقعة عاشوراء ينهضون لتأمين أرضية مناسبة بعيدة المدى لتحقّق هذا الهدف.

وفي جميع مراحل المائة وأربعين سنة، ما بين واقعة عاشوراء وقضية ولاية العهد للإمام الثامن، كان التيّار المرتبط بأئمّة أهل البيت ـ أي الشيعة ـ يعتبر العدوّ الأكبر والأخطر للأجهزة الحاكمة. وفي تلك المدّة، تأمّنت الظروف والأرضية المناسبة، مرّات عدّة، واقترب نضال التشيّع الّذي ينبغي تسميته بالنهضة العلوية، من الانتصارات الكبرى. ولكن في كلّ مرّة كانت تبرز الموانع على طريق النصر النهائيّ. وفي الأغلب كانت أكبر الضربات توجّه إلى المحور والمركز الأساس لهذه النهضة، وهو شخص الإمام في كلّ زمان، من خلال سجنه أو قتله. وعندما كان يصل الدور إلى الإمام اللاحق كان القمع والضغط والتشديد يصل إلى حدّ يتطلّب زمانًا أطول من أجل تهيئة وإعداد الأرضية المناسبة.

وقد تمكّن الأئمّة من تثبيت التشيّع وسط هذا الإعصار الشديد لهذه الأحداث بكلّ شجاعة وحكمة، كتيّارٍ صغيرٍ، لكنّه عميقٌ وقويٌّ وثابتٌ وسط تلك المعابر الشديدة والخطرة. ولم يتمكّن الحكّام الأمويّون والعبّاسيّون من القضاء على تيّار الإمامة بقتلهم الإمام. وقد بقي هذا الخنجر الحادّ دومًا في خاصرة أجهزة الحكم، يُقضّ مضاجعهم بشكل دائم. ١٩٨٤/٨/٩

الفصل الثالث

الإمام علي عليه السلام

إنّ وجود أميرالمؤمنين ﷺ يُعدّ درسًا خالدًا لا يُنسى لكلّ الأجيال البشريّة، من جهاتٍ عدّة وفي الظروف والأوضاع المختلفة؛ سواءٌ في عمله الفرديّ والشخصيّ أم في محراب عبادته أم في مناجاته أم في زهده أم في فنائه في ذكر الله، أم في جهاده مع النفس والشيطان والدوافع النفسانية والمادية. ما زالت كلمات أميرالمؤمنين ﷺ تصدح آفاق عالم الخلقة والحياة الإنسانية وتملأها: «يا دنيا... غرّي غيري»[1]. أيّتها الزخارف الدنيوية والزبارج المليئة بالجاذبيّة وكلّ أنواع الزخارف التي تجذب أقوى البشر، اذهبي إلى شخصٍ آخر لتخدعيه، إنّ عليًا أكبر وأقوى وأسمى من هذه الأمور. لهذا يجد كلّ إنسانٍ صاحٍ دروسًا لا تُنسى في كلّ لحظات حياة أميرالمؤمنين ﷺ وفي ارتباطه بالله وإيمانه به.

وفي البعد الآخر أيضًا، في جهاده لأجل رفع خيمة الحقّ وإقامة العدالة، أي منذ ذلك اليوم الّذي حمل فيه النبيّ الأكرم ﷺ ثقل الرسالة على عاتقه، ومن الساعات الأولى، وجد إلى جانبه شخصًا مجاهدًا مؤمنًا مضحّيًا ـ كان ما زال في بداية عهده وشبابه ـ وهو عليٌّ ﷺ. وإلى آخر ساعات حياة النبيّ ﷺ المباركة، لم يتوقّف أميرالمؤمنين ﷺ لحظةً واحدة عن الجهاد في طريق إقامة النظام الإسلاميّ، وفيما بعد من أجل الحفاظ عليه. فكم جاهد وكم خاطر بنفسه وكم ذاب في طريق الجهاد من أجل إقامة الحقّ والعدل! هناك حينما لم يصمد في الميدان أحد، كان يبقى.

---

١. نهج البلاغة، الحكمة ٧٧.

هناك حين لم يكن يجرؤ أحدٌ على الإقدام كان يقدم. هناك حين كانت الصعاب كالجبال الرواسي تنهال على رؤوس المجاهدين في سبيل الله، كانت قامته الشامخة تمنح الآخرين العزم والطمأنينة. بالنسبة له كان معنى الحياة هو أن يستفيد من الإمكانات الّتي منحه الله إيّاه من القوّة الجسمانية والروحيّة والعاطفيّة وغيرها من أجل إعلاء كلمة الحقّ ولإبقاء الحقّ حيًّا. وبقدرة عليّ وعضده وجهاده وإرادته بقي الحقّ حيًّا.

إذا كانت مفاهيم الحقّ والعدل والإنسانية وغيرها من المفاهيم الّتي لها قيمة إنسانية بالنسبة لأصحاب الفهم في هذا العالم، وبقيت وازدادت قوّة ورسوخًا يومًا بعد يوم، فذلك بسبب تلك المجاهدات والتضحيات. لو لم يكن أمثال عليّ بن أبي طالب عليه السلام ـ والّذين هم عبر تاريخ البشرية قلّة نادرة ـ لما كان اليوم لأيّة قيمة إنسانية من وجود، ولما كانت هذه العناوين الجذّابة للناس تمتلك أيّة جاذبية. ولما كان للبشر حياةٌ وحضارةٌ وثقافةٌ وآمالٌ وقيمٌ وأهدافٌ ساميةٌ، ولتبدّلت البشرية إلى حيوانية وحشية وسبعية. إنّ البشرية مَدينةٌ لأميرالمؤمنين عليه السلام ولكلّ إنسانٍ بلغ من السموّ مرتبته، في حفظ المفاهيم السامية. إنّ كلّ ذلك الجهاد ترك هذا الأثر.

البعد الآخر من حياة أميرالمؤمنين عليه السلام هو في ميدان الحكومة. عندما تسلّم هذا الإنسان، صاحب الفكر العميق والشخصية العظيمة، في نهاية الأمر، الحكومة، في ذلك العهد القصير الامد قام بأعمالٍ، لو قام المؤرّخون والكتّاب والفنّانون ولسنواتٍ طويلة بالكتابة عنها وتجسيدها وتصويرها لما قالوا إلا القليل. كان وضع حياة أميرالمؤمنين عليه السلام في عصر حكومته مشوّشًا ومضطربًا، لقد بدّل عليّ عليه السلام معنى الحكومة.

إنّه تجسيدٌ للحكومة الإلهية، و تجسيدٌ للآيات القرآنية بين المسلمين، وتجسيدٌ لـ ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[١]، وتجسيدٌ للعدل المطلق. «كان يقرّب المساكين»[٢] ويعتني بالضعفاء عنايةً خاصّة. ولقد كان الوجهاء، الّذين يفرضون أنفسهم بغير حقّ بواسطة المال والسلطة وغيرها من

---

١. سورة الفتح، الآية: ٢٩.

٢. شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد، باب الحكم والمواضع، ح ٧٥.

الوسائل، كانوا في نظر عليّ عليه السلام هم والتراب على حدّ سواء. والّذي كان في نظره وقلبه ذا قيمة، هو الإيمان والتقوى والإخلاص والجهاد والإنسانية. وبهذه المباني القيّمة حكم أميرالمؤمنين عليه السلام أقلّ من خمس سنوات. ولقرونٍ يُكتب عن أميرالمؤمنين عليه السلام، وقد كُتب القليل، وعجزوا عن تصوير الحقيقة دائمًا، وأفضل هؤلاء الكُتّاب يعترفون بالعجز والتقصير. ١٩٩١/١/٣٠

إنّ أعظم خصائصه هي التقوى. فنهج البلاغة هو كتاب التقوى، وحياته طريق التقوى وسبيله. ١٩٩٩/١/٨

هذه الآية الشريفة ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ﴾[1] نزلت في أميرالمؤمنين. وتأويل هذه الآية هو عليّ بن أبي طالب عليه السلام. تقول الآية: إنّ من بين الناس هناك من يبيع نفسه ووجوده، أي أعزّ ما عند الإنسان، هذا الرأسمال العزيز الوحيد الّذي لا يمكن جبرانه ـ بحيث إنّك لو قدّمته لن يكون بعدها عنه بديل ـ فبعض يقدّم هذا الرأسمال وهذا الموجود دفعةً واحدة من أجل الحصول على رضا الله لا غير، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي﴾ يعني يبيع، يقدّم، نفسه يعني وجوده، ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ﴾ أي أنّه لا يبغى مقصدًا دنيويّاً أو نزعةً ماديةً أوليلى دافعًا ذاتيًّا، وإنّما يريد رضا الله فقط. وفي مقابل مثل هذا الإيثار وهذه التضحية، فإنّ الله لا يردّ هذا الفعل الا بما يناسبه، ﴿وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ ومصداقه الكامل هو أميرالمؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام. وسوف أبيّن هذا البعد.

الناظر إلى تاريخ حياة أميرالمؤمنين عليه السلام، منذ الطفولة، منذ ذلك الوقت الّذي كان فيه في سنّ التاسعة أو الحادية عشرة، يرى أنه كان قد آمن بنبوّة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وأدرك الحقيقة بوعيٍ تامّ وتمسّك بها، ومنذ تلك اللحظة وإلى حين شهادته في محراب عبادته، سحر اليوم التاسع عشر من شهر رمضان، قدّم نفسه في سبيل الله فرحًا مسرورًا مليئًا بالشوق إلى لقاء ربّه. طوال هذه السنوات الخمسين تقريبًا أو أكثر، منذ سنّ العاشرة وحتى سن الـ٦٣ يُرى أنّ هناك خطًّا واحدًا مستمرًّا يشرح ويبيّن حياة أميرالمؤمنين عليه السلام، وهو خطّ الإيثار. وفي كلّ القضايا الّتي مرّت عليه،

---

١. سورة البقرة، الآية: ٢٠٧.

طيلة هذا التاريخ الممتدّ لـ٥٠ سنة تظهر علائم الإيثار من الأوّل وإلى الآخر. وهذا في الحقيقة درسٌ وعبرةٌ لنا. ونحن الّذين نتحدّث عنه ونبحث عنه ونُعرف في العالم بمحبّته يجب أن نأخذ هذا الدرس منه عليه السلام، فمجرّد الحبّ لا يكفي، ومجرّد معرفة فضيلة عليّ عليه السلام لا تكفي. كان هناك من يعترف في قلبه بفضائل علي بن أبي طالب عليه السلام، ولعلّهم أكثر منّا ـ نحن الّذين يفصلنا عنه ١٤٠٠ سنة ـ هؤلاء أو بعضهم كانوا يحبّون عليًّا من القلب كإنسانٍ معصومٍ منزّه، ولكن كان سلوكهم مختلفًا، لأنّهم لم يمتلكوا تلك الخصوصية وذلك الإيثار وترك العمل من أجل حب الذات، بل كانت تشغلهم أنفسهم. وكان امتياز عليّ عليه السلام في أنّه لم يحبس في سجن الذات. لم تأخذه الأنانية والأنا أبدًا، بل كلّ ما كان عنده هو اداء الواجب والجهاد في سبيل الله.

منذ البداية حينما آمن أميرالمؤمنين عليه السلام في أيّام طفولته بالنبيّ كان يتعرّض للأذى والسخرية من الجميع في مكّة. تصوّروا مدينةً يستخدم أهلها العنف بشكل طبيعيّ، ولم يكونوا متحضّرين ووقورين ولائقين. قومٌ يتشاجرون عند أدنى مسألة، وشديدو التعصّب لتلك العقائد الباطلة، في مثل ذلك المجتمع، طُرحت رسالة من إنسانٍ عظيمٍ جعلت كلّ شيء في ذلك المجتمع مورد تشكيك، على مستوى العقائد والآداب والتقاليد، فمن الطبيعيّ أن ينهض الجميع لمخالفة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وبكلّ طبقاتهم، حتّى عامّة الناس. ولكي يدافع المرء عن هذا الإنسان وعن هذه الرسالة بكلّ وجوده ويتمسّك به ويتّبعه، هذا بحدّ ذاته يتطلّب الإيثار وتجاوز الأنا. وكانت هذه هي الخطوة الأولى من إيثار أميرالمؤمنين عليه السلام.

وقف عليّ بن أبي طالب عليه السلام لمدّة ١٣ سنة إلى جانب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في أصعب المواطن. صحيحٌ أنّ هجرة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم كانت اضطرارية وتحت الضغط المتواصل لقريش وأهل مكّة، لكنّها كانت ذات مستقبلٍ مشرق، لأن الجميع كان على علم أنّ هذه الهجرة هي مقدّمة التوفيقات والانتصارات. وهناك حينما تتجاوز أيّة نهضةٍ مرحلة المحنة لتدخل في مرحلة الراحة والعزّة، هناك حينما يكون الجميع منشغلًا بحسب العادة لكي يوصلوا أنفسهم أسرع من غيرهم علّهم يأخذون من المناصب الاجتماعية شيئًا وينالون مكانةً، في تلك اللحظة، وفي تلك الليلة المظلمة

الحالكة، كان أميرالمؤمنين عليه السلام مستعدًّا لينام مكان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في فراشه حتّى يتمكّن النبي من الخروج من منزله ومن هذه المدينة. في تلك الليلة، كان مقتل من ينام في ذاك الفراش أمرًا شبه قطعيّ وحتميًا. كوننا نحن نعلم ما حدث، ونعلم أنّ أميرالمؤمنين لم يُقتل في تلك الليلة، هذا لا يعني أنّه في تلك الأثناء أيضًا كان الجميع على علم بذلك، كلّا، القضية كانت محتومةً في تلك الليلة المظلمة وفي لحظة معينة، كان من المقرر أن يُقتل مثل هذا الإنسان. كان يُقال إنّه ومن أجل أن يخرج هذا السيّد من هنا ينبغي أن يكون هناك شخصٌ آخر مكانه حتّى يظنّ الجواسيس، الّذين يراقبونه، بأنّه ما زال هناك، فمن هو المستعدّ لهذا الامر؟ هذا هو إيثار أميرالمؤمنين عليه السلام الّذي يُعدّ بذاته عملًا استثنائيًا من حيث الأهمية. لكنّ توقيت هذا الإيثار يزيد على أهميّته. ففي أيّ وقتٍ كان ذلك؟ في الوقت المتوقّع فيه أنه سينقضي زمن المحنة، وسيأتي فترة الراحة و زمن تشكيل الحكومة، حيث إنّ أهل يثرب قد آمنوا وهم ينتظرون النبيّ.

الكلّ يعلم ذلك. في تلك اللحظة يؤثر أميرالمؤمنين عليه السلام، ولم يكن هناك أيّ دافع شخصيّ عنده لكي يُقدِم على مثل هذه الحركة الكبرى. وبعدها يأتي إلى المدينة وتبدأ المعارك المتواصلةوالقتال لحكومة النبيّ الفتيّة.

فالمعارك والحروب كانت دائمة، هكذا كانت خاصيّة تلك الحكومة. كان هناك مواجهات دائمة، بدأت قبل معركة بدر، واستمرّت على مدى السنوات العشر تلك، وإلى آخر حياة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، خاض فيها النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم عشرات المعارك والمواجهات مع الكفار على مختلف أنواعهم وأقسامهم وشُعَبِهم. وفي كلّ هذه المراحل، كان أميرالمؤمنين عليه السلام حاضرًا ليكون أوّل من يتصدّى وأكثر الناس تضحيةً وفداءً واستعدادًا للموت بين يديّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، كما بيّنه أميرالمؤمنين عليه السلام نفسه، وأظهره التاريخ في جميع هذه المراحل والميادين المهولة: «ولقد واسيته بنفسي في المواطن الّتي تنقص فيها الأبطال وتتأخّر فيها الأقدام»[1]. وقف أميرالمؤمنين عليه السلام في أشدّ اللحظات الحرجة وما كان يلوي على شيء أو يقول إنّ هناك خطرًا. بينما كان بعض الناس يفكّر

١. نهج البلاغة، الخطبة ١٩٧.

في نفسه والحفاظ عليها بحجة أن يكون فيما بعد مفيدًا للإسلام. ولم يخدع أميرالمؤمنين عليه السلام نفسه أبدًا بمثل هذه المعاذير، ولم تكن نفسه السّامية لتُخدع. ففي جميع مراحل الخطر كان أميرالمؤمنين عليه السلام حاضرًا في الخطوط الأمامية. ١٩٩٩/١/٨)

مرحلة السكوت والتعاون

إنّ أشدّ مراحل حياة أميرالمؤمنين عليه السلام قد بدأت في هذه السنوات الثلاثين، أي بعد أن انتهى عصر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ورحل الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم عن هذه الدنيا. فكانت أشدّ محن أميرالمؤمنين عليه السلام في هذه الأيّام و في هذه المرحلة. فذهبت تلك الأيّام الّتي كان النبيّ العزيز صلى الله عليه وآله وسلم حيًا يعيش معه ويجاهد في كنفه، كانت أيّامًا جميلةً وعذبةً. و الأيّام المرّة هي الأيّام الّتي جاءت بعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم. أيّامٌ كانت الفتن فيها كقطع الليل المظلم تُرى من الأفق بحيث إنّه لم يكن من يريد أن يتحرّك تحرّكًا صحيحًا، بقادر على أن يرفع قدمًا عن قدم، هناك بالتحديد وفي تلك الظروف قدّم أميرالمؤمنين عليه السلام أكبر امتحانات الإيثار.

أوّلًا، وأثناء وفاة النبيّ كان أميرالمؤمنين عليه السلام منشغلًا بأداء الواجب. لا أنّه لم يكن يعلم بوجود اجتماعٍ ومن الممكن أن يُحدّد فيه مصير السلطة والحكومة في العالم الإسلامي. لم تكن القضيّة بالنسبة لأميرالمؤمنين عليه السلام من أجل هذا، ولم تكن قضية الأنا متصورة عنده من الأصل. بعد أن استقرّت قضية الخلافة، وبايع الناس أبابكر وانتهى كلّ شيء، انزوى أميرالمؤمنين عليه السلام، ولم يُسمع عنه أيّة كلمةٍ أو موقفٍ يحكي عن معارضته للجهاز الحاكم. نعم، قد كان ذلك منه في الأيّام الأولى، كان يسعى لعلّه يتمكّن من إحقاق ما يراه بحسب عقيدته حقًّا، وممّا ينبغي القيام به. لكنّه عندما رأى الأمر خلاف ذلك، وأنّ الناس قد بايعوا وانتهت القضية، وأضحى أبوبكر خليفة المسلمين، نرى أن أميرالمؤمنين عليه السلام ـ كما عُرف عنه في تاريخ الإسلام ـ بأنّه لا يبدر منه أي خطر أو تهديد أو ضرر على النظام الحاكم، وإن كان معارضًا له. فأمير المؤمنين عليه السلام في هذه المرحلة ـ والّتي لم تكن مديدة، لعلّها لم تكن أكثر من عدّة أشهر ـ قال «لقد علمتم أنّي أحقّ الناس بها من غيري».

«ووالله لأسلمنّ ما سلُمت أمور المسلمين»، ـ فما دمتُ أرى أنّه لا يُظلم أحد ـ «ولم يكن فيها جورٌ إلا عليّ خاصّة[١]»، فإنّني لن أقوم بأيّ عمل ولن أعارض أبدًا.

وبعد مدّةٍ وجيزة، لا تزيد على عدّة أشهر، بدأ ارتداد بعض الجماعات، ولعلّها كانت مدفوعةً لذلك، حيث شعرت بعض القبائل العربية أنّه طالما لا يوجد نبيّ ولا يوجد قائد للإسلام، فلا بأس أن يختلقوا إشكالات وأن يعارضوا ويحاربوا ويثيروا القلاقل، ولعلّ ذلك كان بتحريك من المنافقين، فنشأ تيّار الردّة ـ أي ارتداد مجموعة من المسلمين ـ وبدأت حروب الردّة. فأصبح الوضع بحيث لا يحتمل أن يجلس أميرالمؤمنين عليه السلام جانبًا، فكان لا بدّ له (في مثل هذا الوضع) من أن يدخل ميدان الدفاع عن الحكومة. هنا يقول: «فأمسكت يدي»، فبعد أن حدثت قضية الخلافة وصار أبو بكر خليفة المسلمين «أمسكت يدي» وجلست جانبًا. فهذه الحالة، حالة الاعتزال، «يدعون إلى محق دين محمّد صلى الله عليه وآله وسلم»[٢]، هنا نزل إلى الميدان. وكان فعّالًا جدًا، وفي جميع القضايا الاجتماعية المهمّة، كان أميرالمؤمنين عليه السلام حاضرًا.

ويصف أميرالمؤمنين عليه السلام حضوره في مرحلة الـ ٢٥سنة من خلافة الخلفاء الثلاثة، بالوزارة؛ فعندما جاؤوا إليه بعد مقتل عثمان وبايعوه بالخلافة، قال: «وأنا لكم وزير خيرٌ منّي أميرًا»[٣].

أي كما كنت لكم في السابق دعوني كذلك. فقد كان مقامه ومكانته طوال الـ٢٥ سنة مكانة الوزارة؛ أي أنّه كان دائمًا في خدمة الأهداف، وكان في المواقف يُعين المسؤولين والخلفاء الّذين كانوا على رأس الأمور، ومثل هذا يُعدّ إيثارًا لا مثيل له، يحيّر الإنسان في الواقع ويجعله يفكّر كم أنّ أميرالمؤمنين عليه السلام كان مؤثّرًا في حياته.

وخلال الـ ٢٥سنة هذه، لم يفكّر أبدًا بالقيام والانقلاب والمعارضة وجمع العدّة والإمساك بالقدرة والسيطرة على الحكومة. مثل هذه الأمور تأتي على أذهان الناس. فحين وفاة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم كان عمر أميرالمؤمنين عليه السلام نحو ٣٣ سنة. كان في مراحل الشباب والقدرة الجسمانية

---

١ نهج البلاغة، الخطبة ٧٤.

٢. نهج البلاغة، كتاب ٦٢.

٣. نهج البلاغة، الخطبة ٩٢.

ومرحلة النشاط. وكانت الوجاهة والمحبوبية بين عامّة الناس، والذهن الوقّاد، والعلم الوفير، وكلّ الجاذبيات الّتي يمكن أن تتوفّر لإنسان، كانت هذه الصفات كلها موجودةً في أميرالمؤمنين عليه السلام في أعلى درجاتها. فلو أراد أن يقوم بأيّ عملٍ لاستطاع ذلك. إلا أنّ أميرالمؤمنين عليه السلام، خلال مدة الـ ٢٥ سنة هذه، لم يُسمع منه أيّ شيء، ولم يتحرّك إلا من أجل خدمة تلك الأهداف العامّة والكلية للنظام الإسلاميّ الّذي كان ير أسّها الخلفاء. وكانت هناك أحداثٌ عظيمةٌ استثنائية، ولا أريد الآن أن أدخل هنا في شرح تلك الموارد التاريخية.

دُعي أميرالمؤمنين عليه السلام إلى الشورى المتشكّلة من ستة أشخاص بعد وفاة الخليفة الثاني، فلم ينزعج ودخل في الشورى. لم يقل إنّ هؤلاء ليسوا في مستواي، فأين طلحة والزبير وأين عبدالرحمن بن عوف وأين عثمان وأين أنا؟ وطبق وصيّة عمر، جعلوا ستة أشخاص بعنوان شورى من أجل أن ينتخبوا من بينهم خليفةً. وكان حظّ أميرالمؤمنين للخلافة من بين هؤلاء الستّة هو الأوفر. وكان رأي عبدالرحمن بن عوف هو الرأي الفاصل. أي أنّ أميرالمؤمنين كان له صوتان هو والزبير، وكان لعثمان صوتان هو وطلحة، وعبدالرحمن بن عوف كان له صوتان هو وسعد بن أبي وقّاص، وكان صوت عبدالرحمن بن عوف فاصلًا. فلو أنّه بايع أميرالمؤمنين عليه السلام لصار خليفةً، ولو بايع عثمان لصار هو الخليفة. هنا توجّه (عبد الرحمن بن عوف) إلى أميرالمؤمنين عليه السلام وسأله إن كان يعمل بكتاب الله وسنّة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وسيرة الشيخين، أي الخليفتين السابقين. فقال عليه السلام: كلّا، إنّني أعمل بكتاب الله وسنّة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، كان من الممكن بأقلّ تغاضٍ عمّا هو صحيحٌ وحقّ أن يستولي الحكم ويمسك بزمام السلطة. لكنّ أميرالمؤمنين عليه السلام لم يفكّر هكذا لحظةً واحدةً، ففقد الحكم وخسر السلطة. وهنا قد آثر ولم يطرح نفسه وإنّيته أبدًا، بل جعلها تحت قدميه. وما كانت مثل هذه المشاعر لتبرز في أميرالمؤمنين عليه السلام من الأساس.

وبعد مرور ١٢ سنة من حكومة عثمان، في نهاية الأمر، كثُرت الاعتراضات عليه وبدأ الناس يخالفونه ويعترضون عليه كثيرًا، وتقاطروا من مصر و العراق والبصرة ومن أماكن أخرى، وفي النهاية تشكّل جمعٌ كبير وحاصروا بيت عثمان وهدّدوه. هنا ماذا يمكن أن يفعل أيّ إنسان في موضع

أميرالمؤمنين عليه السلام ؟ ذاك الّذي يرى نفسه صاحب حقٍّ بالخلافة، وكان لمدّة ٢٥سنة يتغاضى عن حقّه وهو يعترض على سلوك الحاكم الحالي، ها هو الآن يرى بيت هذا الخليفة محاصرًا. فالشخص العاديّ بل حتّى النخب والوجهاء ماذا يفعلون في مثل هذه الحالة؟ نفس العمل الّذي قام به الآخرون، نفس ما فعله كلّ من طلحة والزبير وغيرهم، وكلّ الآخرين الّذين كان لهم في قضية عثمان ما كان. إنّ قضية قتل عثمان هي من الأحداث المهمّة جدًا في تاريخ الإسلام، ويمكن للإنسان أن يشاهد في نهج البلاغة وفي الآثار وفي التاريخ الإسلاميّ ما الّذي أدّى إلى مقتل عثمان، ليتّضح له بشكلٍ كامل من الّذي قتل عثمان ومن الّذي دفع إلى مقتله. أولئك الّذين كانوا قد جعلوا ادّعاء محبّة عثمان فيما بعد محور تحرّكاتهم، هنا طعنوه من الخلف، وكانوا يحرّكون الأمور من وراء الكواليس. سألوا عمروبن‌العاص من الّذي قتل عثمان، فقال: فلانٌ ـ وذكر اسم أحد الصحابة ـ هو الّذي صنع سيفه، والآخر أحدّه، والثالث سمّه، وذاك طعنه به. الواقع هو هذا.

هنا نجد أنّ أميرالمؤمنين عليه السلام في هذه الواقعة يقوم بما يراه تكليفًا إلهيًا وإسلاميًا بكامل الإخلاص. فقد أرسل إلى بيت عثمان كلًّا من الحسن والحسين عليهما السلام، هاتين الجوهرتين العظيمتين وبقية النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، من أجل الدفاع عن عثمان. كان المخالفون قد حاصروا بيت عثمان ومنعوا دخول الماء إليه، وكان أميرالمؤمنين عليه السلام يرسل له الماء والطعام، وفاوض مرّات ومرّات أولئك الّذين غضبوا على عثمان لعلّه يهدّئ من روعهم. وعندما قتلوا عثمان غضب أميرالمؤمنين عليه السلام عليهم.

هنا أيضًا، نجد أنّه لا يمكن أن نشاهد في أميرالمؤمنين عليه السلام أيّة حالة من الأنانيّة وحبّ الذات ومشاعر الأنا الّتي يمكن أن توجد في كل فرد من الناس. فبعد أن قُتل عثمان كان من الممكن لأميرالمؤمنين عليه السلام أن ينزل إلى الميدان كوجهٍ وكشخصٍ انتهازيّ ومدّعٍ لخلاص المجتمع، ويقول أيّها الناس ها أنتم قد ارتحتم أخيرًا وتخلّصتم من المشكلة، والناس سوف يحبّونه. لكنّه لم يفعل، فبعد حادثة عثمان لم يتحرّك أميرالمؤمنين عليه السلام نحو السلطة والإمساك بالحكومة. كم هي عظيمة هذه الروح الكبرى: «دعوني والتمسوا غيري»[1]، أيّها الناس اتركوني واذهبوا إلى شخصٍ آخر. ولو اخترتم

١. نهج البلاغة، الخطبة ٩٢.

شخصًا آخر فإنّني سأكون له وزيرًا وأعينه. هذه هي تصريحات أميرالمؤمنين عليه السلام في تلك الأيّام. لم يقبل الناس ولم يتمكّنوا من اختيار أحدٍ سوى أميرالمؤمنين للحكومة.

مرحلة الخلافة

لقد بايعت جميع الأقطار الإسلامية أميرالمؤمنين عليه السلام. وحتّى ذلك الوقت، لم يكن قد جرى مثل هذه البيعة العامّة الّتي تمّت لأميرالمؤمنين عليه السلام، حيث إنّ جميع الأقطار الإسلامية وكلّ الكبراء والصحابة قد بايعوه، باستثناء الشام الّذي لم يبايعه. فقط عدّة قليلة، أقل من عشرة أشخاص، لم يبايعوا أميرالمؤمنين عليه السلام، فأحضرهم إلى المسجد واحدًا واحدًا وسألهم لماذا لم تبايعوا ـ وكان من بين هؤلاء عبدالله بن عمر وسعد بن أبي وقّاص ـ فكان أن قدّم كلّ واحدٍ منهم عذرًا، وقال شيئًا. بعض منهم عاد وبايع، وبعضٌ آخر لم يبايع مطلقًا ـ عددٌ قليلٌ جدًا بعدد أصابع اليد الواحدة ـ فتركهم أميرالمؤمنين عليه السلام. ولكن بقية الوجوه المعروفة كطلحة والزبير وغيرهما وغيرهم قد بايعوا أميرالمؤمنين جميعًا، وقبل أن يبايعوه قال لهم: «واعلموا أنّي إن أجبتكم»، وهو يشير إلى أنّهم لو أصرّوا أن يمسك هو بالحكومة «ركبت بكم ما أعلم»[1]، فلا تتصوّروا أنّني سأراعي تلك الوجوه والشخصيات والهياكل القديمة والمشهورين والمعروفين، كلا، فلا تتصوّروا أنّني سأتّبع فلانًا وأقلّد فلانًا، أي أنّني سأديركم بحسب ما أعلم وما أشخّص وما أعرفه من الإسلام. وهكذا فقد أتمّ أميرالمؤمنين عليه السلام الحجّة على الناس وقبل بالخلافة. كان من الممكن لأميرالمؤمنين هنا، ولأجل حفظ مصالح المجتمع ورعاية جوانب القضية وأمثالها، أن يتنازل ويجذب إليه القلوب، لكنّه وبكلّ قاطعية أصرّ على الأصول والقيم الإسلامية بحيث إنّ كلّ هؤلاء الأعداء قد اصطفّوا أمامه، وكان أميرالمؤمنين عليه السلام يواجه معسكرًا مليئًا بالمال والشدّة والتزوير، ومعسكرًا آخر فيه الشخصيّات الوجيهة والمعتبرة والمعروفة، ومعسكرًا ثالثًا يضمّ المتظاهرين بالقداسة والتعبّد، لكنهم جاهلون بحقيقة الإسلام وروحه وتعاليمه ويجهلون شأنية أميرالمؤمنين عليه السلام ومقامه ممن يتشبّثون بالعنف والقسوة وسوء الخلق.

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ٩٢.

لقد قاتل أميرالمؤمنين عليه السلام ثلاثة معسكرات بثلاثة خطوطٍ منفصلة، هم الناكثون والقاسطون والمارقون. وكلّ واحدة من هذه الوقائع تدلّ على تلك الروح الرفيعة للتوكّل على الله والإيثار والبعد عن الأنانيّة والإنّية في أميرالمؤمنين عليه السلام. وفي النهاية استُشهد على هذا الطريق، حتّى قيل بشأنه إنّ عدل عليّ عليه السلام قد قتله. لو لم يكن أميرالمؤمنين عليه السلام مريدًا للعدالة، وكان يعمد بدل ذلك إلى رعاية هذا وذاك، وتقديم الشأنية والمقام والشخصية على مصالح العالم الإسلامي لكان أكثر الخلفاء نجاحًا وقدرةً، ولما وجد له معارضًا. لكنّ أميرالمؤمنين عليه السلام هو ميزان الحقّ والباطل. ولهذا كان عليه السلام يتحرّك وفق جوهر الحق دون أيّة ذرّة من تدخّل الأنا والمشاعر الشخصية والمنافع الذاتية، وقد تحرّك على هذا الطريق الّذي اختاره. هكذا كانت شخصية أميرالمؤمنين عليه السلام. لهذا فإنّ عليًّا عليه السلام هو في الواقع ميزان الحقّ. هكذا كانت حياته عليه السلام، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ﴾[1]. فلم يكن في الشهادة عظيمًا فحسب، ولم يكن عند الممات ممّن يفدي نفسه فحسب، بل على مرّ حياته كان دائمًا يُضحّي بنفسه في سبيل الله. ١٩٨٩/٤/٢٨

أثبت أميرالمؤمنين خلال هذه المدّة أنّ الأصول والقيم الإسلامية الّتي وُجدت في مرحلة عزلة الإسلام و صغر المجتمع الإسلاميّ، هي قابلةٌ للتطبيق كذلك، في مرحلة الرفاهية والتوسّع والاقتدار والتقدّم والازدهار الاقتصاديّ للمجتمع الإسلامي. ومهم جدًا أن نلتفت إلى هذه النقطة. فلقد نزل الوحي الإلهيّ بالأصول الإسلامية، والعدالة، وتكريم الإنسان، وروح الجهاد والبناء، والمرتكزات الأخلاقية والقيم الإنسانيّة في زمن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم؛ وتمّ تطبيقها من قبل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في المجتمع الإسلامي ضمن الحدود المتاحة. ولكن ماذا كان المجتمع الإسلاميّ في عهد الرسول؟

بيئة صغيرة وضئيلة، إذ حتى عشر سنوات لم يكن سوى المدينة، وكانت مدينة صغيرة تضم بضعة آلاف من الناس، ثمّ فُتحت مكّة والطائف؛ وهي منطقة محدودة بثروات قليلة جدًّا، فالفقر كان شاملًا، والإمكانات الّتي كانت في متناول أيديهم، ضئيلة جدًّا...

مضت خمس وعشرون سنة على رحيل الرسول عن الدنيا. وقد ازدادت مساحة الدولة الإسلامية،

---

١. سورة البقرة، الآية: ٢٠٧.

خلال هذه المدّة، مئات الأضعاف، لا ضعفين أو ثلاثة أو عشرة. فيوم تسلّم أميرالمؤمنين عليه السلام الحكم كانت الأرض التي تمتدّ من آسيا الوسطى حتّى شمال أفريقيا ـ أي مصر ـ داخلةً ضمن نطاق الدولة الإسلامية. أمّا الدولتان العظميان المجاورتان للدّولة الإسلامية في بداية الأمر ـ أعني إيران والروم ـ فقد تلاشت إحداهما نهائيًا وهي الدولة الإيرانية، وأصبحت كافّة الأراضي الإيرانية بيد المسلمين. ودخلت أجزاء مهمّة من الأراضي الرومانية ـ بلاد الشام وفلسطين والموصل ومناطق أخرى ـ أيضًا في دائرة الإسلام. مثل هذه الرقعة الواسعة كانت بيد الإسلام يومذاك. فتوفّرت ثروات طائلة ولم يعد ثمّة فقر وعوز وشحّ طعام. كان الذهب رائجًا، والأموال وفيرة، وتجمعت ثروات طائلة، وبالتالي أضحت الدولة الإسلامية ثريّة. الكثيرون تمتّعوا برفاه جاوز الحدود. لو لم يكن الإمام عليّ عليه السلام في البين، لربّما كان التاريخ يحكم قائلًا، إن المبادئ الإسلامية والقيم النبوية كانت جيّدة في فترة المدينة النبوية فقط، أي لذلك العهد الّذي تميّز بضآلة حجم المجتمع الإسلاميّ وفقره. أمّا بعد أن اتّسع المجتمع الإسلاميّ واختلط بالحضارات المختلفة حيث وفدت من إيران والروم ثقافات وحضارات شتّى إلى حياة الناس، وانضوت شعوب مختلفة تحت مظلّة المجتمع الإسلامي، فلم تبق تلك المبادئ كافية ولا قادرة على إدارة البلد. وقد أثبت أميرالمؤمنين عليه السلام، طوال هذه السنوات الخمس، بممارساته وسيرته وأسلوبه في الحكم أنّ الأمر على عكس ذلك؛ فتلك المبادئ نفسها الّتي كانت متألّقة في صدر النبوّة ـ ذات التوحيد، والعدل، والإنصاف والمساواة بين الناس ـ هي ممكنة التطبيق على يد خليفة قويّ كأمير المؤمنين عليه السلام. هذا شيء خلّده التاريخ. ومع أنّ هذا المنهج لم يستمرّ بعد أميرالمؤمنين عليه السلام، لكنّه أثبت أنّ الحاكم الإسلاميّ ومديري المجتمع والمسؤولين المسلمين إذا قرّروا وعزموا وكانوا أصحاب عقيدة راسخة لأمكنهم تطبيق نفس تلك المبادئ في عهد اتّساع رقعة الدولة الإسلامية وظهور ظروف جديدة ومتنوِّعة للحياة، حتّى ينتفع بها الناس... فمن الواضح أنّ إقامة العدالة الاجتماعية في مجتمع يضمّ عشرة إلى خمسة عشر ألف نسمة في المدينة تختلف اختلافًا هائلًا عنها في مجتمع يضم عشرات الملايين أو مئات الملايين كما كان الحال في عهد أميرالمؤمنين عليه السلام. وقد نهض أميرالمؤمنين عليه السلام بهذه المهام.

نورد هنا نماذج من أعمال أميرالمؤمنين عليه السلام تجلّت في كلمات هذا الرجل العظيم. وثمّة آلاف الأمثلة الأخرى في حياته. جاء الناس وأصرّوا على بيعته، لكنّه لم يوافق، وازداد إصرار الناس، من أكابر وصغار، ورؤساء، وعيون الصحابة، قالوا جميعًا: كلا، لن يكون غير عليّ بن أبي طالب عليه السلام ولن يستطيع ذلك سواه. جاؤوا وأخذوا الإمام مصرّين. فقال الإمام عليه السلام: إذًا لنذهب إلى المسجد. رقى الإمام المنبر، وألقى خطبة أوضح فيها آراءه، فقال: الأموال الّتي استحوذ عليها الخواصّ والوجهاء من دون وجه حقّ سأعيدها إلى بيت المال أينما وجدتها. ـ وكان قد استطاع بعض الأشخاص خلال تلك السنوات مصادرة أموال من بيت المال لصالحهم ـ قال سأعيد كلّ هذه الأموال، «لو وجدته قد تُزوّج به النساء» حتّى لو وجدت أنّكم جعلتم تلك الأموال مهورًا لنسائكم، أو «مُلك به الإماء» واشتريتم بها الجواري لحريمكم «لرددته»[1] وأعدته إلى بيت المال. ليعلم الناس و الأكابر أنّ هذه هي طريقتي.

بعد أيّام بدأت المعارضات، وكان المستضعفون من الناس والطّبقة المضطَهدة في المجتمع يتمنّون من الله أن يُتّبع مثل هذا المنهج، فكان من البديهيّ أن يسخط أصحاب النفوذ والمخاطبون الحقيقيّون لهذا الكلام. فجلسوا وعقدوا اجتماعات وقالوا ما هذا الّذي يريد عليّ عليه السلام صنعه. قام الوليد بن عقبة ـ وهو نفسه الّذي كان والي الكوفة في زمن عثمان ـ وجاء إلى أميرالمؤمنين عليه السلام، نيابةً عنهم، فقال له يا عليّ إنّ لبيعتنا إياك شروطًا، «ونحن نبايعك اليوم على أن تضع عنّا ما أصبناه من المال في أيام عثمان»[2]، شرطنا هو أن لا تنال من الأموال الّتي حصلنا عليها وتترك لنا ما كسبناه خلال العهد الّذي سبقك. ومن بعد الوليد بن عقبة، جاءه كل من طلحة والزبير. والوليد بن عقبة، بالطبع كان يختلف عن طلحة والزبير. فالوليد بن عقبة كان في الحقيقة من حديثي العهد بالإسلام، وكانت عائلته ضدّ الإسلام ومعارضة للثورة وقد حاربت الإسلام. وبعد ذلك حين ساد الإسلام، في نهاية عهد النبيّ، دخل في الإسلام كغيره من بني

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ١٥.

٢. بحارالأنوار، كتاب الفتن والمحن، أبواب ما جرى قتل عثمان، باب ١، ح ٧.

أميّة. أمّا طلحة والزبير فكانا من السابقين في الإسلام ومن أعوان الرسول ﷺ المقرّبين. جاء طلحة والزبير أيضًا ـ وهما يومذاك من أكابر الإسلام ومن البقية الباقية لأصحاب الرسول ﷺ ـ إلى أميرالمؤمنين عليه السلام، وتكلّما كلامًا فيه عتاب، منه قولهم: «إنّك جعلت حقّنا في القَسْم كحقّ غيرنا». فقد ساويت بيننا وبين غيرنا في تقسيم بيت المال. «وسوّيت بيننا وبين من لا يماثلنا»، ساويت في منح أموال بيت المال بيننا وبين من هم ليسوا مثلنا، فأيّ قسمة هذه؟ لماذا لا تقرّر امتيازات معيّنة؟ «من لا يماثلنا في ما أفاء الله تعالى بأسيافنا ورماحنا»[1] هذه خيرات استُحصلت بأسيافنا. نحن الّذين رفعنا الإسلام، نحن الّذين بذلنا الجهود والمساعي، وإذا بك تساوينا بالجُدد والأعاجم ومن جاءوا من البلدان المفتتحة.

لم يسجل لنا التاريخ جواب أميرالمؤمنين عليه السلام للوليدبن‌عقبة لكنّه أجاب الآخرين. صعد الإمام المنبر وأجابهم جوابًا شديدًا[2]. قال بشأن قضية المساواة في تقسيم بيت المال: «فإنّ ذلك أمر لم أحكم فيه بادئ بدء»، فلست أنا من أسّس لهذه الطريقة وهذا المنهج «بل وجدتُ أنا وأنتما رسول الله ﷺ يحكم بذلك»[3] فأنا وأنتم كنّا قد شاهدنا الرسول ﷺ يعمل بهذه الطريقة. لم أجئ بأسلوب جديد من عندي، إنّما أتّبع الفعل الّذي كان يأتي به الرسول ﷺ. أريد تكريس تلك القيم والقواعد الاعتقادية والسلوكية في المجتمع، في هذا العصر. وقد كرّسها الإمام عليّ عليه السلام وكان يفعل. وقد دفع أميرالمؤمنين عليه السلام ثمن ذلك أيضًا فكان الثمن نشوب ثلاث معارك. تحرّك أميرالمؤمنين عليه السلام، ومن البديهيّ أنّه كان يرى لنفسه حقّ الخلافة. لكن هذا لم يحصل له بعد رحيل الرسول ﷺ.

لم يتحرّك أبدًا طيلة خمس وعشرين سنة من أجل الشيء الّذي كان يعلم أنّه حقّه. وكان يهدِّئ الّذين يريدون التحدّث بهذا. لم تصدر عنه إزاء تلك القضية ردود فعل على مدى خمس وعشرين سنة. ولكن تحمّل أميرالمؤمنين عليه السلام ثلاث حروب: حرب الجمل، وحرب صفّين، وحرب

١. بحارالأنوار، كتاب الفتن والمحن، أبواب ما جرى قتل عثمان، باب ١، ح ٧.
٢. تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٧٨.
٣. م.ن.

النهروان، تجاه قضيّة ـ تبدو في الظاهر أهون من تلك القضية ـ هي قضية العدالة الاجتماعية، وإحياء المبادئ النبوية، وإعادة تشييد الصرح الإسلامي المتين الذي أرسى دعائمه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. فكم كانت هذه القضايا مهمّة بالنسبة لأميرالمؤمنين عليه السلام. وهذا هو الإنجاز العظيم الّذي نهض به أميرالمؤمنين عليه السلام. وله في هذا المجال كلمة أخرى، يقول فيها: «لا تمنعنّكم رعاية الحقّ لأحدٍ عن إقامة الحقّ عليه»[١]، أي أنّ الإنسان إذا كان مؤمنًا ومجاهدًا في سبيل الله وبذل جهدًا كبيرًا وخاض المعارك وأنجز أعمالًا كبيرة فستكون مراعاة حقّه واجبة. وأمّا إذا تعدّى هذا الشخص حدوده في حالة خاصة وضيّع حقًّا من الحقوق، فلا ينبغي التغاضي عن خطئه هذا بحجّة أعماله الحسنة السابقة، إذًا ولا بدّ من التمييز بين الأمور. إذا كان الإنسان صالحًا وذا قدر كبير وسابقة محمودة وجهود بذلها للإسلام والبلاد فهذا جيّد وحقوقه مقبولة ومحفوظة وينبغي أن تقدّر، ولكن إذا تعدّى وتجاوز، فإنّ مراعاة ذلك الحقّ ينبغي أن لا تؤدّي إلى غضّ الطرف عن الاخطاء الّتي ارتكبها. هذا هو منطق أميرالمؤمنين.

كان هناك شاعرٌ اسمه النّجاشيّ، و هو من شعراء أميرالمؤمنين عليه السلام ومادحيه، وصاحب أفضل القصائد في حرب صفّين وتحريض الناس ضدّ معاوية، ومن محبّي أميرالمؤمنين عليه السلام وأحد الداخلين في حزبه، وأفعاله مشهورة بالإخلاص والولاية والسوابق، كان قد شرب الخمر في نهار شهر رمضان. حين علم أميرالمؤمنين عليه السلام بالأمر قال إنّ حدّ الخمر معروف، آتوني به لإقامة الحدّ عليه. أقام أميرالمؤمنين عليه السلام عليه حدّ الخمر أمام أعين الناس، ثمانين سوطًا. فجاءت عائلته وقبيلته إلى أميرالمؤمنين عليه السلام وقالوا: يا أميرالمؤمنين، أرقت ماء وجوهنا. لقد كان هذا من أصحابك وأصدقائك وحزبك وشيعتك!. فقال أنا لم أفعل شيئًا، إنّه مسلم ارتكب مخالفة، فوجب عليه حدّ من حدود الله، فأقمت ذلك الحدّ. بالطبع، قال النّجاشيّ بعد أن جُلد من قبل عليّ عليه السلام: طالما كان الأمر كذلك، فسأذهب إلى معاوية وأنظم أشعاري له. فقام وفارق أميرالمؤمنين عليه السلام والتحق بمعسكر معاوية. فلم يقل أميرالمؤمنين عليه السلام أنّ النجاشيّ قد تركنا وهذه خسارة مؤسفة، لنحاول إبقاءه هنا، كلّا، إنْ

---

١. تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم، القسم الأول الإعتقادى وما فيه، الباب الأول المعرفة، الحق ملاك وميزان، ح ٩٥٦.

ذهب، فليذهب! بالطبع، من الأفضل كان أن يبق. هذا هو منطق أميرالمؤمنين عليه السلام ومنهجه. قال الإمام عليه السلام لأصحاب النجاشي: «فهل هو إلاّ رجل من المسلمين انتهك حرمة من حُرَم الله فأقمنا عليه حدًّا كان كفّارته»[1]. أقمنا عليه الحدّ فسقط عنه ذنبه.

ورجل من قبيلة بني أسد ـ كان من أقارب أميرالمؤمنين عليه السلام ـ وجب عليه حدٌّ من الحدود. فقال نفرٌ من محبّي أميرالمؤمنين عليه السلام ومن رجال قبيلة ذلك الشخص: لنذهب إلى أميرالمؤمنين عليه السلام ونعالج المشكلة بنحو من الأنحاء. فجاؤوا أوّلًا إلى الإمام الحسن المجتبى عليه السلام ليكون ليشفعهم لدى أبيه، فقال الإمام الحسن: لا ضرورة لمجيئي، اذهبوا أنتم، فوالدي أميرالمؤمنين يعرفكم. فجاؤوا إلى أميرالمؤمنين عليه السلام وقالوا هذه هي حالنا فساعدنا. فقال الإمام عليه السلام في إجابتهم لا مانع لديّ في أيّ أمر أكون فيه حرًّا مختارًا، وسأفعله لكم، ففرح هؤلاء وخرجوا، وفي الطريق صادفوا الإمام الحسن عليه السلام فسألهم: ماذا فعلتم؟ قالوا له: انتهى الأمر على خير والحمد لله، وقد وعدنا أميرالمؤمنين عليه السلام. فسألهم: ماذا قال لكم أميرالمؤمنين؟ قالوا: قال لنا أفعل لكم ما أكون حرًّا فيه ويعود أمره إليّ. فتبسّم الإمام الحسن عليه السلام وقال: إذًا اذهبوا وافعلوا كلّ ما يجب أن تقوموا به في حال إقامة الحدّ عليه! وأقام أميرالمؤمنين عليه السلام الحدّ عليه بعد ذلك. فجاؤوا وقالوا: يا أميرالمؤمنين، لمَ أقمت الحدّ على هذا الرجل؟ فقال: ليس الحدّ ممّا أملك أمره وحرّية التصرّف فيه. الحدّ حكمٌ إلهيّ. قلتُ لكم ما أكون حرًّا فيه أفعله لكم[2]. والحدّ ليس في يدي. هذا، وبنو أسد من أصدقاء أميرالمؤمنين عليه السلام والمخلصين له. هكذا كانت حياة أميرالمؤمنين عليه السلام.

ثمّة روايات كثيرة عن حكمه و قضائه، و تعامله مع اهله و عياله وأولاده. يقول الراوي: ذهبت الى بيت الامام فشاهدت الحسن و الحسين عليهما السلام جالسين يأكلان الطعام، طعامهما كان خبزًا وخلًّا وبعض الخضار. فقلتُ لهما يا سيّداي أنتما أميران، أنتما العائلة الحاكمة، ابنا أميرالمؤمنين وفي السوق كلّ هذه المأكولات «وفي الرحبة ما فيها»، في الرحبة ـ بقرب الكوفة ـ يباع كلّ شيء والناس

---

۱. بحارالأنوار، كتاب الفتن والمحن، أبواب ما جرى بعد قتل عثمان، باب ۲۰، ح ۵۳۷.

۲. بحارالأنوار، كتاب تاريخ أميرالمؤمنين، أبواب كرائم خصاله، باب ۱۰۰، ح ۱.

تشتري، وأنتما ابنا الأمير عليه‌السلام، أهذا هو طعامكما؟ فالتفتا إليه وقالا: «ما أغفلك عن أميرالمؤمنين»[١]، أنت غافل عن أميرالمؤمنين، اذهب وانظر إلى حياته! كان الإمام هكذا حتّى مع عائلته.

وقصّة زينب الكبرى والاستعارة من أبي رافع مشهورة. وكذلك قصّة اخيه عقيل الّذي جاء إلى الإمام وطلب منه شيئًا: «صاع من بُرّ»، أراد من القمح مقدارًا أكثر من حصّته. أخذ الإمام تلك الحديدة المحمّاة وقرّبها منه ـ طبعًا لم يضعها عليه ـ وهدّده ولم يقبل طلبه. جاءه عبدالله بن جعفر ـ ابن أخيه وصهره، زوج السيّدة زينب ـ وقال: يا أميرالمؤمنين ليس في يدي شيء، وأنا مضطرّ لبيع بعض أدوات منزلي. فساعدني ببعض شيء، فلم يوافق الإمام عليه‌السلام وقال: إلاّ إذا قلت لي اذهب يا عمّ واسرق واعطني من مال الناس. حدّد أميرالمؤمنين عليه‌السلام معيار الحكم في مجتمع متطوّر، كبير، متحضّر، وثريّ، كالّذي كان في زمانه على أساس ما كان في زمن الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم. كلّ شيء كان قد تطوّر. أراد أميرالمؤمنين عليه‌السلام بسلوكه إثبات أنّه بالإمكان إحياء تلك المبادئ حتّى في أحلك الظروف. هذا هو العمل الكبير الّذي قام به أميرالمؤمنين عليه‌السلام. مبدأ الإيمان، والعدالة، والجهاد، وبناء المجتمع، والإدارة الكفاءة اللائقة المؤمنة ـ وحياة أميرالمؤمنين عليه‌السلام زاخرة بأحداث وأمور اشتُهر بها على مدى سنوات على شكل قصص وروايات وأحاديث له عليه‌السلام موزّعة على أبواب عدّة ـ كلّها دلائل على هذه الحقيقة، وخلاصتها أنّ أميرالمؤمنين عليه‌السلام أراد أن يقول للعالم أنّ هذه المبادئ الإسلامية ممكنة التطبيق في كلّ الظروف. وهذا هو الواقع. ليست المبادئ الإسلامية في شكل ثياب أميرالمؤمنين عليه‌السلام بحيث إذا كان يرتدي مئزرًا أو قميصًا علينا اليوم ارتداء نفس الملابس. المبادئ الإسلامية هي العدالة، والتوحيد، وإنصاف الناس، واحترام حقوقهم، ومتابعة شؤون الضعفاء، والوقوف بوجه الجبهات المعادية للإسلام والدين، والإصرار على ركائز الحقّ والإسلام والدفاع عن الحقّ والحقيقة. هذه مفاهيم ممكنة التطبيق في جميع العصور.

بالطبع، حينما نقول هذا اليوم إنّما نتحدّث عن القلّة، فمن ذا الّذي يسعه أن يتصوّر التشبّه بأمير المؤمنين عليه‌السلام؟ كلّا، لا أحد يمكنه التشبّه بأمير المؤمنين عليه‌السلام. الإمام السجّاد عليه‌السلام وهو حفيد

---

١. مناقب آل أبي طالب، ج ٢، باب درجات أميرالمؤمنين، فصل في المسابقة بالعدل والإمانة.

أميرالمؤمنين عليه السلام وله مقام العصمة، حين قيل له إنّك كثير العبادة قال أين عبادتنا من عبادة عليّ عليه السلام؟ أي أنّ الإمام العابد السجّاد يقول ليس بالإمكان مقارنتي بعليّ عليه السلام. وبين الإمام السجّاد عليه السلام وخيرة العُبّاد والزهّاد في زماننا البون البعيد.

أشار أميرالمؤمنين عليه السلام إلى النّموذج والقمّة واتّجاه الحركة وحدّد الملاك، فلنصل أينما استطعنا الوصول. النظام الإسلاميّ نظام العدل والإنصاف وخدمة الناس واحترام حقوق الإنسان ومجابهة الظلم الّذي يمارسه القويّ ضدّ الضعيف. هذه هي اهم مشاكل البشرية على امتداد التاريخ.

ابتُليت البشريّة بهذه المشكلات دائمًا ولا تزال تعاني هذا البلاء. لاحظوا اليوم كيف يدّعي العتاة والأقوياء في العالم أنّ العالم كلّه لهم. تعاني الشعوب الصفعات وضنك العيش بسبب هذا التعسّف.

إنّ منطق الإسلام ومنطق أميرالمؤمنين عليه السلام ومنطق الحكومة العلوية مجابهة هذه الأشياء، سواء داخل المجتمع إذا أراد قويّ ابتلاع ضعيف، أم على المستوى العالميّ والدوليّ. ٢٠٠٤/١١/٥

القدرة والمظلومية والنصر

لقد اجتمعت في شخصية هذا الرجل الفذّ وحياته وشهادته ثلاثة عناصر تبدو غير منسجمة تمامًا مع بعضها بعضًا في الظاهر، وتلك العناصر الثلاثة هي عبارة عن: القوّة، والمظلومية، والانتصار.

فقوّته تكمن في إرادته الصلبة وعزمه الراسخ، وفي تسيير دقّة الشؤون العسكرية في أعقد المواقف، وفي هداية العقول نحو أسمى المفاهيم الإسلامية والإنسانية، وتربية شخصيّات كبرى وإعدادهم من قبيل مالك الأشتر وعمّار وابن‌عبّاس ومحمّدبن‌أبي‌بكر وغيرهم، وشقّ مسار مميّز في تاريخ الإنسانية. ويتمثّل مظهر قوّته في اقتداره المنطقيّ واقتداره في ميادين الفكر والسياسة، وفي اقتدار حكومته وشدّة ساعده. ليس ثمّة ضعف في شخصية أميرالمؤمنين عليه السلام في أيّ جانب من جوانبها. ويعتبر في الوقت ذاته من أبرز الشخصيات المظلومة في التاريخ. وقد كانت مظلوميّته في كلّ جوانب حياته؛ لقد ظُلم في أيّام شبابه، حيث تعرّض للظلم حينذاك من بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وظُلِم في سنوات حكمه وفي عهد خلافته و اخيرًا استُشهد مظلومًا، وظلّ من

بعد استشهاده يُسبّ على المنابر على مدى سنوات طوال، وتُنسب إليه شتّى الأكاذيب.

لدينا في جميع الآثار الإسلامية شخصيّتان أُطلقت عليهما صفة «ثار الله». ولا توجد في اللغة الفارسية كلمة معادلة تمامًا لكلمة«الثأر» كما في اللغة العربية؛ فعندما يُقتل شخص ظلمًا فأسرته هي وليّ دمه، وهذا ما يُسمّى بالثأر، ولأسرته حقّ المطالبة بثأره. أما ما يُسمّى بـ«ثار الله» فهو تعبير قاصر وناقص لكلمة الثأر ولا يوصل المعنى المطلوب. فالثأر معناه حقّ المطالبة بالدّم. فإذا كان لأسرةٍ ما ثأر، فلها حقّ المطالبة به. وورد في التاريخ الإسلاميّ اسما شخصيّتين، وليّ دمهما الله، فهو الّذي يطلب بثأرهما، أحدهما الإمام الحسين عليه السلام، والآخر هو أبوه أميرالمؤمنين عليه السلام: «يا ثار الله وابن ثاره»[١]، أي أنّ المطالب بدم أبيه هو الله تعالى أيضًا.

أمّا العنصر الثالث الّذي طبع حياة الإمام عليّ عليه السلام فهو النصر؛ حيث تغلّب في حياته على جميع التجارب العصيبة الّتي فُرضت عليه؛ ولم تستطع جميع الجبهات، الّتي سنذكرها لاحقًا، والّتي فتحها ضدّه أعداؤه أن تنال منه وإنّما انهزمت كلّها أمامه. ومن بعد استشهاده أخذت حقيقته الناصعة تتجلّى وتتفتّح يومًا بعد آخر أكثر ممّا كانت عليه في أيّام حياته. ففي عالم اليوم، ليس العالم الإسلاميّ وحده وإنّما العالم كلّه، هناك أناس كثيرون لا يؤمنون حتّى بالإسلام، إلا أنّهم يؤمنون بعليّ بن أبي طالب عليه السلام كشخصيّة تاريخيّة لامعة. وهذا هو جلاء ذلك الجوهر الوهّاج، وكأنّ الله يكافئه على ما لحق به من ظلم. فلا بدّ أنّ يكون لتلك المظلومية ولذلك الكبت والضغط والتعتيم على ضوء الشمس، وتلك التّهم الشنيعة، وما واجهها به من صبر، ثوابًا عند الله، وثوابها هو أنّك لا تجد على مدى التاريخ شخصيّة، على هذه الدرجة من الإشراق نالت القبول بكلّ هذا الإجماع. ولعلّ أفضل الكتب الّتي سُطّرت حتّى اليوم بحقّ أميرالمؤمنين عليه السلام، وأكثرها ولهًا وحبًّا، هي تلك الّتي كتبها أشخاص غير مسلمين. وأذكر أسماء ثلاثة كتّاب مسيحيّين كتبوا حول حياة أميرالمؤمنين عليه السلام كتبًا جديرة بالثناء حقًّا. وهذا الحبّ نشأ منذ اليوم الأوّل، أي من بعد استشهاده، حيث تكالب الجميع على الإساءة إليه والانتقاص منه، من الطغمة الّتي كانت تحكم الشام ومن

---

١. الكافي، كتاب الحج، أبواب الزيارات، باب زيارة قبر أبي عبدالله الحسين، ح ٢.

كان يدور في فلكها، وممّن امتلأ غيظًا من سيف أميرالمؤمنين ومن عدله. فكانت هذه القضية قد اتّضحت منذ ذلك الوقت، وأنا أذكر هنا مثالًا واحدًا على ذلك:

انتقص ابن عبدالله بن عروة بن الزبير من أميرالمؤمنين عليه السلام ذات يوم، أمام أبيه عبدالله بن عروة بن الزبير. وكان آل الزبير كلّهم ضدّ عليّ عليه السلام، إلا واحدًا منهم وهو مصعب بن الزبير الّذي كان رجلًا شجاعًا كريمًا، وهو الّذي دخل لاحقًا في صراع مع المختار الثقفيّ في الكوفة، ومن بعده مع عبدالملك بن مروان، وهو زوج سكينة، أي أنّه أوّل صهر للإمام الحسين عليه السلام، فكان آل الزبير كلّهم خصومًا لأميرالمؤمنين عليه السلام أبًا عن جدّ، باستثنائه. وهذا ما يدركه الإنسان من خلال دراسته للتاريخ. وبعدما سمع عبدالله ذلك الانتقاص على لسان ابنه قال جملة ليست حيادية كثيرًا، إلا أنها تنطوي على نقطة مهمّة وهي: «والله يا بُنيّ، ما بنى الناس شيئًا قطّ إلّا هدمه الدين، ولا بنى الدين شيئًا فاستطاعت الدنيا هدمه». أي أنّهم يحاولون عبثًا هدم اسم أميرالمؤمنين عليه السلام القائم اسمه على أساس الدين والإيمان، «ألم ترَ إلى عليّ كيف تُظهر بنو مروان من عيبه وذمّه؟ والله لكأنّما يأخذون بناصيته رفعًا إلى السماء. وما ترى ما يندبون به موتاهم من التأبين والمديح؟ والله لكأنّما يكشفون به عن الجيف»[1]. لعلّ هذه الكلمة قيلت بعد نحو ثلاثين سنة من شهادة أميرالمؤمنين عليه السلام، أي أنّه عليه السلام وعلى الرغم من فداحة الظلم الّذي نزل به، أضحى هو المنتصر في حياته وفي التاريخ وفي ذاكرة الإنسانية.

القاسطون، والناكثون، والمارقون

لقد اصطفّت ضدّ عليّ عليه السلام في أيّام حكومته الّتي استمرّت أقلّ من خمس سنوات، ثلاثة تيارات هي: القاسطون، والناكثون، والمارقون؛ إذ ينقل عنه عليه السلام السنّة والشيعة أنّه قال: «أُمرت أن أقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين»[2]. وهذه التسمية هو الّذي أطلقها على تلك الفئات الثلاث؛

---

١. نثر الدر، ج٣، الفصل الثالث، الباب الخامس، نكت لأل زبير.

٢. دعائم الإسلام وذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام، كتاب الجهاد، ذكر قتال أهل البغي

فالقاسطون بمعنى الظالمين، لأنّ فعل قسط حينما يأتي مجرّدًا: قَسَطَ يقسِط، بمعنى جار يجور، وظلم يظلم. وحينما يأتي على صيغة الثلاثي المزيد على وزن أفعل: أقسط يُقسط، فمعناه العدل والإنصاف. وعلى هذا، إذا استعمُلت كلمة القسط على وزن إفعال، تعني العدل، وإذا جاءت على صيغة قَسَطَ يقسِط فهي على عكس ذلك؛ أي بمعنى الظلم والجور. فهو عليه السلام سمّاهم الظالمين. ولكن من هم أولئك القاسطون؟ القاسطون فئة دخلت الإسلام ظاهريًّا لمصالحها الخاصّة ولم تكن تعترف بالحكومة العلويّة أساسًا. ولم تنفع كلّ الأساليب الّتي انتهجها معها أميرالمؤمنين عليه السلام. والتفّت تلك الفئة حول محور بني أميّة الّذي كان معاوية بن أبي سفيان ـ والي الشام آنذاك ـ أبرز شخصيّة فيه، ثمّ يأتي من بعده مروان بن الحكم والوليد بن عقبة. شكّل هذا المحور جبهة رفضت التفاهم والاتّفاق مع أميرالمؤمنين عليه السلام.

ومع أنّ المغيرة بن شعبة وعبدالله بن عبّاس وغيرهما أشاروا على أميرالمؤمنين عليه السلام منذ بداية حكمه بابقاءهم في مناصبهم لبعض الوقت، غير أنّه عليه السلام أبى عليهم ذلك، فذهبت بهم الأوهام إلى أنّه لم يحسن اتّخاذ الموقف السياسيّ المناسب. ولكنّهم هم الّذين كانوا في غفلة كما برهنت الأحداث اللاحقة؛ لأنّ معاوية لم يأتلف مع أميرالمؤمنين عليه السلام رغم كلّ الأساليب الّتي اتّبعها عليه السلام لأجل هذه الغاية. ولم يكن ذلك النهج ممّا ترتضيه حكومة كالحكومة العلويّة، على الرغم من تحمّل السابقين لبعض هؤلاء.

كان قد مضى أقلّ من ثلاثين سنة منذ أن أسلم معاوية وإلى أن هبّ لمحاربة أميرالمؤمنين عليه السلام. وكان هو وأذنابه قد حكموا الشام سنوات طويلة وبسطوا نفوذهم فيها وأسّسوا لهم قاعدة واسعة هناك. ولم تكن الأحوال آنذاك كما كانت عليه في الأيّام الأولى الّتي كان بالإمكان أن يقال لهم فيها ـ إذا ما أظهروا الخلاف ـ إنّكم دخلتم الإسلام توًّا، ولا يحقّ لكم الخلاف. فهم كانوا قد ثبّتوا لهم قدمًا عند ذاك. إذًا كان هذا التيّار يرفض الحكومة العلويّة جملة وتفصيلًا، ويرنو إلى نمط آخر من الحكم يكون زمامه بيده، وهو ما ثبت عنهم فيما بعد وذاق العالم الإسلاميّ مرارة حكمهم. فهذا معاوية نفسه، الّذي كان في عهد صراعه مع أميرالمؤمنين عليه السلام يُظهر الودّ والمحبّة لبعض الصحابة،

قد أبدت حكومته فيما بعد أسلوبًا في غاية العنف والشدّة حتّى انتهى بها الحال إلى عهد يزيد وواقعة كربلاء، ومن بعده إلى زمن مروان وعبدالملك والحجّاج‌بن‌يوسف الثقفيّ ويوسف‌بن‌عمر الثقفيّ الّذين يُعدّون من جملة نتائج تلك الحكومة وثمارها. ومعنى هذا أنّ الحكومات الّتي يهتزّ التاريخ لذكر جرائمها ـ كحكومة الحجّاج على سبيل المثال ـ كان معاوية هو الّذي أرسى أسسها، و قد حاربه أميرالمؤمنين عليه السلام من أجلها. فقد كانت غايتهم معروفة منذ البداية، إذ إنّهم كانوا يبتغون حكومة دنيوية محضة تدور في فلك ذواتهم ومصالحهم الذاتية؛ وهي المظاهر الّتي شاهدها الجميع في حكومة بني أميّة.

ولا نودّ الدخول هنا في أيّ بحث عقائديّ أو كلاميّ. والأمور الّتي نعرضها هي من صلب التاريخ، وليس تاريخ الشيعة طبعًا، وإنّما تاريخ «ابن الأثير» و«ابن قتيبة»وما شابه ذلك. وهي نصوص مدوّنة ومحفوظة، وتدخل في عداد الحقائق المسلّم بها وليس في إطار الاختلافات الفكرية بين الشيعة والسنّة.

الجبهة الثانية الّتي حاربت أميرالمؤمنين عليه السلام هي جبهة الناكثين. والناكث هو الناقض، والمراد به هنا ناقض البيعة. وهذه الفئة بايعت أميرالمؤمنين عليه السلام في البداية إلا أنّها نقضت البيعة فيما بعد ونكثتها. وكان أفراد هذه الفئة ـ على العكس من الفئة الأولى ـ مسلمين ملتزمين، وفي جملة الموالين. إلا أنّ ولاءهم واعترافهم بحكومة عليّ‌بن‌أبي‌طالب عليه السلام كان منوطًا بإعطائهم حصّة مقبولة فيها، والتشاور معهم ومنحهم المناصب والمسؤوليات الحكومية مع عدم التعرّض لما في أيديهم من ثروات وعدم السؤال عن مصادرها. ويمكن ملاحظة مدى ضخامة الثروات الّتي خلّفها أمثال هؤلاء بعد موتهم في التاريخ. إذًا، كانت هذه الفئة ترتضي بحكم أميرالمؤمنين عليه السلام ولكن بشرط عدم المساس بمثل هذه الأمور، وأن لا يُقال لأحدهم من أين لك هذه الثروة؟ وكيف حصلت عليها؟ وما إلى ذلك. ولهذا السبب بايع أكثرهم منذ البداية، في حين أنّ بعضًا آخر لم يبايع؛ فسعدبن‌أبي‌وقّاص لم يبايع منذ البداية، إلا أن طلحة والزبير وأكابر الصحابة وغيرهم بايعوا أميرالمؤمنين عليه السلام وأسلموا له القيادة، بيد أنّهم أدركوا بعد مضيّ ثلاثة أو أربعة أشهر عدم إمكانية

الانسجام مع هذه الحكومة الّتي لا تفرّق في تعاملها بين القريب والبعيد، ولا ترى لذاتها ولا لأفراد أسرها أيّ امتياز، ولا تقرّ بأيّ امتياز للسابقين في الإسلام ـ وإن كان أميرالمؤمنين عليه السلام نفسه أوّلهم إسلامًا ـ ولا تحابي أحدًا في تطبيق الأحكام الإلهية. ولهذه الأسباب جنّدوا أنفسهم لمعارضة هذه الحكومة وتسبّبوا في وقوع معركة الجمل الّتي كانت فتنة حقًّا، قُتل فيها عددٌ كبيرٌ من المسلمين، وانتهت المعركة بانتصار أميرالمؤمنين عليه السلام وإعادة الأمور إلى نصابها. وهذه هي الجبهة الثانية الّتي شغلت أميرالمؤمنين عليه السلام ردحًا من الزمن.

أما الجبهة الثالثة فكانت جبهة المارقين، والمارق بمعنى الخارج والهارب. وقيل إنّهم سمّوا بالمارقين لخروجهم من الدين كخروج السهم من القوس. وكانت هذه الفئة متمسّكة بظواهر الدين، ويكثرون من التبجّح باسم الدين. وهؤلاء هم الخوارج الّذين وضعوا أسسهم الفكرية على أساس فهم مغلوط للدين ـ وهي ظاهرة خطيرة طبعًا ـ ولم يأخذوا الدين عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام الّذي كان مفسّرًا للقرآن وعالمًا بالكتاب. أمّا تكتّلهم أو ما يُسمّى بالاصطلاح المعاصر «تحزّبهم» فكان يستلزم سياسة معيّنة، وكانت هذه السياسة توجّه من مكان آخر. والسّمة البارزة الّتي كانت تميّز أعضاء هذه الفئة هي أنّك لا تكاد تتلفّظ بكلمة حتّى يسارع أحدهم إلى الإتيان بآية من القرآن، وكانوا كثيرًا ما يتلون أثناء صلاةِ جماعةِ أميرالمؤمنين عليه السلام آيات معرّضين به، أو يقومون عند منبره ويقرؤون آية فيها تعريض يقصدونه بها، وكان شعارهم «لا حكم إلّا لله»، بمعنى أنّنا لا نعترف بحكومتك، ونحن أتباع حكومة الله! هذه الفئة، الّتي كان ظاهر أمرها على هذه الشاكلة، كان تنظيمها واتّجاهها السياسيّ يجري وفقًا لآراء وتوجيهات كبار القاسطين والشخصيّات البارزة في حكومة الشام ـ أي عمرو بن العاص ومعاوية ـ إذ كانت لهذه الفئة علاقات بأولئك الأشخاص؛ فالأشعث بن قيس، كما يشير الكثير من القرائن. كان رجلًا غير نزيه. واتّبعت هذه الفئة طائفة كبيرة من البسطاء فكريًا. إذًا، فالفئة الثالثة الّتي جابهت أميرالمؤمنين عليه السلام ـ وانتصر عليها طبعًا ـ هي فئة المارقين الّتي وجّه لها ضربة قاصمة في معركة النهروان. ولكن كان لهم وجود في المجتمع، وفي ختام المطاف كان استشهاده على أيديهم.

ينبغي أن لا يُشتبه في فهم الخوارج، فهنالك من يصف الخوارج بالتحجّر والتنسّك الجامد، ولكن المتنسّك يتّصف بالعزلة والانطواء على صلاته ودعائه، وهذا المعنى لا يصدق على الخوارج، لأنّ الخوارج عناصر متمرّدة تثير الأزمات، ولها وجود فاعل في الساحة، وتشنّ حربًا ضدّ عليّ عليه السلام، ولكن أساس عملها خاطئ، وحربها خاطئة، وأساليبها مرفوضة، وغايتها باطلة. هذه هي الفئات الثلاث الّتي جابهت أميرالمؤمنين.

الفارق الأساس بين أميرالمؤمنين عليه السلام في عهد حكومته، وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أيّام حياته وعهد حكومته هو أنّ الخنادق كانت في عهد الرسول مشخّصة ومتميّزة تمامًا؛ خندق الإيمان وخندق الكفر. أمّا المنافقون فكثيرًا ما كانت الآيات القرآنية تشير إليهم وتحذّر منهم، وتقوّي صفوف المؤمنين في مواجهتهم، وتضعّف من شوكتهم. أي أنّ كلّ شيء كان في النظام الإسلاميّ في عهد الرسول واضحًا تمام الوضوح، وكانت الصفوف مفروزة بشكل صريح؛ فطائفة على الجاهلية والكفر والطاغوت، وأخرى على الإيمان والإسلام والتوحيد. ومن الطبيعيّ أنّ كلّ واحدة من هاتين الطائفتين كانت تضمّ صنوفًا شتّى من الناس، لكن الصفوف كانت مميّزة وواضحة كلّ الوضوح. أمّا في عهد أميرالمؤمنين عليه السلام فكانت المشكلة الكبيرة في تداخل الصفوف والخنادق؛ وهذا هو السبب الّذي جعل للفئة الثانية ـ أي الناكثين ـ وضعًا مقبولًا ومبرّرًا. وكان كلّ مسلم يتردّد كثيرًا في محاربة شخصيّات من أمثال طلحة أو الزبير؛ فالزبير هو ابن عمّة الرسول وكان من الشخصيّات البارزة والمقرّبة إليه، حتّى أنّه بعد عهد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان ممّن اعترضوا على السقيفة دفاعًا عن أميرالمؤمنين عليه السلام، ولكن الأمور بخواتيمها. نسأل الله أن يجعل عاقبتنا إلى خير. فقد يؤثّر حبّ الدنيا ومظاهر الحياة في بعض الناس إلى درجة تجعل المرء يشكّ حتّى في الخواصّ، فما بالك بالعوام. وعلى كلّ الأحوال، كانت الظروف آنذاك عصيبة حقًّا.

ولا ريب أنّ الّذين صمدوا مع أميرالمؤمنين عليه السلام وحاربوا إلى جانبه كانوا على قدرٍ كبير من البصيرة. والشاهد على هذا قول أميرالمؤمنين عليه السلام: «لا يحمل هذا العلم إلّا أهل البصر والصبر»[١]. فلا

١. نهج البلاغة، الخطبة ١٧٣.

بدّ من توفّر البصيرة لديهم بالدرجة الأولى. ويُستدّل من هذه التداخلات على طبيعة المشاكل الّتي واجهها أميرالمؤمنين عليه السلام، وعلى الأساليب الملتوية الّتي اتّبعها الّذين حاربوه. ففي صدر الإسلام كان هناك أفكار خاطئة كثيرة تُطرح في الساحة، ولكن كانت تنزل آية قرآنية تفنّدها بصراحة؛ سواء وقتما كان النبيّ في مكّة أم في المدينة؛ فسورة البقرة ـ على سبيل المثال ـ وهي سورة مدنية، عندما ينظر المرء فيها يراها حافلة بصور من التحدّيات والاشتباكات بين الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والمنافقين واليهود، حتّى أنّها تناولت التفاصيل الجزئية واستعرضت الأساليب الّتي كان يتّبعها يهود المدينة في إيذاء الرسول صلى الله عليه وآله وسلم نفسيًا، ومنها ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾[1] وما شابه ذلك. وجاءت أيضًا سورة الأعراف، وهي سورة مكّية، زاخرة بمحاربة الخرافات وكُرّس فصل منها للحديث عن تحريم وتحليل أنواع اللحوم، في مقابل التحليل والتحريم الزائف الّذي اصطنعه الناس لأنفسهم يومذاك: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾[2]. هذه هي المحرّمات الحقيقية وليست تلك الّتي اصطنعتموها أنتم لأنفسكم من أمثال البحيرة والسائبة وما شاكل ذلك. وكان القرآن يحارب هذه الأفكار صراحة. أمّا في عهد أميرالمؤمنين عليه السلام، فقد كان أعداؤه يستغلّون تلك الآيات القرآنية. وهذا ما صعّب كثيرًا مهمّة أميرالمؤمنين عليه السلام. لقد قضى عليه السلام مدّة خلافته القصيرة في أمثال هذه المصاعب والمعضلات.

وفي مقابل هؤلاء كانت جبهة عليّ نفسه، وهي جبهة قوية حقًّا، وفيها رجال كعمّار ومالك الأشتر وعبدالله بن عبّاس ومحمّد بن أبي بكر وميثم التمّار وحجر بن عديّ، كانوا شخصيّات مؤمنة ذوي بصيرة ووعي، وكان لهم دور مؤثّر في توعية الآخرين. فكان من جملة المواقف الجميلة في عهد أميرالمؤمنين ـ ويُعزى جمالها طبعًا إلى الجهود الطيّبة لهؤلاء الأكابر، إلا أنّها في الوقت ذاته كانت مريرة بسبب ما لحقهم من جرّائها من عناء وعذاب ـ هو مسيرهم نحو الكوفة والبصرة من بعد ما هبّ طلحة والزبير وغيرهما واستولوا على البصرة وأرادوا المسير منها نحو الكوفة، حيث أرسل أميرالمؤمنين عليه السلام الإمام الحسن عليه السلام وبعض هؤلاء الأصحاب، وكان لهم مع الناس في

---

١. سورة البقرة، الآية: ١٠٤.

٢. سورة الأعراف، الآية: ٣٣.

المسجد مداولات وأحاديث ومحاجّات تُعتبر من المواقف المثيرة وذات المغزى العميق في تاريخ الإسلام. ولهذا السبب يُلاحظ أنّ الهجمات الأساسية لأعداء أميرالمؤمنين عليه السلام وُجّهت صوب هذه الشخصيّات، ضدّ مالك الأشتر، وضدّ عماربن‌ياسر، وضدّ محمّدبن‌أبي‌بكر، وضدّ كلّ من وقف إلى جانب أميرالمؤمنين عليه السلام منذ البداية وأثبتوا صلابة إيمانهم وسلامة بصيرتهم. ولم يتورّع الأعداء عن كيل أنواع التّهم لهم والسعي لاغتيالهم. ولهذا قضى أكثرهم شهداء؛ فاستشهد عمّار في الحرب، واستشهد محمّدبن‌أبي‌بكر بتحايل أهل الشام، وكذا استشهد مالك الأشتر بحيلة من أهل الشام. وبقي البعض الآخر، ولكنّهم عادوا واستشهدوا على نحو قاس وفجيع.

هذه هي الظروف الّتي عاشها أميرالمؤمنين عليه السلام في حياته وفي عهد حكومته. ولو أردنا الخروج بنتيجة ملخّصة عنها لقلنا إنّها كانت حكومة قويّة ولكنّها في الوقت ذاته مظلومة ومنتصرة؛ بمعنى أنّه استطاع قهر أعدائه في أيّام حياته، واستطاع من بعد استشهاده مظلومًا أن يتحوّل إلى شعلة وهّاجة على مدى تاريخ الإنسانية. ولا شكّ في أنّ المرارة الّتي ذاقها أميرالمؤمنين عليه السلام خلال هذه الفترة تُعتبر من أشدّ المحن في التاريخ وأصعبها. ١٩٩٩/١/٨

الفصل الرابع

السيدة فاطمة الزهرا عليها السلام

إنّ فيوضات السيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام لا تنحصر بمجموعة صغيرة تُحسب كمجموعة محدودة في مقابل مجموعة الإنسانية. لو أنّنا نظرنا بنظرة واقعية ومنطقية، فإنّ البشرية مرهونة لفاطمة الزهراء عليها السلام، وليس هذا جزافًا، إنّها حقيقة، كما أنّ البشرية مدينةٌ للإسلام والقرآن ولتعاليم الأنبياء عليهم السلام والنبيّ الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم. وقد كان هذا الأمر دومًا على مرّ التاريخ وهو اليوم كذلك، وسوف يزداد تألّق نور الإسلام بفاطمة الزهراء وسوف تتلمّس البشرية ذلك. ما لدينا من واجب ووظيفة في هذا المجال، هو أن نجعل أنفسنا لائقين للانتساب إلى هذه العترة. وبالطبع إنّ الانتساب لعترة الرسالة وكوننا من جملة التابعين لهم والمعروفين بولايتهم أمرٌ صعبٌ، حيث نقرأ في الزيارة، أنّنا أصبحنا معروفين بمحبّتكم، وهذا ما يلقي على كاهلنا تكليفًا مضاعفًا.

إنّ هذا الخير الكثير الّذي أعطاه الله تعالى في سورة الكوثر المباركة كبشارة للنبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وقال ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾[1]، حيث إنّ تأويله هو فاطمة الزهراء عليها السلام، في الحقيقة هو مجمع جميع الخيرات الّذي سوف ينزل يومًا بعد يوم من منبع الدين النبويّ على كلّ البشرية والخلائق. لقد سعى الكثيرون من أجل إخفائه وإنكاره ولكنّهم لم يتمكّنوا ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[2].

يجب علينا أن نقرّب أنفسنا إلى مركز النّور هذا، وإنّ خاصية هذا التقرّب هو التنوّر. يجب علينا

---

1. سورة الكوثر، الآية: ١.

2. سورة الصف، الآية: ٨.

أن نصبح نورانيّين من خلال العمل، لا بواسطة المحبّة الفارغة، العمل الّذي تمليه علينا هذه المحبّة وتلك الولاية وذاك الإيمان ويطلبه منّا، بهذا العمل يجب أن نصبح من هذه العترة والمتعلّقين بها. ليس من السهل أبدًا أن يصير المرء قنبرًا في بيت عليّ عليه السلام، ليس من السهل أن يصبح الإنسان «سلمان منّا أهل البيت»[١]. نحن مجتمع الموالين وشيعة أهل البيت عليهم السلام نتوقّع من هؤلاء العظماء أن يعتبروننا منهم ومن حاشيتهم. «فلانٌ من ساكني تربة عتباتنا»[٢]، قلوبنا تريد أن يحكم علينا أهل البيت بهذه الطريقة وليس هذا الأمر سهلًا، ولا يحصل بمجرّد الادّعاء. إنّ هذا يستلزم العمل والإيثار والتشبّه والتخلّق بأخلاقهم.

انظروا إلى هذه السيدة الجليلة في أيّ سنٍّ حازت على كلّ هذه الفضائل، في أيّ عمرٍ برزت فيها كلّ هذه التألّقات، في عمرٍ قصير لم يتجاوز ١٨ سنة، ٢٠ سنة، ٢٥ سنة بحسب اختلاف الروايات. وكلّ هذه الفضائل لا تحصل عبثًا، «امتحنك الله الّذي خلقك قبل أن يخلقك، فوجدك لما امتحنك صابرة»[٣]، فإنّ الله تعالى قد امتحن زهراء الطاهرة، وهي المصطفاة من عباده. إنّ النظام الإلهيّ هو نظام يعتمد على الحساب والكتاب، وما يمنحنا إيّاه إنّما يكون محسوبًا بدقّة. إنّه يعدّ كلّ هذا الإيثار والمعرفة والتضحية الخاصّة (وهي من عبيده الخواص)، في سبيل الأهداف الإلهيّة، لذلك جعلها مركز فيوضاته. ١٩٩١/١٢/٢٦

في رواية أن سطوع نور فاطمة الزهراء عليها السلام أدّى إلى أن تنبهر عيون الكروبيين من الملأ الأعلى، «زهر نورها لملائكة السماء»[٤]. فماذا نستفيد نحن من هذا النور والسطوع؟ يجب علينا الاهتداء بهذا النجم الساطع إلى الله وإلى طريق العبودية الّذي هو الصراط المستقيم، الّذي سلكته فاطمة الزهراء عليها السلام، فوصلت إلى تلك المدارج والمقامات العالية. وإن جعل الله طينتها طينة متعالية، فلأنّه كان يعلم أنّها تخرج مرفوعة الرأس من الامتحان في عالم المادّة والناسوت «امتحنك قبل أن

---

١. عيون أخبار الرضا، باب ٣١، ح ٢٨٢.

٢. حافظ الشيرازي

٣. بحارالأنوار، كتاب الجهاد، أبواب زيارة النبي، باب ٥، ح ١١.

٤. بحارالأنوار، كتاب الفتن والمحن، باب ٢، ح ١.

يخلقك فوجدك لما امتحنك صابرة»، هذه هي القضية. فالله تعالى إذ تلطّف بلطفه الخاصّ على تلك الطينة، فجانب من القضية هو أنّه يعلم بأنّها تخرج مرفوعة الرأس من الامتحان، وإلا فإنّ الكثيرين كان لديهم طينة طيّبة، لكن هل تمكّن الجميع من الصبر على الامتحان؟ هذا جانب من حياة الزهراء عليها السلام الّتي نحتاج إليها لنجاة أنفسنا، فالحديث ورد من طريق الشيعة أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال لفاطمة عليها السلام : «يا فاطمة اعملي فإنّي لا أغني عنك من الله شيئًا»[١]، أي يجب عليك أن تفكّري وتهتمّي بنفسك، فكانت تهتمّ بنفسها منذ صغرها وإلى نهاية عمرها القصير.

كيف كانت حياتها؟ كانت إلى ما قبل الزواج حينما كانت فتاة، تعامل أباها كأم، وهو على ذلك القدر من العظمة، بحيث كنّيت بـ «أمّ أبيها». في الوقت الذي كان نبيّ الرحمة والنور ومؤسّس الحضارة الحديثة والقائد العظيم للحركة الخالدة يرفع راية الإسلام. وما كنّيت بـ «أم أبيها» اعتباطًا، فقد كانت الزهراء عليها السلام إلى جانب أبيها، تزيل بيديها الصغيرتين غبار الحزن والغمّ عن وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، سواء في مكّة أم في شعب أبي‌طالب مع كل شدائدهما، أم عندما بقي النبي صلى الله عليه وآله وسلم وحيدًا مكسور القلب بوقوع حادثتين في فترة قصيرة، هي وفاة خديجة عليها السلام ووفاة أبي‌طالب عليه السلام حيث أحسّ النبيّ بالغربة. هذا هو منشأ كنيتها بـ«أم أبيها». ١٩٩٤/١١/٢٤

لقد كانت السيّدة الزهراء عليها السلام في السابعة من عمرها ـ هناك اختلاف في تاريخ ولادتها ـ حين حدثت قضية شُعب أبي‌طالب. لقد كانت هذه القضية مرحلة صعبة جدًا في تاريخ صدر الإسلام، أي أنّ دعوة النبيّ كانت قد بدأت وصارت علانية، وبالتدريج بدأ أهل مكّة ـ وخصوصًا الشباب، وبالأخص العبيد ـ يقبلون عليه ويؤمنون به، ورأى صناديد قريش كأبي‌لهب وأبي‌جهل وغيرهما أنّه لا بدّ من إخراج النبيّ وكلّ من معه من مكّة، وهذا ما فعلوه. فأخرجوا عددًا كبيرًا منهم وقد بلغوا عشرات الأُسر بما في ذلك النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأسرته وأبو طالب نفسه، مع أنّ أبا طالب كان يُعدّ من الوجهاء الكبار. فخرجوا من مكّة ولكن إلى أين يذهبون؟ وصادف أن كان لأبي‌طالب ملكٌ في بقعة قريبة من مكّة ـ لعلّها تبعد عدّة كيلومترات ـ في شعاب جبلٍ، يُدعى شُعب أبي‌طالب.

---

١. الطبقات الكبرى، ج ٢، ص١٩٧.

كأنّه عبارة عن تلّة صغيرة، فقال لهم أبو طالب فلنذهب إلى هذا الشعب. فكِّروا في هذا الأمر! النهارات في مكّة شديدة الحرارة، والليالي في غاية البرودة، فهذا وضعٌ لا يمكن أن يُتحمّل. فقد عاشوا طيلة ثلاث سنوات في هذا الشعب. فكم تحمّلوا من جوعٍ وصعابٍ ومحنٍ، الله وحده يعلم. فمن المراحل الصعبة لحياة النبيّ ﷺ كانت في هذا الشعب. ولم تكن مسؤولية النبيّ الأكرم ﷺ في هذه المرحلة منحصرة في القيادة بمعنى إدارة مجموعة، بل كان عليه أن يتمكّن من الدفاع عن عمله أمام هؤلاء الّذين كانوا واقعين في المحنة.

من الواضح أنّه عندما تتحسّن الأوضاع، فإنّ كلّ من يكون حول القيادة يصبح راضيًا عن الأوضاع ويقول: رحم الله أباه فقد أوصلنا إلى هذا الوضع الجيّد. وأما عندما تسوء الأحوال فيصاب الجميع بالحيرة والتردّد، ويقولون: إنّه هو الّذي أوصلنا إلى هذا الوضع السيّئ! ولم نكن نريد أن نصل إلى هذا الحدّ! وبالطبع، يصمد من كان لديه إيمان قويّ، ولكن في النهاية إنّ كل الصعاب كانت تنهال على الرسول. وفي هذه الأثناء، وعندما كان النبيّ يقاسي أشدّ أنواع المحنة، توفّي ـ خلال أسبوعٍ واحد ـ أبو طالب الّذي كان الداعم للنبيّ ويُعتبر أمله، والسيّدة خديجة الكبرى الّتي كانت تقدّم أكبر عونٍ روحيّ له، فكانت حادثة عجيبة جدًا، أصبح النبيّ بعدها وحيدًا فريدًا.

إن مَن يرأس مجموعة معيّنة، يعلم ما معنى مسؤولية المجموعة. ففي مثل هذه الظروف يصبح الإنسان متحيّرًا. انظروا إلى دور فاطمة الزهراء عليها السلام في مثل هذه الظروف. عندما يتأمّل الإنسان في التاريخ فإنّ هذه الموارد الّتي ينبغي أن تكون ملحوظةً من مختلف الزوايا والتفاصيل، للأسف لم يتمّ فتح أي بحث لها. لقد كانت فاطمة الزهراء عليها السلام كأمّ ومشاور وممرّضة للنبيّ. هناك حيث قيل «فاطمة أمّ أبيها»[1]. إنّ هذا كان متعلّقًا بذاك الوقت، أي عندما كانت في السادسة أو السابعة من العمر. وبالطبع، في البيئة العربية وفي البيئات الحارّة، تنمو البنات بصورةٍ أسرع من الناحية الجسمية والعاطفية، كبنتٍ في عمر عشر أو ١٢ سنة في أيامنا هذه. وهذا ما يؤدّي إلى الشعور

١. بحارالأنوار، كتاب تاريخ فاطمة والحسن والحسين ع، أبواب تاريخ سيدة نساء العالمين، باب ٢، ح ١٥.

بالمسؤولية. ألا يمكن أن يكون ذلك قدوةً لأيّ فتاة، بحيث تشعر بالمسؤولية والنشاط فيما يتعلّق بالقضايا المتعلقة بها بشكل سريع؟ إنّ هذا الرأسمال العظيم للنشاط الموجود فيها، كانت تنفقه من أجل أن تزيل غبار التكدّر والغمّ عن وجه أبٍ لعلّه قد مرّ على عمره أكثر من ٥٠ سنة وقد قارب سن الهرم. ألا يمكن أن يكون هذا بالنسبة للفتاة نموذجًا وقدوةً؟ هذا مهمٌّ جدًا. ١٩٩٨/٤/٢٧

في مثل هذا العالم ربّى النبيّ الأكرم بنتًا صارت لائقةً بأن يأتي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إليها ويقبّل يدها! إنّ تقبيل يد فاطمة الزهراء عليها السلام، من قبل النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لا ينبغي أن يؤخذ أبدًا على معنىً عاطفيّ فحسب. فهذا أمرٌ خاطئٌ جدًا، لو تصوّرنا أنّه يقبّل يدها فقط لأنّها ابنته ولأنّه يحبّها. هل يمكن لشخصية بهذه العظمة، وبتلك العدالة والحكمة المعتمدة على الوحي والإلهام الإلهيّ ينحني ويقبّل يد ابنته؟ كلا، إنّ هذا أمرٌ آخر وله معنىً آخر. إنّه يحكي عن أنّ هذه الفتاة وهذه المرأة عندما ترحل من هذه الدنيا في ١٨ أو ٢٥ من عمرها ـ قيل ١٨ وقيل ٢٥ ـ تكون في أوج الملكوت الإنسانيّ وشخصًا استثنائيًّا. هذه نظرة الإسلام إلى المرأة. ١٩٩١/١٢/٢٥

أمّا المقام المعنويّ لهذه السيّدة العظيمة، بالنسبة لمقامها الجهاديّ والثوريّ والاجتماعيّ، فهو أعلى بدرجات. فاطمة الزهراء عليها السلام في الظاهر هي على صورة بشر وامرأة، امرأة شابّة؛ ولكنها في المعنى هي حقيقةٌ عظيمة و هي نورٌإلهيٌّ ساطع، وعبدٌ صالح، وإنسانٌ مميّز ومصطفاة من قبل الله. هي شخصية قال فيها الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم لأميرالمؤمنين عليه السلام: «يا عليّ أنت إمام أمّتي وخليفتي عليها من بعدي، وأنت قائد المؤمنين إلى الجنّة، وكأنّي أنظر إلى ابنتي فاطمة قد أقبلت يوم القيامة على نجيبٍ من نور عن يمينها سبعون ألف ملك، وعن يسارها سبعون ألف ملك، وبين يديها سبعون ألف ملك، وخلفها سبعون ألف ملك تقود مؤمنات أمّتي إلى الجنّة»[1]، أي أنّ أميرالمؤمنين عليه السلام يوم القيامة يقود المؤمنين الى الجنة، وتقود فاطمة الزهراء عليها السلام النساء المؤمنات إلى الجنّة الإلهيّة. فهي عِدْل أميرالمؤمنين عليه السلام. هي الّتي إذا وقفت في محراب العبادة يخاطبها آلاف الملائكة المقرّبين ويسلّمون عليها ويهنّئونها ويقولون لها ما كانوا يقولون لمريم الطاهرة عليها السلام: «يا فاطمة إنّ الله

---

١. بحارالأنوار، كتاب تاريخ أميرالمؤمنين، أبواب النصوص على أميرالمؤمنين، باب ٥٠، ح ٥٢.

اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين»[١]، هذا هو المقام المعنويّ لفاطمة الزهراء عليها السلام.

امرأةٌ في سنّ الشباب بلغت المقام المعنويّ، بحسب ما نُقل في الروايات، إلى حيث تحدّثها الملائكة وتظهر لها الحقائق. فسميت «المحدَّثة» أي من تحدّثها الملائكة وتتكلّم معها. وهذا المقام المعنويّ والميدان الوسيع والقمّة الرفيعة هي في مقابل جميع نساء عالم الخلق. إنّ فاطمة الزهراء عليها السلام في قمّة هذا العلوّ العظيم تقف وتخاطب كلّ نساء العالم، وتدعوهنّ لطيّ هذا الطريق. هؤلاء الّذين كانوا عبر التاريخ ـ سواء في الجاهلية القديمة أم في جاهلية القرن العشرين ـ قد سعوا لتحقير المرأة وجعلها متعلّقة بهذه الزخارف والزينة الظاهرية ولا همّ لها سوى الموضة والزيّ والزينة والذهب والزخارف، ولا همّ لها سوى أن تقضي هذه الحياة في لهوٍ وعبث، وقد تحرّكوا من أجل ذلك، إنّ منطقهم هو منطق يشبه الثلج والجليد مقابل حرّ شمس مقام فاطمة الزهراء المعنويّ، سيذوب وينعدم. يعرّف الإسلام فاطمة عليها السلام ـ هذا العنصر المميّز والملكوتيّ الممتاز ـ بعنوان أسوة النساء وقدوتها. وهو تلك الحياة الظاهرية والجهاد والعلم والبيان والتضحية وحسن التبعّل والأمومة والزوجة الصالحة والمهاجرة الغيورة الظاهرة في جميع الميادين السياسية والثورية، والتفوّق في جميع الجوانب بحيث خضع لها كلّ الرجال العظماء، فهذا هو المقام المعنويّ والركوع والسجود ومحراب العبادة والدعاء والتضرّع والذات الملكوتية وتألّق عنصر معنويّتها و... الذي هو عِدْل ووزان زوجها أميرالمؤمنين عليه السلام و ابيها النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم. المرأة هي هذه. والقدوة الّتي يريد الإسلام أن يصنعها للنساء، هي هذه. ١٩٩٠/١/١٦

توجد نقطةٌ في حياة الزهراء المطهّرة عليها السلام يجب الالتفات إليها. علمًا أنّنا لن ندخل في بيان المقامات المعنوية لهذه السيدة الجليلة، ولسنا قادرين على أن ندرك هذه المقامات ونفهمها. وفي الحقيقة أنّ أوج قمّة المعنوية الإنسانية والتكامل البشريّ، لا يعرفها سوى الله تعالى وحده، هو الذي يعرف هؤلاء العباد ومن هم بمستواهم ويرى مقامهم. ومن هنا نقول، ما كان يعرف فاطمة الزهراء عليها السلام سوى أميرالمؤمنين عليه السلام وأبيها صلى الله عليه وآله وسلم وأولادها المعصومين عليهم السلام. الناس في ذلك الزمان والأزمنة

١. دلائل الإمامة، ص ٨١.

اللاحقة، ونحن في هذا الزمن، لا يمكننا أن نشخّص ذلك التألّق والتلألؤ المعنويّ الّذي كان فيها. فنور المعنويات الساطع لا يمكن أن تراها عين أيّ شخص، تعجز عيوننا الضعيفة والقاصرة عن رؤية تجلّي الإنسانية الساطع الّذي في هؤلاء العظماء. لهذا، لن ندخل في مجال الحديث المعنويّ عن فاطمة الزهراء عليها السلام. لكن في حياتها اليومية توجد نقاط مهمّة، وهي الجمع بين حياة امرأة مسلمة في سلوكها مع زوجها وأبنائها وقيامها بمسؤولياتها في البيت من جهة، وبين مسؤوليات الإنسان المجاهد الغيور الّذي لا يعرف التعب في التعامل مع الأحداث السياسية المهمّة بعد رحيل الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، حيث جاءت إلى المسجد وخطبت واتّخذت المواقف ودافعت وتحدّثت. وكانت من جهاتٍ أخرى مجاهدة بكلّ ما للكلمة من معنىً، لا تعرف التعب ولاتتقبّل المحنة والصعاب. و من الجهة الثالثة، كانت عابدة ومقيمة للصلاة في الليالي الحالكة، تقوم لله، خاضعة خاشعة له، وفي محراب العبادة كانت هذه المرأة الشابة كالأولياء الإلهيين تناجي ربّها وتعبده.

هذه الأبعاد الثلاثة المجتمعة فيها تمثّل النقطة الساطعة لحياة فاطمة الزهراء عليها السلام. فهي لم تفصل بين هذه الجهات الثلاث. بعض الناس يظن أنّ الإنسان عندما يكون مشغولًا بالعبادة و الذكر، لا يمكن أن يكون سياسيًا، أو بعض آخر يتصوّر أنّ أهل السياسة، سواء من الرجال أم النساء، إذا كانوا حاضرين في ميدان الجهاد في سبيل الله بفاعليّة، إذا كنّ نساءًا، لا يمكنهنّ أن يكنّ ربّات منزلٍ يؤدّين وظائف الأمومة والزوجية وخدمة الاهل، وإذا كان رجلًا لا يمكنه أن يكون ربّ منزل وصاحب عملٍ وحياة. يتصوّرون أنّ هذه تتنافى فيما بينها، وتتعارض، في حين أنّ هذه الأمور الثلاثة لا تتنافى مع بعض و لا توجد ضدّية بينها من وجهة نظر الإسلام. ففي شخصية الإنسان الكامل تكون هذه الأمور معينة بعضها بعضًا. ١٩٨٩/١٢/١٣

تعتبر شخصية الزهراء المطهّرة عليها السلام في الأبعاد السياسية والاجتماعية والجهادية شخصية مميزة بحيث إنّ جميع النساء المجاهدات والثوريات والمميّزات والسياسيات في العالم يمكنهنّ أن يأخذن الدروس والعبر من حياتها القصيرة، المليئة بالمحتوى والمضمون. امرأةٌ وُلدت في بيت الجهاد، وأمضت طفولتها في حضن أبٍ كان في حالة مستمرّة من الجهاد العالميّ العظيم الّذي لا يُنسى.

تلك السيّدة الّتي كانت في مرحلة طفولتها تتجرّع مرارات الجهاد في مكّة، وعندما حوصرت في شعب أبي‌طالب، لمست الجوع والصعاب والرعب وكلّ أنواع الشدائد وأصنافها في مكة، وبعد أن هاجرت إلى المدينة أضحت زوجة رجلٍ كانت كلّ حياته جهادًا في سبيل الله، وفي كلّ هذه المدّة، الّتي كانت نحو ١١ سنة، في حياتها المشتركة مع أميرالمؤمنين، لم تمرّ سنة أو نصف سنة على هذا الزوج لم يكن فيها في جهادٍ في سبيل الله، أو لم يذهب إلى ميدان المعركة. وكانت هذه المرأة العظيمة المضحية، زوجةً لائقةً لرجلٍ مجاهدٍ وجنديّ راسخ وقائد قائمٍ في ميدان الحرب. فحياة فاطمة الزهراء عليها السلام، وإن كانت قصيرة ولم تبلغ أكثر من عشرين سنة، لكنّها من جهة الجهاد والنّضال والسعي الثوريّ والصبر الثوريّ والدرس والتعليم والتعلّم، والخطابة والدفاع عن النبوّة والإمامة والنظام الإسلاميّ هي بحرٌ مترامٍ من السعي والجهاد والعمل وفي النهاية الشهادة أيضًا. هذه هي الحياة الجهادية لفاطمة الزهراء عليها السلام. كم كانت عظيمة جدًا واستثنائية وهي حقيقة لا نظير لها، ويقينًا ستبقى في أذهان البشر ـ سواء اليوم أم في المستقبل ـ نقطةً ساطعةً واستثنائية. ١٩٩٠/١/١٦

في أجواء العلم كانت عالمةً عظيمة. تلك الخطبة الّتي ألقتها فاطمة الزهراء عليها السلام في مسجد المدينة بعد رحيل النبيّ، هي خطبة، بحسب كلام العلامة المجلسيّ، يجب على فطاحل الفصحاء والبلغاء والعلماء أن يجلسوا ويفسّروا معاني كلماتها وعباراتها؛ فهي من العمق بحيث إنّها بلحاظ جمالية الفن كأجمل وأعلى كلمات نهج البلاغة. فاطمة الزهراء عليها السلام تذهب إلى مسجد المدينة وتقف أمام الناس وترتجل ولعلّها تتكلم لمدّة ساعة بأعذب وأجمل العبارات وأكثرها بلاغةً. ١٩٩٢/١٢/١٦

نحن الّذين نُعدّ من الخطباء والكلام الارتجاليّ نفهم كم كانت هذه الخطبة عظيمة. فتاة ابنة ١٨ أو ٢٠ سنة وفي الحدّ الأكثر ٢٤ سنة ـ بحسب الاختلاف في تاريخ ولادتها ـ ومع كلّ تلك المصائب والصعاب أتت إلى المسجد وخاطبت الجمع الغفير من وراء الحجاب(الستار)، كلمات خالدة بقيت في التاريخ.

العرب معروفون بقوّة ذاكرتهم. فيأتي شخصٌ وينشد قصيدة في ٨٠ بيتًا أو أكثر وبعد أن ينتهي يقوم ١٠ أشخاص ويكتبون هذه القصيدة، وهذه القصائد الّتي بقيت إلى يومنا هذا، في الأغلب

هكذا حُفظت. فالأشعار في الأندية ـ أي تلك المراكز الاجتماعية ـ كانت تُقرأ وتُحفظ، وهذه الخطب وهذه الأحاديث كانت تحفظ غالبًا بهذه الطريقة. لقد جلسوا وكتبوا وحفظوا وبقيت هذه الخطب إلى يومنا هذا. والكلمات الجوفاء لا تبقى في التاريخ، فليس كلّ كلام يُحفظ، فلقد قيل الكثير، وأُلقي الكثير من الخطب والكثير من الأشعار ولكن لم تبقَ كلّها، ولم يعتنِ أحدٌ بها. كلّما نظر الإنسان إلى ذاك الّذي حفظه التاريخ في قلبه، وبعد مرور ١٤٠٠ سنة، يشعر بالخضوع، وهذا إنّما يدلّ على هذه العظمة. برأيي إنّ هذه الفتاة الشابّة تُعدّ قدوة. ١٩٩٨/٤/٢٧

إنّ حياة فاطمة الزهراء عليها السلام في جميع أبعادها كانت مليئة بالعمل والسعي والتكافل والسموّ الروحيّ للإنسان. كان زوجها الشاب في الجبهة وميادين الحرب دائمًا، وكانت مشاكل المجتمع والحياة قد جعلت فاطمة الزهراء عليها السلام مركزًا لمراجعات الناس والمسلمين. إنّها ابنة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم المفرّجة للهموم، وقد صارت في حياتها و في تلك الظروف في منتهى العزّة والسموّ، قامت بتربية أولادها الحسن والحسين وزينب، وإعانة زوجها عليّ عليه السلام، وكسب رضا أب كالنبيّ. وعندما بدأت مرحلة الفتوحات والغنائم لم تأخذ بنت النبيّ ذرّة من لذائذ الدنيا وزخرفها ومظاهر الزينة والأمور الّتي تميل لها قلوب الشابات والنساء.

وكانت عبادة فاطمة الزهراء عليها السلام عبادة نموذجية. يقول الحسن البصريّ ـ الّذي كان أحد العبّاد والزهّاد المشهورين في العالم الإسلاميّ ـ حول فاطمة الزهراء عليها السلام: إنّ بنت النبيّ عبدت الله ووقفت في محراب عبادتها حتى «تورّم قدماها»[١]. ويقول الإمام الحسن المجتبى عليه السلام إنّ أمّه وقفت تعبد الله في إحدى الليالي ـ ليلة الجمعة ـ «حتى انفجر عمود الصبح». ويقول الإمام الحسن عليه السلام إنّه سمعها تدعو دائمًا للمؤمنين والمؤمنات، وتدعو للناس ولقضايا المسلمين العامة، وعند الصباح قال لها: «يا أمّاه لم تدعين لنفسك كما تدعين لغيرك؟ فقالت: يا بنيّ الجار ثمّ الدار»[٢]. هذه هي الروحية العظيمة. إنّ جهاد تلك المكرّمة في الميادين المختلفة هو جهاد نموذجيّ، في الدفاع

١. مناقب آل أبي طالب، باب مناقب فاطمة الزهرا، فصل في سيرتها.

٢. بحارالأنوار، كتاب الصلاة، أبواب فضل يوم الجمعة، باب ٣، ح ١٩.

عن الإسلام، وفي الذود عن الإمامة والولاية، وفي الدفاع عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وفي حفظ أكبر القادة الإسلاميين وهو أميرالمؤمنين عليه السلام زوجها. وقد قال عليه السلام مرّة بشأن فاطمة الزهراء عليها السلام: «ما أغضبتني ولا عصت لي أمرًا»[١]. ومع تلك العظمة والجلالة، فإنّها كانت زوجة في بيتها، وامرأة كما يقول الإسلام.

هكذا كانت عبادتها وفصاحتها وبلاغتها وحكمتها وعلمها ومعرفتها وجهادها وسلوكها كابنة وزوجة وأمّ، وإحسانها إلى الفقراء. مرّة أرسل النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم رجلًا عجوزًا فقيرًا إلى بيت أميرالمؤمنين عليه السلام وقال له أن يطلب حاجته منهم، فأعطته فاطمة الزهراء عليها السلام جلدًا كان ينام عليه الحسن والحسين عليهما السلام حيث لم يكن عندها شيء غيره، وقالت له أن يأخذه ويبيعه ويقضي به حاجته. هذه هي الشخصية الجامعة لفاطمة الزهراء عليها السلام. إنّها أسوة للمرأة المسلمة.

إنّ على المرأة المسلمة أن تسعى في طريق الحكمة والعلم وفي طريق بناء الذات معنويّا وأخلاقيًّا وأن تكون في الطليعة في ميدان الجهاد والكفاح، وأن لا تهتمّ بزخارف الدنيا ومظاهرها الرخيصة، وأن تكون عفّتها وعصمتها وطهارتها بحيث تدفع بذاتها نظرة الأجنبيّ المريبة تلقائيًا، وفي البيت سكينة للزوج والأولاد وراحة للحياة الزوجية، وتربّي في حضنها الحنون والرؤوف وبكلماتها اللطيفة أولادًا مهذّبين بلا عُقد، وذوي روحية حسنة وسليمة، وتربّي رجال المجتمع ونساءه وشخصياته. إنّ الأم أفضل من يبني، فلربما يصنع أكابر العلماء آلات إلكترونية معقّدة جدًا، أو يصنعون أجهزة للصعود إلى الفضاء، أو صواريخ عابرة للقارّات، ولكن كلّ هذا لا يعادل أهمية بناء إنسان سامٍ، وهو عمل لا يتمكّن منه إلا الأم، وهذه فاطمة عليها السلام أسوة المرأة المسلمة. ١٩٩٢/١٢/١٦

---

١. بحارالأنوار، كتاب تاريخ فاطمة والحسن والحسين ع، أبواب تاريخ سيدة نساء العالمين، باب ٥، ح ٣٢.

الفصل الخامس

الإمام الحسن المجتبى عليه السلام

إنّ عهد الإمام المجتبى عليه السلام وقضية صلحه مع معاوية ـ ما سمّي بالصلح ـ كان حدثًا مصيريًّا، وفريدًا على مدى مسيرة النهضة الإسلامية في الصّدر الأوّل، فنحن لم نشهد نظيرًا لهذه الواقعة. وهنا أقدّم إيضاحًا مقتضبًا لهذه العبارة ثمّ أدخل إلى أصل الموضوع.

إنّ ثورة الإسلام بما يمثّله الفكر الإسلاميّ، والأمانة الّتي تحمل عنوان الإسلام والّتي أرسلها الله سبحانه إلى العالمين، كانت في عهدها الأوّل عبارة عن نهضة واحدة، وتحرّك واحد، جاء في إطار حركة جهادية ونهضة ثورية عملاقة. وما إن أعلن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن هذا الفكر في مكّة حتّى حشد أعداء الفكر التوحيديّ وأعداء الإسلام صفوفهم للوقوف بوجهه والحيلولة دون أن يشقّ هذا الفكر طريقه، فعمد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إلى تنظيم هذه النهضة بتعبئة قواه من العناصر المؤمنة صانعًا ملحمة جهاديّة في غاية الفطنة والقوّة والتقدّم داخل مكّة استمرّت إحدى عشرة سنة، فكانت تلك المرحلة الأولى.

وبعد ثلاث عشرة سنة، ومن خلال تعاليم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، والشعارات الّتي رفعها والتنظيم الّذي اعتمده والتضحيات الّتي بُذلت، وعبر ما تجمّعت من عناصر على اختلافها، تحوّل هذا الفكر إلى حكومة ونظام، وتبدّل إلى نظام سياسيّ وحياتيّ لأمّة بأكملها، وكان ذلك عندما قدم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم المدينة وجعل منها قاعدة له وبسط فيها الحكومة الإسلامية، فتحوّل الإسلام من نهضة إلى حكومة، وهذه هي المرحلة الثانية.

استمرّت هذه المسيرة على مدى عشر سنوات من حياة النبيّ الأكرم ﷺ، والفترة الّتي تلتها من عهد الخلفاء الأربعة، ومن ثمّ إلى زمن الإمام المجتبى عليه الصلاة والسلام وخلافته الّتي استمرّت ما يناهز ستّة أشهر، برز خلالها الإسلام على شكل حكومة، وكان كلّ شيء يتّخذ هيئة النظام الاجتماعيّ من الحكومة إلى الجيش إلى العمل السياسيّ والثقافيّ والقضائيّ وتنظيم العلاقات الاقتصادية للأمّة مع قابليّته للاتّساع. ولو قدّر له أن يمضي قُدُمًا لكان قد عمّ المعمورة بأكملها، أي أنّ الإسلام أثبت قابليّته تلك.

لقد تنامى التيّار المعارض في زمن الإمام الحسن عليه السلام بحيث ظهر كواحد من العراقيل. ولم يكن هذا التيّار ـ بطبيعة الحالة ـ قد برز في عهد الإمام المجتبى عليه السلام، بل كان تبلوره خلال سنوات سبقت ذلك. ومن شاء التحدّث بعيدًا عن الجوانب العقائدية، أو يستند إلى الشواهد التاريخية فقط، فلعلّه يستطيع الادّعاء أنّ هذا التيّار لم يظهر إلى الوجود حتّى في العهد الإسلاميّ أيضًا، بل كان استمرارًا لما شهدته مرحلة نهضة النبيّ ﷺ، أي في المرحلة الأولى بمكّة. فبعد أن وقعت الخلافة في عهد عثمان ـ الّذي كان من بني أميّة ـ في قبضة الأمويين، كان أبو سفيان ـ وكان أعمى يومها ـ جالسًا بين قومه، فسأل: من هم الحاضرون؟ فجاءه الرّد: فلانٌ وفلانٌ وفلان، فلما اطمأنّ بأنّ الحاضرين جميعًا من قومه وليس فيهم غريب، خاطبهم قائلًا: «تلقّفوها تلقّف الصبية للكرة»[1]، أي تناولوا الحكومة كتناول الكرة ولا تدعوها تفلت منكم. وهذه الحادثة تناقلتها تواريخ السنّة والشيعة. وهذه ليست مسألة عقائدية، ونحن لا نتناولها وفق رؤية عقائدية، ولا أحبّذ أن أتناولها من خلال هذه الرؤية، بل إنّني أثيرها من بعدها التاريخيّ فقط.

حينها كان أبو سفيان مسلمًا. غاية الأمر أنّ إسلامه كان بعد الفتح أو في أوان الفتح، عندما لم يكن الإسلام يعيش زمن الغربة والضعف، فكان إسلامه بعد بلوغ الإسلام أوج قدرته. فلما بلغ هذا التيّار ذروته في عهد الإمام الحسن المجتبى عليه السلام، برز متجسّدًا في معاوية بن أبي سفيان و هو يقف بوجه الإمام الحسن المجتبى عليه السلام. فباشر هذا التيّار معارضته سادًّا الطريق بوجه الحكومة الإسلامية ـ أي

١. مروج الذهب و معادن الجوهر، ج ٢، ص ٣٤٣.

الإسلام بطابعه الحكوميّ ـ مفتعلًا مشاكل تحوّلت إلى عائق أمام تقدّم تيّار الحكومة الإسلامية فعلًا.

لقد ذكرنا مرارًا فيما يتعلّق بصلح الإمام الحسن عليه السلام، وما نصّت عليه المصنّفات والكتب أيضًا، عدم قدرة من كان في نفس موقف الإمام الحسن المجتبى عليه السلام وفي مثل ظروفه، حتّى أميرالمؤمنين عليه السلام نفسه، إلّا القيام بمثل ما قام به الإمام الحسن عليه السلام. ولا يحقّ لأحد أبدًا القول بأنّ جانبًا من عمل الإمام عليه السلام مثارٌ للتشكيك. كلا، ففعله عليه السلام كان مطابقًا لاستدلال منطقيّ لا يقبل التخلّف.

من هو الأكثر ثوريّة من بين آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ ومن الّذي فاقهم في اصطباغ حياته بصبغة الشهادة وفاقهم حميّة للمحافظة على الدين ومواجهة العدوّ؟ إنّه الحسين بن عليّ عليه السلام، وهو عليه السلام شارك الإمام الحسن عليه السلام في هذا الصلح، فلم يعقد الإمام الحسن الصلح وحده بل عقداه معًا، غاية الأمر أنّ الإمام الحسن عليه السلام كان المتقدّم يتبعه الإمام الحسين في ذلك. كان الإمام الحسين عليه السلام أحد الذائدين عن مبدأ صلح الإمام الحسن عليه السلام. وعندما بدر اعتراض من أحد الأنصار المقرّبين ـ من هؤلاء المتحمّسين الثائرين ـ على ما فعله الإمام الحسن المجتبى عليه السلام، ردّ عليه الإمام الحسين عليه السلام، «وغمز الحسين حُجر»[1]، وليس هنالك من يقول: لو كان الإمام الحسين مكان الإمام الحسن لما وقّع الصلح، كلا، فلقد كان الإمام الحسين إلى جانب الإمام الحسن ووقّع الصلح، ولو لم يكن الإمام الحسن عليه السلام وكان الإمام الحسين عليه السلام وحيدًا في تلك الظروف لحدث ما حدث و وقع الصلح.

ضرورة الهدنة والصلح

لقد كانت للصلح عوامله، ولم يكن بالإمكان تفاديه، فلا مناص منه. يومها لم تكن فكرة شهادة الإمام أمرًا ممكنًا. ويثبت المرحوم الشيخ راضي آل ياسين، رضوان الله تعالى عليه، في كتابه «صلح الحسن»، تعذّر الشهادة إذ ذاك ـ وقد ترجم هذا الكتاب قبل عشرين عامًا (١٣٨٩ هـ.ق.) وجرى طبعه ـ فليس كلّ قتلٍ شهادة، بل الشهادة قتل بشروط، ولم تكن تلك الشروط متوفّرة حينها. ولو قُدّر للإمام الحسن عليه السلام القتل يومذاك لما مات شهيدًا، فقد كان متعذّرًا على

---

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي‌الحديد، باب الكتب والرسائل، ح ٣١.

أيّ أحد القيام بتحرّك مضمون المصلحة في تلك الظروف فيُقتل شهيدًا إلّا أن ينتحر.

تحدّثنا عن الصلح بأبعاده المختلفة. والقضية الّتي تبلورت الآن هي أنّ الأمر جرى تنظيمه بعد صلح الإمام الحسن المجتبى عليه السلام بذكاء وفطنة بحيث لا يلج الإسلام والنهضة الإسلامية نفق الخلافة بما تحمله من مواصفات الملكية، وهذا ما أبدعه الإمام الحسن المجتبى عليه السلام. وقد قام هذا الإمام بعملٍ جعل تيّار الإسلام الأصيل ـ الّذي انطلق من مكّة وتبلور بشكل حكومة إسلامية امتدّت حتّى عهد أميرالمؤمنين عليه السلام ومن ثمّ عهده ـ يسير في مجرًى آخر. غاية الأمر أنّه لم يكن بصبغة حكومية لتعذّر ذلك بل كان على هيئة نهضة ثوريّة جديدة، فكانت تلك المرحلة الثالثة في العصر الإسلاميّ. مرّةٌ أخرى، نهض الإسلام. الإسلام الأصيل، المقارع للظلم، الّذي لا يداهن، المنزّه عن التحريف والرافض لأن يتحوّل إلى ألعوبة تتقاذفها الأهواء والنزوات، لكنّه ظلّ متّخذًا طابع النهضة. أي أنّ الفكر الثوريّ الإسلاميّ عاد ثانيةً في عهد الإمام الحسن عليه السلام ليتحوّل إلى فكرٍ ثوريٍّ إسلاميّ بعد أن قطع شوطًا بلغ فيه مبلغ السلطة والحكم. ولقد أصبح وضع هذه المرحلة ـ مرحلة الثورة ـ أكثر تعقيدًا من عهد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم نفسه، لأنّ الّذين رفعوا الشعارات كانوا ممّن تلبّسوا بزيّ الدين ولم يكونوا من أهله. وهنا تكمن المشكلة الّتي واجهها أئمّةالهدى عليهم السلام. ومن خلال مجمل الآيات وعموم حياة الأئمّة عليهم السلام استنتجت أنّهم عليهم السلام ومنذ صلح الإمام المجتبى عليه السلام وحتى النهاية كانوا بصدد تجديد هذه النهضة وإقامتها على هيئة حكومة علويّة إسلاميّة. وهناك روايات في هذا الصدد. ولعلّ بعض الناس لا يلاحظ هذه القضيّة بهذا المنظار وله منحىً آخر، لكن تشخيصي أنا أنّ الأئمّة عليهم السلام قد سعوا من أجل تبديل النهضة إلى حكومة وتيّار إسلاميّ أصيل منزّه عن التلوّث والامتزاج بلوث الأهواء النفسية، ليمسك بزمام الأمور. بيد أن ذلك كان عملًا صعبًا.

إنّ أهم ما كانت الأمّة بحاجة إليه خلال المرحلة الثانية من النهضة ـ فترة خلافة بني أميّة وآل مروان وبني العبّاس ـ هو معرفة مواطن الأصالة في الإسلام وتشخيصها، و الاطلاع على مكامن الانبعاث الّتي ينطوي عليها الإسلام الأصيل القرآنيّ، من بين طيّات التفاسير المختلفة و المشتّتة، وأن لا يخلطوا بينها، فليس عبثًا هذا التأكيد في الأديان على التعقّل والتدبّر. وما ورد في القرآن الكريم

من حثّ الناس على التفكّر والتعقّل والتدبّر فيما يتعلّق بأهمّ الموضوعات الدينية وهو التوحيد، ليس لهوًا. فالتوحيد لا ينحصر في قولنا إنّ الله موجودٌ، وهو واحدٌ لا اثنين، بل هذه صورة من التوحيد. فحقيقة التوحيد بحرٌ مترامي الأطراف يغرق فيه أولياء الله، وهو وادٍ سحيق بالرغم من عمقه، فقد طُلب من المؤمنين والمسلمين الموحّدين السير فيه عن تفكّر وتدبّر وتعقّل. وفي الحقيقة، فإنّ العقل والتدبّر هو الّذي له القدرة على المضيّ بالإنسان إلى الأمام. وبطبيعة الحال، فإنّ هذا العقل إنّما يتغذّى ويستمدّ من نور الوحي والمعرفة ويستلهم من تعاليم أولياء الله على مراحل متعدّدة، لكنّه في خاتمة المطاف هو الّذي يتحرّك إلى الأمام ودونه لا مجال للحركة أبدًا.

ما كانت الأمّة الإسلامية بحاجة لاستيعابه، على مرّ القرون الّتي تمّ التسلّط فيها عليها باسم الخلافة ـ أي حتى القرن السابع، فترة الخلافة العبّاسيّة، وبالطبع، بعد انهيار الخلافة العبّاسيّة، كانت تأتي حكومات من هنا وهناك تحكم باسم الخلافة، كزمن المماليك في مصر، وما تلاها كذلك في البلدان العثمانية وأماكن أخرى ـ هو أن يحكّموا العقل ليعرفوا ما إذا كانت رؤية الإسلام والقرآن والحكم الإلهيّ والأحاديث المسلّمة بشأن أولياء الأمور تنسجم مع الواقع المعاش فيه أم لا، فذلك أمر في غاية الأهمية.

لقد تميّزت فترة الخلافة المروانية والسفيانية والعبّاسية بإفراغ القيم الإسلامية من محتواها الحقيقيّ، إذ بقيت منها صورها و تبدّلت المضامين إلى مضامين جاهلية وشيطانية.

لقد تحوّل ذلك الجهاز الّذي كان يريد تربية وبناء أناس عقلاء متعبّدين مؤمنين أحرار طاهرين خشّعٍ لله أشدّاء أمام المستكبرين ـ وأفضل صورة ما كان سائدًا من النظام الإداريّ الإسلاميّ في عهد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ـ إلى جهاز يربّي الناس ويعلّمهم أصناف المكر ويجعلهم عبيدًا للدنيا والأهواء والنزوات، متملّقين وخاوين من المعنويات، أناسًا فارغين، ديدنهم الفسق والفساد.

وممّا يؤسف له أنّ الوضع كان هكذا على امتداد فترة الخلافة الأموية والعبّاسية. لقد سطّروا في كتب التاريخ أمورًا، لو شئنا التطرّق إليها لطال بنا المقام، وكانت بدايتها في عهد معاوية، حيث امتدح المؤرّخون معاوية كثيرًا بوصفه بالحلم وسعة الصدر وسماحه لمعارضيه و قد تفوّهوا بما

شاؤوا أمامه. ولعلّه كان كذلك لبرهة من الزمن وفي أوائل حكمه. و هناك أبعاد أخرى إلى جانب هذا البعد من شخصيّة معاوية، نادرًا ما تطرّق إليه المؤرخون. هناك الكثيرون ممّن لم يشيروا إلى طريقة استمالته للأفراد والأقطاب والأشراف من الرجال لكي يتنصّلوا ممّا يعتقدون ويؤمنون به، و تجنيدهم لمواجهة الحقّ. و كثيرون لم يكتبوا مثل هذه الأمور. وهذا ـ بطبيعة الحال ـ مدوّن في التاريخ، وثمّة أناس كتبوا ما نعرفه نحن الآن.

إنّ الّذين كانوا يخضعون لتربية تلك الأجهزة، كانوا يدرجون على عدم التفوّه بما يخالف هوى الخليفة ورغبته، فيا له من مجتمع! ويا له من إنسان! وأين هي تلك الإرادة الإلهية والإسلامية الموجودة في الناس لإصلاح المفاسد وإزالتها وجعل المجتمع مجتمعًا إلهيًّا؟ فهل مثل هذا الشيء سيكون ممكنًا؟

يروي «الجاحظ»[1] أنّ معاوية توجّه إبان حكمه إلى مكّة راكبًا فرسًا، وكان إلى جانبه أحد الوجهاء يومها، ومعاوية منهمك في الحديث معه ويتبعهما آخرون. كان معاوية يحدّث هذا الرجل متفاخرًا بأمجاده وأمجاد أبيه «أبي‌سفيان» في الجاهلية. وكانت مجموعة من الأطفال تلهو في الطريق، وعلى ما يبدو كانوا يلعبون بالأحجار. وفي تلك الأثناء أصاب حجرٌ جبهة الرجل المرافق لمعاوية فسال الدم منها لكنّه لم ينبس ببنت شفة ولم يقطع على معاوية حديثه، فأخذ يتصبّر بينما كان الدم يسيل على وجهه ولحيته. وفيما كان معاوية يسهب في الحديث، وإذ به يلتفت إلى صاحبه فيرى الدم قد غطّى وجهه، فقال له: إنّ الدم يسيل من جبهتك، فأجاب الرجل معاوية: أ دمٌ يسيل من جبهتي؟! أين ومتى؟ فلشدّة انبهاره بمعاوية، تظاهر بعدم إحساسه بإصابة الحجر وجرحه وسيلان الدم من جبهته. فقال له معاوية: عجبٌ لك، أصاب الحجر جبهتك ولم تشعر به! فأجاب: كلا، لم أشعر به، ثمّ ضرب يديه وقال: واه، إنّه دمٌ! ثم أخذ يُقسم بنفس معاوية وبمقدّساته: لو لم تخبرني، لما شعرتُ بجريان الدم لِما في كلامك من لذّة! فسأله معاوية: كم هو عطاؤك من بيت المال؟ فأجابه: كذا ـ على سبيل المثال ـ قال معاوية: لقد ظلموك، فلا بدّ أن يُزاد أضعافًا ثلاثة! هذه هي الثقافة السائدة في حكومة معاوية.

---

١. التاج في اخلاق الملوك، ص ٥٤.

في تلك الفترة كان المتزلّفون للزّعماء والخلفاء هم الممسكين بزمام الأمور، فلم تُقسّم الأعمال وفقًا للصلاح والكفاءة، وعادة العربيّ هي أن يولي بالغ اهتمامه بالأصل والنسب، حيث يتساءل: من أيّة عشيرة ينحدر فلانٌ؟ ومن هم آباؤه؟ بيد أن هؤلاء لم يكونوا يلتزمون بالأصول والأنساب أيضًا... وفي زمن عبدالملك وبعض أولاده، تمّ تنصيب يوسفبنعمر الثقفيّ واليًا على العراق لفترات طويلة، وبقي يحكم العراق سنوات متمادية. وكان معقّدًا شقيًا. ومن نافل ما يُنقل عن عقدته أنّه كان قصير القامة، فكان عندما يعطي قطعة القماش للخيّاط كي يخيطها له، يسأل الخيّاط: هل تكفي هذه القطعة لقامتي؟ فكان الخيّاط ينظر إلى هذه القطعة من القماش وإذا قال مثلًا إنّها مناسبة لك أيها الأمير وربّما تزيد، كانوا يأخذون منه ذلك القماش فورًا ويأمرون بمعاقبته. فأدرك الخيّاطون القضيّة، من هنا عندما كان يعرض عليهم قطعة القماش ويسألهم ما إذا كانت تكفي لهيكله أم لا، كانوا يردّون: كلا، يبدو أنّها لا تكفي ويلزمنا كثير من الجهد لكي نجعلها تتّسق مع بدنك الضخم. فكان يسرّه ذلك، رُغم علمه بكذب الخيّاط! لقد كان أحمق إلى هذا الحدّ! إنه ذلك الرجل الّذي قتل زيدبنعلي عليه السلام في الكوفة. فمثل هذا، تسلّط على نفوس الناس وأموالهم وأعراضهم سنوات عديدة، لا لأصل أو نسب ولا لعلمٍ أو قابلية ولكن لقربه من مركز السلطة عُيّن لهذا المنصب، وهذا وبال، ومن أعظم الآفات الّتي تفتك بأيّ نظام.

استمرّ هذا التيّار على هذا المنوال، فيما كان يسير إلى جانبه تيّار إسلاميّ أصيل هو إسلام القيم والقرآن الّذي لا يعرف المهادنة مع ذلك التيّار الحاكم المنافي للقيم، ومصداقه البارز أئمّة الهدى عليهم السلام والكثير من المسلمين الموالين لهم. وبفضل وجود الإمام الحسن المجتبى عليه السلام، حافظ هذا التيّار القيميّ للنهضة الإسلامية على الإسلام. فلولا صلح الإمام المجتبى لما بقي ذلك الإسلام القيميّ الثوريّ، ولزال من الوجود، لأنّ الغلبة ستكون في خاتمة المطاف من نصيب معاوية. لم يكن الوضع بحيث يمكن للإمام الحسن المجتبى عليه السلام تحقيق النصر، فقد كانت الأمور جميعها تسير بالاتّجاه المعاكس لغلبة الإمام المجتبى عليه السلام. وكانت الغلبة تسير لصالح معاوية، لاستحواذه على الجهاز الإعلاميّ، ولأنّ شخصيته في العالم الإسلاميّ لم تكن بتلك الشخصية الّتي يعجزون عن تبريرها وإبرازها.

ولولا لجوء الإمام الحسن عليه السلام للصلح لكانوا قد قضوا على وجود آل النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم تمامًا، ولم يبق من يحفظ الإسلام الأصيل بنظامه القيميّ و لانتهى كلّ شيء بانهيار اسم الإسلام، وبالتالي لما وصل الدور إلى نهضة عاشوراء. لو قُدّر للإمام المجتبى عليه السلام أن يواصل الحرب ضدّ معاوية وأن تنتهي تلك الحرب باستشهاد آل النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، لكان الإمام الحسين عليه السلام قد استشهد، وقُتل كبار الأصحاب، أمثال حجربن عُديّ، وقُتل الجميع ولما بقي من يستفيد من الفرصة للمحافظة على الإسلام بإطاره القيميّ، وهذا دَينٌ عظيم أسداه الإمام المجتبى عليه السلام في محافظته على الإسلام. ١٩٩٠/٤/١١

في النهاية حدث صلحٌ. بالطبع كان الصلح مفروضًا. و يجب القول بأنّ الإمام لم يكن راغبًا به. وتلك الشروط الّتي جعلها الإمام، في الواقع، زلزلت أسس عمل معاوية. الصلح بذاته وشروط الإمام الحسن عليه السلام كلّها كانت مكرًا إلهيًا، ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللَّهُ﴾[1] أي لو أنّ الإمام الحسن حارب وقُتل في الحرب ـ وكان هناك احتمال كبير أن يُقتل على يد أصحابه أو على يد الجواسيس الّذين اشتراهم معاوية ـ لقال معاوية، أنا لم أقتله بل قتله أصحابه. ولعلّه كان سيقيم العزاء عليه، ويبيد جميع أصحاب أميرالمؤمنين من بعدها، أي أنّه ما كان ليبقى هناك أي شيء باسم التشيّع، فيظهر بعد ٢٠ سنة في الكوفة جماعة تدعو الإمام الحسين عليه السلام. فما كان ليبقى شيء من الأساس. لقد حفظ الإمام الحسن الشيعة، أي أنّه حفظ البناء حتّى ترجع الحكومة إلى أهل البيت بعد عشرين أو ٢٥ سنة. ٢٠٠٠/٦/٢

بعد أن صالح الإمام الحسن معاوية، بدأ الجاهلون يذمّونه بمختلف العبارات، وبعضهم كان يسلّم عليه بـ«مذلّ المؤمنين»[2]، ويقولون له إنّك بصلحك هذا قد أذللت المؤمنين المتحمّسين لقتال معاوية واستسلمت لمعاوية، وفي بعض الأحيان كانوا يستخدمون عبارات أكثر احترامًا وأدبًا، إلا أنّ المضمون كان واحدًا. وقد قام الإمام الحسن عليه السلام في مقابل هذه الاعتراضات والملامات بمخاطبتهم بجملة لعلّها هي الأبلغ في كلّ خطبته: «ما تدري لعلّه فتنةٌ لّكم ومتاعٌ إلَى حين»[3]. وهي جملةٌ قرآنية فكأنّه يريد أن يقول قد يكون ما جرى فتنة لكم وامتحانًا أو أنّه متاع محدود

١. سورة آل عمران، الآية: ٥٤.

٢. بحارالأنوار، كتاب تاريخ فاطمة والحسن والحسين ع، أبواب مايختص بالإمام الحسن بن علي، باب ١٨، ح ٧.

٣. بحارالأنوار، كتاب تاريخ فاطمة والحسن والحسين ع، أبواب مايختص بالإمام الحسن بن علي، باب ١٩، ح ٦.

لمعاوية. وهذا يدلّ دلالة واضحة على أنّ الإمام كان ينتظر المستقبل، وهذا المستقبل لا يمكن أن يكون سوى أنّ الحكومة الّتي لا يمكن أن تكون مقبولة بنظر الإمام الحسن عليه السلام والّتي هي على غير الحقّ يجب أن تتنحّى جانبًا وتأتي حكومة وفق رأيه. لهذا، كان يقول لهم إنّكم لستم مطّلعين على فلسفة هذا الأمر. فماذا تعلمون؟ لعلّ هناك مصلحة في هذا الأمر.

في بداية الصلح جاء اثنان من وجهاء الشيعة ـ مُسيّب بن نَجَبة وسليمان بن صُرد ـ ومجموعة من المسلمين إلى الإمام المجتبى عليه السلام. وقالوا لدينا قوى كثيرة من خراسان ومن العراق وغيرهما ونحن نضعهم تحت أمرك، ونحن مستعدّون أن نلاحق معاوية. فطلبهم عليه السلام إلى خلوةٍ وتحدّث معهم بمقدار. وبعد أن خرجوا من عنده كانوا هادئين وتركوا قوّاتهم ولم يعطوا لمن كان معهم أيّ جوابٍ واضح. ويدّعي طه حسين أنّ هذا اللقاء قد وضع في الواقع الحجر الأساس لجهاد الشيعة. أي أنّه يريد أن يقول إنّ الإمام الحسن عليه السلام قد جلس معهم وشاورهم وأوجد في هذا الاجتماع التشكيلات الشيعية العظيمة.

لهذا، يتّضح هذا الأمر في حياة الإمام الحسن عليه السلام وفي كلماته، وإن لم تكن أرضية مثل هذا القيام مهيّأة في ذلك العصر، لأنّ الناس كانوا مغفلين، وكانت الإمكانات المالية والإعلام بيد العدوّ. لقد استعمل العدوّ أساليب لم يكن للإمام الحسن عليه السلام أن يستعملها، كدفع الأموال دون طائل، وجمع الفاسدين والأشرار وأمثالهم. فلذلك كانت أيدي معاوية مبسوطة بخلاف الإمام الحسن عليه السلام. مجلة باسدار إسلام، ج٦

توجد رواية عن الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول: «وُقّت هذا الأمر في السبعين»[١] فبالتقديرات الإلهية إنّ أمر الحكومة يعود إلى أهل البيت حتّى ولو بعد مرور ٣٠ عامًا على شهادة أميرالمؤمنين عليه السلام و١٠ سنوات على شهادة الإمام الحسين عليه السلام. غاية الأمر كيف يمكن أن تحصل هذه النتيجة بهذه العظمة؟

(الجواب) عندما يهيّئ الناس مقدّماتها بالإرادة والعزم.

إنّ الله تعالى لا يحابي أحدًا، وليس له من أقارب! فالأمر الّذي كان على عاتق الناس لم

---

١. الكافي، كتاب الحجة، باب كراهية التوقيت، ح ١.

ينجزوه. أمّا العمل الّذي كان على عاتق الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام فقد أدّياه، ولكن العمل الّذي كان على عاتق الخواص ـ عبدالله بن جعفر وعبدالله بن عبّاس وغيرهما ـ فلم يتمّ. حتّى أولئك الّذين جاؤوا فيما بعد إلى كربلاء وحاربوا مع الإمام الحسين عليه السلام لم يفعلوا ما كان ينبغي أن يفعلوه في زمن مسلم. لقد قصّروا في الامر، وإلّا لما حدث لمسلم ما حدث. كان عليهم أن ينهوا المسألة، ولم يفعلوا. وهذا التقصير أدّى إلى أن تحدث واقعة كربلاء.

ثمّ يقول عليه السلام: «فلمّا أن قُتل الحسين صلوات الله عليه اشتدّ غضب الله تعالى على أهل الأرض فأخّره إلى أربعين ومائة»[١]. أي أنّه في الظاهر قد تأخّر. وبرأيي قد وصل إلى سنة ١٤٠ أي أنّه تأخّر سبعين سنة. وهي السنوات الّتي وصل فيها العبّاسيّون إلى السلطة... أي من المعلوم أنّ صلح الإمام الحسن عليه السلام، قد أصبح أرضية لهذا العمل الكبير وإلا فإنّ الأئمّة عليهم السلام لم يكونوا ليتركوا القضية. فهل أنّ قضية الولاية والحكومة هي قضية بسيطة؟! لقد كان هذا أساس الدين ومحوره. ولكن في النهاية هذا ما جرى و ما حدث. ٢٠٠٠/٦/٢

لقد قيل الكثير بشأن هذا الصلح. وأمّا ما أريد أن أقوله فهو التعامل مع قضية صلح الإمام الحسن عليه السلام من رؤية جديدة. لأنّ هذه القضية تمثّل مقطعًا تاريخيًّا شديد الحساسيّة يجعل أهميّة هذه الحادثة أكبر من أيّة قضية سياسيّة طيلة تاريخ الإسلام. إنّ تاريخ الإسلام مليءٌ بالأحداث المختلفة ـ أحداث عصر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وما بعده و عصر أميرالمؤمنين عليه السلام و الحوادث في عهد الأئمّة عليهم السلام والأمويين والعبّاسيين ـ تاريخ الإسلام مليءٌ بالحوادث المهمّة؛ و لعل الأحداث الّتي تشبه قضيّة صلح الإمام الحسن عليه السلام، قليلةٌ. من حيث البُعد المصيريّ للتاريخ الإسلاميّ كلّه، لا يوجد ما يماثله، سوى حادثة أوحادثتين في تاريخ الإسلام كان لهما الأثر المصيريّ على مستوى حركة الإسلام وتاريخ الإسلام كلّه وعلى مرّ القرون المتمادية. كان صلح الإمام حادثةً مهمّةً جدًا من هذه الناحية.

خلاصة الأمر أنّ هذه الحادثة هي عبارة عن تبديل مجرى الخلافة الإسلامية إلى المَلَكية. فهذه الجملة مليئة بالمعنى والمضمون لو تأمّلنا فيها. فالخلافة هي نوع من الحكومة والملكية هي

---

١. م.ن.

نوعٌ آخر. ولا ينحصر التمايز بين هاتين بخصوصيّة واحدة أو خمس خصوصيّات. فمسار الملكيّة ومسار الخلافة، هما مساران منفصلان ويتمايزان بالكامل على مستوى إدارة المسلمين وحكمهم، وإدارة البلاد والمجتمع الإسلاميّ. وفي هذه الحادثة تبدّل مسار القطار العظيم للتاريخ الإسلاميّ والحياة الإسلامية، مثلما يحدث عندما تنظرون إلى القطارات عند تغيّر مساراتها، ففي محلٍّ ما يتم تبديل هذه السكّة ويؤدي ذلك إلى أن يتغيّر مسار القطار ١٨٠ درجة، وقد يكون القطار متّجهًا نحو الشمال فيصبح بعد ذلك متّجهًا إلى الجنوب. وبالطبع، إنّ هذا التغيير إلى ١٨٠ درجة لا يحصل في لحظةٍ واحدة ملموسة، لكنّ في نهاية الأمر، عندما ينظر الإنسان يجد أنّه قد حصل ذلك، وإنّني أنظر إلى هذه الحادثة من هذه الحيثية.

هناك سبعة أسئلة أساسية تدور حول هذا الموضوع:

الأوّل: بعد صلح الإمام الحسن عليه السلام حلّ مسارٌ آخر مكان المسار السابق، فانتقلت السلطة من خطٍّ، بحسب تعبير اليوم، إلى خطٍّ آخر. فما هي مميّزات وخصائص هذين الخطّين؟ وما هي خصائص هذين المسارين اللّذين تبادلا الأدوار معًا؟

الثاني: ما هي أساليب تيّار الباطل الّذي أمسك بالسلطة من أجل كسب القدرة والهيمنة على المجتمع؟

الثالث: ما هي أساليب تيّار الحقّ الّذي خسر القدرة ـ أي تيّار الإمام الحسن ـ من أجل مقاومة تيّار الباطل؟ ما هي الأساليب والطرق الّتي استخدمها الإمام؟

الرابع: دراسة الهزيمة وتحليلها. لماذا انهزم تيّار الحقّ في هذه الأحداث؟ ما هو تحليل هذا الأمر؟

الخامس: كيف كان سلوك المنتصرين تجاه المغلوبين؟

السادس: كيف كان سلوك المغلوبين مقابل الغالبين؟ أيّة سياسة اختاروا؟ وأيّة استراتيجية؟ وماذا كان المصير؟

السابع: ماذا كانت العاقبة؟

أهم الفصول المليئة بالدروس والعبر هو هذا الفصل.

فيما يتعلّق بخصائص كلّ تيّار، هناك الكثير ممّا يمكن أن يُقال. بحيث لو أردنا أن نعدّدها لاحتجنا إلى لائحةٍ طويلة، وقد قمت بتبويبها. فإنّ تيّار الحقّ، أي تيّار الإمام الحسن عليه السلام، يعطي الأصالة للدين، فبالنسبة لهم الأصل كان الدين. فما هو الدين؟ هو أن يبقى الإيمان والاعتقاد بالدين عند الناس، وأن يبقى الناس متعبّدين بالدين ومتمسّكين بالإيمان والعمل، وأن يكون الدين حاكمًا في إدارة المجتمع. كان الأصل بالنسبة لهم هو أن يتحرّك المجتمع وفق إدارة الدين وقدرته وحاكميّته وأن يكون النظام هو النظام الإسلاميّ. و الحصول على القدرة والحكومة والإمساك بزمام السلطة هما بالمرتبة الثانية، والثالثة والرابعة وهكذا، وغيرها من القضايا الفرعية. لكنّ القضية الأساسية هي أنّ هذا النظام وهذا المجتمع ينبغي أن يُدار وفق حاكمية الدين، و يبقى أبناء هذا المجتمع على دينهم وإيمانهم، وأن يترسّخ ويتعمّق هذا الأمر في قلوبهم. كانت هذه هي خصائص التيّار الأوّل.

أمّا التيّار الثاني فكان الإمساك بالسلطة هو الأصل عنده، بأيّ ثمنٍ كان. كانوا يريدون الحكومة... وكانت هذه هي السياسة الحاكمة على التيّار الثاني. وكانت القضية بالنسبة لهذا التيّار الإمساك بالسلطة وزمام الامور بأيّ ثمنٍ كان وبأيّة وسيلة ومهما كانت الوسائل.

كما هو معروفٌ الآن في العالم بين السياسيين. بالنسبة لهم ليس الأساس الأوّل القيم والأصول. فإن استطاعوا أن يحافظوا على الأصول الموجودة في أذهانهم فَبِها، وإن لم يتمكّنوا فإنّ الأساس عندهم هو أن تبقى السلطة بأيديهم. هذا ما هو مهمٌّ بالنسبة لهم. ومثل هذا يُعدّ حدًّا حسّاسًا ومهمًّا. من الممكن أن يكون كلّ من التيّارين عاملًا بظواهر الدين، كما كان الأمر في الحرب بين أميرالمؤمنين عليه السلام ومعاوية. ففي يومٍ من الأيّام، نجد أنّ جماعة من المقاتلين كانوا في صفوف أميرالمؤمنين عليه السلام ـ في حرب صفّين الّتي وقف فيها معاوية مقابل أميرالمؤمنين عليه السلام ـ ثم تردّدوا، وكان من بينهم عدّة من أولئك الّذين يحملون الشبهات ولا يستطيعون أن يحلّوها بأنفسهم، ولا يرجعون إلى شخصٍ قادرٍ على ذلك، فلذلك كانوا يعزمون على إشاعتها، فيجمعون مجموعة من الأفراد من حولهم. ومثل هؤلاء كانوا يشكون و يتردّدون، فيقولون لماذا نحن نتحارب؟ فهم يصلّون ونحن نصلّي، وهم يتلون القرآن ونحن كذلك نتلو القرآن، وهم يذكرون النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ونحن نذكر، فوقعوا

في هذا التردّد والحيرة. وكان هناك عمّاربن‌ياسر ـ وقد وجدت نقطةً بارزةً بشأن عمّاربن‌ياسر في تاريخ صدر الإسلام ـ هذا الجليل المحلِّل والكاشف للمسائل الدقيقة و المليئة بالشبهات، والّتي كانت في ذلك الزمان مورد غفلة وجهالة. فهذا هو شأن عمّاربن‌ياسر في تاريخ الإسلام. فإذا كنّا نعرف مالك الأشتر بسيفه وشجاعته، فعلينا أن نعرف عمّاربن‌ياسر بكلامه وفكره ورؤيته الصحيحة وكشفه للكثير من الأمور في تاريخ صدر الإسلام. قليلة هي الموارد الّتي كانت موارد شبهة في زمن أميرالمؤمنين عليه السلام ولا يوجد لعمّاربن‌ياسر فيها حضور. لقد كان هذا الرجل الجليل رجلًا استثنائيًا.

لقد علم عمّاربن‌ياسر أنّ هناك جماعة وقعوا في هذه الشبهة، فذهب إليهم وبيّن لهم الحقائق. فاتّضح لهم أنّ القضيّة ليست قضيّة هذه الظواهر كالصلاة، وقال أقسم بالله أنّني رأيت في حربٍ أخرى هاتين الرايتين تتقابلان، هذه الراية الّتي يحملها أميرالمؤمنين عليه السلام اليوم، وهذه الراية الّتي تقف مقابله ويحملها معاوية، وذلك في معركة بدر. ففي معركة بدر تقابلت هاتان الرايتان ـ راية بني هاشم وراية بني أميّة ـ فكان تحت هذه الراية الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، وتحت تلك الراية معاوية هذا وأبوه، وتحت هذه الراية النبيّ و أميرالمؤمنين عليه السلام هذا. فالخلاف بينهما خلافٌ أصوليّ. فلا تنظروا إلى هذه الظواهر، وأزيلوا هذه الشبهة من أذهانكم.

أحيانًا، قد يراعي هذا التيّار، الّذي تكون السلطة أساسًا بالنسبة له، الظواهر الإسلامية، فهذا ليس دليلًا ومعيارًا، بل ينبغي النظر إلى باطن القضيّة وتشخيصها بذكاء، وكيف أنّ كلّ تيّار ينطبق على أيّ شيء، هذا هو الأمر الأول. خصائص كلّ من التيارين: أنّ هناك تيّارًا لا همّ له سوى الوصول إلى السلطة، وتيّارًا يتّجه نحو القيم والمبادئ والأصول. فالبُنى الإسلامية والأفكار الإسلامية الأصيلة، أي القيم الإسلامية، هي الاساس عند هذا التيار، يؤمن بها ويسعى من أجلها ويجاهد في سبيلها. فهؤلاء الأصوليّة يتوجّهون نحو الأصول وحفظ القيم الأصيلة.

وفي المقلب الآخر، هناك السعي نحو السلطة والإمساك بالقدرة، مهما حدث فإنّه يريد الإمساك بالسلطة بأية طريقةٍ وبأيّ شكل. هذا هو الأمر الأوّل.

أمّا بالنسبة لتيّار الباطل فما هي الأساليب الّتي استخدمها؟ فمثل هذا لافت للأنظار. إنّ أساليب الباطل على العموم هي مزيج من عدّة أشياء، أي أنّ خطّة معاوية كانت مبنيّة على عدّة أجزاء من أجل الحفاظ على السلطة وتعميق القدرة، ولكلٍّ منها أسلوبه ومنهجه بحسب اختلاف الزمان و المكان. فإحدى هذه الأساليب كانت عبارة عن استعراض القدرة، وفي بعض الأماكن كانوا يصرّون كثيرًا على هذا الاستعراض وينكّلون؛ وثانيها هو المال، الّذي يُعدّ أكثر الأشياء فعالية بيد عوامل الشرّ، الآخر هو الإعلام، والرابع هو العمل السياسي، أي الأساليب السياسية، والمقايضات السياسية. هذه باختصار كانت أساليب معاوية.

فنرى غضب معاوية إلى درجة يأمر بقتل حُجربن‌عديّ، الّذي هو من صحابة النبيّ ﷺ، حتّى ولو كان قتله يحمّله ثمنًا باهظًا. ثمّ يلاحق رشيد الهجريّ فيقتله. ونجده يولّي زيادبن‌أبيه، هذا الظالم المعقّد، الّذي لا همّ له سوى السلطة، والّذي كان سيّئ الأخلاق، يولّيه على الكوفة ـ الّتي هي مركز سلطة الفكر الشيعيّ والفكر الولائيّ ـ فيخيّره و يسمح له ليفعل ما يريد. وبشأن زيادبن‌أبيه كتب المؤرّخون: «أخذْك بالظنّة وقتلْك أولياءه بالتّهمة»[1]، فكان يأخذ أيّ شخصٍ بالتّهمة، وسوء الظن، لأدنى مورد، فيعتقل ويحبس وينكّل بكلّ من اتُّهم بالانتماء لأهل البيت أو التعاون معهم ومع ذلك التيّار المغلوب، ويقتله ويقضي عليه. لقد عمّت فتنة في الكوفة والعراق الّذي كان مركز حاكمية التشيّع وأهل البيت عليهم السلام. هكذا كان يستعرض قوّته. ومعاوية نفسه في موردٍ آخر، كان يلاطف امرأة عجوزًا تأتي من القبيلة الفلانية وهي تسبّه وتشتمه، وتوبّخه بأنّك فعلت كذا وكذا، فيضحك لها ويلاطفها، ولا يقول لها شيئًا. يأتي عديّ‌بن‌حاتم إلى معاوية وقد فقد البصر، فيقول معاوية: «يا عديّ إنّ عليًّا لم ينصفك، لأنّه حفظ ولديه في حروبه وأخذ منك ولديك». يبكي عديّ ويقول: «يا معاوية، أنا لم أنصف أميرالمؤمنين حينما استُشهد هو وأنا ما زلت حيًّا»[2]. وكان كلّ من يأتي من المرتبطين بأهل البيت عليهم السلام إلى مجلس معاوية، فيسمع فيه أقل

---

١. الإحتجاج، احتجاجه عليه السلام على معاوية توبيخًا له على قتل من قتله من شيعة أميرالمؤمنين.

٢. مروج الذهب، ج ٣، ص ٤.

إهانة لأميرالمؤمنين، كان يحمل على معاوية وأتباعه بشجاعة وقوة وصراحة، وكان معاوية يضحك ويلاطفهم وأحيانًا كان يبكي. كان يقول: أجل تقول حقًّا. لعلّ ذلك بالنسبة لكم لا يُصدّق، ولكن هذا الواقع، هكذا كان الإعلام، فالإعلام أكثر الأساليب سمًّا وخطرًا على مرّ التاريخ. وكان الباطل يستفيد منه كثيرًا. ولا يمكن لتيّار الحقّ أن يستخدم الإعلام الباطل المزيّف في أيّ زمن. فلأجل أن يتمكّن الإعلام من التغطية الكاملة على الأذهان يحتاج إلى التلاعب وإلى الكذب والخداع. وتيّار الحقّ ليس من جماعة الكذب والخداع. إنّ تيّار الباطل الّذي لا يهمّه أي شيء، والمهمّ عنده قلب الحقيقة في أعين الناس. وهو يستفيد من جميع الوسائل، و فعلًا قد فعل.

وما هو المشهور و المتناقل على الألسن، أنّه عندما قُتل أميرالمؤمنين عليه السلام في محرابه، تعجّب أهل الشام كيف أنّ عليًّا كان في المحراب. فالمحراب هو للصلاة، والبعض لايصدّق مثل هذا، ولكن هذا هو الواقع؛ فعلى مدى سنوات كانت حكومة معاوية، ومن قبله أخيه يزيدبن‌أبي‌سفيان، تبثّ مثل هذه الأنباء في الشام، وتُظلم الأجواء وتشوّش الأذهان، بحيث إنّه لم يكن من الممكن لأحد أن يفهم غير هذا، هذا ما حدث في حكم معاوية. كان الإعلام لمصلحة بني أميّة ومعاوية وضدّ آل النبيّ. فهذا الواقع الّذي قام في العالم الإسلامي وبقي إلى حوالي مائة سنة بعد الهجرة ـ أي لعلّه أربعون أو خمسون سنة بعد عهد أميرالمؤمنين عليه السلام، كان أميرالمؤمنين يُلعن خلالها على المنابر ـ وهذا اللعن في عالم الإسلام، الّذي يُتّهم به الشيعة ويلامون عليه أنّه لماذا تلعنون بعض الصحابة، كان من عمل معاوية وأخلاقه، فهم من قام بهذا العمل، إنّه عمل معاوية. فأمير المؤمنين، عليّ‌بن‌أبي‌طالب عليه السلام الّذي كان «أفضل القوم»[1] و «أقدمهم إسلامًا»[2] وأقرب أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، كان يُطعن به ويُلعن لعشرات السنوات على المنابر. وحتى زمن عمربن‌عبدالعزيز، الّذي منع ذلك عندما صار خليفةً، وقال لا يحقّ لأحد أن يفعل هذا. فبعد عبدالملك‌بن‌مروان، حكم ولداه، الوليد وسليمان، ١٢ أو ١٣ سنة، ثمّ جاء بعدهما عمربن‌عبدالعزيز، وبعد سنة أو

---

١. الكافي، كتاب الروضة، وصية النبي لأميرالمؤمنين، ح ٣٦، «كان عليّ أفضل الناس بعد رسول الله».

٢. عوالم العلوم والمعارف، أبواب تزويجها، باب ٣، ح ٨، «... قد زوّجتك أقدمهم إسلامًا، وأعظمهم حلمًا، وأحسنهم خُلقًا، وأعلمهم بالله علمًا».(من كلام الرسول مع ابنته حضرة الصدّيقة الكبرى)

سنتين من حكومته، حكم ولدا عبدالملك الآخران أي يزيد وهشام. لم يسمح عمربن‌عبدالعزيز لهم أن يلعنوا أميرالمؤمنين، وهو ما كانوا يفعلونه إلى ذلك الوقت. هذا هو أحد الأعمال الّتي كانوا يفعلونها. أجل، في البداية كان الناس يتعجّبون لكنّهم اعتادوا على ذلك شيئًا فشيئًا.

نقرأ في التاريخ أنّه لم يبقَ من قارئٍ أو محدّثٍ أو راوٍ في الدين أو في العالم الإسلاميّ إلّا وأجبره جهاز حكومة معاوية وأتباعه على اختلاق حديثٍ أو تفسير آية، وأمثال ذلك، في ذمّ أهل البيت عليهم‌السلام وفي مدح أعدائهم.

هذا سُمرة‌بن‌جندب الّذي وردت بشأنه الرواية المعروفة «لا ضرر ولا ضرار»[1]، وهو كان من أصحاب النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم، غاية الأمر أنّه صحابيّ غضب النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم عليه، وذلك بسبب تلك القصّة المعروفة أنّه كانت له شجرة في أرضٍ لعائلةٍ وكان يذهب ويزعجهم ويدخل عليهم في بيتهم من دون أي استئذان، ومع وجود العائلة والنساء والأطفال في ذلك البيت، وكانوا يرونه قد دخل عليهم فجأة لأنّ له هذه الشجرة، فشكوا إلى النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم، فقال له النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم: بِع هذه الشجرة لأصحاب هذا البيت، فقال: لا أبيعها، هذه شجرتي وأنا أريد أن أهتمّ بشجرتي، فقال الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم: بِعها لي، فلم يقبل، فقال له الرسول: أعطيك المبلغ الفلانيّ، فلم يقبل، فقال له الرسول: أعطيك شجرة في الجنّة، وهذا يعني وعدًا بالجنّة، لكنّه لم يقبل وقال أريد هذه الشجرة ولا بدّ. فلمّا وجد النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ذلك الإصرار قال لصاحب المنزل اذهب واقتلع هذه الشجرة وارمِها خارجًا «فلا ضرر ولا ضرار في الإسلام»، أي أنّه لا يوجد في الإسلام ما يقبل بأذيّة الناس وضررهم، فإذا كان الأمر بحجّة أنّ هذا ملكي فنؤذي الناس، فلا يوجد مثل هذا الأمر في الإسلام. فحديث «لا ضرر» المعروف الّذي يُعدّ من الأصول والقواعد الفقهية عندنا هو بشأن هذا الرجل. إنّ سمرة‌بن‌جندب بقي حيًّا إلى زمن معاوية. انظروا أيّة عاقبةٍ حسنة نالها، لأنّ معاوية كان يسعى وراء الصحابة. فقد كان لأصحاب النبيّ شهرة ومكانة ولهذا كان يسعى لجمعهم حوله. فأحضره معاوية إليه وقال له إنّني أرغب في أن تقول إنّ هذه الآية المعروفة، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُ فِي الۡحَيَاةِ الدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ

١. وسائل الشيعة، كتاب الفرائض والمواريث، أبواب موانع الإرث من الكفر والقتل والرق، باب ١، ح ١٠.

اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾[1] قد نزلت في عليٍّ عليه السلام. أراد معاوية أن يجعل هذه الآية مقابل كلام أميرالمؤمنين عليه السلام في ذمّ الدنيا، في تلك الخطبة القاصعة في نهج البلاغة الّتي كان لها أثر كبير. أنتم تلاحظون أنّ تلك الكلمات والخطب كانت في منتهى الجمال.

تصوّروا اليوم مثلًا شخصًا يؤلّف كتابًا أو شعرًا أو مقالةً في غاية الفصاحة والجمال والفنّ حول موضوع ما، من الطبيعيّ أنّ الموضوع سيأخذ مجده، وسيكون لصاحب هذا الأثر الفنّي حلاوة في أعين الناس. وهنا لا يمكن في الواقع مقارنة كلام أميرالمؤمنين عليه السلام بأيّ أثر من الآثار الفنّية الّتي نعرفها، إنّه فوق ذلك بكثير، إنّه آية في الجمال. وهذه كلمات أميرالمؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة، وكذلك هي في الواقع في بيان القيم الإسلامية والمعارف الإسلامية، كانت ممّا لا يمكن لمعاوية تحمّله وقبوله، لأنّها تجعل أميرالمؤمنين عليه السلام مورد استحسان في أعين الناس. أراد (معاوية) أن يواجه هذه الكلمات الزاهدة في مذمّة الدنيا، والّتي نُقلت عن أميرالمؤمنين عليه السلام، فلذلك قال معاوية لسمرةبن‌جندب قل أنّ هذه الآية نزلت في عليّ‌بن‌أبي‌طالب عليه السلام ؛ أي أنّ عليًّا عليه السلام (وفق ذلك) سيكون ممّن يتحدّث عن الدنيا بحديثٍ رائعٍ ويُعجب الناس ويقسم على ذلك لكنّه في الواقع هو من ألدّ أعداء الله والإسلام.

والآية الأخرى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ﴾[2] قيل إنّها نزلت في ابن ملجم. هذه من الأمور الّتي كان يحتاجها معاوية كثيرًا في إعلامه وتبليغاته. فقال لأحد أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم الّذي شاهده في المعارك وكان إلى جنبه ـ فسمرةبن‌جندب كان منذ حداثته جنديًّا وكان يشارك في المعارك رغم أنّه كان تحت سنّ الرشد، كان من هذا النوع، وكان من أصحاب النبيّ أيضًا ـ قال له قل إنّ هذه الآية قد نزلت في أميرالمؤمنين عليه السلام. اقترح عليه ذلك، لكنّ سمرةبن‌جندب، رغم أنّه كان سيئًا وشقيًا، لكنّ وجدانه لم يكن مستعدًّا، فقال: كلا. والّذين كانوا يتوسّطون لهذا الأمر في بلاط معاوية قالوا له لا تقلق فإنّ حسابك سيصلك، فلا تقلق بشأن المال وسوف يعطيك ٥٠ ألف

---

١. سورة البقرة، الآية: ٢٠٤.

٢. سورة البقرة، الآية: ٢٠٧.

درهمًا، وكان هذا المبلغ في ذلك الزمان كثيرًا جدًا، فخمسون ألف مثقال من الفضّة يعني خمسة مثاقيل من الذهب، في حسابات ذلك الزمان، كان هذا يُعدّ ثروة كبيرة، قالوا له نعطيك خمسين ألفًا، فقال: كلا، لا أقبل. هنا يقول بعض الناس إنّ سمرةبن‌جندب كان في الواقع يتلاعب وأراد أن يرفع السعر لا أنّه قد أنّبه ضميره، فهو كان يعلم بأنّ معاوية يحتاج إلى هذا الأمر وفي الحقيقة كان يحاول أن يساوم. هنا، هل أنّ وجدانه كان يتقبّل الأمر أم لا، لا أعرف، ولا أضع ذلك على ذمّتي، ولكن عندما لم يقبل رفعوا السعر إلى مائة ألف درهم ولم يقبل أيضًا، حتّى وصل الأمر إلى نحو ٥٠٠ ألف درهم تقريبًا، لكن مثل هذا المبلغ الكبير جدًا، هو ثروة استثنائية، ولكن مع ذلك لم يقبل.

هنا، قال معاوية لذلك الّذي كان يتوسّط إنّ هذا الرجل بلا عقلٍ وهو مجنون لأنّه لا يعرف ما هي الـ٥٠٠ ألف، فقولوا له: ٥٠٠ ألف وأحضروه إلى هنا حتّى أرى هل أنّه سيقبل أم لا. فأمر معاوية من كان مسؤولًا عن بيت المال أن يحضر هذا المبلغ إلى المجلس. وكما تعلمون في تلك الأزمة الأموال كانت من الذهب، وعندما توضع في الأكياس ستكون ثقيلة وذات حجم كبير وتحتاج إلى من يحملها، فأحضر الحمّالون الأكياس ووضعوها فوق بعض حتّى وصلت إلى أعلى السقف، وقالوا هذه هي الـ٥٠٠ ألف، فهل أنت جاهزٌ أم لا؟ عندما نظر إلى هذه الأموال ورأى هذه الثروة العظيمة قبِل، وفسّر تلك الآية كما أراد معاوية وبقيت في الكتب. وصحيحٌ أنّ مثل هذه الكلمات الممتزجة بالخطأ والرذالة قد تمّ اختلاقها في العالم الإسلاميّ، وبالأغلب جاء العلماء فيما بعد واستبعدوها، لكن هذه رشحاتٌ من هؤلاء وقد بقيت في أذهان عدّة وأثّرت فيهم، وهذه من الأعمال الّتي كان يقوم بها معاوية في الإعلام. فمجموع هذه الأساليب هي الّتي شكّلت حكومة معاوية.

أمّا تيّار الحقّ فإنّه لم يجلس ساكنًا أمام هجمات الباطل. فقد كانت له أساليبه والّتي يمكن اختصارها بالمقاومة أوّلًا والحركة المقتدرة. فبعضٌ يظنّ أنّ الإمام الحسن عليه السلام لم يحارب خوفًا، كلا، إنّ الإمام الحسن المجتبى عليه السلام كان عازمًا على الحرب و هو فعلًا من شجعان العرب. لقد رأيت في بعض الكتب شرح بطولات الإمام المجتبى عليه السلام في قضايا مختلفة، فبطولاته في الأحداث المختلفة، كثيرة. غاية الأمر أنّه في حروب أميرالمؤمنين عليه السلام، وحيث كان الميدان ساحة حرب كان أميرالمؤمنين عليه السلام

نفسه يمنع خوض الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام في الحرب، كان يمنعهما لئلا يقعا في الخطر. فقال بعضهم لماذا ترسل محمد ابن الحنفية وهو ابنك وتمنع من إرسال الحسن والحسين عليهما السلام؟ فقال إنّي أخاف أن ينقطع نسل الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم. فهما بقيّة النبيّ وأريد أن أحفظ نسل النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم. كان يشعر بالخطر في ميدان الحرب وأراد أن يحفظهما، لا بسبب حبّه فحسب، فهو يحبّ أبناءه الآخرين، ونفس أميرالمؤمنين عليه السلام هو رجل الحرب ورجل الميدان والمخاطر وليس من أولئك الّذين يتوهّمون الخطر. غاية الأمر أنّهما ابنا النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وأمير المؤمنين عليه السلام لم يرغب أن يوقعهما في الخطر. ولأنّهما قليلًا ما حضرا في حروب أميرالمؤمنين عليه السلام فلم يكن لهما صولات كثيرة، لهذا لم يُسجّل اسم هذين العظيمين ـ الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام ـ ضمن الشجعان، ولكن في الحروب الإسلامية ضدّ إيران كان للإمام الحسن عليه السلام مشاركة، وفي الدفاع عن بيت عثمان أمام المهاجمين والثوّار، كان للإمام الحسن عليه السلام حضور، بأمرٍ من أبيه أميرالمؤمنين عليه السلام، وفي القضايا المهمّة الكثيرة كان للإمام الحسن عليه السلام أيضًا حضور. وفي وقعة الجمل وصفّين كان له دورٌ مهمٌّ واستثنائيّ، وقد رأيت اسم الإمام الحسن عليه السلام في وقائع صفّين والجمل، خاصّةً في هاتين الحادثتين، كثيرًا. بينما شذّ أن نرى اسم الإمام الحسين عليه السلام. أي أنّ الإمام الحسن المجتبى عليه السلام كان له حضورٌ أكثر في الميادين والأحداث من الإمام الحسين عليه السلام. لقد كان رجل الحرب والسياسة والتدبير والفصاحة والقوّة. عندما يطالع المرء مناظرات الإمام الحسن عليه السلام يقشعرّ جلده من قوّته وقدرته. وفي وقائع الصلح، وبعد الصلح، نُقل عن هذا العظيم من الكلمات القاطعة والقاصعة ما كانت في بعض الموارد أشدّ قوّةً وأحدّ من كلمات أميرالمؤمنين عليه السلام. ولعلّه قليلًا ما شاهدت مثل هذه الشدّة والقدرة في كلمات أميرالمؤمنين عليه السلام مقابل الأعداء، ذلك و لأنّ أميرالمؤمنين عليه السلام لم يواجه مثل هؤلاء الأعداء وجهًا لوجه وعن قرب، والّذين كانوا بتلك الوقاحة والخبث. و من هنا نقول انّه، لا يوجد أيّ نقصٍ في عمل الإمام الحسن عليه السلام؛ إنّما كان النقص في الظروف الزمنية. وقف الإمام باقتدارٍ للدفاع إلى الحدّ الممكن، وهذا كان أحد أساليبه. ففي بعض المواطن يكون الوقوف المقتدر سببًا للضرر. فإنّ تغيير الأسلوب والمناورة في اختيار الأساليب يعدّان عملًا أساسيًّا وضروريًا.

والثاني الإعلام، إنّ العمل الإعلاميّ في جهاز الحقّ له أهميّة فائقة. وغاية الأمر أنّ تيّار الحقّ مكتوف الأيدي في الإعلام. فإنّه لا يتمكن أن يستخدم أيّ أسلوبٍ أو وسيلة، وهو لا يبيّن سوى الحقّ والواقع. هناك أشياءٌ تكون مرغوبة عند الناس، والتيّار الباطل لا يأبى أبدًا أن يظهرها كما يحبّ الناس، لكنّ تيّار الحقّ لا يمكنه ذلك، بل يبيّن الحقّ ولو كان مرًّا. كان أميرالمؤمنين عليه السلام يخاطب أصحابه بطريقة مرّة، بحيث يتعجّب الإنسان! نحن الّذين نحبّ أن تكون أساليبنا مثل أسلوب أميرالمؤمنين عليه السلام أحيانًا نتعجّب من هذا الأسلوب في بعض الموارد. أمّا معاوية، فلم يكن يستخدم هذا الأسلوب ابدًا. كان معاوية يتملّق الناس، ويسعى للحصول على دعمهم بأيّ ثمنٍ. لم يفعل عليّ بن أبي طالب عليه السلام هذا الأمر أبدًا، لا لأنّه لم يكن يعرفه، بل لإنّه كان خلاف التقوى وخلاف الأصول، وعليّ بن أبي طالب عليه السلام يقول: «لولا التّقى لكنت أدهى العرب»[1]، كان هذا الأمر، الأصل والجذر في هذه الأعمال والسابقة المقرّبة لعليّ من النبيّ والمفاخر العظيمة الّتي كانت له وتلك الذهنية والروحيّة العظيمة. فمن الواضح أنّه يعرف أكثر من معاوية وهو أشدّ ذكاءً منه ويمكنه أن يقوم بالكثير من الأعمال، ولكنّ الحقّ لا يجيز له ذلك.

والأسلوب الآخر هو الإصرار على حفظ القيم. فالمهم عند جهاز الحق والذي يتم الاعتناء به في أساليبهم، هو إصرارهم على حفظ القيم بأي ثمنٍ كان. وفي النهاية التراجع إلى حدّ حراسة بقاء الدين. فلو أنّ الحقّ رأى أنّ الصمود يؤدّي إلى زوال أصل الدين، فإنّه يتراجع. فالإمام الحسين عليه السلام يقول: «الموت خير من ركوب العار والعار أولى من دخول النار»[2]، فلو تقرّر أن يقبل العار فيقبله و يقدم العار على دخول جهنّم. يوجد بعض الظروف نرى بعض الناس، ولأجل أن لا يتحمّل العار، يقوم بعملٍ لا يهمّه معه أن يناله العذاب والسخط الإلهي.

ما هو العار؟ الأصل هو أن يكسب الإنسان رضا الله، وأن يؤدّي واجبه، ولو بالتراجع عن كلامٍ قاله أو خطٍّ مشى عليه، أو تراجع عن موقفٍ له، فكل ما يريده الله، وكلّ ما يرضي الله كان يُعتبر

---

١. الكافي، كتاب الروضة، خطبة لأميرالمؤمنين وهي خطبة الوسيلة، ح ٤.

٢. بحارالأنوار، كتاب الروضة، أبواب المواعظ والحكم، باب ٢٠، ح ١١.

أصلًا في حياة الأئمّة. كان الأمر كذلك في حياة الإمام الحسن عليه السلام. فعندما وجد أنّه لا بدّ له أن يقبل بالصلح مع معاوية من أجل الضرورات وضغط الظرف الواقع، بالرغم من أنّه في ذلك الوقت كان أرسل الجند وحرّض على الحرب، وجيّش الجيوش وأرسل الكتب وقام بكلّ ما هو لازمٌ من أجل الحرب وبمختلف الأساليب، وعندما رأى أنّه لا يمكن (القيام بالحرب) قبِل بالصلح. فانفضّ عنه أقرب الناس إليه ... مع أنّ الكثيرين في ذلك الوقت، وبعد أن صالح الإمام الحسن، فرحوا ومن أعماق قلوبهم لأنّهم كانوا متنفّرين من الحرب، ولكن نفس هؤلاء الّذين فرحوا، رجعوا إلى الإمام الحسن عليه السلام و أرادوا أن يلوموه على تراجعه عن موقفه، حتّى المقرّبون والوجهاء الّذين كانوا من الصحابة المشهورين، جاؤوا إليه و تحدّثوا معه بعبارات غير لائقة. لكنّ الإمام عليه السلام لم يتراجع عن قراره من أجل الحفاظ على الدين.

القضية اللاحقة هي تحليل هزيمة تيّار الحق، إنّ السبب الأساس في هزيمة الإمام الحسن عليه السلام كان ضعف الرؤية العامّة وامتزاج الإيمان بالدوافع المادّية. ففي مجال ضعف الوعي العام، كان الناس بعيدين كلّ البعد عن الوعي، وكان إيمانهم الديني ممتزجًا بالدوافع المادّية. لقد أضحت المادّيات عندهم أصلًا، وتزلزلت عندهم القيم لما يزيد على عشر أو عشرين سنة من بعد الصلح. وحدث ذلك في كلّ مجالات القيم والاصول. وكان هناك شيء من التمييز وغيرها من الأمور؛ كلّ هذه أدّت إلى أن لا يتمكّن الإمام الحسن عليه السلام من المقاومة.

وأمّا سلوك الغالبين مع المغلوبين فبدلًا من أن يأتوا إلى الإمام الحسن عليه السلام وأتباعه، فيأسروهم، أو يقتلوهم، فإنّهم على العكس من ذلك، عندما تسلّطوا على الأمور، احترموهم بالظاهر وتعاملوا مع الإمام الحسن عليه السلام بكلّ احترام. لكنّ معاوية وجماعته قرّروا أن يمحوا الشخصية ويضعفوها. فحافظوا على الشخص و أبادوا الشخصية، هذا كان نهجهم. هذا كان أصلًا أساسيًا في الإعلام عندهم.

وأمّا الجماعة المغلوبة فماذا فعلت مع الغالبين؟ لقد كانت استراتيجيّتهم أن ينظّموا تيّار الحقّ وسط هذا الجوّ المليء بالفتن والغشاوة والمخاطر والسّموم وأن يعطوه شكلًا ليكون العمود الفقريّ لحفظ الإسلام. والآن حيث لا نقدر أن نجعل كلّ المجتمع في ظلّ الفكر الإسلاميّ الصحيح، فبدلًا

من أن نهتم بتيّارٍ هشٍّ قابل للزوال ـ وهو التيّار العام ـ فلنحفظ تيّارًا عميقًا وأصيلًا في أقلّية ونحفظه لكي يبقى ويضمن حفظ الأصول الإسلامية. هذا ما فعله الإمام الحسن عليه السلام. فقد شكّل تيّارًا محدودًا، و نظّمه بشكل أفضل، وهو تيّار الأصحاب أو الأنصار وأصحاب أهل البيت عليهم السلام أي تيّار التشيّع. وبقي هؤلاء طيلة تاريخ الإسلام، وفي كلّ عهود القمع والتنكيل. وقد أدّى ذلك إلى أن يضمنوا بقاء الإسلام، ولو لم يكن هؤلاء لتبدّل كلّ شيءٍ. فقد كان تيّار الإمامة، تيّار رؤية أهل البيت عليهم السلام، ضامنًا للإسلام الواقعيّ.

وأمّا العاقبة فإنّ جماعة الغالبين والمتسلّطين والمنتصرين أضحوا مُدانين و مغلوبين، والمستضعفون أضحوا الحكّام والفاتحين في ذهنية العالم الإسلاميّ. إذا نظرنا اليوم إلى الذهنية الموجودة في العالم الإسلاميّ، فهي تلك الذهنية الّتي روّج لها الإمام الحسن عليه السلام وأمير المؤمنين عليه السلام، فإنّها ليست الذهنية الّتي أرادها معاوية ويزيد من بعده، وكذلك عبدالملك بن مروان وخلفاء بني أميّة. تلك الذهنية الّتي كانت لهم انهزمت بالكامل وزالت ولم تعد موجودة في التاريخ. لو أردنا أن نطلق عنوانًا على ذهنيّتهم لقلنا إنّها ذهنية النواصب. النواصب فرقة من الفرق الّتي لم يعد لها اليوم في العالم الإسلاميّ وجود خارجيّ بحسب الظاهر. النواصب هم أولئك الّذين كانوا يسبّون أهل بيت النبيّ ولا يقبلون إسلامهم، حيث إنّ هذا كان هو تيّارهم الذهنيّ. لو كان من المقرّر أن يكون معاوية فاتحًا وحاكمًا لكان اليوم من المفترض أن يكون تيّاره هو الحاكم في العالم الإسلاميّ. في حين أنّ الأمر ليس كذلك. إنّ التيار الفكريّ لأميرالمؤمنين عليه السلام وللإمام الحسن عليه السلام هو الحاكم في العالم. وإن كان في بعض من الفروع وقسم من عقائد الدرجة الثانية والثالثة لم يُنقل، لكنّه في المجموع هذا هو التيّار الحقّ؛ فالإمام الحسن عليه السلام بناءً على هذا هو الفاتح وتيّاره هو المنتصر. هذه هي خلاصة وقائع صلح الإمام الحسن عليه السلام من ناحية تأثيرها على كلّ التاريخ الإسلاميّ. ١٩٨٩/٤/٢٢

الفصل السادس

الإمام الحسين عليه السلام

لقد تمّ استشراف الأخبار الّتي تهدّد الإسلام كظاهرةٍ عزيزة، قبل ظهور الإسلام أو في بداية ظهوره، من جانب الرّب العزيز. وقد تمّت ملاحظة وسيلة مواجهة تلك الأخطار، وأودعت في نفس الإسلام. وهذه المجموعة كبدنٍ سالمٍ جهّزه الله تعالى بالقدرات الدفاعيّة، وكآلةٍ سالمةٍ يحمل مهندسها وصانعها أدوات إصلاحها معها. فالإسلام ظاهرةٌ، ومثل جميع الظواهر يهدَّد بأخطار ويحتاج إلى وسائل للمواجهة. وقد جعل الله هذه الوسيلة في الإسلام نفسه. ولكن ما هو هذا الخطر؟

هناك خطران أساسيّان يهدّدان الإسلام، أحدهما خطر العدوّ الخارجيّ والآخر هو الاضمحلال الداخليّ.

العدوّ الخارجيّ هو الّذي يستهدف من خارج الحدود، وجود نظام ما، في فكره وفي بنيته التحتية، في عقائده وقوانينه وكلّ شؤونه، باستخدام أنواع الأسلحة.

فما المقصود من الخارج؟ ليس المقصود من خارج البلد، بل من خارج النظام، وإن كان داخل البلد. هناك أعداءٌ يعدّون أنفسهم غرباء عن النظام، ويعارضونه. هؤلاء هم من الخارج، غرباء وأجانب. فهؤلاء ومن أجل القضاء على هذا النظام وإزالته يسعون بأنواع الأسلحة، والسلاح الناريّ وباستخدام أكثر الأسلحة المادية تطورًا، وبالإعلام والمال وكلّ ما في أيديهم. هذا صنفٌ من الأعداء.

والآفة الثانية هي آفة الاضمحلال الداخليّ، أي من داخل النظام، هؤلاء ليسوا من الغرباء بل هم من أصحاب النظام وأهله. فمن الممكن لأهل النظام، على أثر التعب أو الخطأ في فهم الطريق الصحيح، أو تغلّب المشاعر النفسانية، أو على أثر النظر إلى المظاهر المادّية وتعظيمها، أن يصابوا فجأةً بهذه الآفة من الداخل. وبالطبع، إنّ خطر هذا أكبر من الخطر الأوّل.

هذان النوعان من الأعداء ـ الآفة الخارجية والآفة الداخلية ـ يكونان بالنسبة لأيّ نظام ولأيّة منظّمة، ولأيّة ظاهرة. والإسلام وضع علاجًا من أجل مواجهة كلّ من هاتين الآفتين، فوضع الجهاد. الجهاد لايختصّ بالأعداء الخارجيين، ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾[1]، فالمنافق هو من داخل النظام. لذلك يجب مجاهدة كلّ من هؤلاء. الجهاد هو مقابل العدوّ الّذي يريد أن يهاجم هذا النظام انطلاقًا من رفضه العقائديّ وعدائه له. وكذلك ومن أجل مواجهة ذلك التفكّك الداخليّ، توجد تعاليم أخلاقية مهمّة جدًا تفهّم الإنسان حقيقة هذه الدنيا، ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾[2]... أي أنّ هذه الزخارف وهذه المظاهر وهذه اللذائذ الدنيوية، وإن كانت ضروريّة لكم، وإن كنتم مضطرّين لأن تستفيدوا منها وإن كانت حياتكم مرتبطة بها، ولا شكّ في ذلك، ويجب أن تؤمّنوها لأنفسكم، ولكن، اعلموا أنّ إطلاقها والتحرّك نحوها بعينٍ مغمضة ونسيان الأهداف هو أمرٌ خطرٌ جدًّا.

أمير المؤمنين عليه السلام هو أسد ميدان مواجهة العدوّ، وعندما يتحدّث فإنّ المرء يتوقّع أن يكون نصف خطبه أو أكثرها راجعًا إلى الجهاد والحرب والبطولات. لكن عندما ننظر في روايات وخطب نهج البلاغة نجد أنّ أغلب خطبه ووصاياه راجعة إلى الزهد والتقوى والأخلاق ورفض حبّ الدنيا وتحقيرها، وتعظيم القيم المعنويّة والإنسانية الرفيعة. لقد كانت واقعة الإمام الحسين تلفيقًا لهذين القسمين؛ أي أنّ جهاد العدوّ والجهاد مع النفس قد تجلّى في أعلى مراتبه هناك، في واقعة عاشوراء. أي أنّ الله تعالى كان يعلم أنّ هذه الحادثة ستقع ويجب أن تُظهر المثل الأعلى ليكون

---

١. سورة التوبة، الآية: ٧٣.

٢. سورة الحديد، الآية: ٢٠.

قدوةً؛ كما يحدث في البلاد مع الأبطال عندما يبرزون في مجالٍ ما، ويكون البطل محفّزًا لغيره في ذلك المجال من الرياضة. بالطبع، هذا مثالٌ صغيرٌ من أجل التقريب إلى الأذهان. إنّ واقعة عاشوراء هي عبارة عن حركة عظيمة مجاهدة في كلا الجبهتين، سواء في جبهة المواجهة مع العدوّ الخارجيّ ـ الّذي هو عبارة عن جهاز الخلافة الفاسد وطلّاب الدنيا المرتبطين والتّابعين لجهاز السلطة، الّذين أرادوا جعل تلك القدرة الّتي استخدمها النبيّ من أجل نجاة البشر، من أجل تلك الحركة المقابلة لمسيرة الإسلام ونبيّه المكرّم صلى الله عليه وآله وسلم ـ أم في الجبهة الداخلية حيث كان المجتمع في ذلك الوقت قد تحرّك بشكلٍ عامّ نحو ذلك الفساد الداخليّ.

النقطة الثانية وهي الأهمّ؛ أنّه مرّ مقطعٌ من الزمن، حيث انقضى عهد المصاعب الأساسية للعمل. فالفتوحات قد تحقّقت، وتمّ الحصول على الغنائم، واتّسع نطاق الدولة، وتمّ قمع الأعداء الخارجيّين من هنا وهناك، وتدفقت الغنائم الوفيرة إلى داخل الدولة. وأضحى هناك مجموعة من أصحاب المال الأثرياء، وظهرت هناك طبقة جديدة من الأشراف؛ أي أنّه بعد أن قلع الإسلام هذه الطبقة من جذورها وقمعها، تشكّلت طبقة جديدة منها في العالم الإسلاميّ. هناك أفرادٌ وتحت اسم الإسلام وبعناوين إسلامية ـ ابن الصحابيّ الفلاني وابن هذا التابع وهذا المقرّب للنبيّ ـ دخلوا في أعمال غير لائقة وغير مناسبة؛ وقد سجّل التاريخ أسماء بعض هؤلاء؛ كانوا يجعلون مهر بناتهم مليون مثقال من الذهب الخالص أي مليون دينار، بدل أن يكون مهر السنّة، الّذي جعله النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وأمير المؤمنين عليه السلام ومسلموا الصدر الأوّل من الإسلام، وهو ٤٨٠ درهمًا. من هم هؤلاء؟ هم أولاد صحابة أجلّاء كمصعب بن الزبير وغيره. ١٩٩٣/١/٢٦

لقد بدأت القضايا قبل مرور أقلّ من عقدٍ من الزمان على رحيل النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم. في البداية تمتّع الصحابة السابقون في الإسلام ـ بمن فيهم من صحابة وتابعين وأشخاص قد شاركوا في حروب النبيّ ـ بالامتيازات. وكان الحصول على عطاءات مالية إضافية من بيت المال أحد هذه الامتيازات. وأضحى هناك عنوانٌ يجعل مساواتهم مع الآخرين غير صحيحة، وأنه لا يجوز أن يساوى بهم غيرهم. كانت هذه هي اللبنة الأولى. إنّ التحرّكات الّتي تنجرّ إلى الانحراف تبدأ من

هذه النقطة الصغيرة، ومع كلّ خطوة تزداد سرعتها. والانحرافات بدأت من هذه النقطة حتّى وصلت إلى أواسط عهد عثمان. في عهد الخليفة الثالث وصل الوضع إلى حدّ أنّ كبار صحابة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أضحوا من أكبر الرأسماليين في زمانهم! إنّهم من الصحابة، أصحاب الشأن الرفيع، المعروفين ـ كطلحة والزبير وسعدبن أبي وقاص وغيرهم ـ هؤلاء الكبار والوجهاء الّذين كان لكلّ واحدٍ منهم سجلّ ضخم في سابقة المفاخر في بدرٍ وحنين وأُحد، صاروا من الرأسماليين الكبار في الإسلام. عندما توفّي أحدهم وترك الجواهر والذهب، وأرادوا تقسيمها بين ورثته، في البداية جاؤوا بالسبائك وقطعوها وأرادوا أن يقسّموها فقطّعوها بالفؤوس؛ وكأنّها قطعات حطب تحتاج إلى فأس لتقطيعها. فالذهب عادةً يتم حسابه وقياسه بالمثاقيل، فانظروا كم كان يمتلك من الذهب حتّى احتاجوا إلى الفأس لتقسيمه. لقد ذُكرت هذه الأمور في التاريخ، وليست من القضايا الّتي ذكرتها الشيعة في كتبهم، إنّها حقائق، كان يسعى الجميع لضبطها وتسجيلها. لقد تركوا من الدراهم والدنانير ما بلغ حدّ الأساطير. ١٩٩٦/٦/٩

عندما نذكر فساد الجهاز من الداخل، فهذا هو معناه: يظهر أفرادٌ في المجتمع يبدأون بالتدريج بنقل أمراضهم الأخلاقيّة المعدية ـ حبّ الدنيا والشهوات ـ والّتي هي للأسف أمراضٌ مهلكة إلى باقي أفراد المجتمع. في مثل هذه الحالة، هل سيكون هناك من يجرؤ أو يمتلك الهمّة للمضيّ قدمًا في مخالفة جهاز يزيدبن معاوية؟! هل سيحدث مثل هذا الأمر حينها؟ فمن هو الّذي كان يفكّر بمواجهة جهاز الظلم والفساد ليزيد في ذلك الزمان؟ في مثل تلك الأوضاع حدثت النهضة الحسينية العظيمة، الّتي كانت تجاهد العدوّ مثلما تواجه روحيّة السعي للراحة المهلكة المنتشرة بين المسلمين العاديين وعامّتهم. وهذا أمرٌ مهمٌّ. ١٩٩٣/١/٢٦

أهداف ثورة الإمام الحسين عليه السلام

لو دقّقنا النظر في هذه الحادثة، لعلّه يمكن القول: إنّ الإنسان يستطيع أن يعدّ أكثر من مئة درس مهمّ في هذه الحركة الّتي قام بها الإمام أباعبدالله عليه السلام في بضعة أشهر، من اليوم الّذي خرج فيه من

المدينة نحو مكّة، إلى اليوم الّذي شرب فيه كأس الشهادة العذب في كربلاء. ويمكن القول أنّ فيها آلاف الدروس، حيث تُعتبر كلّ إشارة من ذلك الإمام العظيم درسًا. لكن عندما نقول أكثر من مئة درس، نعني بذلك أنّه لو أردنا أن ندقّق في هذه الأعمال لأمكننا استقصاء مائة عنوان وفصل، وكلّ فصل يُعتبر درسًا للأمم والتاريخ، ولتربية النفس وإدارة المجتمع وللتقرّب إلى الله. هكذا هو الحسين بن عليّ (أرواحنا فداه وفداء اسمه وذكره) كالشمس الساطعة بين القدّيسين، أي إن كان الأنبياء والأئمّة والشهداء والصالحين كالأقمار والأنجم، فالحسين عليه السلام كالشمس المشرقة بينهم، وكلّ ذلك كان من أجل ما ذكرناه.

وإلى جانب المئة درس، هناك درس رئيس في هذا التحرّك و هذه النهضة الّتي قام بها الإمام الحسين، سأسعى في توضيحه، وتكون كلّ تلك الدروس بمنزلة الهوامش أمام هذا الّذي هو بمنزلة النصّ الأصليّ، وهو، لماذا ثار الحسين عليه السلام؟ هذا هو الدرس، نسأله، لماذا ثرت يا حسين رغم كونك شخصية لها احترامها في المدينة ومكّة، ولك شيعتك في اليمن؟ اذهب إلى مكان لا شأن لك فيه بيزيد ولا ليزيد شأنٌ بك، تعيش وتعبد الله وتبلّغ. هذا هو السؤال والدرس الرئيس، ولا نقول إنّ أحدًا لم يُشر إلى هذا الأمر من قبل، فقد حقّقوا وتحدّثوا كثيرًا في هذه القضية. وما نودّ قوله اليوم، وهو برأينا استنتاج جامع ورؤية جديدة للقضية، هو أنّ بعض الناس يقول: إنّ هدف ثورة أبي عبدالله الحسين عليه السلام، كان هو إسقاط حكومة يزيد الفاسدة وإقامة حكومة بديلة. هذا القول شبه صحيح وليس بخطأ، لأنّه لو كان القصد من هذا الكلام هو أنّ الحسين عليه السلام ثار لأجل إقامة حكومة بحيث إنّه لو رأى أنّه لن يصل إلى نتيجة، لقال: لقد قمنا بما علينا، فلنرجع؛ وهذا خطأٌ. فلو كان الهدف إقامة الحكومة فإنّه يجوز للإنسان أن يمضي قدمًا ما دام هناك إمكان، و عليه أن يتراجع مع فقدانها. فلو قال قائل: إن هدف الإمام من هذه الثورة هو إقامة الحكومة العلويّة الحقّة، فهذا غير صحيح، لأنّ مجموع الحركة لا يدلّ على ذلك.

وبعضٌ على العكس من ذلك، قالوا: ما الحكومة؟ إنّ الحسين عليه السلام كان يعلم بعدم تمكّنه من إقامة الحكومة، إنّه جاء ليُقتل ويستشهد. لقد شاع هذا الكلام على الألسن كثيرًا لمدّة

من الزمن، وكان بعضٌ يبيّن ذلك بعبارات شعرية جميلة، حتّى أنّني رأيت بعض علمائنا الأجلّاء قد قالوا ذلك أيضًا. فالقول إنّ الإمام عليه السلام ثار لأجل أن يستشهد، لأنّه رأى أنّه لا يمكنه عمل شيء ببقاءه، فقال: يجب أن أفعل شيئًا بالشهادة، هذا لم يكن كلامًا جديدًا. وبالنسبة لهذا الكلام أيضًا، ليس لدينا في المصادر والأسانيد الإسلاميّة ما يجوّز للإنسان إلقاء نفسه في القتل، ليس لدينا مثل هذا الشيء. إنّ الشهادة، الّتي نعرفها في الشرع المقدّس والآيات والروايات، معناها أن يتحرّك الإنسان ويستقبل الموت لأجل هدف مقدّس واجب أو راجح. هذه هي الشهادة الإسلامية الصحيحة. أمّا أن يتحرّك الإنسان لأجل أن يُقتل، أو بحسب التعبير الشعريّ أن يجعل دمه وسيلةً لزوال الظالم و إسقاطه أرضًا، فمثل هذه الأمور لا علاقة لها بواقعةٍ بتلك العظمة. إذًا هذا الأمر وإن كان فيه جانب من الحقيقة لكن لم يكن هدف الحسين عليه السلام. وباختصار لا يمكننا القول إنّ الحسين عليه السلام ثار لأجل إقامة الحكومة، ولا القول، إنّه ثار لأجل أن يستشهد، بل يوجد شيءٌ آخر في البين. أتصوّر أنّ القائلين إنّ الهدف هو الحكومة أو الهدف هو الشهادة قد خلطوا بين الهدف والنتيجة. فقد كان للإمام الحسين عليه السلام هدف آخر، وكان الوصول إليه يتطلّب طريقًا وحركة تنتهي بإحدى النتيجتين: الحكم أو الشهادة، وكان الإمام مستعدًّا لكلتا النتيجتين، فقد أعدّ تمهيدات الحكم و كذا مقدّمات الشهادة، ووطّن نفسه على هذا وذاك، فإذا تحقّق أيّ منهما، كان هو المراد، لكن لم يكن أيّ منهما هدفًا، بل كانا نتيجتين، وأمّا الهدف فهو شيءٌ آخر.

بشكل مختصر لو أردنا بيان هدف الإمام الحسين، ينبغي أن نقول: إنّ هدف ذلك العظيم كان عبارة عن أداء واجب عظيم من واجبات الدين لم يؤدّه أحد قبله، لا النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ولا أميرالمؤمنين عليه السلام ولا الإمام الحسن المجتبى عليه السلام، واجب يحتلّ مكانًا هامًّا في البناء العام للنظام الفكريّ والقيميّ والعمليّ للإسلام. ورغم أنّ هذا الواجب مهمٌّ وأساس، فلماذا لم يؤدَّ حتّى عهد الإمام الحسين ؟ كان يجب على الإمام الحسين عليه السلام القيام بهذا الواجب ليكون درسًا على مرّ التاريخ، كما أنّ تأسيس النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم للحكومة الإسلامية أصبح درسًا على مرّ تاريخ الإسلام، ومثلما أصبح جهاد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم

في سبيل الله درسًا على مرّ تاريخ المسلمين وتاريخ البشرية إلى الأبد؛ كان ينبغي أن يؤدّي الإمام الحسين هذا الواجب ليصبح درسًا عمليًا للمسلمين وعلى مرّ التاريخ.

أنّ الإمام الحسين عليه السلام قام بهذا الواجب لأنّ أرضيّة هذا العمل قد مُهّدت في زمنه عليه السلام، فلو لم تُمهّد هذه الأرضية في زمن الإمام الحسين، لم يقم بها. وشأن باقي الأئمّة كشأن الإمام الحسين، فلو كانت تُمهّد هذه الأرضية ـ وعلى سبيل المثال ـ في زمن الإمام علي الهادي عليه السلام لقام الإمام علي الهادي بهذا الواجب، ولصار هو ذبيح الإسلام العظيم؛ ولو صادف أن حدث ذلك في زمن الإمام الحسن المجتبى أو في زمن الإمام الصادق عليه السلام لفعلا كما فعل الإمام الحسين. لكن لم يحدث ذلك في زمن الأئمّة حتّى عصر الغيبة إلّا في عصر الإمام الحسين. إذًا كان الهدف أداء هذا الواجب، وعندها تكون نتيجة أداء الواجب أحد الأمرين، إمّا الوصول إلى الحكم والسلطة و كان الإمام الحسين مستعدّ لذلك، ليعود المجتمع كما كان عليه في عصر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأمير المؤمنين عليه السلام، وإمّا نيل الشهادة وهو عليه السلام مستعدّ لها أيضًا. فإنّ الله قد خلق الحسين عليه السلام والأئمّة بحيث يتحمّلون مثل هذه الشهادة لمثل هذا الأمر، وقد تحمّل الإمام الحسين ذلك.

إنّ النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ـ وكذا أيّ نبيّ ـ عندما بُعث، أتى بمجموعة من الأحكام، بعضها فرديّة من أجل إصلاح الفرد، وبعضها اجتماعيّة من أجل بناء المجتمعات البشرية وإدارة الحياة البشرية. مجموعة هذه الأحكام يقال لها النظام الإسلاميّ. لقد نزل الإسلام على قلب النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، وجاء بأحكام و عبادات، جاء بالصلاة والصوم والزكاة والانفاق والحجّ والأحكام الأسرية والعلاقات الفردية، ثمّ جاء بالجهاد في سبيل الله وإقامة الحكومة، و تطبيق الاقتصاد الإسلاميّ، وعلاقة الحاكم بالرعيّة ووظائف الرعيّة تجاه الحكومة. هذه المجموعة من الأحكام عرضها الإسلام على البشر، وبيّنها النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «يا أيّها الناس والله ما من شيء يقرّبكم إلى الجنّة ويباعدكم من النار إلّا وقد أمرتكم به»[1]. ولم يبيّن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم كلّ ما يسعد الإنسان والمجتمع الإنساني فحسب، بل طبّقه وعمل به.

---

١. الكافي، كتاب الإيمان والكفر، باب الطاعة والتقوى، ح ٢.

فقد أقام الحكومة الإسلامية والمجتمع الإسلاميّ، وطبّق الاقتصاد الإسلاميّ، وأقيم الجهاد واستُحصلت الزكاة، فشيّد نظامًا إسلاميًا وأصبح النبيّ الأكرم ﷺ، مهندس النظام وقائد هذا القطار في هذا الخطّ. كان الطريق واضحًا وبيّنًا، فوجب على الفرد وعلى المجتمع الإسلاميّ أن يسير في هذا الطريق وعلى هذا النهج، فإن كان كذلك بلغ الناس الكمال، وأصبحوا صالحين كالملائكة، ولزال الظلم والشرّ والفساد والفرقة والفقر والجهل من بين الناس، و لوصلوا إلى السعادة الكاملة ليصبحوا عباد الله الكمّل. لقد جاء الإسلام بهذا النظام بواسطة النبيّ الأكرم ﷺ وطُبّق في مجتمع ذلك اليوم، فأين حدث ذلك؟ كان ذلك في بقعةٍ تُسمّى المدينة، اتّسع بعد ذلك ليشمل مكّة وما حولها. وهنا يطرح سؤال وهو: ما هو التكليف لو أنّه جاءت يدٌ أو حادثة وأخرجت هذا القطار الّذي وضعه النبيّ الأكرم ﷺ عن هذه السكّة؟ ما هو التكليف لو انحرف المجتمع الإسلاميّ وبلغ الانحراف درجة بحيث خيف من انحراف أصل الإسلام ومبادئه؟

لدينا نوعان من الانحراف. فتارةً يفسد الناس، وهذا ما يقع كثيرًا، لكن تبقى أحكام الإسلام سليمة، وتارة ينحرف الناس ويفسد الحكّام والعلماء ومبلّغو الدين وبديهي لا يصدر الدين الصحيح عن قومٍ فاسدين. فيحرّفون القرآن والحقائق، وتبدّل الحسنات سيئات والسيئات حسنات، ويصبح المعروف منكرًا والمنكر معروفًا، ويحرّف الإسلام ١٨٠ درجة عن الاتّجاه الّذي رُسم له. فما هو التكليف لو ابتُلي النظام والمجتمع الإسلاميّ بمثل هذا الأمر؟ لقد بيّن النبيّ ﷺ وحدّد القرآن التكليف ﴿مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[١]، إضافة إلى آيات وروايات كثيرة أخرى. وأنقل منها هذه الرواية عن الإمام الحسين. لقد ذكر الإمام الحسين هذه الرواية النبويّة للناس، وكان النبيّ ﷺ قد حدّث بها، لكن هل كان النبيّ قادرًا على العمل بهذا الحكم الإلهيّ؟ كلّا، لأنّ المفروض تطبيق هذا الحكم الإسلاميّ، في عصر ينحرف فيه المجتمع الإسلاميّ ويبلغ حدًّا يُخاف فيه ضياع أصل الإسلام. والمجتمع الإسلاميّ لم ينحرف في عهد رسول الله ﷺ، ولم ينحرف في عهد أميرالمؤمنين عليه السلام بتلك الصورة، وكذا في عهد الإمام الحسن عليه السلام عندما

---

١. سورة المائدة، الآية: ٥٤.

كان معاوية على رأس السلطة، وإن ظهر الكثير من علامات ذلك الانحراف، لكنّه لم يبلغ الحدّ الّذي يُخاف فيه على أصل الإسلام. نعم، يمكن أن يُقال إنّه بلغ الحدّ في برهة من الزمن، لكن في تلك الفترة لم تُتح الفرصة ولم يكن الوقت مناسبًا للقيام بهذا الأمر. إنّ هذا الحكم الّذي يُعتبر من الأحكام الإسلامية لا يقلّ أهميّة عن الحكومة ذاتها، لأنّ الحكومة تعني إدارة المجتمع. فلو خرج المجتمع بالتدريج عن مساره وخرُب وفسد، وتبدّل حكم الله، ولم يوجد عندنا حكم وجوب تغيير الوضع وتجديد الحياة أو بتعبير اليوم (الثورة)، فما الفائدة من الحكومة عندها؟ فالحكم الّذي يرتبط بإرجاع المجتمع المنحرف إلى الخطّ الصحيح لا يقلّ أهميّة عن الحكومة ذاتها، ويمكن أن يُقال إنّه أكثر أهميّة من جهاد الكفّار ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر العاديين في المجتمع الإسلاميّ، بل وحتّى من العبادات الإلهيّة العظيمة كالحجّ. لماذا؟ لأنّ هذا الحكم ـ في الحقيقة ـ يضمن إحياء الإسلام بعد أن أشرف على الموت أو مات وانتهى.

إنّه الحسين عليه السلام خليفة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وفي عصره هذا الانحراف!؛ هل الوقت مناسب للقيام بوجه هذا الانحراف؟ هل في ذلك فائدة؟ أنّ الله لايكلّف بشيء لا فائدة فيه. طبعًا، ليس معنى (أن يكون الوقت مناسبًا) هو عدم وجود الخطر، كلّا، ليس هذا هو المقصود. فمعنى هذه العبارة، هو أن يعلم الإنسان أنّ هذا العمل الّذي يقوم به تترتّب عليه نتيجة، أي إبلاغ النداء إلى الناس وإفهامهم وعدم بقائهم على خطئهم. و بما أنّ الإسلام قد انحرف في عصر الإمام الحسين عليه السلام وكان الوقت مناسبًا والأرضية ممهّدة، لذا وجب على الحسين عليه السلام أن يثور. فالشخص الّذي تولّى السلطة بعد معاوية لم يراعِ حتّى ظواهر الإسلام. كان منغمسًا في الخمر والمجون والتهكّم على القرآن، وترويج الشعر المخالف للقرآن، كان يتهجّم على الدين، ويجاهر بمخالفة الإسلام، وإن كان اسمه رئيس المسلمين وأميرالمؤمنين! ولكنّه لم يكن عاملًا بالإسلام ولا محبًّا له، وكان بعمله هذا كنبع الماء الآسن الّذي يفسد ما حوله ويعمّ المجتمع الإسلاميّ.

هكذا يكون الحاكم الفاسد، فبما أنّه يتربّع على قمّة المرتفع، فما يصدر عنه لا يبقى في مكانه، بل ينتشر ليملأ ما حوله، خلافًا للناس العاديّين، حيث يبقى فسادهم لأنفسهم أو لبعضٍ ممّن

حولهم. وكلّ من شغل مقامًا ومنصبًا أرفع في المجتمع الإسلاميّ كان ضرره وفساده أكبر. فاذا فسد السلطان لانتشر فساده وشمل كلّ المجتمع، كما أنّه لوكان صالحًا، لامتدّ الصلاح إلى كلّ مكان. فمفسدٌ كيزيد أصبح خليفة المسلمين، وخليفة النبيّ ﷺ بعد معاوية! فهل هناك انحراف أكبر من هذا؟

هل هناك خطرٌ؟ اين الخطر؟ نعم، الخطر موجود. فلا معنى أن يبقى السلطان ساكتًا أمام معارضيه ولا يخلق لهم المخاطر، بل من البديهيّ أن يوجّه لهم الضربات، فعندما نقول الوقت المناسب، فمعناه أنّ الظروف في المجتمع الإسلاميّ كانت مؤاتية لأن يبلّغ الإمام الحسين رسالته ويوجّه نداءه إلى الناس في ذلك العصر وعلى مرّ التاريخ.

فلو أراد الإمام الحسين عليه السلام الثورة في عصر معاوية لدُفن نداؤه، وذلك لأنّ وضع الحكم في زمن معاوية والسياسات كانت بشكل لا يمكن للناس فيه سماع قول الحقّ، لذلك فإنّ الإمام الحسين لم يقل شيئًا طيلة السنوات العشر الّتي كان فيها إمامًا في زمن معاوية. لم يفعل شيئًا، لم يُقدم على عملٍ ولم يثُر لأنّ الظروف لم تكن مؤاتية، و الإمام الحسن كان قبل أخيه ولم يثر، لأنّ الظروف لم تكن مؤاتية أيضًا. لا أنّ الإمام الحسن لم يكن أهلًا لذلك، فلا فرق بين الإمام الحسن والإمام الحسين ولا بين الإمام الحسين والإمام السجّاد ولا بين الإمام الحسين والإمام علي النقيّ أو الإمام الحسن العسكريّ. طبعًا منزلة الإمام الحسين ـ الّذي أدّى هذا الجهاد ـ أرفع من الّذين لم يؤدّوه، لكنّهم سواء في منصب الإمامة. ولو وقع في عصر أيّ منهم هذا الأمر لثار ذلك الإمام ونال تلك المنزلة. فالإمام الحسين عليه السلام واجه مثل هذا الانحراف، والظروف كانت مؤاتية، فلا محيص للإمام عليه السلام من تأدية هذا التكليف. فلم يبقَ هناك أيّ عذر. لهذا فعندما قال له عبدالله بن جعفر، ومحمد ابن الحنفية، وعبدالله بن عبّاس ـ الّذين كانوا من العلماء والعارفين بأحكام الدين، ولم يكونوا من عامّة الناس ـ إنّ تحرّكك فيه خطر فلا تذهب، أرادوا أن يقولوا: إنّ التكليف قد سقط عنك لوجود الخطر. لكنّهم لم يدركوا أنّ هذا التكليف ليس بالواجب الّذي يسقط بوجود الخطر، لأنّ مثل هذا التكليف فيه خطر دومًا، فهل يمكن لإنسان أن يثور ضدّ سلطة مقتدرة في الظاهر ولا يواجه خطرًا؟!

إنّ العمل الّذي جرى في زمن الإمام الحسين كانت نسخته المصغّرة في عصر إمامنا الخميني قدس سره. غاية الأمر أنّه هناك انتهى إلى الشهادة وهنا انتهى إلى الحكم، فهما أمرٌ واحد ولا فرق بينهما. فقد كان هدف الإمام الحسين عليه السلام وهدف إمامنا الجليل واحدًا، وهذا الأمر يشكّل أساس معارف الإمام الحسين، وإنّ المعارف الحسينيّة تمثّل قسمًا عظيمًا من معارف الشيعة. فهذا أصلٌ مهمّ وهو من أركان الإسلام.

فالهدف كان عبارة عن إرجاع الإسلام والمجتمع الإسلاميّ إلى الصراط المستقيم والخطّ الصحيح. ففي أيّ زمان؟ في الوقت الّذي تبدّل الطريق، وانحرف المسلمون نتيجة جهل وظلم واستبداد وخيانة بعض القوم. بالطبع يمرّ التاريخ بمراحل مختلفة، فأحيانًا تكون الظروف مؤاتية وأحيانًا لا تكون. في زمن الإمام الحسين كانت الظروف مؤاتية وكذلك في زمننا. فأقدم الإمام الخميني على نفس العمل. كان الهدف واحدًا. غاية الأمر، عندما يكون الإنسان متّجهًا نحو هذا الهدف ويريد الثورة على الحكومة ومركز الباطل من أجل إرجاع الإسلام والمجتمع والنظام الإسلاميّ إلى موقعه الصحيح، تارةً يصل إلى الحكم وتارةً لا يصل إلى الحكومة بل ينال الشهادة. أفلا تكون في هذه الحالة واجب؟ لو ينال الشهادة لكان واجبًا أيضًا. ولا يعني في هذه الحالة أنّه لا يكون مفيدًا فلا فرق هنا إذًا فهذا القيام وهذا التحرّك مفيدٌ في كلا الحالتين، سواءٌ استشهد أم نال الحكم. غاية الأمر أنّ لكلّ منهما نوعًا خاصًّا من الفوائد. ويجب القيام به والتحرّك نحوه.

وهذا هو العمل الّذي قام به الإمام الحسين عليه السلام. غاية الأمر، أنّ الإمام الحسين عليه السلام هو أوّل من قام بهذه الحركة، ولم يقم بها أحدٌ قبله، لأنّه في زمن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأمير المؤمنين عليه السلام ما كانت هذه الظروف و هذا الانحراف، أو إذا كان هناك انحراف في بعض الموارد فلم تكن الأرضية مناسبة ولا المقتضي موجودًا (للثورة)، ولقد وُجد كلا الأمرين في زمن الإمام الحسين عليه السلام. وكان هذا هو أساس القضيّة في مورد نهضته عليه السلام.

ويمكننا أن نلخّص القضية بهذه الصورة: إنّ ثورة الإمام الحسين عليه السلام كانت لتأدية واجب عظيم وهو إعادة الإسلام والمجتمع الإسلاميّ إلى الخطّ الصحيح، أو كانت الثورة ضدّ الانحرافات الخطيرة

في المجتمع الإسلاميّ. وهذا ما يتمّ عن طريق الثورة وعن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل هو مصداق عظيم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. بالطبع، فقد تكون نتيجتها إقامة الحكومة، وقد تكون الشهادة، وقد كان الإمام الحسين مستعدًّا لكلتي النتيجتين. والدليل على ذلك هو ما يستنتج من أقوال الإمام الحسين. وهذه بعض أقوال أبي‌عبدالله عليه‌السلام وكلّها تشير إلى هذا المعنى:

أ ـ عندما طلب الوليد، والي المدينة الإمام الحسين ليلًا وقال له: إنّ معاوية قد مات وعليك بمبايعة يزيد، ردّ عليه الإمام عليه‌السلام: «نصبح وتصبحون وننظر وتنظرون أيّنا أحقّ بالبيعة والخلافة». وعند الصباح عندما لقي مروان أبا عبدالله عليه‌السلام طلب منه مبايعة يزيد وعدم تعريض نفسه للقتل، فأجابه الإمام عليه‌السلام: «إنّا لله وإنّا إليه راجعون، وعلى الإسلام السلام إذ قد بُليت الأمّة براعٍ مثل يزيد»[١]. فالقضية ليست شخص يزيد، بل أي شخص مثل يزيد، ويريد الإمام الحسين أن يقول: لقد تحمّلنا كلّ ما مضى، أمّا الآن فإنّ أصل الدين والإسلام والنظام الإسلاميّ في خطر، إشارة إلى أنّ الانحراف خطر جدّي، فالقضية هي الخطر على أصل الإسلام.

ب ـ إنّ أبا عبدالله عليه‌السلام قد أوصى أخاه محمّد ابن الحنفية، مرّتين: الأولى عند خروجه من المدينة، والثانية عند خروجه من مكّة. ولعلّ هذه الوصية كانت عند خروجه من مكّة في شهر ذي الحجّة، فبعد الشهادة بوحدانية الله ورسالة النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم يقول الإمام عليه‌السلام: «وإنّي لم أخرج أشرًا ولا بطرًا ولا مفسدًا ولا ظالمًا وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أمّة جدّي محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم»، أي أريد الثورة لأجل الإصلاح لا للوصول إلى الحكم حتمًا أو للشهادة حتمًا. والإصلاح ليس بالأمر الهيّن، فقد تكون الظروف بحيث يصل الإنسان إلى سدّة الحكم ويمسك بزمام السلطة وقد لا يمكنه ذلك، ويستشهد، وفي كلتي الحالتين تكون الثورة لأجل الإصلاح. ثمّ يقول عليه‌السلام: «أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر وأسير بسيرة جدّي»[٢]. والإصلاح يتّم عن هذا الطريق، وهو ما قلنا إنّه مصداق للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

---

١. بحارالأنوار، كتاب تاريخ فاطمة والحسن والحسين ع، أبواب ما يختص بتاريخ الحسين‌بن‌علي، باب ٣٧، ح ٢.
٢. بحارالأنوار، كتاب تاريخ فاطمة والحسن والحسين ع، أبواب ما يختص بتاريخ الحسين‌بن‌علي، باب ٣٧، ح ٢.

ج ـ عندما كان الإمام عليه السلام في مكّة، بعث بكتابين، الأوّل إلى رؤساء البصرة، والثاني إلى رؤساء الكوفة، جاء في كتابه إلى رؤساء البصرة: «وقد بعثت رسولي إليكم بهذا الكتاب وأنّي أدعوكم إلى كتاب الله وإلى سنّة نبيّه، فإنّ السنّة قد أميتت والبدعة قد أحييت، فإن تسمعوا قولي وتجيبوا دعوتي وتطيعوا أمري أهدكم سبيل الرشاد»[١]. أي يريد الإمام الحسين تأدية ذلك التكليف العظيم وهو إحياء الإسلام و احياء سنّة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وتجديد النظام الإسلاميّ. جاء في كتابه إلى أهل الكوفة: «فلعمري ما الإمام إلا العامل بالكتاب والآخذ بالقسط والدائر بالحقّ والحابس نفسه عن ذات الله، والسلام»[٢]. الإمام ورئيس المجتمع الإسلاميّ لا يمكن أن يكون فاسقًا فاجرًا خائنًا مفسدًا بعيدًا عن الله، بل يجب أن يكون عاملًا بكتاب الله، وذلك بالطبع على مستوى المجتمع، لا أن يحبس نفسه في غرفة الخلوة للصلاة، بل أن يحيي العمل بالكتاب على مستوى المجتمع، ويأخذ بالقسط والعدل ويجعل الحقّ قانون المجتمع. ولعلّ معنى الجملة الأخيرة هو أنّه يثبّت نفسه على الصراط الإلهيّ المستقيم بأيّ نحوٍ حتّى لا يقع أسير الإغراءات الشيطانية والمادية. أي أنّ الإمام عليه السلام قد بيّن هدفه.

د ـ كان الإمام عليه السلام يخاطب الناس في كلّ منزل ينزل فيه بعد خروجه من مكّة؛ عندما (واجه الحسين عليه السلام جيش الحرّ) وسار بأصحابه في ناحية والحرّ ومن معه في ناحية حتّى بلغ «البيضة» خاطب الإمام عليه السلام أصحاب الحرّ، فقال: «أيّها الناس إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: من رأى سلطانًا جائرًا مستحلًّا لحُرم الله، ناكثًا لعهد الله، مخالفًا لسنّة رسول الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغيّر عليه بفعل ولا بقول كان حقًّا على الله أن يدخله مدخله»[٣]. فالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بيّن ما يجب عمله إذا انحرف النظام الإسلاميّ، وقد استند الإمام الحسين إلى قول النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم هذا.

فالتكليف هو أن «يُغيِّر بفعل أو قول»، فإذا واجه الإنسان مثل هذه الظروف ـ وكان الظرف مؤاتيًا كما تقدّم ـ وجب عليه أن يثور ضدّ هذا الأمر ولو بلغ ما بلغ، يُقتل، يبقى حيًّا، ينجح في

---

١. تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٣٥٧.

٢. بحارالأنوار، كتاب تاريخ فاطمة والحسن والحسين ع، أبواب ما يختص بتاريخ الحسين‌بن‌علي، باب ٣٧، ح ٢.

٣. تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٣٨٣.

الظاهر أو لا ينجح. يجب على كلّ مسلم أن يثور أمام هذا الوضع، وهذا تكليف قال به النبيّ ﷺ. ثمّ قال عليه السلام: «وإنّي أحقّ بهذا»، لأنّي سبط النبيّ ﷺ، فإن كان النبيّ ﷺ قد أوجب على المسلمين فردًا فردًا هذا الأمر، كان سبط النبيّ ﷺ ووارث علمه وحكمته الحسين بن علي عليه السلام أحقّ أن يثور، فإنّي خرجت لهذا الأمر. فيعلن عن هدف ثورته وهو «التغيير» أي الثورة ضدّ هذا الوضع السائد.

هـ ـ كان للإمام الحسين في منزل عُذيب ـ حيث التحق به أربعة اشخاص ـ بيانٌ آخر، قال لهم الإمام عليه السلام: «أمّا والله إني لأرجو أن يكون خيرًا ما أراد الله بنا قُتلنا أم ظفرنا»[1]. وهذا دليل على ما تقدّم أنّه لا فرق سواء انتصر أم قُتل، يجب أداء التكليف.

وفي أوّل خطبة له عليه السلام عند نزوله كربلاء، يقول عليه السلام: «وقد نزل بنا من الأمر ما قد ترون» إلى أن يقول: «ألا ترون إلى الحقّ لا يُعمل به وإلى الباطل لا يُتناهى عنه؟ ليرغب المؤمن في لقاء ربّه محقًّا...»[2] إلى آخر الخطبة.

إذًا إنّ ثورة الإمام الحسين كانت تأديةً لواجب، وهذا الواجب يتوجّه إلى كلّ فرد من المسلمين عبر التاريخ، وهو أنّه على كلّ مسلم لزوم الثورة حال رؤية تفشّي الفساد في جذور المجتمع الإسلاميّ بحيث يُخاف من تغييرٍ كلّي في أحكام الإسلام، بالطبع إذا كانت الظروف مؤاتية، وعلم بأنّ هذه الثورة نتيجة. وليس من الشروط البقاء على قيد الحياة وعدم القتل وعدم التعرّض للتعذيب والأذى والمعاناة. فالحسين عليه السلام قد ثار وأدّى هذا الواجب عمليًا ليكون درسًا للجميع. ١٩٩٥/٦/٩

لقد قام الإمام الحسين بن عليّ عليه السلام وأيقظ وجدان الانسان. لهذا ظهرت بعد شهادة الإمام الحسين تلك النهضات الإسلامية الّتي بدأت واحدة تلو الأخرى والّتي جرى قمعها، ولكن ليس المهمّ قمع التحرّك من قبل العدوّ وإن كان مرًّا، ولكن ما هو أمرّ هو أن يصل المجتمع إلى حيث لا يظهر أيّة ردّة فعل مقابل العدوّ، هذا هو الخطر الأكبر.

لقد قام الإمام الحسين بن علي عليه السلام بعملٍ أدّى إلى ظهور أشخاصٍ في جميع عهود الحكومات

---

١. تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٤٠٥.

٢. بحارالأنوار، كتاب تاريخ فاطمة والحسن والحسين ع، أبواب ما يختص بتاريخ الحسين بن علي، باب ٣٧، ح ٧.

الطاغوتية، مع أنّهم كانوا أبعد عن عصر صدر الإسلام، لكن كانت إرادتهم للقتال والجهاد ضدّ جهاز الظلم والفساد أكبر من عصر الإمام الحسن المجتبى عليه السلام. كان يُقضى عليهم جميعًا. بدءًا من قضية قيام أهل المدينة المعروفة بالحرّة، إلى الأحداث اللاحقة وقضايا التوّابين والمختار الثقفي إلى عصر بني العبّاس، فهناك دائمًا في الداخل شعوبٌ تثور؛ فمن هو الّذي أوجد مثل هذه الثورات؟ إنّه الحسين بن علي عليه السلام. فلو لم يثر الإمام الحسين هل كانت لتتبدّل هذه الروحية الكسولة والمتهرّبة من المسؤولية إلى روحيّة مواجهة الظلم وتحمّل المسؤولية؟ لماذا نقول إنّ روحيّة تحمل المسؤولية كانت ميّتة؟ لأنّ الإمام الحسين حين ذهب من المدينة ـ الّتي كانت مهد الرجال العظام في الإسلام، فأبناء العبّاس والزبير وعمر وأبناء خلفاء صدر الإسلام كانوا قد اجتمعوا كلّهم في المدينة ـ إلى مكّة، لم يكن أيّ منهم مستعدًّا لمساعدة الإمام الحسين في هذه الحركة التاريخيّة. إذًا وإلى ما قبل بدء ثورة الإمام الحسين، لم يكن الخواصّ مستعدّين ليخطوا خطوة واحدة، أمّا بعد ثورة الإمام الحسين عليه السلام فقد أحييت هذه الروحيّة. وهذا هو درسٌ كبير ينبغي أن نضيفه إلى الدروس الأخرى في واقعة عاشوراء. عظمة هذه الواقعة هي هذه. هذا الّذي يُقال: «الموعود بشهادته قبل استهلاله وولادته، بكته السماء ومن فيها والأرض ومن عليها»[١] قبل ولادته، إنّه الحسين بن عليّ عليه السلام الّذي له ذلك العزاء الكبير ونحن نعظّمه. وبحسب هذا الدعاء أو الزيارة البكاء عليه من أجل ذلك. لهذا، عندما ننظر اليوم نرى أنّ الإسلام قد أحياه الحسين بن علي عليه السلام وهو يعدّ حافظ الإسلام. ١٩٩٣/١/٢٦

---

١. بحارالأنوار، كتاب المزار، أبواب فضل زيارة سيد شباب أهل الجنة، باب ٢٨، ح ١.

الفصل السابع

السيدة زينب الكبرى عليها السلام

ملحمة زينب الكبرى عليها السلام

إنّ زينب الكبرى عليها السلام امرأةٌ عظيمة. فما هي عظمة هذه المرأة الكبرى في نظر المسلمين و الشعوب الإسلامية؟ لا يصحّ أن يُقال لأنّها كانت ابنة عليّ بن أبي طالب عليه السلام، أو أخت الحسين بن عليّ والحسن بن عليّ عليهما السلام، فالنسب لا يمكن أن يكون سببًا لمثل هذه العظمة. فلقد كان لجميع أئمّتنا بناتٌ وأمّهاتٌ وأخوات ولكن من منهنّ كانت كزينب الكبرى عليها السلام؟ إنّ قيمة زينب الكبرى وعظمتها هي لموقفها وحركتها الإنسانيّة والإسلاميّة العظيمة على أساس التكليف الإلهيّ. فعملها وقرارها ونوعيّة حركتها، كلّ ذلك منحها هذه العظمة. وكلّ من تقوم بمثل هذا العمل، ولو لم تكن بنت أميرالمؤمنين عليه السلام، ستحصل على هذه العظمة. فالجانب الأساس لهذه العظمة نابعٌ من هنا، حيث إنّها بدايةً شخّصت الموقف سواءٌ قبل تحرّك الإمام الحسين عليه السلام إلى كربلاء، أم في لحظات المحنة في يوم عاشوراء أم في الأحداث القاصمة التي تلت شهادة الإمام الحسين عليه السلام، وثانيًا اتخاذها الموقف المناسب بحسب كل حادثة، وهذه المواقف هي الّتي صنعت زينب عليها السلام.

فقبل التحرّك إلى كربلاء، نجد وجهاء، كابن عبّاس وابن جعفر وشخصيّات معروفة في صدر الإسلام، ممّن يدّعي الفقاهة والشهامة والرئاسة قد تحيّروا ولم يعرفوا ماذا يفعلون، ولكنّ زينب الكبرى لم تُصب بالحيرة، وأدركت أيّ طريقٍ ينبغي أن تسلكه، ولم تترك إمامها وحيدًا وتذهب. فهي لم تدرك صعوبة الطريق فحسب، بل شعرت به أفضل من غيرها؛ لقد كانت مستعدة بأن تضحي

بأسرتها لأجل أداء المهمّة، ولهذا أحضرت أطفالها وأبناءها معها. كانت عالمة بكيفية الواقعة؛ في تلك الساعات العصيبة حيث لا يقدر أقوى الناس على إدراك ماذا ينبغي أن يفعل، أدركت ذلك، ودعمت إمامها وجهّزته للشهادة. بعد شهادة الحسين بن عليّ عليه السلام وحين أظلمت الدنيا وتكدّرت القلوب والنفوس وآفاق العالم، أضحت هذه السيّدة الكبرى نورًا ساطعًا. لقد وصلت زينب عليها السلام إلى حيث لا يصل اليها سوى أعظم الناس في تاريخ البشرية ـ أي الأنبياء ـ . ١٩٩١/١١/١٣

في الواقع إنّ كربلاء دون زينب عليها السلام ما كانت لتكون كربلاء. وما كانت عاشوراء دون زينب الكبرى عليها السلام لتكون تلك الحادثة التاريخية الخالدة. لقد برزت هذه الشخصية لابنة عليٍ عليه السلام من أوّل الحادثة إلى آخرها، بحيث يشعر المرء أنّ حسينًا ثانيًا كان في لباس امرأةٍ وفي ثوب ابنة عليّ. وفي غير ذلك، ماذا كان سيحدث بعد عاشوراء؟ لعلّ الإمام السجّاد عليه السلام كان ليُقتل، ولعلّ نداء الإمام الحسين عليه السلام ما كان ليصل إلى أحد. في تلك المرحلة وقبل شهادة الإمام الحسين بن عليّ عليه السلام أيضًا، كانت زينب كمواسٍ وصديقٍ لم يشعر الإمام الحسين عليه السلام مع وجودها بالوحدة أو بالتّعب. إنّ المرء ليشاهد مثل هذا الدور في وجه زينب عليها السلام وفي كلماتها وفي حركاتها.

لقد شعرت زينب عليها السلام بالاضطراب مرّتين، وذكرت للإمام الحسين عليه السلام هذا الاضطراب. بعد خبر شهادة مسلم، حينما جاء الإمام ونقل أمورًا ووصلت الأخبار المختلفة. فزينب عليها السلام في النهاية هي امرأة ذات عواطف جيّاشة وإحساسات مرهفة، ومظهر هذا الغليان في الشعور هم آل النبيّ. ففي عين الصلابة والقدرة والشجاعة والمقاومة إزاء المصائب، هي مظهر النبع الفوّار والزلال للرهافة الإنسانية والرحمة البشرية في هذه الأسرة. ولو ضربت الحسين بن علي عليه السلام مثالًا هنا، هذا الّذي يقف مقابل العالم كلّه وهو يواجهه في بيداء الذئاب المفترسة ويقاوم ولا يهتزّ، لكنّه مقابل هذه الأشياء الصغيرة، فإنّه ينقلب. مثلما حدث عندما صُرع ذلك الغلام الأسود الحبشيّ فجاء الإمام عليه السلام ووقف على رأسه؛ إنّه غلامٌ أسود ومن المخلصين والمحبّين؛ لعلّ جون، غلام أبي‌ذر، بلحاظ الوضع الاجتماعيّ والثقافة الاجتماعية آنذاك، ـ وإن لم يكن بين المسلمين في النهاية طبقة رفيعة جدًّا ـ فإنّه لم يكن صاحب مرتبة شريفة ورفيعة.

فعندما يُقتل، يأتي إليه الحسين عليه السلام، الكثيرون قُتلوا، من أشراف الكوفة، والوجهاء والمشهورين فيها، كحبيب بن مظاهر وزهير بن القين، وغيرهم الّذين يُعدّون من الكبراء والمشهورين فيها، استُشهدوا أمام الإمام الحسين عليه السلام، وعندما صُرعوا أرضًا لم يظهر الإمام مثل هذه الحركة، بل خاطب أمثال مسلم بن عوسجة قائلًا: إن شاء الله تؤجر من الله، لكن مقابل هذا الغلام الأسود الّذي ليس له أحد ولا ولد ولا تنتظره أسرةٌ تبكي عليه، جاء الحسين بن عليّ عليه السلام وأظهر ما أظهره مع عليّ الأكبر، مع هذا الغلام، وقف على رأسه ووضع رأسه المدمّى في حجره لكنّه لم يهدأ، فقد شاهد الجميع كيف أنّه انحنى ووضع وجهه على وجه هذا الغلام الأسود. هكذا كانت العاطفة الإنسانيّة الفوّارة!

لهذا فإنّ زينب هي امرأة بعواطف جيّاشة وأحاسيس مرهفة، فهي ليست كامرأة عادية، هي أخت الإمام الحسين عليه السلام، أختٌ تحبّ الإمام الحسين عليه السلام بعشق، أختٌ تترك زوجها لتأتي مع الإمام الحسين عليه السلام، وهي لم تأتِ وحدها، بل جلبت معها ابنيها عونًا ومحمّدًا، فأحضرتهما من أجل أن يكونا معها على طريق الله، ولو اقتضى الأمر، التضحيةَ، فليستشهدا. وفي أحد المنازل أثناء الطريق شعرت بالخطر وذهبت إلى الإمام الحسين عليه السلام، وقالت إنّني أشعر بالخطر وأرى الوضع خطرًا. كانت تعلم أنّ القضيّة قضيّة الشهادة والأسر لكن في الوقت نفسه كانت الأحداث بحيث تطغى على الإنسان، لهذا راجعت الإمام الحسين عليه السلام، وهنا لم يقل الإمام الحسين عليه السلام شيئًا كثيرًا، لقد قال هذه ليست قضية، كلّ ما يريده الله سوف يحدث، وقريبًا من هذا المضمون، «ما شاء الله كان»[١]. وهنا لا نرى من زينب الكبرى عليها السلام شيئًا تذكره للإمام الحسين عليه السلام أو تسأله عنه أو يؤدّي إلى إيجاد انقباضٍ نفسيٍّ وينتقل إلى الإمام الحسين عليه السلام إلّا في ليلة عاشوراء.

و بداية ليلة عاشوراء، هناك حيث يمكن أن يُقال إنّ زينب الكبرى عليها السلام فقدت صبرها من شدّة الغم، يقول الإمام السجّاد عليه السلام الّذي كان مريضًا: كنت نائمًا في الخيمة وكانت عمّتي زينب عليها السلام جالسةً قربي، تداويني وكانت الخيمة المجاورة هي خيمة أبي الحسين عليه السلام، كان جالسًا وكان جون

---

١. بحارالأنوار، كتاب تاريخ فاطمة والحسن والحسين ع، أبواب ما يختص بتاريخ الحسين بن علي، باب ٣٧.

غلام أبي‌ذر، مشغولًا بإعداد سيف الإمام عليه السلام، والجميع يهيّئ نفسه لقتال غد، يقول: رأيت فجأةً أبي يترنّم بأشعارٍ تبيّن أنّ الدنيا أدبرت والموت أقبل:

«يا دهرٍ أفٍّ لك من خليل كم لك بالإشراق والأصيل»[1]

وهذا كان يدلّ على أنّ من ينشد هذا الشعر أصبح واثقًا أنّه عمّا قريب سيرتحل عن هذه الدنيا. يقول الإمام السجّاد عليه السلام: سمعت هذا الشعر وأدركت رسالته ومعناه، وعلمت أنّ الإمام الحسين عليه السلام ينعى نفسه، ولكنّني تمالكت نفسي، نظرت فإذا بعمّتي زينب عليها السلام فجأةً قد غرقت في حزنٍ شديد، فنهضت وذهبت إلى خيمة أخيها وقالت له: أخي! أراك تنعى نفسك، لقد كنّا إلى اليوم نأنس بك، وعندما رحل أبونا عن هذه الدنيا قلنا يوجد إخوة لنا، وعندما استُشهد أخي الإمام الحسن عليه السلام، قلت ما زال لديّ الإمام الحسين عليه السلام، ولقد استأنست بك طيلة هذه السنوات، واعتمدت عليك وأنا اليوم أراك تنعى نفسك.

لزينب عليها السلام الحق في أن تتألّم. ولعلّ الحالة الّتي كانت عليها زينب عليها السلام في ذلك اليوم كانت حالة غير عاديّة. ولا يمكن أبدًا المقارنة بين حال زينب عليها السلام وحال أيٍّ من النساء وحتى حال الإمام السجّاد عليه السلام. لقد كان حالُ زينب عليها السلام شديدًا ومنهكًا. لقد استُشهد جميع الرجال في يوم عاشوراء. ولم يبقَ من رجلٍ في عصر عاشوراء في كلّ المخيّمات، سوى الإمام السجّاد عليه السلام الّذي كان مريضًا، وأغشي عليه من شدّة المرض، وبملاحظة المخيّم الّذي كان فيه ٨٤ امرأة وطفل وسط بحرٍ من الأعداء، فكم يتطلّب هذا الأمر من جهدٍ، وبعضهم عطشى والبعض جوعى؟ بل لعلّه يمكن القول إنّ الجميع كانوا منهكين من شدّة الجوع والعطش. فجميع القلوب مضطربة وخائفة، وأجساد الشهداء كلّها مقطّعة على الرّمال، بعضهم ينظر إلى أخيه والبعض إلى ابنه. على كلّ حال كانت حادثة مرّة جدًا ورهيبة، وكان ينبغي لشخصٍ ما أن يجمع كلّ هؤلاء، وهذا الشخص كانت زينب عليها السلام.

لم تكن زينب عليها السلام شخصًا فقد أخاه فقط، أو ابنيه أو إخوته الآخرين أو كلّ هؤلاء الأعزّاء،

---

١. بحارالأنوار، كتاب تاريخ فاطمة والحسن والحسين ع، أبواب ما يختص بتاريخ الحسين‌بن‌علي، باب ٣٧، ح ١.

و١٨ شابًا من شباب بني هاشم والأصحاب الأوفياء. لقد كان هناك شيء آخر لا يقلّ أهمية عمّا جرى وهو أنّها كانت بين كلّ هؤلاء الأعداء، مسؤولة عن هذا الحمل الثقيل لإدارة هذه البقيّة من النساء وحراسة الأطفال الّذين تفرّقوا وتشتّتوا، وكان عليها أن ترعى الإمام السجّاد عليه السلام أيضًا. فلهذا و في تلك الساعات بعد تلك الواقعة وإلى حين تحرّك القافلة، وتحديد العدوّ ماذا سيفعل بهم، في تلك الساعات و في تلك الليلة التي كانت مظلمة وحالكة وعصيبة، الله وحده يعلم ماذا مرّ على زينب الكبرى عليها السلام؛ لهذا كانت زينب عليها السلام طوال هذه الساعات في حركة دائمة تركض من هنا إلى هذا الطفل، ومن هناك إلى تلك المرأة، وإلى تلك الأمّ الثكلى، وإلى تلك الأخت المفجوعة بأخيها، وإلى ذلك الطفل الرضيع، تتحرّك دائمًا بين الأفراد وتجمعهم وتواسيهم. لكن في لحظة ما، كان يطفح الكيل بزينب عليها السلام، فتتوجّه بالخطاب إلى أخيها، تتّجه نحو أخيها الشهيد الذي كان ملاذها وملجأها الوحيد. لدينا في الروايات أنّ زينب الكبرى جاءت إلى جسد أخيها المقطّع ونادت من أعماق قلبها: «يا محمّداه صلّى عليك ملائكة السماء هذا الحسين مرمّلٌ بالدماء»[1]. ١٩٨٤/١٠/١٢

عندما يُقال إنّ الدّم انتصر على السيف في عاشوراء وفي واقعة كربلاء، وهو كذلك، فإنّ عامل هذا الانتصار هو زينب عليها السلام؛ وإلا فإنّ الدّم في كربلاء قد انتهى. واقعةٌ عسكرية تنتهي بهزيمةٍ ظاهرية لقوى الحقّ في ميدان عاشوراء. أما ذلك الشيء الّذي أدّى إلى تبديل هذه الهزيمة العسكرية الظاهرية إلى انتصارٍ قطعيّ دائم، هو عبارةٌ عن خصوصية زينب الكبرى عليها السلام، فالدور الّذي قامت به زينب عليها السلام، هو أمرٌ في غاية الأهميّة. وقد دلّت هذه الواقعة على أنّ وجود المرأة ليس على هامش التاريخ، بل هي في صلب الأحداث التاريخية المهمّة. فالقرآن أيضًا ناطقٌ بهذه المسألة في موارد متعدّدة، و إن كان هذا متعلّق بالتاريخ القريب وليس مرتبطًا بالأمم الماضية؛ فحادثةٌ حيّةٌ ومحسوسةٌ، يشاهد فيها الإنسان زينب الكبرى عليها السلام تظهر بهذه العظمة المحيّرة والساطعة في الميدان، تقوم بعملٍ يذل العدوّ ويحقّره، الّذي بحسب الظاهر قد انتصر في المعركة العسكرية واقتلع المعارضين وقمعهم وجلس على عرش النصر في مقرّ قدرته وفي قصر رئاسته. فتسِم جبينه بوصمة

---

١. اللهوف، ص ١٣٣.

العار الأبديّ وتبدّل انتصاره إلى هزيمة. هذا هو عمل زينب الكبرى. أظهرت زينب عليها السلام أنّه يمكنها أن تبدّل حجاب المرأة وعفافها إلى العزّة الجهادية، إلى جهاد كبير.

وما بقيَ من خُطَب زينب الكبرى عليها السلام، ممّا هو في متناول الأيدي، يظهر عظمة حركة زينب الكبرى عليها السلام. فخطبتها الّتي لا تُنسى في أسواق الكوفة لم تكن كلامًا عاديًا، ولا موقفًا عاديًا لشخصيةٍ كبرى، بل بيّنت بتحليل أوضاع المجتمع الإسلاميّ في ذلك العصر بأجمل الكلمات وأعمق المفاهيم وأغناها في مثل تلك الظروف. فيا لها من شخصية قويّة وعظيمة.

فهي قبل يومين، فقدت أخاها وقائدها وإمامها في تلك الصحراء، فقدته مع كلّ الأعزّاء والشباب والأبناء، وهذا الجمع المؤلّف من بضع عشرات من النساء والأطفال قد أُسروا وأُحضروا على مرأى من أعين الناس وحُملوا على نياق الأسْر، وجاء الناس للمشاهدة، وبعضهم كان يهلّل وبعضهم كان يبكي. في مثل هذه المحنة، تسطع فجأةً شمس العظمة، فتستعمل نفس اللهجة الّتي كان يستعملها أبوها أميرالمؤمنين عليه السلام وهو على منبر الخلافة مخاطبًا أمّته، فتنطق بنفس الطريقة وبنفس اللهجة والفصاحة والبلاغة وبذلك السموّ في المضمون والمعنى: «يا أهل الكوفة، يا أهل الغدر والختل»، أيّها المخادعون، أيّها المتظاهرون، لعلّكم صدّقتم أنّكم أتباع الإسلام وأهل البيت، ولكن سقطتم في الامتحان وصرتم في الفتنة عميًا، « ألا وهل فيكم إلّا الصّلِف والنّطِف وملق الإماء، وغمز الأعداء؟»[١]، فتصرّفكم وكلامكم لاينسجم مع قلوبكم. فغرّتكم أنفسكم، وظننتم أنّكم مؤمنون، وتصوّرتم أنّكم ما زلتم ثوريين، ظننتم أنّكم ما زلتم أتباع أميرالمؤمنين عليه السلام، في حين أنّ واقع الأمر لم يكن كذلك. لم تتمكّنوا من الصمود والنجاح في الفتنة، ولم تتمكّنوا من النجاة بأنفسكم، «... فما مثلكم إلا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثًا، تتخذون أيمانكم دخلًا بينكم» فقد أصبحتم كالّتي بدّلت الحرير أو القطن إلى خيوط، ثمّ أرجعت تلك الخيوط ونقضتها إلى قطن أو حرير، فمن غير بصيرةٍ ووعيٍ للظروف، ومن غير تمييز بين الحقّ والباطل، أبطلتم أعمالكم وأحبطتم سوابقكم. فالظاهر ظاهر الإيمان واللسان مليءٌ بالادّعاءات الجهادية، أمّا الباطن فهو

---

١. بحارالأنوار، كتاب تاريخ فاطمة والحسن والحسين ع، أبواب ما يختص بتاريخ الحسين‌بن‌علي، باب ٣٩، ح ١.

باطنٌ أجوف خالٍ من المقاومة مقابل العواصف المخالفة. فهذا ما يُعدّ تحديدًا للآفات.

فبهذا البيان القويّ والكلمات البليغة، و في تلك الظروف الصعبة، تحدّثت زينب الكبرى عليها السلام. فلم يكن الأمر بحيث نرى مجموعة من المستمعين يجلسون أمام زينب ويستمعون إليها وهي تتحدّث إليهم كخطيب عاديّ؛ كلّا، فالجماعة هم من الأعداء، وحملة الرماح يحيطون بهم، وكان هناك جماعةٌ متفاوتون في أحوالهم،كهؤلاء الّذين سلّموا مسلمًا إلى ابن زياد، وأولئك الّذين كتبوا الرسائل للإمام الحسين عليه السلام وتخلّفوا، ومنهم من كان ينبغي أن يواجه ابن زياد وقد اختبأوا في بيوتهم ـ هؤلاء كانوا في سوق الكوفة ـ وجماعةٌ ظهر منهم ضعف النفس وهم الآن يرون ابنة أميرالمؤمنين عليه السلام ويبكون.

فكانت زينب الكبرى أمام هذه الجماعات المتفاوتة الّتي لا يمكن الثّقة بها، ولكنّها تتحدّث بهذه الطريقة المحكمة. فهي امرأة التاريخ، وهذه المرأة لم تعد ضعيفة. ولا يصحّ عدّها امرأة ضعيفة، فهذا جوهر المرأة المؤمنة حيث تُظهر نفسها في مثل هذه الظروف الصعبة. هذه هي المرأة الّتي تُعدّ قدوةً لكلّ الرجال العظماء والنساء العظيمات في العالم. فهي تبيّن علل الثورة النبويّة والثورة العلويّة، وتقول إنّكم لم تتمكّنوا من معرفة الحقّ في الفتنة، ولم تستطيعوا أن تعملوا واجبكم، وكانت النتيجة أن يُرفع رأس فلذة كبد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم على الرماح. من هنا يمكن فهم عظمة السيدة زينب. ٢٠١٠/٤/٢١

حركة الإمام السجّاد عليه السلام في مرحلة الأسر

لقد كان الوضع بعد عاشوراء بالنسبة للشيعة والمعتقدين بخطّ الإمامة وضعًا مذهلًا. فوحشية العملاء الأمويّين وما فعلوه بآل النبيّ، سواءٌ في كربلاء أم في الكوفة أم في الشام، أرعب كلّ محبّي خطّ الإمامة. بالطبع أنتم تعلمون أنّ زبدة أصحاب الإمام الحسين عليه السلام قد استُشهدوا في كربلاء أو في واقعة التوّابين، أمّا الّذين بقوا فلم يمتلكوا الجرأة الّتي تخوّلهم الوقوف وقول كلمة الحقّ مقابل سلطة يزيد المتجبّر، وفيما بعد مروان، كانت هناك جماعةٌ مؤمنة متفرّقة غير منظّمة، مرعوبة، وقد

انصرفت بواسطة الجهات العملية عن طريق الإمامة. هذا هو الإرث الّذي بقي للإمام السجّاد من جمع الشيعة. القمع الكثير والجماعة المناصرة، ضعيفة جدًا؛ وعلى الإمام السجّاد عليه‌السلام و من أجل حفظ تيّار الإسلام الأصيل والدين والواقع، أن ينهض للجهاد ويجمع كلّ هذا الشتات ويتّجه بهم نحو الحكومة العلوية أي نحو الحكومة الإسلامية الواقعية. لقد عمل الإمام السجّاد عليه‌السلام ضمن هذه الظروف طيلة ٣٤ سنة وسأكتفي بذكر بعض المقاطع البارزة من حياة الإمام السجّاد عليه‌السلام.

القسم الأوّل من حياة الإمام الرابع المليئة بالمفاخر وهو في الأسر.

لقد أُسر الإمام السجّاد عليه‌السلام مرّتين وقُيّد بالسلاسل والأغلال مرتين إلى الشام، المرّة الأولى من كربلاء، والمرّة الثانية من المدينة في زمن عبدالملك‌بن‌مروان. لقد كان الإمام السجّاد عليه‌السلام تجسيدًا للقرآن والإسلام حين أُسر من كربلاء مع قافلة الأسرى الحسينيين. وفي لحظة سقوط الشهداء على رمال كربلاء، بدأت ملحمة عليّ‌بن‌الحسين عليه‌السلام. كان الأطفال، صبيةً وإناثًا، والنساء الفاقدات للمعين، يحيطون بالإمام السجّاد عليه‌السلام في قافلة لا يوجد فيها رجلٌ واحد، وكان على الإمام السجّاد عليه‌السلام أن يقودهم جميعًا، وطوال الطريق إلى الشام، لم يسمح لهذا الجمع الّذي تربطه رابطة الإيمان أن يُصاب بالتردّد والتزلزل. عندما دخلوا الكوفة، أمر عبيدالله‌بن‌زياد بقتل كلّ رجال آل البيت، فشاهد من بين الأسرى رجلًا، قال: من هو؟ فقال: أنا عليّ‌بن‌الحسين، فهدّده بالقتل، وهنا كان أوّل ظهورٍ وتجلٍّ للإمامة والمعنويات والقيادة، فقال: «أبِالقتل تهدّدني»[1] وكرامتنا من الله الشهادة. فنحن نفتخر بأن نُقتل في سبيل الله ولا نخاف الموت. فتراجع جهاز عبيدالله‌بن‌زياد مقابل هذه الصلابة.

وفي أحداث الشام، بعد أن كان الإمام السجّاد عليه‌السلام مع كلّ الأسرى، ولأيّامٍ متتالية، في وضعٍ وخيمٍ في حال الأسر؛ بعد ذلك بدا لهم أن يحضروا الإمام السجّاد عليه‌السلام إلى المسجد وأن ينالوا منه مقابل الناس، لئلا يؤثّر إعلام مخالفيه وأتباع الإمام الّتي كانت في كلّ مكان، على وضع حكومة

---

١. اللهوف، ص ١٦٢.

يزيد. هنا نجد الإمام السجّاد عليه السلام في ذلك المجلس ينهض ويقول ليزيد: أريد أن أصعد هذه الخشبات وأتحدّث الى الناس.

لم يتصوّر يزيد أنّ ابن النبيّ، الّذي كان شابًّا أسيرًا مريضًا، والّذي كان من المفترض أن يكون طيلة هذه المدّة قد انهزم من الناحية النفسية، يمكن أن يشكّل خطرًا عليه، فسمح له، فصعد الإمام السجّاد عليه السلام المنبر وأعلن أمام الملأ فلسفة الإمامة وحادثة الشهادة، وحركة الحكومة الأموية الطاغوتية في قلب هذه الحكومة.

لقد قام بعملٍ هيّج أهالي الشام، أي أنّ الإمام السجّاد عليه السلام كان له مثل هذه الشخصية العظيمة الّتي تقف مقابل عبيدالله‌بن‌زياد و مقابل كلّ هذا الحشد المخدوع في الشام وفي عمق الجهاز الأموي وفي مقابل جلاوزة يزيد دون أن يخاف، فينطق بكلمة الحقّ ويبيّن، دون أن يرى لحياته قيمةً أو قدرًا أمام الحق. ١٩٨٠/١٢/٥

لقد كان الإمام السجّاد عليه السلام يرسم ملحمة طويلة عظيمة كبطلٍ عظيمٍ بأقواله وأفعاله خلال فترة الأسر والمرض هذه، والّتي تُعتبر فترة مختلفة تمامًا عن المرحلة الأساسية من حياته، حيث بدأ يعمل على البنية التحتية باعتدالٍ ودقّة وهدوء، حتّى أنّه كان يجلس أحيانًا مع عبدالملك‌بن‌مروان في مجلس واحد ويتصرّف معه تصرّفًا معتدلًا وعاديًّا. أمّا في هذه المرحلة فإنّنا نشاهد الإمام بصورة ثائرٍ هادرٍ لايسكت على أيّة كلمة. وكان أمام الملأ يردّ بأجوبة تزلزل أركان أعدائه المقتدرين.

في الكوفة نراه يخطب مقابل عبيدالله‌بن‌زياد ـ ذلك الوحش الدمويّ الّذي يقطر سيفه دمًا، وقد أسكره شراب قتل ابن النبيّ وكأس الانتصار ـ بحيث يأمر بقتل الإمام عليه السلام. ولو لم تنهض زينب عليها السلام بالأمر في موقعه، وترمي بنفسها على الإمام وتقول لاأدعكم تقتلونه حتّى تقتلوني قبله وأنا امرأة، وكان على ابن زياد أن يبعثهم كأسرى إلى الشام، لو لم يكن كلّ ذلك لكان هناك احتمال كبير أن يقتل الإمام السجّاد عليه السلام.

في سوق الكوفة أيضًا، وبصوت واحد وزمان واحد، يخطب الإمام عليه السلام هو وعمّته زينب عليها السلام وأخته سكينة، فيجيّشون النفوس ويفشون الحقائق.

وفي الشام، سواء في مجلس يزيد أم في المسجد، وأمام حشدٍ كبيرٍ من الناس، يبيّن الإمام عليه السلام الحقائق بأبلغ بيان. وقد تضمّنت خطبه وكلماته حقّانية أهل البيت بالخلافة، وفضحت جرائم النظام الحاكم، وحذّر الناس الغافلين الجاهلين بأسلوبٍ شديدٍ وبليغ[١].

لماذا يلجأ الإمام السجّاد عليه السلام، في مرحلة ما بعد الأسر، إلى الاعتدال والتقيّة ويغطّي على التحرّكات الثورية والشديدة بالدّعاء والأعمال المعتدلة، بينما يتصرّف في مرحلة الأسر بشدّة وقوّة ووضوح؟

والجواب هو أنّ مرحلة الأسر كانت فصلًا استثنائيًا، حيث كان على الإمام السجّاد عليه السلام، وبمعزل عن كونه إمامًا، أن يهيّئ أرضيّة التحرّك المستقبليّ لإقامة الحكومة الإلهيّة و الحكم الإسلاميّ، وقد كان اللسان الناطق للدماء المسفوكة في عاشوراء. فالإمام السجّاد عليه السلام لم يكن هنا بحقيقته، بل كان لسان الحسين عليه السلام الصامت الّذي تجلّى في هذا الشاب الثوريّ في الشام والكوفة. فلو لم يكن الإمام السجّاد عليه السلام شديدًا وحادًّا وصريحًا في بيان القضايا فإنّه لن يبقى مجال لعمله المستقبليّ. لأنّ مجال عمله المستقبليّ ينطلق من دم الحسين بن علي عليه السلام الهادر. كما أنّ دم الحسين عليه السلام كان أيضًا أرضيّة للنهضات الشيعية على طول التاريخ. وهكذا ينبغي أن يبدأ العمل، أوّلًا بتحذير الناس، ثمّ في ظلّ هذا التحذير تبدأ المعارضة الأصوليّة والعميقة والبعيدة المدى، ولا يمكن أن يتحقّق هذا التحذير إلا باللهجة الحادّة والشديدة.

لذلك كان دور الإمام السجّاد عليه السلام في هذا السفر، ودور زينب عليها السلام حمل رسالة ثورة الحسين بن علي عليه السلام و نداءه. إذ إنّ معرفة الناس بقتل الحسين عليه السلام، ولماذا قتل؟ وكيف قتل؟ سوف تؤثّر على مستقبل الإسلام ومستقبل دعوة أهل البيت عليهم السلام، بنحوٍ، ولو لم يعلموا لأثّرت بنحوٍ آخر. وكان ينبغي بذل الجهود الكبيرة لأجل نشر هذه الحقائق على مستوى المجتمع، وكان عليه أن يستخدم كلّ ما لديه من ذخائر ويمضي بمثل هذا العمل إلى أبعد الحدود. لهذا تحرّك الإمام السجّاد عليه السلام في هذا الاتّجاه مثل سكينة وفاطمة الصغرى ومثل زينب نفسها ومثل كلّ أسير

---

١. ذكر الخطبة وإماطة السّتار عن عمقها يتطلّب عملًا مستقلًّا عن موضوعنا، ولكن ينبغي لكلّ من يريد أن يفسّر هذه الخطبة أن يدرسها كلمة كلمة مع الالتفات إلى هذه الأصول. تلك كانت حالة الإمام السجّاد عليه السلام في مرحلة الأسر الملحميّة (الكاتب).

(كلٌّ بقدر استطاعته) كحمَلة لرسالة. لقد اجتمعت كلّ هذه الطاقات حتّى تنثر دم الحسين عليه السلام المسفوك في الغربة في كلّ المناطق الإسلامية الّتي مرّوا بها من كربلاء إلى المدينة. وحين دخل الإمام السجّاد عليه السلام إلى المدينة كان عليه أن يبيّن الحقائق أمام العيون والأنظار لحظة وصوله، فكان هذا الفصل القصير مقطعًا استثنائيًا في حياته. المقطع التالي يبدأ حين يباشر الإمام السجّاد عليه السلام حياته في المدينة كإنسان ذي قدرٍ و ذي شأن، ويبدأ عمله من بيت النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وحرمه. ولأجل بيان برنامج الإمام الرابع نحتاج إلى دراسة الأوضاع الّتي كانت سائدة وظروف زمانه أيضًا. مجلة باسدار إسلام، ج٦

الشيعة بعد حادثة كربلاء

عندما وقعت واقعة كربلاء، سيطرت على كافّة العالم الإسلاميّ-وخاصّة عندما وصل الخبر إلى الحجاز و العراق- حالةٌ من الرعب والخوف الشديد بين الشيعة وأتباع الأئمّة، لأنّهم شعروا أنّ حكومة يزيد لا تتورّع عن ارتكاب أيّ شيء لإحكام قبضتها على كلّ شيء، حتّى ولو كان قتل الحسين بن علي عليه السلام، سبط الرسول المعروف بالعظمة والاعتبار والقداسة في كافّة أنحاء العالم الإسلاميّ. هذا الرعب الّذي ظهرت آثاره في الكوفة والمدينة بلغ ذروته بعد مرور زمان معيّن، إثر وقوع عدّة حوادث أخرى - إحداها حادثة الحرّة - فسيطر جوّ القمع الشديد في منطقة نفوذ أهل البيت عليهم السلام في الحجاز (وخاصّة المدينة) وفي العراق (وخاصّة الكوفة)، فضعفت الاتّصالات وصار أتباع الأئمّة والمعارضون لنظام بني أميّة أقليّةً، وفي حالة ضعف وعدم ثبات.

وتُنقل رواية عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال في حديثٍ عن أوضاع الأئمّة الّذين سبقوه: «ارتدّ الناس بعد الحسين عليه السلام إلّا ثلاثة...»[١] وذكر في رواية أخرى أنهم خمسة وفي بعضها أنهم سبعة. وفي رواية عن الإمام السجاد عليه السلام- يرويها أبو عمر النهديّ - يقول سمعت عن الإمام أنّه قال: «وما بمكّة والمدينة عشرون رجلاً يحبّنا»[٢].

---

١. بحار الأنوار، كتاب تاريخ علي بن الحسين و ...، باب ٨، ح ٢٩.

٢. نهج البلاغة، شرح ابن أبي الحديد، ج٤، ص ١٠٤ (الكاتب).

وقد نقلت هذين الحديثين في هذا المجال، ليتّضح الوضع العامّ للعالم الإسلاميّ بالنسبة للأئمّة وأتباعهم. فهذا القمع الّذي حدث، أوجد مثل تلك الحالة الّتي صار فيها أتباع الأئمّة عليهم السلام متفرّقين، آيسين، خائفين، لا يملكون القدرة على التحرّك الجماعيّ. ولكن في تلك الرواية يكمل الإمام الصادق عليه السلام القول: «ثمّ إنّ الناس لحقوا وكثروا»[١].

وتفصيل القضية المذكورة هو: بعد شهادة الإمام الحسين عليه السلام أصبح الناس في خوف ورعب، لكن ليس إلى درجة زوال تنظيمات أتباع أهل البيت. ودليل ذلك، أنّه في الوقت الّذي جاءوا بأسرى كربلاء إلى الكوفة، شوهدت التحرّكات الّتي تدلّ على وجود التنظيمات الشيعيّة.

وعند الحديث عن «التنظيمات الشيعيّة السريّة» لا نقصد نمط التنظيمات الموجود في هذا العصر، بل المقصود تلك الروابط العقائدية الّتي كانت توصل الناس بعضهم ببعض وتحملهم على التضحية والأعمال السرّية، والّتي تؤلّف في أذهاننا مجموعة واحدة.

في تلك الأيّام الّتي كان فيها أهل البيت عليهم السلام في الكوفة، يسقط في إحدى الليالي حَجَرٌ في السجن الّذي كانوا فيه، وإذا بالحَجر ورقة كُتب عليها: «لقد أرسل حاكم الكوفة رجلاً إلى يزيد في الشام حتّى يعلم ماذا يفعل بكم. فإذا سمعتم غدًا ليلاً صوت تكبير فاعلموا أنّكم ستُقتلون ها هنا، وإذا لم تسمعوا فاعلموا أنّ الوضع سيتحسّن»[٢]. عندما نسمع بمثل هذه القصّة ندرك جيّدًا وجود أفراد من الأصدقاء وأعضاء هذه التنظيمات داخل الجهاز الحاكم لابن زياد، يعلم القضايا وتطال يده السجن ويعلم ما هي الإجراءات بحقّ المعتقلين وما سيجري عليهم، ويمكنه بالتكبير أن يوصل الأخبار، وبالرغم من كلّ القمع والتشديد كانت تُشاهد مثل هذه الأمور.

مثال آخر: عبد الله بن عفيف الأزديّ، الرجل الأعمى الّذي قام بردّ الفعل عند ورود الأسرى إلى الكوفة، وأدّى ذلك إلى استشهاده. وكذلك ما رأيناه في الشام أو في الكوفة عندما التقى النّاس بأهل البيت بالبكاء والتلاوم وقد تكرّرت هذه الحوادث في مجلس يزيد وفي مجلس ابن زياد أيضًا.

---

١. بحار الأنوار، كتاب تاريخ علي بن الحسين و ...، باب ٨، ح ٢٩.

٢. نقل ابن الأثير هذه القصة في تاريخه الكامل(الكاتب).

بناءً على هذا، ومع فرض جوّ من القمع الشديد بعد هذه الحادثة، لم ينهدم نظام عمل أتباع أهل البيت عليهم السلام و لم يحصل لهم التشتّت والضياع. ولكن بعد مرور مدّة، وقعت حوادث أخرى، ازداد معها جوّ القمع. ومن هنا يمكن فهم الحديث «ارتدّ الناس بعد الحسين» بأنّه يرتبط بمرحلة تلك الأحداث أو ما بعدها، أو مرتبطٌ بالمقاطع الزمنيّة الّتي حصلت في هذا المجال.

وخلال هذه المرحلة – قبل وقوع تلك الحادثة المهمّة والمفجعة – قام الشيعة بترتيب وتنظيم أعمالهم واستعادة انسجامهم السابق. وينقل الطبريّ قائلاً: «فلم يزل القوم في جمع آلة الحرب والاستعداد للقتال»[١]، وهو يقصد الشيعة في طلب الثأر لدماء الحسين بن علي عليه السلام. وكانوا يدعون الناس من الشيعة و غيرهم ويستجيب لهم الناس جماعات، جماعات، وقد استمرّ هذا الوضع إلى أن هلك يزيد بن معاوية.

ولهذا نجد مع كلّ هذا الضغط والقمع الشديد استمرار التحرّكات كما ينقل الطبريّ ولعلّه لهذا السبب تقول مؤلّفة كتاب «جهاد الشيعة» (وهي كاتبة غير شيعية ولا تمتلك رؤية واقعيّة تجاه الإمام السجاد عليه السلام ولكنّها أدركت هذه الحقيقة): «أصبح الشيعة بعد شهادة الحسين عليه السلام كتنظيمٍ واحد تجمعهم الاعتقادات والروابط السياسية و يعقدون الاجتماعات و لهم القادة و القوى العسكرية. و كان التوّابون أوّل مظهر لهذه التنظيمات»[٢].

و هكذا شعرنا مع تسلّل الضعف إلى التنظيمات الشيعية إثر حادثة عاشوراء أنّ هذه التحرّكات في مقابل هذا الوضع استمرّت بنشاط لإعادة هذا التنظيم إلى سابق عهده، إلى أن جرت «واقعة الحرّة». وبرأيي فإنّ واقعة الحرّة كانت مفصلاً عظيمًا في تاريخ التشيّع وضربة كبيرة جدًا له.

لقد جرت هذه الواقعة سنة ٦٣ للهجرة. وتفصيلها باختصار، أنّه في سنة ٦٢ هـ.ق. وُلّيَ أحد شباب بني أميّة قليلي الخبرة على المدينة ففكّر ومن أجل استمالة قلوب الشيعة في المدينة، أن يدعو بعضهم إلى ملاقاة يزيد. فدعا بعض أشراف المسلمين والصحابة ووجهاء المدينة ـ الّذين

---

١. تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٥٥٨.

٢. سميرة مختار الليثي.

كانوا في معظمهم من محبّي الإمام السجّاد عليه السلام ـ إلى الشام للقاء يزيد والاستئناس به وللحدّ من الخلافات. فذهبوا إلى الشام والتقوا به ومكثوا عدّة أيّام، وأعطاهم يزيد مبالغ كبيرة من المال (بمقدار ٥٠ ألف درهم أو مئة ألف) ثمّ رجعوا إلى المدينة.

عندما عادوا إلى المدينة ـ ولأنّهم رأوا الفجائع في بلاط يزيد ـ بدأوا بانتقاده والتهجّم عليه. وانقلبت القضيّة، فبدلًا من مدحه والثناء عليه بدأوا بالتشهير به وقالوا للناس: كيف يمكن أن يكون يزيد خليفة وهو شاربٌ للخمر، ويلاعب الكلاب والقردة، ويمارس أنواع الفسق والفجور؟ إنّنا نخلعه عن الخلافة. وكان على رأس هؤلاء، عبد الله بن حنظلة[١] الّذي دعا الناس إلى القيام على يزيد وخلعه.

فأدّت هذه الحركة إلى أن يأمر يزيد أحد القادة الكهول والمخضرمين لبني أميّة، ويُدعى «مسلم بن عقبة»، بالإسراع إلى المدينة وإخماد الثورة فيها، فقدم ابن عقبة وحاصرها عدّة أيّام ثمّ دخلها وارتكب فيها أبشع وأفجع الجرائم الّتي لم يحدث مثلها في تاريخ الإسلام، وقد عُرفت هذه الحادثة المفجعة باسم «مسرف بن عقبة».

مجريات وتفاصيل هذه الحادثة كثيرة ولا يمكن أن أشرح كلّ الأحداث فيها، ولكن يكفي أنّها أصبحت أكبر وسيلة لإرعاب محبّي وأتباع أهل البيت، خاصّة في المدينة الّتي هرب منها من هرب وقُتل آخرون، بعضهم من أصحاب أهل البيت الخيّرين كعبد الله بن حنظلة. لقد وصل هذا الخبر إلى كافّة أقطار العالم وعُلِم أن النظام الحاكم سوف يقف بقوّة أمام أيّة حركة من هذا القبيل، ولن يسمح بأيّ نحو من التحرّكات.

الحادثة الأخرى الّتي أدّت إلى إضعاف الشيعة، هي حادثة شهادة المختار في الكوفة، وتسلّط عبد الملك بن مروان على كامل العالم الإسلاميّ.

فبعد موت يزيد، تبعه خلفاء، أحدهم معاوية بن يزيد الّذي لم يحكم لأكثر من ثلاثة أشهر،

---

١. حنظلة هو الشاب الذي قبل أن يطلع فجر ليلة عرسه التحق بجيش رسول الله واستُشهد في غزوة أُحد وغسلته الملائكة ولهذا عُرف بـ "حنظلة غسيل الملائكة"(الكاتب).

ثمّ مروان بن الحكم الّذي حكم لمدة سنتين أو أقل، ثمّ وصل الأمر إلى عبد الملك الّذي كان أكثر خلفاء بني أميّة حنكةً كما جاء بشأنه: «كان عبد الملك أشدّهم شكيمة وأمضاهم عزيمة»[١].

فاستطاع عبد الملك أن يقبض على زمام أمور العالم الإسلاميّ بيده، وأن يوجد نظامًا إرهابيًا وقمعيًّا، وكان إمساكه بزمام الأمور متوقّفًا على القضاء على خصومه. فالمختار الشيعيّ قد صُفّي قبل مجيئه على يد مصعب بن الزبير. ولكنّ عبد الملك أراد أن يضع نهايةً لاستمرار حركة المختار وغيره من الحركات الشيعيّة الأخرى. وبالفعل قام بذلك، حتّى عانى الشيعة في العراق، وخاصّة الكوفة الّتي كانت في ذلك الوقت أهمّ مراكزهم، أشدّ معاناة. مجلة باسدار إسلام، ٨

وإن كانت حركة التوّابين الّتي حدثت في عام ٦٤ أو ٦٥ للهجرة -حيث كانت ظاهر الأمر شهادتهم عام ٦٥- قد أوجدت جوًّا جديدًا في أجواء العراق المكبوتة، لكنّ استشهادهم جميعًا عن بكرة أبيهم أعاد جوّ الرّعب والقمع إلى الكوفة والعراق. وبعد أن توفّي أعداء الجهاز الأمويّ، أي المختار ومصعب بن الزبير، ولم يكن عبد الله بن الزبير في مكّة قادرًا على أن يتحمّل المختار التابع لأهل البيت عليهم السلام، فقتله بيد مصعب، وتجدّد هذا الرّعب والخوف أكثر وضعُفت الآمال. حتّى جاء في نهاية المطاف عبد الملك على رأس السلطة، ولم تمرّ مدّة قصيرة حتّى صار كلّ العالم الإسلاميّ تحت سلطة بني أميّة المنحوسة بكلّ اقتدارهم، وتمكّن عبد الملك من أن يحكم طيلة ٢٠ سنة بكلّ اقتدار. ١٩٨٦/٧/١٩

وفي كلّ الأحوال فقد بدأت هذه الأحداث من واقعة عاشوراء، وكانت لها تبعات من قبيل واقعة الحـرّة وقمع حركة التوّابين[٢] في العراق، وشهادة المختار، وشهادة إبراهيم بن مالك الأشتر

---

١. أنساب الأشراف، ج ٧، ص ٢٠٩.

٢. كانت حركة التوّابين أوّل ردّة فعل على عاشوراء وقد جرت في الكوفة. فبعد استشهاد الإمام الحسين بدأ بعض الشيعة يتلاومون فيما بينهم ويتعاتبون لأنّهم لم يستجيبوا لدعوة الإمام ويسرعوا إلى نصرته، ورأوا أنّه لن يغسل هذه المعصية سوى الانتقام لأبي عبد الله من قاتليه وأعدائه، ولهذا جاؤوا إلى الكوفة واجتمعوا بخمسة أعيانٍ وزعماء للشيعة وتباحثوا. وفي النهاية جعلوا سليمان بن صرد الخزاعي قائدهم وبدأوا بتحرّكٍ عسكريٍّ علنيّ. وفي ليلة الجمعة، في الخامس والعشرين من ربيع الثاني لسنة ٦٥ للجهرة جاؤوا إلى مرقد الإمام الحسين المطهّر وبكوا وضجّوا بحيث لم يُرَ حتى يومنا هذا مثل ذلك اليوم. ثمّ ودّعوا القبر واتّجهوا إلى الشام للقتال والتحموا بالجيش الأموي حتى قُتلوا عن بكرة أبيهم.
النقطة الملفتة في حركة التوّابين هي أنه رغم أنّهم كانوا في الكوفة، لكنّهم اتّجهوا نحو الشام وحاربوا النظام من أجل أن يثبتوا أنّ قاتل الإمام الحسين ليس شخصًا أو بضعة أشخاص بل إنّه نظام بأسره.(الكاتب).

النخعي، وآخرين من وجهاء الشيعة حيث إنّه بعد شهادتهم تمّ قمع حركات التحرّر سواء في المدينة أم في الكوفة اللتين -كانتا المركز الأساس للتشيّع- وأُصيب التشيّع في العالم الإسلامي بحالة من القمع الشديد وغاص أتباع الأئمّة في منتهى الغربة والوحدة.

هناك عاملٌ آخر إلى جانب هذا الرّعب وهو الانحطاط الفكريّ للناس، في كلّ أطراف العالم الإسلامي وأكنافه، وهو الّذي نشأ من عدم الاهتمام بتعاليم الدين في العقدين الماضيين. و هُجر فيما بعد، التعليم الدينيّ وتعليم الإيمان وتفسير الآيات وبيان الحقائق منذ زمن النبيّ - في العقدين بعد عام ٤٠ للهجرة وإلى ذاك الوقت - فابتُلي الناس بلحاظ الاعتقاد والأصول الإيمانية بالخواء والفراغ. عندما يضع المرء حياة الناس في ذلك العهد تحت المجهر، يتّضح هذا الأمر من خلال التواريخ والروايات المختلفة الموجودة. بالطبع، كان هناك علماء وقرّاء ومحدّثون، سيأتي التعرّض لهم، لكنّ عامّة الناس ابتُلوا بعدم الإيمان وضعف الاعتقاد، ضعفًا كبيرًا. وقد وصل الأمر إلى حيث إنّ بعض أيادي جهاز الخلافة كانوا يشكّكون في أصل النبوّة! ذُكر في الكتب أنّ خالد بن عبد الله القسري، ويُعدّ من عمّال بني أميّة المنحطّين وسيّئ الأخلاق، كان يفضّل الخلافة على النبوّة ويقول: «إنّ الخلافة أفضل من النبوّة»، ثمّ يستدل قائلًا: «أخليفتك في أهلك أحقّ إليك وآثر عندك أم رسولك»[1]؛ أي لو أنّك تركت في أهلك شخصًا يخلفك في غيبتك فهل هو أفضل وأقرب إليك أم ذاك الّذي يأتيك برسالةٍ ما من مكانٍ معيّن؟ فمن الواضح أنّ ذاك الّذي جعلته في بيتك خليفةً لك سيكون أقرب إليك. فخليفة الله - وهنا لا يقول خليفة رسول الله - هو أفضل من رسول الله!

إنّ ما كان يقوله خالد بن عبد الله القسري كان يجري على لسان الآخرين. وعندما نظرت في أشعار شعراء العصر الأمويّ وجدت أنّه و منذ زمن عبد الملك قد تكرّر تعبير خليفة الله في الأشعار إلى درجة أنّه ينسى المرء أنّ الخليفة هو خليفة النبيّ! فقد استمرّ هذا الأمر إلى زمن بني العبّاس.

بني أميّة هبّوا طال نومُكمُ إنّ الخليفة يعقوب بن داوودِ
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا

١. الأخبار الطوال، ص ٣٤٦.

خليفة الله بين الزقّ والعودِ[١]

حتّى عندما كانوا يريدون هجاء الخليفة كانوا يقولون، خليفة الله! وأينما كان الشعراء المعروفون في ذلك الزمان كجرير والفرزدق وكُثيّر وغيرهم، ومئات الشعراء المعروفين الكبار، عندما يريدون مدح الخليفة كانوا يطلقون عليه لقب خليفة الله، لا خليفة رسول الله. وهذا نموذجٌ واحد. لقد ضعُفت عقائد الناس بهذا الشكل حتّى فيما يتعلّق بأصول الدين، أمّا أخلاقهم فقد انحطّت بشدّة.

هناك نقطة لفتت نظري أثناء مطالعتي لكتاب الأغاني لأبي الفرج، وهو أنّه في سنوات الـ٧٠ والـ٨٠ والـ٩٠ والمئة إلى ١٥٠، ١٦٠ تقريبًا، فإنّ أشهر المغنّين والمطربين واللاعبين والعابثين في العالم الإسلاميّ كانوا في المدينة أو في مكّة، وكلّما كان يضيق صدر الخليفة في الشام شوقًا للغناء، ويطالب بمغنٍّ أو مطرب، كانوا يرسلون له من المدينة أو مكّة أحد المطربين المعروفين أو المغنّين. فأسوأ الشعراء والماجنين كانوا في مكّة والمدينة. فمهبط وحي النبيّ ومنشأ الإسلام أضحى مركزًا للفحشاء والفساد. ومن الجيّد أن نعرف هذه الأمور بشأن تاريخ المدينة ومكّة. وللأسف في الآثار الّتي لدينا، لا يوجد مثل هذه الأشياء، وهي أمورٌ واقعيّة حدثت. وأنا أعرض نموذجًا من رواج الفساد والفحشاء.

كان في مكّة شاعرٌ يُدعى عمرو بن أبي ربيعة، وهو من شعراء التعرّي والمجون، وقد مات في أوج قدرته وفنّه الشعريّ. ولو أردنا ذكر قصص هذا الشاعر وماذا كان يفعل في مكّة لاحتاج الأمر إلى فصلٍ مشبّعٍ بالتاريخ المؤسف لذلك العصر، في مكّة والطواف ورمي الجمرات. وهذا البيت مذكور في كتاب الاغاني:

بدا لي منها مُعصمٌ حينما جَمَّرت ... و كفٌّ خضيبٌ زُيّنت ببنان[٢]

فوالله ما أدري وإن كنت داريًا ... بسبعٍ رميتُ الجمر أم بثمانِ

---

١. طبقات الشعراء، ص ٣.

٢. مغنى اللبيب، ص ٢٠.

وعندما مات عمرو بن ربيعة، ينقل الراوي أنّه أقيم في المدينة عزاءٌ عام وكان الناس يبكون في أزقّة المدينة. ويقول إنّني أينما ذهبت كنت أجد مجموعة من الشباب، نساءً ورجالًا، واقفين ويبكون عمرو بن ربيعة في مكّة، فشاهدت جارية تسعى في عملها وتحمل سطلًا لتُحضر الماء، وكانت دموعها تنهمر على خدّيها بكاءً على عمرو بن ربيعة غمًّا وأسفًا؛ وعندما وصلت إلى مجموعة من الشباب سألوها لماذا تبكين لهذا الحدّ؟ فقالت لأنّ هذا الرجل قد مات وخسرنا، فقال لها أحدهم، لا تحزني هناك شاعرٌآخر في المدينة هو خالد المخزوميّ، والّذي كان لمدّةٍ حاكمًا على مكّة من طرف علماء الشام، وقد كان من شعراء التعرّي والمجون، كعمرو بن ربيعة، فذكروا لها ذاك البيت وأرادوا أن يذكروا لها بعض الأبيات الشعرية لهذا الشاعر، فاستمعت هذه الجارية قليلاً-وقد ذُكر في «الأغاني» هذا الشعر وخصائصه – فمسحت دموعها وقالت: «الحمدلله الّذي لم يخلِ حرمه». فإذا فُقد شاعرٌ جاء آخر، هذا نموذج من الوضع الأخلاقيّ لأهل المدينة.

والقصص كثيرة عن سهرات مكّة والمدينة. ولم تكن المسألة منحصرة بالأفراد المنحطّين، بل شملت الجميع في المدينة، بدءًا من ذاك المتسوّل المسكين،كأشعب الطمّاع المعروف الّذي كان شاعرًا ومهرّجًا ومرورًا بالأفراد العاديّين وأبناء السوق وأمثال هذه الجارية إلى أبناء المعروفين من قريش وحتّى بني هاشم – لا أذكر أسماء من الشخصيات المعروفة لوجهاء قريش نساءً ورجالًا – كانوا من هؤلاء الّذي غرقوا في هذه الفحشاء. وفي زمن أمارة هذا الشخص، المخزومي، جاءت عائشة بنت طلحة وكانت تطوف، وكان يحبّها، وعندما حان وقت الأذان أرسلت هذه المرأة رسالةً أن لا تؤذّنوا حتّى أنهي طوافي، فأُمر بعدم رفع أذان العصر! فقيل له أنت تؤخّر الأذان من أجل شخصٍ واحد وامرأة تطوف؛ أوَ تؤخّر صلاة الناس؟! فقال: واللهِ لو أنّ طوافها بقي إلى الصبح لقلت لهم أن يؤخّروا الأذان إلى الصبح! هذا كان حال ذلك الزمن.١٩٨٦/٧/١٩

الفصل الثامن

الإمام السّجاد عليه السلام

إنّ الحديث عن الإمام السجّاد عليه السلام وكتابة سيرته عمل صعب، لأنّ أساس تعرّف الناس إلى هذا الإمام تمّ في أجواء غير مساعدة إطلاقًا. ففي ذهن أغلب كتّاب السيرة والمحلّلين أنّ هذا الإنسان العظيم قد انزوى للعبادة ولم يكن له أي تدخّل في السياسة. حتّى أنّ بعض المؤرّخين وكتّاب السيرة ذكروا هذه المسألة بشكل صريح. أمّا الّذين لم يقولوا هذا الأمر بصراحة فإنّ فهمهم عن حياة الإمام السجّاد عليه السلام ليس سوى هذا الأمر. وهذا المعنى موجود في الألقاب الّتي تُنسب إليه والتعابير الّتي يطلقها الناس عليه، كما يطلق عليه بعض الناس لقب «المريض»، في حين أنّ مرضه لم يستغرق أكثر من عدّة أيّام في واقعة عاشوراء. ومن الطبيعيّ أنّ كلّ إنسان يمرض في حياته عدّة أيّام، وإن كان مرض الإمام مصلحة إلهيّة حتّى لا يُكلّف هذا الإمام بالدفاع والجهاد في سبيل الله في تلك الأيّام، ليستطيع في المستقبل أن يحمل الحمل الثقيل للأمانة والإمامة على عاتقه، ويبقى حيًّا بعد والده لمدّة ٣٤ سنة، تُعدّ هذه المرحلة من أصعب مراحل عصور الإمامة عند الشيعة. أنتم عندما تنظرون إلى ماضي حياة الإمام السجّاد عليه السلام ستجدون حوادث متنوّعة ولافتة جدًّا، كما حدث لبقيّة أئمّتنا، وربّما إذا جمعنا سير الأئمّة عليهم السلام معًا فلن نجد مثل سيرة السجّاد عليه السلام.

إنّ سيرة كلّ إنسان بالمعنى الواقعيّ للكلمة تتّضح عندما نعرف التوجّه العامّ الّذي سار عليه، ومن بعدها نقوم بملاحظة الحوادث الجزئية في حياته. فإذا عُرف التوجّه العامّ، فإنّ الحوادث الجزئية سوف تصبح ذات معنى، أمّا إذا لم يُعرف ذلك التوجّه أو فُهم خطأً، فإنّ تلك الحوادث

الجزئية سوف تصبح دون معنى أو تكون خاطئة. وهذا لا يختصّ بالإمام السجّاد عليه السلام أو باقي أئمّتنا عليهم السلام فقط، بل إنّ هذا يصدق وينطبق على سيرة الجميع.

مثلًا في خصوص الإمام السجّاد عليه السلام نجد أنّ رسالته إلى محمّدبن‌شهاب الزهريّ تُعتبر نموذجًا لإحدى الحوادث في حياته. فلو أخذنا هذه الحادثة بنفسها، وبمعزل عن بقية الحوادث في تلك المرحلة، لا يمكن أن نفهم شيئًا. فقد تُفهم هذه الرسالة على أنّها من أحد الّذين ينتسبون إلى آل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، لأحد العلماء المعروفين في ذلك الزمان، في هذا المجال توجد عدّة آراء: هذه الرسالة يمكن أن تكون جزءًا من جهادٍ واسعٍ وأساس، ويمكن أن تكون نهيًا بسيطًا عن منكر، ويمكن أن تكون اعتراضَ شخصيّة على شخصية أخرى، كالاعتراضات الّتي تُشاهد كثيرًا على طول التاريخ بين شخصيّتين أو عدّة أشخاص، ولا يمكن فهم شيءٍ من هذه القضيّة بشكلٍ تلقائيّ وبمعزل عن بقية أحداث تلك المرحلة. والهدف من هذه المسألة هو أنّنا إذا التفتنا إلى الحوادث الجزئية وقطعنا النظر عن التوجّه العامّ في حياة الإمام فلن تُفهم سيرته، لذلك لا بدّ من أن نعرف التوجّه العامّ في سيرته.

إنّ بحثنا الأوّل هو حول التوجّه العام للإمام السجّاد عليه السلام في الحياة مقترنًا بكلماته، وأيضًا بالمفهوم العامّ لحياة الأئمّة عليهم السلام، ثمّ نوضحه.

نحن نشاهد بعد صلح الإمام الحسن عليه السلام، في السنة الأربعين للهجرة، لم يلتزم أهل البيت بالبقاء داخل البيت والاقتصار على بيان الأحكام الإلهيّة كما يفهمونها، بل نجد منذ أوّل أيّام الصلح أنّ برنامج كلّ الأئمّة عليهم السلام كان يقوم على تهيئة المقدّمات لإقامة الحكومة الإسلامية بحسب النهج الّذي يرونه. وهذا ما نلاحظه بوضوح في حياة الإمام المجتبى عليه السلام وكلماته.

من هذه الجّهة كان عمل الإمام الحسن عليه السلام عملًا عميقًا وتأسيسيًّا. لقد عاش الإمام الحسن عليه السلام مع كلّ تلك التحوّلات عشر سنوات، اجتمع حوله، في هذه المدّة، أفراد وتربّوا على يديه، توزّع قسم منهم في كلّ زاوية لمواجهة نظام معاوية وإضعافه، بشهادتهم واعتراضاتهم وصرخاتهم.

وفيما بعد وصل الدور إلى الإمام الحسين عليه السلام. تابع الإمام ذلك المنهج نفسه في المدينة ومكّة

ومناطق أخرى حتّى هلك معاوية و وقعت واقعة كربلاء. وإن كانت واقعة كربلاء ثورة مفيدة ومربّية لمستقبل الإسلام، لكنّ ذاك الهدف الّذي كان الإمام الحسن عليه السلام والإمام الحسين عليه السلام يسعيان لأجله، تأخّر بسبب ذلك لأنّ الناس أصبحوا مرعوبين، خائفين، وجرت تصفية الأتباع المقرّبين للإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام، وتسلّط الأعداء ووقع ذلك الحادث بشكلٍ طبيعيّ. لو لم تحدث نهضة الإمام الحسين عليه السلام بهذا الشكل، فيبدو أنّه فيما بعده وفي المستقبل القريب كان هناك مجالٌ لتحرّكٍ ينتهي إلى تسليم الحكومة للشيعة. ولا يعني هذا الكلام عدم وجوب نهوض الإمام الحسين عليه السلام، بل إنّ الظروف الّتي كانت في هذه الثورة كانت تفرض أن تحدث في ذلك الوقت ولا شكّ في ذلك أبدًا. لكن لو لم تكن تلك الظروف، ولو لم يستشهد الإمام الحسين عليه السلام في تلك الواقعة، كان من المحتمل أنّ المستقبل الّذي تطلّع إليه الإمام الحسن عليه السلام، يتحقّق بسرعة.

لقد كان الأئمّة عليهم السلام وراء هذا الخطّ وهذا الهدف، وكانوا يسعون دائمًا لأجل تشكيل الحكومة الإسلامية. عندما استشهد الإمام الحسين عليه السلام في واقعة كربلاء، وأسر الإمام السجّاد عليه السلام وهو في تلك الحالة من المرض، بدأت مسؤولية الإمام السجّاد عليه السلام في الحقيقة، منذ تلك اللحظة. ولو قُدّر في ذلك التاريخ أن ينجح الإمام الحسن عليه السلام والإمام الحسين عليه السلام في تأمين ذلك المستقبل لقام الإمام السجّاد عليه السلام في ذلك الوقت بالتحديد بهذا الأمر ومن بعده الأئمّة الباقون عليهم السلام.

بناءً على هذا، ينبغي أن نبحث في مجمل حياة الإمام السجّاد عليه السلام عن هذا الهدف الكلّي والمنهج الأصليّ، وأن نعرف، أنّ الإمام السجّاد عليه السلام، كان يسعى دون شك، لأجل تحقيق ذلك الهدف الّذي كان يسعى له الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام.

كان الإمام السجّاد عليه السلام، في الفترة ما بين تسلّمه للإمامة منذ عاشوراء ٦١ هـ.ق. واستشهاده مسمومًا عام ٩٤ هـ.ق.، يتابع مسؤولية تحقّق ذلك الهدف. لذلك ينبغي أن نفسّر جزئيات عمل الإمام والمراحل الّتي مرّبها والأساليب الّتي استعملها، والتوفيقات الّتي حصلت، وكلّ الأمور الّتي بيّنها، وكلّ التحرّكات الّتي قام بها، والأدعية والمناجاة الّتي جمعت في الصحيفة السجّادية... كلّ هذا ينبغي أن يفسّر بالنظر إلى الخطّ العامّ، ومن المواقف الّتي اتّخذها طوال مدّة الإمامة:

١. موقفه مقابل عبيدالله‌بن‌زياد ويزيد، الّذي تميّز بالبطولة والشجاعة والفداء.
٢. موقفه من «مسرف‌بن‌عقبة» الّذي تميّز بالهدوء، هذا الرجل الّذي قام بتدمير المدينة واستباح أموالها بأمرٍ من يزيد في السنة الثالثة من حكمه.
٣. حركة الإمام، أمام عبدالملك‌بن‌مروان، أقوى خلفاء بني أميّة و أشدهم مكرًا، حيث تميّز موقفه بالشدّة حينًا والاعتدال حينًا آخر.
٤. تعامل الإمام عليه السلام مع عمربن‌عبدالعزيز.
٥. تعامل الإمام مع أصحابه وأتباعه ووصاياه لأصحابه.
٦. موقف الإمام من وعّاظ السلاطين وأعوان الظلمة.

كل هذه المواقف والتحرّكات ينبغي أن تُدرس بدقّة. ووفق تصوّري أرى أنّه بالالتفات إلى النهج العام، فإنّ كل هذه الجزئيات والحوادث سوف تكتسب معانٍ مناسبة وواضحة. وسوف نجد عندها أنّ هذا الإنسان العظيم قد قضى كلّ حياته وسعيه في طريق الهدف المقدّس، وهو عبارة عن إقامة حكومة الله على الأرض وتطبيق الإسلام، وقد استفاد من أفضل الوسائل، وتقدّم بالقافلة الإسلامية، الّتي كانت بعد واقعة عاشوراء في تشرذم وتفرّق مهول، وأنجز مهمّته العظمى ومسؤوليته الأصيلة (الّتي سوف نشير إليها بالتفصيل لاحقًا)، والّتي قام بها كلّ أئمّتنا وجميع الأنبياء والصالحين، مراعيًا أصول السياسة والشجاعة والدقّة في الأعمال. وبعد ٣٤ سنة من الجهاد المستمرّ، الّذي لم يعرف الراحة أبدًا، رحل عن الدنيا كريمًا مرفوع الرأس موكلًا حمل ثقل الرسالة من بعده إلى الإمام الباقر عليه السلام.

إنّ انتقال الإمامة إلى الإمام الباقر عليه السلام، و مهمّة إقامة حكومة الله على الأرض، تظهر بصورة واضحة في الروايات. ففي رواية، نجد أنّ الإمام السجّاد عليه السلام يجمع أبناءه مشيرًا إلى محمّدبن‌علي الباقر عليه السلام ويقول: «... احمل هذا الصندوق وخذ هذا السلاح وهذه الأمانة بيدك»، وحينما فتح الصندوق كان فيه القرآن والكتاب[1].

---

١. بصائر الدرجات، ج ٤، باب ٤، ح ١٨. عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «لما حضرت علي‌بن الحسين الوفاة قبل ذلك أخرج سفطًا أو صندوقًا عنده فقال: يا محمد احمل هذا الصندوق، قال فحمل بين أربعة، قال فلما توفي جاء إخوته يدَّعون في الصندوق، فقالوا اعطنا نصيبنا من الصندوق، فقال: والله ما لكم فيه شيء ولوكان لكم فيه شيء ما دفعه إلي وكان في الصندوق سلاح رسول الله وكتبه صلى الله عليه وآله.»

لعلّ ذلك السلاح يرمز إلى القيادة الثوريّة، وذلك الكتاب يرمز إلى الفكر والعقيدة الإسلامية، وقد أودعهما الإمام السجّاد عليه السلام، الإمام الّذي سيأتي من بعده مودّعًا الدنيا، راحلًا إلى جوار رحمة الإله بنفسٍ مطمئنّةٍ ووجدانٍ هادئٍ ورأسٍ مرفوع، كانت هذه هي الصورة العامّة لحياة الإمام السجّاد عليه السلام.

ولكن إذا أردنا أن ندرس تفاصيل الأحداث، علينا أوّلًا أن نمهّد لها بالوضع السابق لها، إذ يوجد في حياة الإمام السجّاد فصل قصير ومحدّد نذكره أولًا، ثمّ نقوم بعدها بشرح المسير العاديّ لحياة الإمام وتفصيل الأوضاع و ذكر أحوال الزمان والظروف السائدة. مجلة باسدار إسلام، ج٦

لقد بدأت حياة الإمام السجّاد بمرحلة مليئة بالصعاب، حيث جرت حادثة كربلاء، الّتي لم تهزّ كيان الشيعة فقط، وإنّما هزّت الأمّة الإسلاميّة بأجمعها. علمًا بأنّ القتل والأسر والتعذيب كان شائعًا آنذاك، لكنّ قتل أولاد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأسر العائلة النبويّة ووضع رؤوس آل محمّد صلى الله عليه وآله وسلم على الرماح والاستهانة بمن كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يقبّل ثناياه، كلّ هذا قد زلزل العالم الإسلاميّ وصعقه. فلم يكن أحد يتوقّع أنّ الأمر سوف يصل إلى هذه المرحلة. ولا أدري مدى صحّة الشعر المنسوب للسيدة زينب عليها السلام:

«ما توهّمت يا شقيق فؤادي　　　كان هذا مقدّرًا مكتوبًا»[١]

فقد كان يشير إلى هذه النقطة، وهي استنتاج جميع الناس. ففجأةً انتشر الشعور، بأنّ السياسة أضحت سياسة مختلفة، والتشديد الّذي كان يشعر به الجميع أصبح أشدّ؛ فهذا البيت يشير بلا شك إلى أنّ هذا الحدث كان غير متوقّعٍ آنذاك. فلهذا أخذ الهول والفزع ينتاب الأمّة الإسلاميّة حيث شاهدت ورأت ما لم تكن تتوقّعه من التنكيل والتعذيب.

فانتشر الخوف في كافّة المناطق الإسلاميّة إلّا الكوفة، وهذا بفضل التوّابين والمختار وثورتهم. أمّا المدينة وحتّى مكّة المكرّمة مع وجود عبدالله بن الزبير، والّذي ثار بعد مدّة، عاشت حالة رعبٍ غير مسبوقٍ في العالم الإسلاميّ، بسبب حادثة كربلاء المفجعة، والعامل الآخر هو الفساد السياسيّ.

---

١. بحارالأنوار، كتاب تاريخ فاطمة والحسن والحسين ع، أبواب ما يختص بتاريخ الحسين بن علي، باب ٣٩، ح ١.

فما ذكرنا كان وضع كبار الشخصيات الّذين تشبّثوا بفضلات الحياة المادية لرجال الحكومة آنذاك. وأمثال هؤلاء محمّدبن‌شهاب الزهري، فهذه الشخصية كانت تُعتبر من الكبار ومن تلامذة الإمام السجّاد عليه‌السلام، والإمام عليه‌السلام استطاع أن يفضح حقيقة هؤلاء من خلال رسالة كتبها، لتكون حجّة للتاريخ وتبيّن العلائق المادّية الّتي كانوا يتمسّكون بها.

وهناك الكثير من أمثال محمّدبن‌شهاب، حيث نقل العلّامة المجلسيّ عن ابن أبي‌الحديد ما يثير ويهزّ المشاعر؛ فقد نقل في البحار عن جابر أنّ الإمام السجّاد عليه‌السلام قال: «ما ندري كيف نصنع بالناس، إن حدّثناهم بما سمعنا من رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله ضحكوا» (فإنّهم لا يكتفون بالرفض وإنما يضحكون استهزاءً)، «وإن سكتنا لا يسعنا»[١]. ومن ثمّ يذكر ابن أبي‌الحديد أسماء عدد من الشخصيات ورجال ذلك الزمان، من الّذين كانوا من أتباع أهل البيت عليهم‌السلام ثمّ انحرفوا فيما بعد.

كان يجب أن يُصلح دين الأمّة، وأن تُهذّب أخلاق الناس، وأن يُخلّص الشعب من الفساد الّذي كان سائدًا آنذاك، وأن تُوجّه الأمّة معنويًا، كي يرجع أساس الدين إلى الأمّة والمجتمع. لذا ترون أنّ أكثر الكلام المنقول عن الإمام السجّاد عليه‌السلام هو في الزهد. وحتى في بداية كلامه وخطبه، الّتي كانت تتضمّن معنىً سياسيًّا، نجده يبدأها بالكلام حول الزهد، حيث يقول عليه‌السلام: «إنّ علامة الزاهدين في الدنيا الراغبين عنها في الآخرة»[٢]. وفي كلام آخر يصف الدنيا قائلًا «أوَلا حرّ يدع هذه اللماظة لأهلها فليس لأنفسكم ثمن إلا الجنّة ألا فلا تبيعوها بغيرها»[٣].

إنّ كلمات الإمام عليه‌السلام كلّها كانت تحمل بين طيّاتها الزهد والمعارف الإسلامية، وكان الإمام يطرح المعارف الإسلامية ويبيّنها من خلال الدعاء، وذلك لأنّ الظروف الصعبة والقمع الّذي كان مسيطرًا على الشعب لم يكن يسمح للإمام السجّاد عليه‌السلام بأن يتكلّم ويطرح آراءه بصورة صريحة وواضحة، فليست السّلطة وحدها كانت مانعة له، وإنّما الناس أنفسهم كانوا يرفضون هذا. المجتمع كان قد أصبح مجتمعًا ضائعًا وكان من الواجب إصلاحه.

---

١. بحارالأنوار، كتاب تاريخ علي‌بن‌الحسين و...، أبواب تاريخ سيدالساجدين، باب ٨، ح ٢٥.

٢. بحارالأنوار، كتاب الروضة، أبواب المواعظ والحكم، باب ٢١، ح ١.

٣. بحارالأنوار، كتاب العقل والعلم والجهل، أبواب العقل والجهل، باب ٤، ح ٢٩.

كانت حياة الإمام السجّاد عليه السلام من عام ٦١ هـ.ق. إلى ٩٥ هـ.ق.، على ما ذكرنا. وكلّما كان يمضي الوقت كان الوضع يتحسّن، حتّى قال الإمام الصادق عليه السلام، كما ذكرناه سابقًا، «ارتدّ الناس بعد الحسين...» إلى أن قال «ثم إنّ الناس لحقوا وكثروا»[١].

وفي زمن الإمام الباقر عليه السلام تحسّن الوضع عمّا كان عليه في زمن السجّاد عليه السلام وهذا بفضل سعي الإمام السجّاد خلال ٣٤ سنة. ١٩٨٦/٧/١٩

يظنّ بعض الناس أنّ الإمام فيما لو أراد أن يقاوم نظام بني أميّة لكان ينبغي أن يرفع راية المقاومة العسكرية، أو أن يلتحق بالمختار، أو عبدالله بن حنظلة، أو أن يقودهما معلنًا بذلك المقاومة المسلّحة بكلّ وضوح. لكنّنا نفهم من خلال النظر إلى ظروف زمان الإمام السجّاد عليه السلام أنّ هذا ظنٌّ خاطئٌ وذلك بالالتفات إلى هدف الأئمّة عليهم السلام.

لو قام الأئمّة عليهم السلام، ومن جملتهم الإمام السجّاد عليه السلام، في تلك الظروف بمثل هذه التحرّكات العلنية والسلبية، فباليقين لما بقي للشيعة باقية، ولما بقيت الأرضية أو فسح المجال لاستمرار ونموّ مدرسة أهل البيت ونظام الولاية والإمامة فيما بعد. لهذا نجد أنّ الإمام السجّاد عليه السلام في قضيّة المختار لم يعلن التعاون معه، وبرغم ما جاء في بعض الروايات عن ارتباطٍ سريّ بينهما، إلاّ أنّه ودون شكّ، لم يكن ارتباطًا علنيًا، حتّى قيل في بعض الروايات إنّ الإمام السجّاد عليه السلام كان يذمّ المختار، ويبدو هذا الأمر طبيعيًا من ناحية التقيّة، وذلك حتّى لا يشعر الأعداء بوجود أيّ ارتباط بينهما، علمًا بأنّ المختار فيما لو انتصر، فإنّه بالتأكيد كان سيعطي الحكومة لأهل البيت عليهم السلام، ولكن في حال هزيمته، ومع وجود أدنى ارتباط واضح وعلنيّ، لكانت النّقمة شملت وبشكل قطعيّ الإمام السجّاد عليه السلام وشيعة في المدينة واجتثّت جذور التشيّع أيضًا. لأجل ذلك لم يُظهر الإمام عليه السلام أيّ نوع من الارتباط العلنيّ بالمختار.

ورد في رواية أنّه عندما دخل مسلم بن عقبة إلى المدينة في واقعة الحرّة، لم يشكّ أحد على الإطلاق في أنّ أوّل شخص سيقع ضحيّة نقمته، هو عليّ بن الحسين عليه السلام، لكنّ الإمام السجّاد عليه السلام

---

١. بحارالأنوار، كتاب تاريخ علي بن الحسين و...، أبواب سيدالساجدين، باب ٨، ح ٢٩.

بتدبيره الحكيم، تصرّف بحيث دفع البلاء عنه، وبذلك حافظ على استمرار المحور الأصليّ للشيعة.

وهناك روايات في بعض الكتب ـ منها «بحارالأنوار» ـ تحكي عن إظهار التذلّل من قبل السجّاد عليه السلام عند مسلم‌بن‌عقبة، ولكن هذه الروايات كاذبةٌ قطعًا وذلك للأسباب التالية:

أولًا: لا تستند هذه الروايات إلى أيّ سندٍ صحيح.

ثانيًا: توجد روايات أخرى تكذّبها وتدفعها من حيث المضمون.

ففي لقاء الإمام عليه السلام مع مسلم‌بن‌عقبة توجد روايات عديدة لا تنسجم أيّة واحدة منها مع الأخرى، ولأنّ بعض تلك الروايات ينطبق وينسجم أكثر مع نهج الأئمّة وسيرتهم، فنحن بصورة طبيعية نقبلها.

على أية حال، مع أنّنا لا نقبل تلك الروايات الّتي تتحدّث عن صدور مثل هذه الأفعال عن الإمام، ولكنّنا لا نشك أيضًا في أنّ الإمام لم يقابل مسلم‌بن‌عقبة بتصرّف معادٍ، لأنّ أيّ تصرّف من هذا القبيل سوف يؤدّي إلى قتل الإمام، وهذا سيؤدّي بدوره إلى خسارة عظيمة لا تُجبر، بلحاظ الدّور الّذي ينبغي أن يقوم به الإمام السجّاد عليه السلام بالنسبة لثورة الإمام الحسين عليه السلام وتبليغ حقيقتها. لهذا يبقى الإمام عليه السلام ـ وكما قرأنا في رواية الإمام الصادق عليه السلام ـ ويلحق الناس به شيئًا فشيئًا ويزداد عددهم. وفي ظلّ تلك الظروف الصعبة وغير المساعدة، يبدأ عمل الإمام السجّاد عليه السلام.

في تلك الفترة ساد حكم عبدالملك ـ حيث إنّ معظم مدّة إمامة الإمام السجّاد، البالغة ثلاثين سنة ونيّف، كانت في ظل هذه الحكومة ـ وكان نظامه يقوم بالرّصد التام والمراقبة الدائمة لحياة الإمام السجّاد عليه السلام، ويستخدم الجواسيس والعيون الكثيرة الّتي كانت تنقل إليه أدقّ التفاصيل، حتّى المسائل الداخلية والخاصّة بالإمام عليه السلام.

أهداف حركة الإمام السجّاد عليه السلام

بعد أن توضّحت ساحة عمل الإمام السجّاد عليه السلام أشير بشكلٍ مختصر إلى الهدف والمنهج الّذي اعتمده الأئمّة. وبعد ذلك نقوم بدراسة جزئيات حياة هذا الإمام فيما يتعلّق بهذا النهج.

ممّا لا شكّ فيه أنّ الهدف النهائيّ للسّجاد عليه السلام كان إيجاد الحكومة الإسلامية، وكما جاء في كلام الصادق عليه السلام، فإنّ الله تعالى وقّت عام ٧٠ لقيام الحكومة الإسلامية، ثمّ بسبب قتل الإمام الحسين عليه السلام سنة ٦٠، فإنّ الله أخّرها إلى سنة ١٤٧-١٤٨هـ.ق.، فهذا يحكي بشكلٍ واضح عن أنّ الهدف النهائيّ للإمام السجّاد عليه السلام وسائر الأئمّة، هو إيجاد الحكومة الإسلامية. ولكن كيف يمكن أن تُقام الحكومة الإسلامية في مثل تلك الظروف؟ إنّ هذا يحتاج إلى عدّة أمور:

١- ينبغي أن تدوّن وتُدرس وتنشر المدرسة الإسلامية الحقيقية الّتي يحمل علمها الأئمّة عليهم السلام، هذه المدرسة الّتي هي أيضًا المبنى الأساس للحكومة الإسلامية. بعد أن انفصل المجتمع الإسلاميّ ولمدّة طويلة من الزمن عن الفكر الإسلاميّ الصحيح، كيف يمكن إقامة حكومة على أسس الفكر الإسلاميّ الأصيل في حين أنّ الأرضية الفكريّة لم يتمّ تحقيقها بين الناس، ولم تدوّن تلك الأحكام الأصيلة؟

إنّ أعظم الأدوار الّتي مارسها الإمام السجّاد عليه السلام هي أنّه دوّن الفكر الأصيل للإسلام: كالتوحيد، والنبوّة، وحقيقة المقام المعنويّ للإنسان، وارتباطه بالله. وأهمّ دور أدّته الصحيفة السجّادية هو في هذا المجال. فانظروا إلى هذه الصحيفة، ثمّ جولوا ببصركم في أوضاع الناس على صعيد الفكر الإسلامي في ذلك الزمن، ستجدون مدى المسافة الّتي تفصل بين الاثنين.

ففي ذلك الزمن الّذي كان المسلمون في كلّ أنحاء العالم الإسلاميّ يسيرون نحو الحياة المادية والملذّات، بدءًا من شخص الخليفة عبدالملك بن مروان، إلى العلماء المحيطين به (ومن جملتهم محمّد بن شهاب الزهريّ، وسوف أذكر أسماء علماء البلاط فيما بعد)، نزولًا إلى الجميع الّذين كانوا يغوصون في بحر الدنيا والماديات، يقف الإمام السجّاد عليه السلام ويقول مخاطبًا الناس: «أوَلا حرّ يدع هذه اللماظة لأهلها؟»[1].

ففي هذه الجملة يوضح الإمام أنّ الفكر الإسلاميّ الأصيل كان عبارة عن جعل الهدف للمعنويات والتحرّك نحو الوصول إلى الأهداف المعنوية والإسلامية، وجعل الإنسان يرتبط بالله عبر التكليف. وهذا هو الموقف المقابل تمامًا لحركة الناس المادية في ذلك الزمن. كان على

الإمام السجّاد عليه السلام أن يقوم بعملٍ كبيرٍ لأجل أن يحفظ الفكر الأصيل للإسلام في فضاء المجتمع الإسلاميّ. وكانت هذه الحادثة بداية أعمال الإمام السجّاد عليه السلام.

٢ـ تعريف الناس إلى أحقّية أولئك الّذين ينبغي أن يتسلّموا زمام الحكم؛ إذ كيف يمكن لأهل البيت تشكيل حكومة في الوقت الّذي كان الإعلام والتبليغ ضدّ آل الرسول قد ملأ العالم الإسلاميّ طوال عشرات السنين، حتّى عصر الإمام السجّاد عليه السلام، وفيه ظهرت الأحاديث الموضوعة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والّتي تخالف حركة أهل البيت، بل إنّها في بعض الموارد تشتمل على سبّهم ولعنهم، وقد نُشرت بين أناس ولم يكن لديهم أي اطّلاع على المقام المعنويّ والواقعيّ لأهل البيت.

لهذا، فإنّ أحد الأهداف والتحرّكات المهمّة للإمام السجّاد عليه السلام كان يرتبط بتعريف الناس إلى أحقّية أهل البيت، وأنّ مقام الولاية والإمامة والحكومة، حقٌّ ثابت لهم، وهم الخلفاء الواقعيّون للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم. وهذا الأمر، إضافة لما له من أهميّة عقائدية وفكرية، له ماهيّة سياسية، وهي الارتباط بالحركة السياسية المناهضة للنظام الحاكم.

٣ـ كان على الإمام السجّاد عليه السلام أن يُعدّ الأجهزة و ينظم التشكيلات الّتي يمكن أن تكون منطلقًا أساسًا للتحرّكات السياسية المستقبلية، ففي مجتمع ممزّق يعيش تحت أنواع القمع والفقر والتضييق الماليّ والمعنويّ، عاشت الشيعة في أجواء من الرعب والتضييق إلى درجة أن تلاشت تشكيلاتهم، فكيف يمكن للإمام السجّاد عليه السلام أن يبدأ عمله وحيدًا أو مع مجموعة قليلة وغير منظّمة؟ لهذا كان همّ الإمام السجّاد عليه السلام أن يبدأ بتشكيل هذه التنظيمات الّتي كانت ـ برأينا ـ موجودةً منذ أيّام أميرالمؤمنين عليه السلام غير أنّها ضعفت وتلاشت إثر واقعة عاشوراء والحرّة وثورة المختار.

بالنتيجة نجد أنّ عمل الإمام كان يدور ضمن ثلاثة محاور أساسية:

الأول: تدوين الفكر الإسلاميّ بصورة صحيحة، وفق ما أنزل الله، بعد مرور أزمنة من التحريف والنسيان عليه.

الثاني: إثبات أحقّية أهل البيت في الخلافة والولاية والإمامة.

الثالث: إيجاد تنظيمات منسجمة لأتباع أهل البيت عليهم السلام و الشيعة.

هذه الأعمال الثلاثة الأساسية، هي الّتي ينبغي أن ندرسها ونبحث فيها، لنرى أيّ واحد منها قد تحقّق في حياة الإمام السجّاد عليه السلام.

إلى جانب هذه الأعمال، كانت هناك أيضًا أعمال أخرى هامشية أو ضمنية، وتحرّكات قام بها الإمام وأتباعه لأجل اختراق ذلك الجوّ المرعب القمعيّ. في ظلّ الإجراءات الأمنية المشدّدة الّتي كان يفرضها الحكم، نلاحظ مواقف عديدة للإمام عليه السلام أو لأتباعه، كان الهدف منها كسر حواجز القمع و خلق بعض الأجواء الملائمة واللطيفة، خاصّة مع الأجهزة الحاكمة أو التابعة لها، مثل المواقف الّتي حدثت بين الإمام عليه السلام وعبدالملك عدّة مرات، أو الأمور الّتي جرت مع العلماء المنحرفين والتابعين لعبدالملك (من قبيل محمّدبن‌شهاب الزهريّ) كلّ ذلك لأجل خرق ذلك الجوّ المتشدّد.

إنّ الباحث عندما يستعرض الروايات، سواء الأخلاقية منها أم المواعظ أم الرسائل الّتي نقلت عن الإمام، أو المواقف الّتي صدرت عنه وذلك على أساس ما بيّناه، فإنّه سوف يجد لها المعاني المناسبة، وبتعبيرٍ آخر سوف يرى أن جميع تلك التحرّكات والأقوال كانت ضمن الخطوط الثلاثة الّتي أشرنا إليها، والّتي كانت تصبّ جميعًا في دائرة إقامة حكومة إسلامية. وبالتأكيد لم يكن الإمام يفكّر في إيجاد حكومة إسلاميّة في زمانه، لأنّه كان يعلم أنّ وقتها في المستقبل، أي في الحقيقة في عصر الإمام الصادق عليه السلام. مجلة باسدار إسلام، ج٨

وبهذه الأعمال الثلاثة سوف تتهيّأ أرضيّة إقامة الحكومة الإسلاميّة والنظام العلَويّ. لقد ذكرتُ سابقًا، وأؤكّد ما ذكرتُه، أنّ الإمام السجّاد عليه السلام، لم يكن يرى أنّه سيتمّ تحقيق الحكومة الإسلاميّة في زمانه (وهذا بخلاف ما عمل لأجله الإمام الصادق عليه السلام في زمانه)، فقد كان معلومًا بأنّ الأرضيّة في عصر الإمام السجّاد عليه السلام لم تكن معدّة لذلك، وكان الظلم والقمع والجهل كبيرًا، إلى درجة كان يصعب فيها إزالتها خلال هذه السنوات الثلاثين. وكان الإمام السجّاد عليه السلام يعمل للمستقبل.

ومن خلال القرائن العديدة، نفهم أيضًا أنّ الإمام الباقر عليه السلام لم يكن يهدف إلى إقامة حكومة إسلاميّة في زمانه، أي أنّه منذ سنة ٦١هـ.ق. وحتّى ٩٥ هـ.ق. (شهادة الإمام السجّاد عليه السلام)، ومنذ

سنة ٩٥ وحتّى ١١٤هـ.ق. (شهادة الإمام الباقرعليه السلام)، لم يكن في فكر أيّ منهما أنّه ستقام هذه الحكومة في زمانه، ولهذا كانا يعملان على المدى البعيد.

وسوف نستشهد على هذه الفكرة بكلمات الإمام السجّاد عليه السلام، لأنّها أفضل المصادر وأكثرها أصالة للتعرّف إلى سيرته عليه السلام، بل على حياة كلّ الأئمّة عليهم السلام. غاية الأمر ـ وكما أشرنا سابقًا ـ أنّنا نفهم هذه البيانات بصورة صحيحة عندما نطّلع على حركة الأئمّة ومقصدهم من الجهاد والمواجهة والسعي والسير، وبغير هذه الصّورة قد نفهم معاني هذه الكلمات ـ الّتي سوف أبينّها ـ مغلوطة. وبعد أن اطّلعنا على بعض تلك الحوادث، والّتي استفدناها ببركة كلمات الأئمّة عليهم السلام، سوف نعتمد على نفس المصادر وسنرى أيّة استنتاجات صحيحة نحصّلها.

قبل أن ندخل في صلب البحث ينبغي أن نذكّر نقطةً موجزةً وهي، أنّه وبسبب مرحلة القمع الشديد الّتي كان يعيشها الإمام السجّاد عليه السلام، لم يستطع أن يبيّن لنا تلك المفاهيم بصورة واضحة، ولذلك كان يستفيد من أسلوب الموعظة والدعاء (خاصّة أدعية الصحيفة السجّادية الّتي سوف نتعرّض لها فيما بعد والبيانات والروايات الّتي نُقلت عن الإمام عليه السلام والّتي كانت تطغى عليها حالة الموعظة)، حيث كان الإمام ضمن الموعظة والنصيحة يبيّن ما أشرنا إليه سابقًا، وبهذا اتّبع الإمام السجّاد عليه السلام منهجًا حكيمًا وشديد الحذاقة. وبذلك الأسلوب الّذي ظاهره موعظة الناس ونصحهم، أدخل الإمام عليه السلام إلى أذهانهم ما يريده، وهذا من أفضل أشكال التعاطي الإيديولوجيّ والفكريّ الصحيح.

الإمام السجّاد عليه السلام وتجلّيات المواجهة السياسية

ما سنقوم بدراسته هنا هو كلمات الإمام السجّاد عليه السلام الواردة في كتاب «تحف العقول»، حيث نشاهد أنواع من الأساليب المذكورة والّتي تشير إلى اختلاف طبيعة الجهات المخاطبة.

أحد تلك الأنواع، هو الكلمات الموجهّة لعامّة الناس، والّتي يظهر فيها أنّ المستمع ليس من الجماعة المقرّبة وخاصّة الإمام أو من الكوادر التابعين له. وفي هذه الخطابات يستند الإمام عليه السلام دائمًا

إلى الآيات القرآنية، لماذا؟ لأنّ عامّة الناس لا ينظرون إلى الإمام السجّاد عليه السلام كإمام، بل يطلبون الدليل في كلماته، ولهذا كان الإمام يستدلّ إمّا بالآيات أو بالاستعارة من الآيات، حيث استخدم هذا الأسلوب في أكثر من ٥٠ موردًا ذكر في تلك الروايات، بصورة مباشرة أو بطريق الاستعارة.

ولكن في الخطاب الموجّه إلى المؤمنين نجد الأمر مختلفًا، لأنّ هؤلاء المؤمنين يعرفون الإمام السجّاد عليه السلام وقوله مقبول عندهم، لهذا لم يستند في كلامه إلى الآيات القرآنية. ولو أحصينا كلّ كلامه الموجّه إليهم لوجدنا أنّ استخدام الآيات القرآنية فيه قليل جدًا.

في رواية مفصّلة من كتاب «تحف العقول» تحت عنوان: «موعظته لسائر أصحابه وشيعته وتذكيره إيّاهم كلّ يوم جمعة»[١]، نجد هنا أنّ دائرة المستمعين واسعة وهذا ما نستنتجه من القرائن المفصّلة الواردة فيها. ففي هذه الرواية لم يستخدم الإمام عليه السلام كلمة «أيّها المؤمنون» أو «أيّها الإخوة»، وأمثالها، حتّى نعلم أنّ خطابه موجّه إلى جماعة خاصّة، ولكنّه قال «أيّها الناس» وهذا يشير إلى عموميّة الخطاب. في حين أنه في بعض الروايات الأخرى كان الخطاب موجّهًا بصورة خاصّة إلى المؤمنين.

ثانيًا؛ لا يوجد في هذه الرواية تصريحٌ بشيءٍ معارضٍ للجهاز الحاكم، بل انصرف كلّ الخطاب لبيان العقائد، وما ينبغي أن يعرفه الإنسان وذلك بلسان الموعظة. فالخطاب يبدأ هكذا: «أيها الناس، اتقّوا الله واعلموا أنّكم إليه راجعون...». ثمّ يتطرّق الإمام عليه السلام إلى العقائد الإسلامية ويوجّه الناس إلى ضرورة فهم الإسلام الصحيح. وهذا يدلّ على أنّهم كانوا لا يعرفون الإسلام الصحيح، يريد بذلك إيقاظهم من غفلة الجهل إلى معرفة الإسلام وتعاليمه. كيف مثلًا يستفيد الإمام السجّاد عليه السلام من أسلوبه الجذّاب، حيث يقول: «ألا وإنّ أوّل ما يسألانك عن ربّك الّذي كنت تعبده» ويمضي على هذا المنوال ناصحًا، ويخوّف من ذلك الوقت الّذي يوضع المرء في قبره ويأتي منكر ونكير لمساءلته. وبهذا يريد أن يوقظ فيهم الدافع لمعرفة الله وفهم التوحيد، «وعن نبيّك الّذي أُرسل إليك»، ثمّ الدافع لفهم النبوة، «وعن دينك الّذي كنت تدين به، وعن كتابك الّذي كنت تتلوه...».

---

١. تحف العقول، وروي عن الإمام سيدالعابدين علي بن الحسين في طوال هذه المعاني، موعظته لسائر اصحابه وشيعته وتذكيره إياهم كل يوم جمعة.

وأثناء عرضه لهذه العقائد الأصيلة وهذه المطالب الأساسية للإسلام، كالتوحيد والنبوّة والقرآن والدين، يبيّن هذه النقطة الأساسية بقوله عليه السلام: «وعن إمامك الّذي كنت تتوّلاه»[١]، فهو هنا يطرح موضوع الإمامة. وقضيّة الإمامة عند الأئمّة تعني قضية الحكومة أيضًا، إذ لا يوجد فرق بين الولاية والإمامة على لسان الأئمّة عليهم السلام. وإن كان للوليّ والإمام معانٍ مختلفة عند بعض الناس ولكن هاتين القضيّتين ـ الولاية والإمامة ـ على لسان الأئمّة أمرٌ واحدٌ والمراد منهما واحد. وكلمة «الإمام» المقصود هنا تعني ذلك الإنسان المتكفّل بإرشاد الناس وهدايتهم من الناحية الدينية، و أيضًا المتكفّل بإدارة أمور حياتهم من الناحية الدنيوية، أي خليفة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، الإمام هو قائد المجتمع، أي ذلك الإنسان الّذي نتعلّم منه ديننا وتكون بيده أيضًا إدارة دنيانا، بحيث تكون إطاعته في أمور الدين وأمور الدنيا واجبة علينا.

في عالم التشيّع تعرّضت هذه القضيّة (دور الإمام) إلى فهمٍ خاطئ طيلة قرون متتالية. ففي السابق كان الناس يتصوّرون أنّ الإمام يتفرّد بحكم المجتمع، وهو الّذي ينبغي أن يدير أمور الحياة بيده وبجهده الذاتي: فيحارب ويصالح ويعمل وينفّذ كلّ طلب بنفسه؛ فهو يأمر الناس وينهاهم من جهة، وفي نفس الوقت هو الّذي ينفّذ هذه الأمور وحده لإصلاح دينهم! واليوم أيضًا تعرّضت هذه القضيّة للفهم الخاطئ بحيث أصبحنا نعتبر أنّ الإمام في عصر الغيبة ليس إلاّ عالـمًا دينيًا، وهذا بالطبع تصوّرٌ خاطئ. لفظة «الإمام» تعني المتقدّم والقائد. فالإمام الصادق عليه السلام عندما كان يخاطب الناس في منى أو بعرفات بقوله: «أيّها الناس إنّ رسول الله كان الإمام»، كان يشير إلى أنّ الإمام هو الّذي يتوّلى أمور الناس الدينية والدنيوية.

في المجتمع الإسلاميّ أيّام حكم عبدالملك بن مروان وفي عصر الإمام السجّاد عليه السلام كان هذا المعنى يُفهم فهمًا خاطئًا؛ لأنّ إمامة المجتمع، وهي إدارة شؤون حياة الناس وبسط نظام العيش الّذي يمثّل قسمًا مهمًا من الإمامة، قد سلبت من أهلها وأعطيت إلى من لا أهليّة لهم بها، حيث كانوا يلقّبون أنفسهم بالأئمّة ويعرفهم الناس بذلك. فالناس كانوا يُطلقون لقب الإمام على

---

١. م. ن.

عبدالملك بن مروان، ومن قبله أبيه وقبلهما يزيد وغيره. وقد قبلوهم على أساس أنّهم قادة المجتمع والحكّام على النظام الاجتماعيّ للناس. وقد ترسّخ ذلك في أذهان الناس.

وهكذا عندما كان الإمام السجّاد ﴿ع﴾ يقول إنّك ستُسأل عن إمامك في القبر، كان يشير إلى أنّك هل انتخبت الإمام المناسب والصحيح؟ وهل أنّ ذلك الشخص الّذي كان يحكمك، ويقود المجتمع الّذي تعيش فيه هو حقًّا إمام؟ وهل هو ممّن يرضى الله عنه؟ لقد كان الإمام بهذا الكلام يوقظ الناس ليجعل هذه القضيّة حسّاسة في نفوسهم.

بهذه الطريقة كان الإمام يحيي قضيّة الإمامة. ففي حين أنّ الجهاز الأمويّ الحاكم لم يكن يرضى بأن يتمّ الحديث عنها، استخدم الإمام أسلوب الموعظة.(كانت هذه من إحدى الوسائل الهادئة الّتي استخدمها الإمام في هذا المجال، وسوف نشير لاحقًا إلى أساليب أكثر تشدّدًا).

بناءً على هذا، ففي البيان العام الموجّه إلى عامّة الناس نجد أنّ إمامنا، وبلغة الموعظة، يحيي المعارف الإسلاميّة، وخاصّة تلك المعارف الحسّاسة في ذهن الناس، ويسعى لأجل أن يتعرّف الناس إليها ويتذكّروها. ويمكن الالتفات في هذا النوع من الخطاب إلى نقطتين اثنتين:

الأولى: أنّ هذا الأسلوب البيانيّ للإمام لم يكن تعليميًا، بل هو من نوع التذكير. أي أنّ الإمام لم يكن يجلس ليبيّن للنّاس دقائق التوحيد، أو ليفسّر لهم مسألة النبوّة، وإنّما يذكّرهم بها. لماذا؟ لأنّ المجتمع الّذي كان يعيش فيه الإمام السجّاد ﴿ع﴾ لم تكن تفصله عن مرحلة النبيّ ﴿ص﴾ مسافة زمنية كبيرة حتّى ينحرف كليًا عن العقائد الإسلاميّة. بل كان هناك الكثير من الأشخاص الّذين عايشوا رسول الله ﴿ص﴾، ومرّت عليهم مرحلة الخلفاء الراشدين، وقد عاصروا أئمّتنا العظام من أميرالمؤمنين ﴿ع﴾ إلى الإمام الحسن ﴿ع﴾ وإلى الإمام الحسين ﴿ع﴾. ومن الناحية الاجتماعيّة لم يكن الوضع قد وصل إلى مرحلة يعاني فيها المجتمع الإسلاميّ من الانحراف العقائديّ والأصوليّ بالنسبة لمسألة التوحيد والنبوّة والمعاد والقرآن. نعم، كانت هذه المسائل تدريجيًّا تخرج من ذاكرتهم، وكانت الحياة المادّية تحيط بهم إلى درجة تنسيهم الفكر الإسلاميّ والعقيدة الإلهيّة.

كانت الحياة الدنيوية والمادية تسري في المجتمع بحيث لا تُبقي في أذهان الناس أيّ توجّه

للمسابقة في مضمار المعنويات والخيرات. وإذا وُجد هذا الأمر فإنّه لم يكن ليتعدّى القشور والسطوح. أمّا بالنسبة للمفهوم الّذي كان النّاس يحملونه، في زمن رسول الله ﷺ والعصر المتّصل به، عن التوحيد والحسّاسيّة المتميّزة تجاهه، فقد كانوا يفتقدونه في عصر الإمام. وهذا ما كان يستدعي التذكير حتّى يرجع الأمر إلى سابق عهده، فكانت هناك أشياء محرّفة ينبغي أن تصحّح.

وهذا بخلاف المراحل اللاحقة، كمرحلة الإمام الصادق عليه السلام، لأنّ المسألة حينها لم تكن بهذا الشكل. فقد ظهر في ذلك الوقت، الكثير من المتكلّمين والمتفلسفين والمفكّرين، وتحت عناوين متعدّدة كانوا يجلسون في الجوامع، مثل مسجد المدينة وحتّى المسجد الحرام ومسجد الشام، ويدرّسون العقائد المنحرفة والباطلة. لقد برز حينها أناس مثل «ابن أبي‌العوجاء» يدرّسون الإلحاد وعقائد الزنادقة. لهذا، بالتأمّل في أحاديث الإمام الصادق عليه السلام و كلماته نجد بيان التوحيد والنبوّة وأمثالها بصورة استدلالية[1]. فالحاجة إلى الاستدلال ضرورية لمواجهة استدلال الخصم، وهذا ما لا نجده في كلمات الإمام السجّاد عليه السلام، الّتي كانت تعتمد على الحالة الشعوريّة والوجدانيّة الّتي تذكّر بالقضايا الأساسية.

وباختصار، لم يكن عصر الإمام السجّاد عليه السلام يحكي عن خروج عن الفكر الإسلاميّ، حتّى عند الحكّام، إلّا في بعض الموارد الّتي يظهر فيها مثل هذا الأمر. وذلك عندما ألق يزيد اللعين تلك الأبيات الشعرية في حالة السكر، عندما أُحضر أسرى أهل البيت عليهم السلام فقال:

لعبت هاشم بالملك فلا ... خبرٌ جاء ولا وحيٌ نزل[2]

ولكنّنا نستطيع أن نقول إنّ هذا الكلام كان تحت تأثير السكر. فحتّى أمثال عبدالملك أو الحجّاج لم يكونوا يجرؤون على إعلان مخالفتهم لفكرة التوحيد أو النبوّة. لقد كان عبدالملك‌بن‌مروان يقرأ القرآن إلى درجة أنّه عُرف كأحد قرّاء القرآن. ثمّ عندما وصل إليه خبر تنصيبه خليفة قبّل القرآن وقال: ﴿هذا فِراقُ بَيني وبَينَك﴾[3]، إنّ هذا ما حدث فعلًا. والحجّاج‌بن‌يوسف الّذي سمعتم

۱. الكافي، كتاب التوحيد، باب حدوث العالم واثبات المحدث، ح ۲.

۲. اللهوف، ص ۱۸۱.

۳. سورة الكهف، الآية: ۷۸.

عن ظلمه (وباليقين إنّ الّذي سمعتموه هو أقلّ بكثير ممّا فعله) كان عندما يخطب في الناس يأمرهم بالتقوى. وهكذا نفهم سبب اعتماد الإمام السجّاد عليه السلام على التذكير بالأفكار الإسلامية لإخراج الناس من مستنقع الدنيا والأهواء المادّية إلى ساحة معرفة الله والدين والقرآن.

الثانية: وهي ما أشرنا إليه سابقًا، من أنّ الإمام كان يأتي على ذكر مسألة الإمامة من خلال بيانه العامّ الّذي اتّخذ أسلوب الموعظة والإرشاد. هذا مثل ما كنّا على زمن الشّاه، فاذا كان بعض الناس يتحدّث إليكم و يذكّركم قائلًا: أيّها الناس فكّروا بالله، وبالتوحيد والنبوّة وبقضيّة الحكومة... فالتنويه بالحكومة وقضايا الأمن كان محظورًا وخطرًا للقائل، أما إذا جاء ذلك الكلام و بلغة الوعظ، على لسان رجل زاهد وعابد، وبتعبير آخر لن يثير الحسّاسيّات، فلا يعاقب ولا يؤاخذ من قبل السلطة. كان بيان الإمام السجّاد عليه السلام في عصره من هذا النوع في هذه المرحلة. مجلة باسدار إسلام، ج٩

أمّا النّوع الثاني فهو ذلك الخطاب الموجّه إلى مجموعة خاصّة لا تعرف هويّتها. ولكن من الواضح أنّه كان موجّهًا إلى مجموعة من الّذين يخالفون النظام الحاكم. فمن يمكن أن يكون هؤلاء؟ هذه الخطابات وإن لم يُعلم منها بالتحديد من هي تلك الفئة المخاطبة، ولكن من الواضح أنّها فئة مخالفة للنظام الحاكم، وأفرادها هم في الواقع من أتباع الإمام عليه السلام ومن المعتقدين بحكومة أهل البيت عليهم السلام.

ولحسن الحظّ أنّنا نجد في كتاب تحف العقول نموذجًا لهذا النوع من الكلمات الصادرة عن الإمام السجّاد عليه السلام (وذلك لأنّنا لا نجد في غيره من الكتب موارد أخرى من هذا النوع بالرغم من أنّ هناك الكثير في حياة الإمام السجّاد عليه السلام، ولكن على أثر الحوادث المختلفة الّتي جرت في ذلك العصر من القمع والتنكيل والاضطهاد وقتل الأصحاب زالت أكثر تلك الآثار وبقي القليل منها).

يبدأ الخطاب التابع لهذا النّوع الثاني هكذا: «كفانا الله وإيّاكم كيد الظالمين وبغي الحاسدين وبطش الجبّارين». ويعلم من هذا البيان أنّ الإمام والجمع الحاضر مهدّدون من قبل السلطات الحاكمة، وأنّ المسألة ترتبط بمجموعة خاصّة، هم المؤمنون بأهل البيت عليهم السلام، ولذلك جاء الخطاب بصيغة «يا أيّها المؤمنون»، خلافًا للنوع الأوّل حيث يستعمل «يا أيّها الناس» أو «يا ابن آدم»، وذلك لأنّ الخطاب موجّه إلى المؤمنين بأهل البيت وأفكار أهل البيت عليهم السلام.

والدليل الآخر الواضح عندما يقول عليه السلام: «أيّها المؤمنون لا يفتنّنكم الطواغيت وأتباعهم من أهل الرغبة في الدنيا، المائلون إليها المفتونون بها، المقبلون عليها»[١].

فالمقصد الأصليّ من الكلام هو حفظ هؤلاء المؤمنين وبناء الكادر اللازم للمستقبل. ومن الواضح أنّه على أثر الصراع الشديد في الخفاء ما بين أتباع الأئمّة عليهم السلام وأشياع الطواغيت، فإنّ أتباع الأئمّة عانوا من الحرمان والخطر الأكبر الّذي كان يهدّد المجاهدين و هو أن يتوجّهوا إلى الرفاهية، هذه الرفاهية الّتي كانت تجرّهم إلى ترك الجهاد.

لقد كان الإمام عليه السلام يؤكّد كثيرًا على هذه النقطة، ويحذّر الناس من الترف في هذه الدنيا المتلألئة الخلّابة، الخدّاعة الّتي لن تؤدّي إلّا إلى التقرّب من الطواغيت. لهذا نجد في هذا البيان، وفي العديد من كلمات الإمام السجّاد عليه السلام، وفي الروايات القصيرة الّتي نُقلت عنه، تأكيدًا على هذا الأمر.

ماذا يعني التحذير من الدنيا؟ يعني حفظ الناس من الانجذاب نحو المترفين والركون إليهم، وصيانة إيمانهم وعدم انشغالهم بالرفاهية وزخارف الدنيا. وهذا النوع من الخطاب كان موجّهًا للمؤمنين، أمّا في الخطاب الموجّه إلى عامّة الناس، فقليلًا ما نجد مثل هذا النوع. ففي خطاب عامّة الناس، كثيرًا ما يظهر: أيها الناس التفتوا إلى الله، إلى القبر والقيامة، إلى أنفسكم والغد. فما هو هدف الإمام عليه السلام من هذا النوع الثاني من الخطاب؟ المقصود هو بناء الكوادر.

فهو عليه السلام يريد أن يصنع من المؤمنين كوادر ملائمة للمرحلة، ولهذا يحذّرهم من الانجذاب نحو أقطاب القدرة والرفاهية الكاذبة. ويكرّر ذكر النظام الحاكم، خلافًا للنوع الأوّل من الكلمات، كما يقول مثلًا: «وإنّ الأمور الواردة عليكم في كلّ يوم وليلة من مظلمات الفتن وحوادث البدع وسنن الجور وبوائق الزمان وهيبة السلطان ووسوسة الشيطان»[٢].

وهنا نجد أنّ الإمام مباشرة و بعد ذكر هيبة السلطان وقدرته يذكر وسواس الشيطان، يريد

---

١. تحف العقول، وروي عن الإمام سيدالعابدين علي بن الحسين في طوال هذه المعاني، موعظته لسائر اصحابه وشيعته وتذكيره إياهم كل يوم جمعة.
٢. الكافي، كتاب الروضه، صحيفة علي بن الحسين ع وكلامه في الزهد، ح ٢.

بذلك أن يلفت، وبكلّ صراحة، النظرَ إلى حاكم ذلك الزمان ويضعه إلى جانب الشيطان. وفي تتمّة الكلام أنقل جملة لافتة وأنّها مهمّة جدًّا، وهي تحكي عن مطلب ذكرته سابقًا: «لتثبّط القلوب عن تنبهها وتذهلها عن موجود الهدى ومعرفة أهل الحق»[١]. تلك الهداية الموجودة الآن في المجتمع. فهذه الأحداث الّتي ترد على الإنسان في حياته في الليل والنهار ـ في عصر القمع ـ تمنع القلوب من تلك النيّة والتوجّه والدافع والنشاط المطلوب للجهاد.

فالإمام السجّاد عليه السلام يعظهم بنفس الأسلوب السابق، «وإيّاكم وصحبة العاصين ومعونة الظالمين» فهو يحذّرهم من مجالسة أهل المعاصي. و من هم أهل المعاصي؟ أولئك الذين جُذبوا الى نظام عبدالملك الظالم. الآن، حاولوا أن تتصوّروا شخصية الإمام السجّاد عليه السلام وأن تكوّنوا صورةً عنه[٢]. هل ما زال ـ في أذهانكم ـ ذلك الإمام المظلوم الصامت المريض الّذي لا شأن له بالحياة؟ كلّا، فالإمام هو الّذي كان يدعو نفرًا من المؤمنين والأصحاب إلى الهدى، ويحذّرهم بهذه الصّورة، من التقرّب إلى الظلَمة ونسيان المجاهدة، ويمنعهم من الانحراف عن هذا الطريق، وكان عليه السلام يحفزهم ويشحنهم بالنشاط، ويدفعهم من أجل أن يكونوا مؤثّرين في إيجاد الحكومة الإسلاميّة.

من جملة الأشياء الّتي أراها جليّة وشديدة الأهميّة في هذا القسم من كلمات الإمام السجّاد عليه السلام، تلك الكلمات الّتي يمرّ فيها بتجارب أهل البيت عليهم السلام الماضية. ففي هذا القسم يشير الإمام عليه السلام إلى تلك الأيّام الّتي مرّت على الناس من قبل الحكّام الجائرين، مثل معاوية ويزيد ومروان، ووقائع مثل الحرّة وعاشوراء، وشهادة حجربن‌عديّ ورشيد الهجريّ، وعشرات الحوادث المهمّة والمعروفة والّتي مرّت على أتباع أهل البيت طيلة الأزمان الماضية واستقرّت في أذهانهم. ويريد الإمام عليه السلام أن يحثّ أولئك المخاطبين من خلال ذكر تلك الحوادث الشديدة، على التحرّك والثورة. والتفتوا الآن إلى هذه الجملة: «فقد لعمري استدبرتم من الأمور الماضية في الأيّام الخالية من الفتن المتراكمة والانهماك فيها ما تستدلّون به على تجنّب الغواة»[٣]. أي أنّكم

---

١. م. ن.

٢. م. ن.

٣. تحف العقول، وروي عن الإمام سيدالعابدين علي‌بن‌الحسين في طوال هذه المعاني، موعظة وزهد وحكمة.

تستحضرون تلك التجارب وتعلمون ماذا سيفعل بكم أهل البغي والفساد ـ وهم حكّام الجور ـ عندما يتسلّطون عليكم. فلذلك يجب عليكم أن تتجنّبوهم وتواجهوهم. وفي هذا الخطاب يطرح الإمام مسألة الإمامة بصورة صريحة، أي قضيّة الخلافة والولاية على المسلمين والحكومة على الناس وإدارة النظام الإسلاميّ. هنا يبيّن الإمام السجّاد عليه السلام قضية الإمامة بصراحة، في حين أنّه و في ذلك الزمن لم يمكن يطرح مثل هذه المطالب على العامّة. ثم يقول عليه السلام : «فقدّموا أمر الله وطاعته وطاعة من أوجب الله طاعته».

وهنا يعيّن الإمام فلسفة الإمامة عند الشيعة والإنسان الّذي يجب أن يُطاع بعد الله. ولو فكّر الناس في ذلك الوقت بهذه المسألة لعلموا بوضوح أنّه لا يجب طاعة عبدالملك. لأنّه غير معقول أن يوجب الله طاعة عبدالملك. ذلك الحاكم الجائر بكلّ فساده وبغيه. وبعد أن يقدّم الإمام هذه المسألة يتعرّض لردّ شبهة مقدّرة فيقول: «ولا تقدّموا الأمور الواردة عليكم من طاعة الطواغيت وفتنة زهرة الدنيا بين يدي أمر الله وطاعته وطاعة أولي الأمر منكم»[١]. فالإمام عليه السلام في هذا القسم من كلمته يعرض و بصراحة قضية الإمامة.

ففي هذا الخطاب والخطاب السابق يركّز الإمام عليه السلام على مسألتين أساسيتين من المسائل الثلاث الّتي أشرنا إليها سابقًا. الأولى: إعادة تجديد الفكر الإسلاميّ والمعتقدات الإسلامية و تدوينها و إحياؤها في أذهان الناس والحث على تعلّمها. والأخرى: البعد السياسيّ لولاية الأمر، أي قضية الحكومة وقيادة النظام الإسلاميّ.

وعندما يعرّف الإمام هاتين المسألتين للناس في ذلك الزمن فإنّه يقوم في الواقع بتعريف النظام العلويّ والنظام الإسلاميّ الإلهيّ.

فهنا كنوع آخر من كلمات الإمام السجّاد عليه السلام وهو أهمّ من الكلمتين السابقتين، من خلاله يدعو الإمام و بصراحة الناسَ إلى ضرورة إيجاد تشكيلات إسلامية. وبالطبع فإنّ هذه الدعوة موجّهة إلى أولئك الّذين يتّبعون أهل البيت عليهم السلام، وإلا لو كانت إلى غيرهم من عامّة الناس

---

١. م. ن.

لأفشيت وأدّت إلى إيذاء الإمام ﷺ وعرّضته للضغوط الصعبة، وبحمد الله فإنّنا نجد نموذجًا لهذا النوع من الكلمات في «تحف العقول»[١].

يبدأ الإمام كلامه بهذه العبارة: «إنّ علامة الزاهدين في الدنيا الراغبين في الآخرة، تركهم كلّ خليط وخليل ورفضهم كلّ صاحب لا يريد ما يريدون»[٢]. وهذا تصريح بالدعوة إلى إيجاد تشكيلات شيعيّة. فهو ﷺ يعلّمهم بأنّ عليهم الابتعاد عن أولئك الّذين يخالفونهم ولا يتّبعون الحكومة العلويّة وحكومة الحقّ.[٣]

وهناك نوعٌ آخر من كلمات الإمام ﷺ لا توجد فيه تلك المطالب الكلية الّتي أشرنا إليها، مثل رسالة الحقوق، للإمام السجّاد ﷺ رسالة مفصّلة، بحجم رسالةٍ بحسب اصطلاحنا، وهي رسالة كتبها الإمام لأحد أصحابه يذكر فيها حقوق الأفراد والإخوان على بعضهم بعضًا، ويذكر فيها أيضًا حقّ الله عليك، وحقّ أعضائك وجوارحك، وحقّ العين واللسان واليد والأذن... كما يذكر حقّ حاكم المجتمع الإسلاميّ على الناس وحقّ الناس عليه، وحقّك على جيرانك، وحقّك على أسرتك و... لقد ذكر كلّ هذه الأنواع من الحقوق الّتي تنظّم العلاقات بين الأفراد في النظام الإسلاميّ. فالإمام وبهدوء تامّ ودون أن يذكر الحكومة والجهاد والنظام المستقبلي، قد ذكر في هذه الرسالة أسس علاقات النظام المقبل، بحيث إنّه لو جاء يوم وتحقّق نظام الحكومة الإسلامية في عصر الإمام السجّاد نفسه ـ وهو بالطبع احتمالٌ بعيد ـ أو في العصور اللاحقة فهو يعرّف الناس الإسلامَ الّذي ستُحقّق حكومته في المستقبل، ليلقي في أذهانهم مسبقًا طبيعة العلاقات

---

١. للأسف الشديد ينبغي أن نقول إنّه لا يوجد في جميع العناوين المتعلّقة بمثل هذه الكلمات الصادرة عن الإمام السجّاد ﷺ ـ والّتي اختارها المحدّثون ـ أيّ نوع من الإشارة إلى ذلك المحتوى الذي أشرنا إليه. فعلى الأغلب، جعلوه ذيل عنوان الزهد. بالطبع إنّ الزهد الواقعيّ هو هذا، لكنّ ذلك الفهم السائد حول الزهد لا يمكن أن يُستنبط من هذه الكلمات وكان ينبغي أن يُشار إلى أنّ الإمام ﷺ في هذه الكلمات كان بصدد الإشارة إلى القضايا السياسية (الكاتب).

٢. بحارالأنوار، كتاب الروضة، أبواب المواعظ والحكم، باب ٢١، ح ١.

٣. برأيي يمكن أن نجد من قبيل هذا البيان في كلمات الإمام السجّاد وكذلك في كلمات سائر الأئمّة وهو في كلماتهم كثير. وقد وجدتُ مثل هذا الكلام في حياة الإمام الصادق صلوات‌الله‌عليه، وكذلك في حياة الإمام الباقر ﷺ وأيضًا في حياة أربعة من الأئمّة اللاحقين بحدٍّ أدنى. حتى أنّ علامة تشكيل المنظّمة والتشكيلات الإسلامية قد وجدت أصولها في كلمات أميرالمؤمنين ﷺ، وليس هنا المجال للبحث والتفصيل فيه (الكاتب).

الّتي تربط بينهم في ذلك النّظام. هذا نوعٌ آخر من كلمات الإمام السجّاد الّتي تلفت الأنظار.

ونوع آخر نجده في الصحيفة السجّادية، وهذا الأمر يتطلّب بحثًا مفصّلًا ربّما هو عمل أولئك الّذين يعملون في هذا المجال. فالصحيفة السجّادية تتضمّن مجموعة من الأدعية في كافّة المجالات الّتي ينبغي أن يلتفت إليها الإنسان اليقظ والفطن. وأكثرها في الروابط والعلاقات القلبية والمعنوية للإنسان. في هذه الأدعية والمناجاة، توجد مطالب معنوية وتكاملية كثيرة لا حصر لها. والإمام عليه السلام وضمن هذه الأدعية وبلسان الدعاء يحيي الدوافع نحو حياة إسلامية في أذهان الناس ويوقظها. إحدى النتائج الّتي يمكن أن تحصل من الأدعية، وقد ذكرناها مرارًا، هي إحياء الدوافع السليمة والصحيحة في القلوب. فعندما ندعو: «اللهمّ اجعل عواقب أمورنا خيرًا» فإنّ هذا الدعاء يحيي في قلوبكم ذكر العاقبة ويدفعنا للتفكّر في المصير. فقد يغفل الإنسان أحيانًا عن عاقبته، يعيش ولا يلتفت إلى مصيره. فإذا تلا هذا الدعاء يستيقظ لضرورة تحسين عاقبته. أما كيف يتمّ ذلك، فهذا بحثٌ آخر. فقط أردت أن أضرب مثلًا حول الدور الصادق للدعاء. وهذا الكتاب المليء بالدوافع الشريفة للأدعية كاف لإيقاظ المجتمع وتوجيهه نحو الصلاح. وإذا تجاوزنا ذلك، وجدنا روايات قصيرة وعديدة نُقلت عن الإمام السجّاد عليه السلام، منها ما ذكرته سابقًا: «أوَلا حرٌ يدع هذه اللماظة لأهلها». انظروا كم هو مهمٌّ هذا الحديث. فالزخارف الدنيوية والزبارج كلّها بقية لعاب الكلب لا يتركها إلّا الحرّ. وكلّ أولئك الّذين يدورون في فلك عبدالملك المروان إنّما يريدون تلك اللماظة. وأنتم أيها المؤمنون لا تنجذبوا إليها. ونجد الكثير مثل هذه الكلمات الثورية والملفتة في خطب الإمام السجّاد عليه السلام، سنتعرض لها فيما بعد إن شاء الله. لقد كان الإمام السجّاد عليه السلام شاعرًا، وشعره يحتوي على معانٍ مهمّة سوف نذكرها لاحقًا إن شاء الله. مجلة باسدار إسلام، ج١٠

تكتيك بداية المرحلة الثالثة لحركة الأئمّة عليهم السلام

من المقاطع المهمّة لحياة الإمام السجّاد عليه السلام هي أن نرى أنّه هل كان يتصرّف بطريقة اعتراضية

عدائية تجاه جهاز الخلافة أم لا؟ لقد أشرت باختصار في الأبحاث السابقة إلى هذا الموضوع وهنا سوف أوضح أكثر.

بالقدر الّذي اطّلعت فيه على حياة الإمام السجّاد عليه السلام والّذي ما زلت أذكره، أنّه لا توجد مواجهة أو تعريض صريح وقاطع ضدّ الحكم، من قبيل ما نشاهده في حياة بعض الأئمّة الآخرين، كالإمام الصادق عليه السلام في عصر بني أميّة، أو الإمام موسى بن جعفر عليه السلام.

وسببه واضح، لأنّ مثل هذا التحرّك الشديد الّذي كان في بداية حركة الأئمّة عليهم السلام والذي كان في المرحلة الثالثة من المراحل الأربع للإمامة، والّتي تبدأ في حياة الإمام السجّاد عليه السلام، سوف يعرّض قافلةَ أهل البيت عليهم السلام الّتي تحمل أعباء مسؤولية الرسالة للخطر الّذي يعوق تحقيق المقصد. ففي ذلك الوقت لم يكن بستان أهل البيت الّذي تعهّد الإمام السجّاد عليه السلام بتربيته ورعايته وسقايته قد استحكمت غصونه وأشجاره، بحيث يقدر على تحمّل الأعاصير الشديدة. وكما أشرت في بداية هذا البحث، فقد كان عدد المحبّين والموالين لأهل البيت عليهم السلام ممّن يحيطون بالإمام السجّاد عليه السلام قليلًا جدًّا، وفي ذلك العصر لم يكن من الممكن لأولئك الّذين سيتحمّلون مسؤولية التنظيمات الشيعيّة أن يواجهوا خطر العدوّ الجائر الّذي كان يهدّدهم بالإبادة.

وإذا أردنا أن نمثّل، ينبغي أن نشبّه عصر الإمام السجّاد عليه السلام هذا، بمرحلة بدء الدعوة الإسلامية في مكّة وهي المرحلة السريّة. ولعلّه يمكن تشبيه عصر الإمام الباقر عليه السلام بالمرحلة الثانية في مكّة، حين أصبحت الدعوة علنيّة. والمراحل الّتي أتت من بعدها يمكن تشبيهها بالمراحل اللاحقة للدعوة. ولهذا فإنّ المواجهة في تلك المرحلة لن تكون صحيحة.

ومما لا شكّ فيه أنّنا إذا لاحظنا المواجهات الحادّة في بعض كلمات الإمام الصادق والإمام الكاظم والإمام الرضا عليهم السلام، فيما لو صدرت عن الإمام السجّاد عليه السلام، فإنّ عبدالملك بن مروان الّذي كان في أوج قدرته يستطيع وبكلّ سهولة أن يطوي بساط تعاليم أهل البيت عليهم السلام، ليبدأ العمل من جديد. وهذا ليس عملًا عقلانيًا ومؤائمًا للقطع والثبات. لكن و على كلّ حال، يمكن أن نشاهد في ثنايا كلمات الإمام زين العابدين عليه السلام، والّتي ترجع على وجه الاحتمال إلى أواخر

حياته الشريفة وطيلة مدّة إمامته، إشارات أو مظاهر لتعرّضه ومواجهته لنظام الحكم[١].

كانت تلك المواجهات تظهر بعدّة أشكال. وأحد أشكالها هو ما لاحظناه في تعامل الإمام السجّاد عليه السلام مع محمّدبن‌شهاب الزهريّ. والشكل الآخر، يظهر من خلال بيان موقف الخلفاء الأمويّين و مكانتهم على ضوء التعاليم والإرشادات الدينيّة العاديّة. ويوجد حديث عن الإمام الصادق عليه السلام يقول فيه: «إنّ بني أمية أطلقوا للناس تعليم الإيمان ولم يطلقوا تعليم الشرك حتّى إذا حملوهم عليه لم يعرفوه»[٢]. فبنو أميّة كانوا يسمحون للعلماء وأهل الدين، ومن جملتهم الأئمّة عليهم السلام، بالتحدّث حول الصلاة والحجّ والزكاة والصيام والعبادات، وكذلك حول التوحيد والنبوّة والأحكام الإلهيّة. لكنّهم لم يسمحوا بالبحث في مفهوم الشرك ومصاديقه وأمثلته في المجتمع.

تلك التعاليم المرتبطة بالشرك لو دُرِّست للناس، لفهموا مباشرة من هم المشركون، وأنّ ما يحملهم عليه بنو أميّة ليس إلّا الشرك. ولعلموا فورًا أنّ عبدالملك والخلفاء الباقين من بني أميّة هم طواغيت يبارزون الله، وأنّ إطاعتهم تُعدّ شركًا بالله. ولهذا لم يكونوا ليسمحوا بتعلّم هذه المفاهيم.

نحن عندما نبحث في الدين الإسلاميّ حول التوحيد، فإنّ قسمًا مهمًّا من هذا البحث يرتبط بمعرفة الشرك والمشرك، ما هو الصنم؟ ومن هو الّذي يعبد الأصنام؟

وللمرحوم العلّامة المجلسيّ رحمه الله في بحارالأنوار[٣] نصٌّ رائع يقول فيه: «إنّ آيات الشرك ظاهرها في الأصنام الظاهرة، وباطنها في خلفاء الجور الّذين أشركوا مع أئمّة الحقّ ونصّبوا مكانهم». فأئمّة الحقّ هم خلفاء الله وهم ينطقون عن الله، ولأنّ خلفاء الجور قد نصّبوا أنفسهم مكانهم وادّعوا الإمامة، فقد أصبحوا أصنامًا وطواغيت، فكلّ من يطيعهم يُعدّ مشركًا بالله.

وللعلّامة بعد هذا شرح قيّم؛ فهو يبيّن أنّ الآيات القرآنية ليست مختصّة بعصر الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، بل هي سارية وجارية في كلّ العصور والأزمان: «فهو يجري في أقوام تركوا طاعة

---

١. أشير هنا إلى أنّ ما بحثناه في هذا الفصل هو غير ذلك التعامل المعارض للإمام السجّاد مع يزيد وجهاز خلافة آل أبي‌سفيان والذي له بحثٌ آخر وقد بحثت بشأنه في السابق(الكاتب).

٢. الكافي، كتاب الإيمان والكفر، ص ٤١٥، ح ١.

٣. بحارالأنوار، كتاب تاريخ علي‌بن‌الحسين و...، أبواب تاريخ الإمام موسى‌بن‌جعفر، باب ٤، ح ١٠٧.

أئمّة الحقّ، واتّبعوا أئمّة الجور لعدولهم عن الأدلّة العقلية والنقلية واتّباعهم الأهواء، وعدولهم عن النصوص الجلية»[١]. فأنّه لا يمكن لعبدالملك أن يكون حاكمًا على المسلمين وخليفة عليهم، فالناس كانوا يرون أن الحياة الوادعة، المريحة، بعيدًا عن التعرّض للحاكم، لهذا سلكوا هذا النوع من الحياة واتّبعوا أئمّة الجور؛ فلهذا كانوا مشركين.

ومن هنا نرى أنّ الأئمّة عليهم‌السلام إذا أرادوا أن يبيّنوا حقيقة الشرك فإنّهم بذلك يقومون بما يشبه المواجهة مع نظام الحكم. وهذا ما يظهر في كلمات الإمام السجّاد عليه‌السلام.

ونموذج آخر من تلك الأمثلة في المواجهة: ما نشاهده في المكاتبات والرسائل بين الإمام السجّاد عليه‌السلام وعبدالملك (الخليفة الأمويّ المتجبّر)، أشير إلى اثنين منهما هنا:

١ـ الأولى: يكتب عبدالملك رسالة إلى الإمام السجّاد عليه‌السلام يلومه فيها على زواجه من إحدى جواريه؛ وكان للإمام عليه‌السلام جارية أعتقها ثمّ تزوّجها. فشمت به عبدالملك. وكان عمل الإمام عليه‌السلام عملًا إنسانيًا وإسلاميًّا بحتًا. ولكنّ دافع عبدالملك من تلك الرسالة كان التعرّض للإمام عليه‌السلام، وإفهامه بأنّه مطّلع على مسائله الخاصّة، موجّهًا له بذلك تهديدًا ضمنيًا. فأجابه الإمام عليه‌السلام برسالة بدأها بتوجيه أمر الزواج وأنّ العظام يفعلون مثل هذا الأمر، وأنّ رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم قد قام به: «فلا لؤم على امرئ مسلم إنّما اللؤم لؤم الجاهلية»[٢]. وهو يريد أن يذكّره بسوابق أجداده في الجاهلية (من كفرهم وعنادهم)...

عندما وصلت الرسالة إلى عبدالملك، كان ابنه سليمان حاضرًا، وعندما قرأها، سمعه، وسمع ذمّ الإمام وأحسّ به مثل أبيه، فالتفت إليه قائلًا: يا أميرالمؤمنين! أترى كيف يتفاخر عليك عليّ‌بن‌الحسين؟ يريد بذلك أن يحرّض والده على ردّ فعل شديد. ولكنّ عبدالملك كان أعقل من ولده فقال له: لا تقل شيئا يا ولدي! فهذا لسان بني هاشم الّذي يفلق الصخر. (أي أنّ استدلالهم قويّ وقاسٍ).

---

١. م. ن.

٢. بحارالأنوار، كتاب تاريخ علي‌بن‌الحسين و...، أبواب تاريخ سيدالساجدين، باب ٥، ح٩٤.

٢ـ الثانية: المراسلة الأخرى الّتي تمّت بين الإمام السجّاد عليه السلام وعبدالملك، حيث علم عبدالملك أنّ سيف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم موجود عند الإمام عليه السلام. وكان هذا أمرًا ملفتًا لأنّه تذكار النبيّ وباعثٌ على التفاخر، وكذلك فإنّ وجوده يُعدّ خطرًا على الخليفة، لأنّه يجلب أنظار الناس إليه، فكتب إليه يطلب منه تسليم السيف، ووعده بإنجاز ما يريد أي أنّه مستعدٌّ أن يهبه ما يريد.

ردّ الإمام عليه السلام طلبه، فأعاد عبدالملك مرّة ثانية تهديده بوقف حصّة الإمام من بيت المال إن لم يرسل السيف[١]. فأجابه الإمام عليه السلام: «أمّا بعد فإن الله ضمن للمتقين المخرج من حيث يكرهون والرزق من حيث لا يحتسبون وقال جلّ ذكره﴿إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾[٢] فانظر أيّنا أولى بهذه الآية»[٣].

وهذه لهجة قاسية جدًّا تجاه الخليفة، لأنّ تلك الرسالة إذا وقعت بيد أيّ إنسان فسوف يعلم أولًا: أن الإمام عليه السلام لا يعدّ نفسه خوّانًا. ثانيًا: لا يتصوّر أحد هذا الأمر بحقّ هذا الإنسان الجليل الّذي تربّى في بيت النبوّة. وهذا يعني أنّك أنت أيّها الخليفة خوّان وكفور. وإلى هذا الحدّ كان الإمام شديدًا مقابل التهديد. كان هذان نموذجين عن مواجهة الإمام لجهاز الحكم الأمويّ.

وإذا أردنا أن نضيف نموذجًا آخر ينبغي أن ننظر إلى الأشعار الّتي نُقلت عن أصحاب الإمام السجّاد عليه السلام ومحبّيه، فهي تمثّل نوعًا آخر من المواجهة. مواجهة أصحاب الإمام السجّاد عليه السلام ومحبّيه من قبيل الفرزدق ويحيى‌بن‌أم الطويل، كان يُعدّ نوعًا من مواجهة الإمام للنّظام الحاكم ويمكن اعتبار شعر الفرزدق نموذجًا آخر. فقد نقل المؤرّخون والمحدّثون قصّة الفرزدق (ما ملخّصها):

عندما قدم هشام‌بن‌عبدالملك قبل فترة خلافته إلى الحجّ، وأثناء الطّواف أراد أن يتقدّم لاستلام الحجر الأسود، ولكن الحشد الهائل والازدحام الكبير منعه من الوصول، رغم محاولاته المتكرّرة مع أنّه كان ابن الخليفة ومحاطًا بالمرافقين والحراس والحواشي، ولكنّ الناس كانوا يمرّون من حوله دون اكتراث. فيئس من استلام الحجر، وقعد جانبًا منتظرًا انصراف الناس، وكان أصحابه

---

١. في ذلك الزمان كان الناس جميعًا يأخذون حصّتهم من بيت المال وكان الإمام يأخذ حصّته أيضًا مثل غيره.(الكاتب)

٢. سورة الحج، الآية: ٣٨.

٣. مناقب آل أبي‌طالب، ج ٤، باب في إمامة أبي محمد علي‌بن‌الحسين ع، فصل في كرمه وصبره وبكائه.

جالسين حوله. وفي هذه الأثناء يأتي رجل يعلوه الوقار والهيبة، سيماه سيماء الزاهدين ووجهه وجه الملكوتيين، يسطع من بين الحجّاج كالشمس فتنحّى الناس له جانبًا ليمرّ من بينهم ويصل إلى الحجر الأسود فيقبّله ثمّ يرجع للطواف ثانيةً.

فصعب ذلك على هشام كثيرًا، وهو يرى نفسه ابن الخليفة ولا أحد يعطيه أيّة قيمة، بل يبعدونه بالركل والمطاحنة، ثمّ من جانب آخر يظهر رجل يصل إلى الحجر الأسود بكلّ هدوء. فسأل غاضبًا: من هذا؟ وكان حواشيه يعرفون أنّه عليّ‌بن‌الحسين عليه السلام ولكن لئلّا يغضب منهم، لم يقولوا شيئًا، لأنّهم يعلمون بوجود العداء المتجذّر بين بني أميّة وبني هاشم، فلم يريدوا أن يقولوا إنّ هذا كبير العائلة المعادية لكم، والناس يظهرون له كلّ هذا الحبّ والاحترام لأنّهم اعتبروا ذلك نوعًا من الإهانة لهشام.

كان الشاعر، الفرزدق، من المحبيّن لأهل البيت، حاضرًا هناك وقد رأى تجاهلهم وإنكارهم لعليّ‌بن‌الحسين عليه السلام فتقدّم قائلًا: أيّها الأمير، هل تسمح لي بأن أعرّفك به.

فقال هشام: قل، فانطلق لسان الفرزدق بقصيدة من أشهر القصائد الشعرية الّتي قيلت بحقّ أهل البيت، وبدأها بهذا البيت:

هذا الّذي تعرف البطحاء وطأته   والبيت يعرفه والحلّ والحرم[١]

وكانت أبيات هذه القصيدة كوقع السيف على قلب هشام فغضب منه وطرده. و من جانبٍ آخر أرسل إليه الإمام عليه السلام مالًا، فلم يقبله وقال: «ما قلته لله لا أريد عليه مالًا».

وهكذا نشاهد مثل هذه المواجهات عند أصحاب الإمام. ونموذج آخر ما قام به يحيى‌بن‌أمّ الطويل. كان يحيى‌بن‌أمّ الطويل من الشباب ذوي البأس الشديد والشجاعة الفائقة وأحد المخلصين لأهل البيت، وكان يذهب دائمًا إلى الكوفة ويجمع الناس ويصرخ فيهم: «أيها الناس، إنّني كافر بكم ولا أقبل بكم حتّى تؤمنوا بالله»، وهو يقصد أولئك الّذين كانوا يتبعون بني أميّة. ومثل هذه الاعتراضات المتجلّية في حياة الإمام السجّاد عليه السلام وأصحابه كان مشهودًا. مجلة باسدار إسلام، ج١٢

---

١. بحارالأنوار، كتاب تاريخ علي‌بن‌الحسين و...، أبواب تاريخ سيدالساجدين، باب ٨، ح١٣.

مواجهة الإمام عليه السلام مع علماء البلاط

في تتمّة بحثنا حول القضايا المرتبطة بسيرة الإمام السجّاد عليه السلام وأساليبه، نبحث عن الخطط التي كان يرسمها الامام لإيجاد الأرضية المناسبة للحركة الإسلامية العظيمة، الّتي يمكن أن تنتهي بإقامة الحكومة العلويّة والحكومة الإسلاميّة:

ذكرنا ما ملخّصه أنّ أساليب الإمام كانت تتلخص في ثلاثة محاور باختلاف المخاطبين، «التبيين والتوضيح» لبعض «التخطيط والتنظيم» لبعضهم الآخر، و «الهداية والإرشاد» بالنسبة لآخرين. وهكذا يُصوّرُ الإمام السجّاد، من خلال ما قدّمناه، إنسانًا صبورًا سعى خلال ٣٠ أو ٣٥ سنة متواصلة إلى جعل تلك الأرضية غير المساعدة في العالم الإسلاميّ، تتّجه نحو الظروف الّتي يمكن له عليه السلام أو لخلفائه أن يحقّقوا من خلالها تشكيل المجتمع الإسلاميّ، والحكومة الإسلاميّة.

ولو اقتطعنا تلك السنوات الأربع والثلاثين لسعي الإمام السجّاد عليه السلام من حياة الأئمّة، لجزمنا بعدم وصول الأمر إلى الإمام الصادق عليه السلام بتلك الحال الّتي تمكّن معها من التصرّف والتعاطي الصريح والواضح مع الحكم الأمويّ، والعبّاسيّ فيما بعد.

وعليه، فلأجل إقامة المجتمع الإسلاميّ وتحقيقه، لا بدّ من أرضية فكريّة وذهنيّة. وهذا ما يُعتبر أهمّ من أيّ شيء آخر. وقد تطلّب إيجاد هذه الأرضيّة الفكرية والذهنية في تلك الظروف الّتي كانت موجودة في ذلك العصر من العالم الإسلاميّ، سنوات مديدة. فذلك العمل الّذي نهض به الإمام السجّاد عليه السلام قد تحمّل أعباءه الجسيمة وتكاليفه الباهظة.

إلى جانب هذا، نجد في حياة الإمام السجّاد عليه السلام بعض المساعي الأخرى الّتي تدلّ في الواقع على مدى تقدّم الإمام عليه السلام في المجال المذكور. والقسمُ الأعظم من هذه المساعي، سياسيٌّ، وأحيانًا شديد القساوة، وأحد نماذجه مواجهته، وكيفية تعامله مع العلماء التابعين، والمحدّثين الكبار العاملين لصالح النظام الحاكم. ولعلّ أكثر الأبحاث المتعلّقة بحياة الأئمّة إثارةً هو قضيّة تعامل الأئمّة عليهم السلام مع حملة الفكر والثقافة في المجتمع الإسلاميّ (أي العلماء[1] والشعراء).

---

١. عندما نقول «العلماء» فإنّنا نقصد علماء الدين في ذلك الزمان والذين كانوا عبارة عن المحدّثين والمفسّرين والقرّاء والقضاة والزهّاد.(الكاتب)

فهؤلاء أي حملة الفكر، كانوا يتحمّلون مسؤولية هداية الناس في أفكارهم وأذهانهم، وكانوا يوجّهون الناس إلى الوضع الّذي يريده خلفاء بني أميّة وبني العبّاس، و توجيه أفعال الحكام، ودعوة الناس الى طاعة الملوك واستسلامهم أمام الحكومة. فتعامل الإمام السجّاد عليه السلام و الأئمّة عليهم السلام مع هؤلاء، موضوعٌ مثيرٌ للغاية.

كما نعلم، إنّ حكّام الظلم والجور كانوا يرون جذب قلوب الناس إليهم، أهمّ عامل في بقاء ملكهم وسلطانهم. إذ لم يكن الفاصل الزمنيّ بين الناس وبين صدر الإسلام كبيرًا، وبالتالي كان إيمان الناس بالإسلام لا يزال قويًّا. فإذا أدرك الناس أنّ البيعة الّتي قدّموها للحكّام ليست صحيحة، وأنّ هذا الظالم لا يجوز أن يكون خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لو أدركوا ذلك، فبالتأكيد لن يرضوا أن يسلّموه قيادتهم بتاتًا، حتّى لو قلنا إنّ هذا الأمر لا يشمل جميع الناس، فعلى الأقلّ نقول: القدر المسلّم أنّ الكثيرين في المجتمع كانوا يتحمّلون الوضع المنافي للإسلام في الجهاز الحاكم نتيجة الإيمان القلبيّ، إذ إنّهم كانوا يظنّون أنّ هذا وضع إسلاميّ. ولإبقاء هذه الضبابيّة في أذهان الناس، كان حكّام الجور يستغلّون المحدّثين وعلماء الدين قدر الإمكان ويحرّكونهم طبقًا لمصالحهم، فيطلبون منهم وضع الأحاديث واختلاقها ونسبتها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والصحابة الكبار بما يوافق ميولهم وأهواءهم.

في هذا المجال توجد موارد تقشعرّ منها الجلود، ونحن ننقل بعضًا منها كمثال:

في زمن معاوية التقى شخص بكعب الأحبار[١] ـ كان لكعب صلات حميمة مع معاوية وزعماء الشام ـ فسأله كعبُ: من أين أنت؟

ـ من أهل الشام.

ـ لعلّك من ذلك الجيش الّذي يدخل منه ٧٠ ألف جندي إلى الجنّة دون حساب.

ـ من هم هؤلاء؟

---

١. كان كعب الأحبار يهوديًّا أسلم في عهد الخليفة الثاني. وتوجد شكوك كثيرة في الأحاديث المنسوبة إليه، ليس فقط بين الشيعة بل حتّى بين الكثير من أهل السنّة، باعتبار أنّه قد اختلق أحاديث انطلاقًا من عدائه للإسلام. ويوجد من أهل السنّة من يقبل به.

ـ إنّهم أهل دمشق.

ـ كلا، لست من أهل دمشق.

ـ إذًا، لعلّك من ذلك الجيش الّذي ينظر الله إليه كلّ يوم مرّتين!

ـ من هم هؤلاء؟

ـ أهل فلسطين!

وربّما لو قال ذلك الشخص: إنني لست من أهل فلسطين، لأخبره كعب الأحبار أحاديث عن كلّ أهالي بعلبك وطرابلس وبقيّة مدن الشام، بحيث يبينُ له أهل الشام هم الأفضل، وأنّهم أهل الجنّة. وكعب الأحبار كان يختلق هذه الأحاديث ويصفها إمّا تملّقًا لأمراء الشام، حتّى يكون نصيبه أكثر ومنزلته في قلوبهم أعلى، وإمّا بسبب العداء المتجذّر في نفسه للإسلام، باختلاق أحاديث يصعب تمييز أقوال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم.

و في كتب التذكرة والرجال والحديث، الكثير من هذه القصص. منها قصّة ذلك الأمير الّذي أرسل ابنه إلى المدرسة (الكتّاب) وهناك ضربه المدرّس، و عندما رجع الابن باكيًا إلى أبيه وأخبره، غضب الأب وقال: سأذهب وأضع حديثًا على هذه المدرسة حتّى لا يكرّروا فعلتهم هذه.

ومن هذه القصّة نعلم كم كان سهلًا اختلاقُ الأحاديث عندهم، حتّى لو كان بدافع العصبية أو الشفقة على دموع طفل. وعلى أيّة حال فقد كان لهذا الوضع أثرٌ واضح في إيجاد ذهنيّة منحرفة وثقافة بعيدة عن الإسلام. كلّ ذلك بسبب أولئك المحدّثين والعلماء العملاء في خدمة السلاطين والأقوياء. وفي مثل هذا الوضع تُعتبر مواجهة هؤلاء عملًا في غاية الأهميّة.

يوجد هنا نموذج يبيّن كيفية مواجهة الإمام السجّاد عليه السلام لهذا الوضع، وذلك في تعامله مع محمّدبن‌شهاب الزهريّ:

كان محمّدبن‌شهاب الزهريّ[١] في البداية أحد تلامذة الإمام السجّاد عليه السلام المقرّبين، أي أنّه من جملة الّذين تعلّموا عند الإمام ونقلوا الأحاديث عنه، ولكن بالتدريج ـ بسبب التجرّؤ الّذي كان

---

١. وقد يُدعى بمحمدبن‌مسلم الزهري أيضًا، فأحيانًا يُذكر اسمه تحت عنوان شهاب وأحيانًا مسلم، ولعلّ الأوّل اسم والده والآخر لقبه. (الكاتب)

فيه ـ اقترب من نظام الحكم حتّى صار أحد أعوانه و أصبح من زمرة العلماء والمحدّثين الّذين انكره الأئمّة عليهم السلام.

ولأجل أن نطّلع أكثر على وضع الزهريّ ننقل أحاديث بشأنه:

إحدى هذه الأحاديث، ما جاء عنه: «كنّا نكره كتابة العلم، حتّى أكرهنا عليه السلطان فكرهنا أن نمنعه أحدًا»[1]. ويفهم من هذا الحديث أنّه حتّى ذلك الزمن لم يكن متعارفًا بين هذه الطائفة من المحدّثين أنّ كلّ ما يعلمونه من الأحاديث ينبغي أن يكتبوه، وكذلك يتّضح أنّ محمدبن‌شهاب الزهريّ كان في خدمة الأمراء وأنّه كان يُحمل على كتابة الأحاديث الّتي تناسبهم.

أحد الرواة ويُدعى معمرًا، كان يقول: «كنّا نظن أنّنا قد نقلنا من الزهريّ أحاديث كثيرةً إلى أن قُتل الوليد».[2] فعندها رأينا كتبًا كثيرة تُحمل على ظهور الدوابّ وتُخرج من خزائن الوليد ويقال: هذا علم الزهريّ![3] أي أنّ الزهريّ وضع من الأحاديث الّتي تناسب الوليد وأهواءَه ما عجزت عن حمله الرجال. فما حال تلك الأحاديث؟ ممّا لا شكّ فيه أنّها لا تدين الوليد وإنّما تؤيّد أعمال الوليد وأمثاله وتصحّحها.

ويوجد حديثٌ آخر يتعلّق بفترة ارتباط الزهريّ بالنظام الحاكم. فقد روى اليعقوبيّ في تاريخه: «إنّ الزهري يحدّثكم عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: لا تُشدّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجد المدينة والمسجد الأقصى وإنّ الصخرة الّتي وضع رسول الله قدمه عليها تقوم مقام الكعبة»[4].

ويعود هذا الحديث إلى ذلك الزمن الّذي كان عبدالله‌بن‌الزبير حاكمًا فيه على مكّة، والناس الّذين يريدون الحجّ بطبيعة الحال لا بدّ وأن يدخلوا مكّة ـ وهي تحت نفوذ ابن الزبير ـ وكانت تلك الأيّام فرصةً مناسبة له للتبليغ ضدّ أعدائه ـ وخاصّة عبدالملك‌بن‌مروان ـ ومن جانبٍ آخر

---

١. سنن الدارمي، ج١، ص ١١٠.

٢. الوليد هو الولد البكر لعبدالملك‌بن‌مروان والذي تسلّم الخلافة بعده.(الكاتب)

٣. «... فإذا بالدفاتر قد حُملت على الدواب من خزائنه ويُقال هذا من علم الزهري!» (الكاتب)

٤. تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٦١.

بما أنّ عبدالملك كان يدرك خطورة هذا الأمر، ولكي يمنع الناس من الذهاب إلى مكّة رأى أنّ أفضل الطرق، هو وضع أحاديث تبيّنُ أنّ شرف القدس بمنزلة شرف مكّة. ونحن نعلم ـ في العرف والثقافة الإسلامية ـ أنّه لا توجد منطقة في العالم توازي الكعبة شرفًا ومكانةً ولا يوجد حجر في الدنيا يضاهي الحجر الأسود. فكانت تلك الأحاديث المختلقة وسيلة لعبدالملك لكي يدفع الناس للذهاب إلى فلسطين، لأنّ فلسطين جزء من الشام وتحت نفوذ عبدالملك. فإلى أيّ مدى كان لهذه الأحاديث تأثيرٌ في نفوس الناس وأفعالهم؟ وهل حدث في زمن ما، أنّ الناس حجّوا إلى بيت المقدس بدلًا من مكّة؟ ولو حدث ذلك لكان ينبغي أن نعدّ المجرم الأصليّ أو أحد المجرمين محمدبن‌شهاب الزهري الّذي حرّف الأمر في أذهان الناس لأجل مآرب عبدالملك السياسية.

وعندما يصبح الزهريّ تابعًا لجهاز الخلافة، فلن يمنعه شيء من وضع الأحاديث ضدّ الإمام السجّاد عليه السلام والتنظيمات العلويّة، منها ما وجدته في كتاب «أجوبة مسائل جار الله» ـ تأليف المرحوم السيد عبدالحسين شرف الدين ـ حيث يدّعي الزهريّ في رواية أنّ أميرالمؤمنين عليه السلام كان جبريًّا، وينسب إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال في معنى الإنسان في الآية: ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾[1] أنّه أميرالمؤمنين عليه السلام (والعياذ بالله).

في رواية أخرى ينقل أنّ حمزة سيّد الشهداء كان شارب خمر. وإنّما جعل هاتين الروايتين لدعم الجبهة السياسية المتسلّطة ـ لعبدالملك وبني أميّة ـ مقابل أئمّة الهدى عليهم السلام، وبالتالي لنسف عترة النبيّ وسلالته ـ الّذين كانوا يواجهون الأمويين ـ بعنوان أنّهم مسلمون من الطراز الأوّل، ويعرّفهم على أنّهم مثل غيرهم من العوامّ والمقصّرين في تطبيق أحكام الدين!

بالنسبة للزهريّ وأمثاله، فقد وقف الإمام السجّاد عليه السلام موقفًا حازمًا وقاسيًا جدًّا، حيث يلحظ هذا من خلال الرسالة الّتي وجّهها إليه.

وقد يتساءل بعض الناس إلى أي مدى يمكن أن تعكس «الرسالة» هذا الموقف الشديد؟ ولكن بالالتفات إلى شدّة اللهجة في مضمون هذه الرسالة الموجّهة إلى الزهريّ، وكذلك بالنسبة

---

۱. سورة الكهف، الآية: ٥٤.

للجهاز الحاكم، وأنّها لا تنحصر بمحمّدبن‌شهاب، بل كانت تقع في أيدي الآخرين وتنتقل بالتدريج عبر الألسن والأفواه وتبقى عبر التاريخ (كما أنّنا اليوم وبعد أكثر من ١٣٠٠ سنة نتناولها بالبحث)، بالالتفات إلى هذه الأمور، يمكن أن ندرك حجم الضّربة الّتي وُجّهت للقداسة الشيطانية والاصطناعية لمثل أولئك العلماء. لقد كانت الرسالة خطابًا لمحمّدبن‌شهاب، ولكنّها نالت من أشخاص آخرين على شاكلته. ومن المعلوم أنّ هذه الرسالة عندما تقع بأيدي المسلمين، وبالأخصّ شيعة ذلك العصر، وتنتقل عبر الأيدي فأيّ سقوط لهيبة هؤلاء ومكانتهم ستحدثه في الأعين؟! وهنا ننقل مقاطع من هذه الرسالة:

في البداية يقول عليه السلام: «كفانا الله وإيّاك من الفتن ورحمك من النار». في الجزء الثاني من هذه الجملة، نجده يخصّه بالخطاب، لماذا؟ لأنّ كلّ إنسان يتعرّض للفتن، حتّى الإمام السجّاد عليه السلام ولكن دون أن يسقط فيها. ومحمّدبن‌شهاب يتعرّض للفتنة ولكنّه سقط. أمّا بالنسبة لنار جهنّم فإنّها لا تقترب من الإمام زين العابدين عليه السلام، ولهذا خصّ الكلام هنا بالزهريّ. وابتداء الرسالة بمثل هذه اللهجة دليل على تعامل الإمام عليه السلام معه بطريقة تحقير ومعاداة. ثمّ يقول عليه السلام: «فقد أصبحت بحال ينبغي لمن عرفك بها أن يرحمك». دققوا، لمن الخطاب في هذه الجملة؟

إنّها موجّهة لشخص يغبطه الجميع على حاله، فهو أحد العلماء الكبار المقرّبين للنظام الحاكم، بينما نجد الإمام عليه السلام يصفه ضعيفًا ووضيعًا.

بعد ذلك يشير الإمام عليه السلام إلى النّعم الّتي حباه الله بها، والحجج الّتي أتمّها عليه، ثمّ يقول إنّه مع وجود تلك النّعم من الله، هل تستطيع أن تقول كيف قد أدّيت شكرها؟

ويذكر جملة من آيات القرآن ويقول إنّ الله تعالى لن يرضى أبدًا عن قصورك وتقصيرك، لأنّه سبحانه قد أمر العلماء بتبيين الحقائق للناس: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ﴾[1].

وبعد هذه المقدّمة يحمل عليه بطريقة قاسية جدًا بقوله عليه السلام: «واعلم أنّ أدنى ما كتمت، وأخفّ ما احتملت، أن آنست وحشة الظالم، وسهّلت له طريق الغيّ بدنوّك منه حين دنوت،

١. سورة آل عمران، الآية: ١٨٧.

وإجابتك له حين دُعيت». ويظهر هذا الكلام الّذي يطرحه الإمام بشكل واضح ارتباطه بجهاز السلطة. «إنّك أخذت ما ليس لك ممّن أعطاك». «ودنوت ممن لم يردّ على أحدٍ حقًّا ولم تردّ باطلًا حين أدناك»، (وهو الخليفة الظالم) فبأيّ عذرٍ تبرّر عدم إرجاعك الحقوق الضائعة وإزالة المظالم الكثيرة؟ «وأحببت من حادّ الله».

والجملة المؤثّرة جدًّا في هذه الفقرة عندما يقول عليه السلام: «أوليس بدعائه إيّاك، حين دعاك، جعلوك قطبًا أداروا بك رحى مظالمهم، وجسرًا يعبرون عليه إلى بلاياهم، وسلّمًا إلى ضلالتهم داعيًا إلى غيّهم سالكًا سبيلهم، يدخلون بك الشكّ على العلماء ويقتادون بك قلوب الجهّال إليهم؟». ثم يقول: «فلم يبلغ أخصّ وزرائهم ولا أقوى أعوانهم إلا دون ما بلغت من إصلاح فسادهم»[1].

وفي هذه الرسالة الشديدة اللهجة والبليغة يفضح الإمام السجّاد هذا التيار الفكريّ والعلميّ التابع للسلطة والحكم والّذي يتحرّك بدعمٍ سياسيٍّ وحكوميٍّ اجتماعيّ. فأولئك الّذين قبلوا مهادنة النظام، أصبحوا مطالبين بالإجابة عن السؤال الّذي بقي في المجتمع الإسلاميّ في ذلك الزمان وسوف يبقى عبر التاريخ.

إنّني أعتبر هذه إحدى المقاطع المهمّة من حياة الإمام السجّاد عليه السلام، وأشعر بأنّه عليه السلام لم يكتفِ بتحرّك علميّ وتربويّ محدود بين جماعة خاصّة، بل قام بحركة سياسية. مجلة باسدار إسلام، ج۱۱

كان هذا مختصرًا لحياة الإمام السجّاد عليه السلام. وهنا بالطبع أشير إلى هذه النقطة أيضًا: فرغم أنّ مرحلة إمامة الإمام السجّاد عليه السلام الّتي امتدّت إلى أكثر من ۳٤ سنة كانت بعيدة عن المواجهة المباشرة للنظام الحاكم، ولكن نشر بساط الإمامة الواسع وتعليم العديد وتربية أفراد من المؤمنين والمخلصين ونشر دعوة أهل البيت عليهم السلام كان من أعظم إنجازاته. وهذا ما جعل بني أميّة يمقتون الإمام ويتعرّضون له. وكانوا من قبل قد جرّوه بالأصفاد والأغلال من المدينة إلى الشام ـ ولم يحدث هذا في كربلاء فقط وإنّما تكرّر في زمن آخر أيضًا ـ وقد تعرّضوا له في موارد عديدة، وآذاه أعوانهم حتّى وصل بهم الأمر سنة ۹٥ للهجرة في زمن الوليدبن عبدالملك إلى تسميمه فرحل إلى جوار ربّه شهيدًا. مجلة باسدار إسلام، ج۱۲

۱. بحارالأنوار، كتاب الروضه، أبواب المواعظ و الحكم، باب ۲۱، ح ۲.

الفصل التاسع

الإمام الباقر عليه السلام

مرحلة البناء الفكري والتنظيمي

إنّ مرحلة حياة الإمام الخامس، الإمام الباقر عليه السلام، هي استمرارٌ منطقيّ لحياة الإمام السجّاد عليه السلام. فها هم الشيعة مرّة أخرى يصبحون جماعةً ويشعرون بوجودهم وشخصيّتهم. إنّ الدعوة الشيعيّة الّتي توقّفت لعدّة سنوات على أثر حادثة كربلاء والأحداث الدموية الّتي تلتها ـ كواقعة الحرّة وثورة التوّابين ـ وبسبب بطش الأمويين، لم تكن تظهر نفسها إلا تحت الأستار السميكة، ها هي اليوم في العديد من الأقطار الإسلاميّة، خاصّة في العراق والحجاز وخراسان، تتجذّر وتستقطب شرائح كبيرة، وحتّى أنّها في الدوائر المحدودة أضحت رابطةً فكرية وعملية يمكن التعبير عنها بالتشكيلات الحزبية. وولّت تلك الأيّام الّتي قال الإمام السجّاد عليه السلام عنها إنّ أتباعه ما كانوا يزيدون فيها على عشرين شخصًا في كلّ الحجاز[1]. وأضحى الإمام الباقر عليه السلام يدخل مسجد النبيّ في المدينة فيلتفّ حوله جمعٌ غفير من أهل خراسان وغيرها من أصقاع العالم الإسلامي، يسألونه عن القضايا الفقهيّة، ويفد عليه أمثال طاووس اليمانيّ، وقتادةبن‌دعامة، وأبوحنيفة، وآخرون من المشهورين بالمعارف الدينية. وبالطبع، ممّن يُعتبرون خارج التوجّه الإماميّ والشيعيّ. وقد سمعوا صدى علم الإمام الذائع وأقبلوا عليه للتعلّم أو للاحتجاج والمجادلة. وبرز شاعرٌ كالكُميت الأسدي بذلك اللسان الفصيح والفنّ العابق، ليترك أهم آثاره الفنّية وهي القصائد الّتي عُرفت بالهاشميّات

---

١. بحارالأنوار، كتاب تاريخ علي‌بن‌الحسين، أبواب تاريخ سيدالساجدين، باب ٨، ح ٢٥.

وأضحت تنتقل من يدٍ إلى يد ومن لسانٍ إلى لسان، يتعرّف الناس بها على حقّ آل محمّد وفضل علمهم ومقاماتهم المعنوية. من جهةٍ أخرى، فإنّ خلفاء بني مروان أحسّوا خلال هذه الفترة بنوعٍ من الطمأنينة، وشعروا بالاستقرار بعد أن استطاع عبدالملك بن مروان ـ المتوفّى سنة ٨٦ هـ.ق. ـ خلال فترة حكمه الّتي استمرّت عشرين عامًا أن يقمع كلّ المعارضين. وقد يعود شعور الخلفاء المروانيّين في هذا العصر بالأمن والاطمئنان، إلى أنّ الخلافة وصلتهم غنيمة باردة، لا كأسلافهم الّذين كدحوا من أجلها مما أدّى إلى انشغالهم باللهو والملذّات الّتي تصاحب الشعور بالاقتدار والجاه والجلال. مهما يكن الأمر، فإنّ حسّاسيّة خلفاء بني مروان تجاه مدرسة أهل البيت قد قلّت في هذا العصر، وأصبح الإمام عليه السلام وأتباعه في مأمن تقريبًا من مطاردة الجهاز الحاكم. القائد الصادق

كان من الطبيعي أن يقطع الإمام عليه السلام خطوة رحبة في ظلّ هذه الظروف على تحقيق أهداف مدرسة أهل البيت، ويدفع بالتشيّع نحو مرحلةٍ جديدة. وهذا ما يميّز حياة الإمام الباقر عليه السلام.

لقد قيل الكثير بشأن الإمام الباقر عليه الصلاة والسلام، غاية الأمر أنّني سأكتفي بنقطتين من حياته. إحداهما، عبارة عن مواجهته لتحريف المعارف الإسلاميّة والأحكام؛ هذا الشيء الّذي حدث في عصر الإمام الباقر عليه السلام بصورةٍ أوسع وأكثر تفصيلًا من أيّ زمانٍ آخر؛ فماذا تعني مواجهة التحريف؟ المقصود من مواجهة التحريف هو أنّ دين الإسلام المقدّس بمعارفه وأحكامه، وبآيات القرآن الّتي حدّدت للمجتمع الإسلامي خصائص وشروط، بل لكلّ العالم وحياة البشر، لو عرفها الناس وتمسّكوا بها لما أمكن تحمّل بعض الأشياء الموجودة في المجتمع الّذي يُدعى إسلاميًا، كحكومة الظالمين مثلًا، أو حكومة الفسّاق والفجّار، أو حكومة الجهلاء بالدين، فكلّ ذلك لا يمكن تحمّله. التمييز والتقسيم غير العادل للثروة في المجتمع لا يمكن تحمّله، والكثير من هذه المفاسد الّتي كانت في المجتمعات الإسلامية، فمثل هذه الأمور لا يمكن أن تنسجم مع الأحكام الإسلامية والنظام الإسلامي.

بعض السلاطين والحكّام الّذين أمسكوا بزمام السلطة تحت عنوان خلافة النبيّ ـ كبني أميّة وآل مروان ـ هؤلاء لم يكونوا لائقين بأيّ شكل لحكومة المجتمع الإسلامي، وفي زمن حكومتهم

أظهروا أنواع الفسق والظلم والفساد والتمييز، وباختصار ابدعوا الانحرافات المختلفة. لو كان من المقرّر تبيان الأحكام الإسلامية والآيات القرآنية كما هي للناس، لما كان لهؤلاء أن يستمرّوا في الحكم والإمساك بالسلطة، لهذا قاموا بعملية التحريف، وقد فعلوا ذلك من عدّة طرق. أحدها هو أن خدعوا بعض الفقهاء والحكماء والمحدّثين والقرّاء والوجهاء وأمثالهم وجعلوهم إلى جانبهم، يعطونهم المال أو يخوّفونهم. فحملوا البعضَ طمعًا أو خوفًا لترويج ما يحلو لهم بين الناس. لهذا، لو نظرتم إلى تاريخ القرنين الأوّلين للإسلام، لرأيتم مشهدًا عجيبًا، لرأيتم من الشخصيات المعروفة بالقداسة والتقوى والعلم الكثير، ممّن صاروا في خدمة الحكّام وأمراء الجور، ممّن كانوا يفتون الناس بأحكام عجيبة وغريبة تحت عنوان الإسلام. انظروا، كنموذج، أيّ حكمٍ هذا الّذي ينطق به عالمٌ بهذا الشكل، حيث يعتبر أنّ أولي الأمر، الّذين أمرنا الله تعالى والقرآن بطاعتهم، هم كلّ شخص يتسلط على الناس بأية وسيلة، حتّى ولو كان ذلك بالمكر والحيلة والسيف والقهر والقتل، فإنّه يستطيع أن يحكم الناس؛ فسّروا «أولي الأمر» بهذا التفسير.

إنّ هذا الفهم بعيدٌ عن العقل، وغير صحيحٌ، بحيث لو لم يتم ربطه بالإسلام وبأصلٍ اعتقاديّ وإيمانيّ عند الناس، لما قبِل به أحد. لكنّ هؤلاء جاؤوا وربطوه بالإسلام وذكروا الكثير من هذه الأمور، نجد منها الكثير في القرنين الأوّلين للإسلام. ولقد كان هؤلاء الحكّام يصحبون هذه الشخصيات البارزة، أينما ذهبوا، في مكّة والمدينة، ويعرضونهم على الناس في الاجتماعات العامّة ويجعلونهم وسيلة لتأييدهم ... لقد كان هذا من طرق تحريف الدين؛ كان أمثال هؤلاء المتظاهرين بالعلم والفقاهة والقداسة والزهد في خدمة الحكّام الّذين كانوا يقدّمون كلّ ما يحلو لهم أن يعتقد به الناس تحت عنوان الدين. وبعض هذه الأمور ما زالت موجودة في الكتب اليوم، وللأسف إنّ الكثير من المسلمين ما زالوا يعتقدون بهذه الأشياء.

كان هذا أحد طرق التحريف، حيث إنّ الحكّام عندما كانوا يمسكون بزمام السلطة ويجلسون على أريكة القدرة، يشعرون أنّ كلّ ما يقولونه، يجب على الناس أن يقبلوا به. فأيّة كلمةٍ أو فكرةٍ أو أصلٍ كانوا يعرضونه تحت عنوان الإسلام ويحوّلوه إلى ثقافةٍ رائجةٍ وينشرونه على مستوى العالم

الإسلامي، ليُنشر ويتكرّر ويُنقل من لسانٍ إلى لسان حتّى يشكّل الذهنية العامّة. مثلما أنّ بعض زعماء جهاز عبدالملك، كالحجّاج وأمثاله كانوا يعتقدون، أو هكذا يظهرون، أنّ الخلافة أفضل من النبوّة، فهؤلاء ما كانوا مقتنعين بأنّ عبدالملك‌بن‌مروان وأولاده وأولئك الفسقة والفجرة أن يكونوا تحت عنوان خلافة النبيّ، حيث كانت هذه العمامة أوسع بكثير من رؤوسهم، وذاك اللباس لم يكن ملائمًا لقامتهم؛ وكانوا غاصبين لهذا العنوان، لكنّهم لم يكتفوا بذلك، بل أرادوا أن يدّعوا أنّ الخلافة أفضل من النبوّة... لقد وقعت تلك التحريفات في الدين، وقد كان العامل الأساسيّ لاستمرار سلطة بني أميّة وبني العبّاس والمانع الأساسيّ لحكومة الإسلام الحقّة، هو تلك الثقافة الخاطئة الّتي سيطرت على أذهان عامّة الناس.

ها هنا يريد الأئمّة عليهم‌السلام أن يقيموا الحكومة الإسلامية الصحيحة، يريدون أن يأتوا بالنظام العلويّ؛ فماذا يفعلون؟ إنّ أوّل خطوة هي تبديل الذهنيّة العامّة، فعليهم أن يبدّلوا تلك الثقافة، الّتي يُصطلح عليها بأنّها إسلامية، والّتي كانت قد رسخت في أذهان الناس، إلى ثقافةٍ إسلامية صحيحةٍ وإلى القرآن الحقيقي، والتوحيد الواقعي، هذه هي المواجهة الثقافية. فالمواجهة الثقافية لا تعني الجلوس وبيان بعض أحكام الإسلام، من دون توجّهٍ إلى المسار الثوريّ و الجهاديّ، فهذه ليست مواجهة؛ بل المواجهة الثقافية تعني، السعي لتبديل الذهنية العامّة والثقافة الحاكمة على عقول الناس، لكي يتمّ تعبيد الطريق باتّجاه الحكومة الإلهية، وسدّ السبيل على حكومة الطاغوت والشيطان. وقد بدأ الإمام الباقرعليه‌السلام هذا العمل. هذا هو باقر علم الأوّلين، فهو باقر، وفاتح الحقائق القرآنية، فهو من يبقر طرائق الحقائق القرآنية ويشقّ العلوم الإسلامية. كان يبيّن القرآن للناس، لهذا كان كلّ من يحتكّ بنفس الإمام الباقر عليه الصلاة والسلام، ولم يكن تابعًا ولا خاضعًا ولا مشاركًا لمعلفهم، يبدّل رأيه بالنسبة لوضع حاكميّة الزمان. لهذا، نجد أنّ الكثير من الناس، ممّن هم من الطبقة الوسطى، في زمن الإمام الباقرعليه‌السلام، كانوا يقبلون على مدرسة أهل البيت ومذهب الإمامة، وما هو رائجٌ في عرف اليوم تحت عنوان التشيّع. التشيّع هو هذا، أي اتّباع أهل البيت من أجل إقامة الحاكمية الحقيقية للإسلام، وإعلاء كلمة القرآن، وبيان المعارف القرآنية وتطبيقها بين

الناس. وكلّ من كان يتّصل به الإمام الباقر عليه السلام ويبيّن له المسائل، كان يتبدّل تفكيره. لقد كان هذا هو العمل الأوّل للإمام الباقر عليه السلام الّذي يُعدّ عملًا مهمًّا وأساسيًّا وهو أهم ما قام به عليه السلام.

الأمر الآخر الّذي قام به الإمام الباقر عليه السلام، كان عبارة عن ايجاد تنظيم؛ فماذا يعني هذا؟ أي أنّ المرء يقوم بنشر تلك المعارف وذلك التغيير الثقافي والمواجهة الثقافية داخل المجتمع كبذرٍ ينثره الإنسان في الأرض هنا وهناك. حسنٌ، فإنّ بعض هذا البذر سيُنبت وبعضه سيموت، وبعض ما ينبت سيُداس عليه ويزول، ولعلّ بعضه لن يثمر كثيرًا، هذا هو حال البذر. وبعض الأحيان، كلا، فذلك المزارع الماهر الخبير والعاقل، بالإضافة إلى أنّه يبذر الحبوب، فإنّه يحافظ عليها؛ فكيف يفعل ذلك؟ من خلال تجهيز أشخاصٍ وبعثهم في أرجاء العالم الإسلامي من أجل القضاء على الشبهات الّتي وقع فيها أولئك الّذين تأثّروا بذلك الإعلام والتعاليم، فيحصلون على المزيد من المعرفة ولا يقعون تحت تأثير إلقاءات العدوّ، فلا يشتبه عليهم الأمر ويحافظون على علاقاتهم فيما بينهم، فيكون ذلك ضمانًا كافيًا لينمو ذلك الحبّ سالمًا في أرضٍ مستعدّة وخصبة.

وقد كان هذا الأمر من أعمال الإمام الباقر عليه السلام، حيث كان يربّي أشخاصًا ويعدّهم ويخصّهم بالعناية ـ التلامذة الخواص ـ ثم يربطهم ببعضهم، ويبثّهم في أرجاء العالم الإسلامي كأقطاب وأركان ووكلاء ونوّاب ليتابعوا ما قال به، ويتحمّلوا أعباء التبليغ والتعليم الّذي قام به. وهذا التنظيم السرّي للإمام الباقر عليه السلام، كان قد بدأ قبل زمانه، لكنّه تفاقم وازداد في زمانه، وبالطبع وصل في زمن الإمام الصادق والإمام موسى بن جعفر عليه السلام إلى أوجه؛ لقد كان هذا عملًا آخرًا وهو شديد الخطورة.

لهذا ترون في الروايات كيف أنّ بعض أصحاب الإمام الباقر عليه السلام، يُعرفون بأصحاب السرّ، كجابر بن يزيد الجعفيّ، وجابر الجعفيّ. فجابر الجعفيّ كان من أصحاب السرّ؛ فماذا يعني ذلك؟ يعني إنّه من أولئك الّذين كانوا يتواجدون في أرجاء العالم الإسلامي وفي كلّ الأماكن، ممّن يتحمّلون مسؤولية هداية المريدين والمحبّين، والأخذ بأيديهم وإشباع أذهانهم. وكان الجهاز الحاكم أينما وجد هؤلاء يعرّضهم لأنواع الضغط والقمع. ١٩٨٧/٧/٣١

بمطالعةٍ مختصرة يمكن تلخيص مراحل إمامة الإمام الباقر الّتي امتدّت إلى تسعة عشرة سنة

ـ من عام ٩٥ للهجرة إلى عام ١١٤ ـ بالشكل التالي: لقد اختاره أبوه الإمام السجّاد عليه السلام في آخر لحظات عمره، كإمامٍ للشيعة وخليفةٍ له، وقد سجّل هذا التنصيب في محضر سائر أبنائه وأقاربه. وأراه صندوقًا بحسب الروايات مليئًا بالعلم أو حاويًا لسلاح رسول الله وقال: «يا محمّد احمل هذا الصندوق إلى بيتك»، ثمّ يتوجّه بالخطاب إلى الآخرين: «لا يوجد في هذا الصندوق من الدرهم والدينار شيءٌ، بل هو مليءٌ بالعلم»[١]، وكأنّه بهذا الموقف، وبمثل هذا التعبير، عرّف الحاضرين على إرث النبيّ و هي، القيادة العلميّة والفكريّة ـ العلم ـ والقيادة الثوريّة ـ سلاح النبي ـ .

من اللحظات الأولى، اتّخذ السعي الوسيع والشامل للإمام وأتباعه المخلصين، مطلعًا جديدًا في إشاعة دعوة التشيّع الهادفة. إنّ اتّساع نطاق هذه الدعوة كان ـ بالإضافة إلى المناطق الّتي يسكنها الشيعة، كالمدينة والكوفة ـ يشمل مناطق جديدة، وخصوصًا تلك القطاعات من الدولة الإسلاميّة الّتي كانت بعيدةً عن مركز حكومة بني أميّة، لتُضاف بذلك إلى نطاق طراز الفكر الشيعي؛ ويمكن ذكر خراسان في هذا المجال أكثر من غيرها، حيث نشاهد نفوذ التبليغ والدعوة الشيعيّة في أهل تلك المناطق في الروايات العديدة[٢].

إنّ ما يدفع الإمام وأتباعه نحو هذه الحركة الّتي لا تعرف السكون، في كلّ هذا السعي المجهد ويدعوهم للقيام بهذا التكليف الإلهيّ، هو الواقع الاجتماعي المؤسف. وهم يرون أمام أعينهم أناسًا غرقوا في تيّار الفساد العام للمجتمع على أثر التربية المضلّة والمخرّبة واشتدّ يومًا بعد يوم، شيئًا فشيئًا وصل الأمر إلى حيث أنّ عامّة الناس لم يعودوا يستمعون إلى الدعوة المنجية للإمامة، فكانت احوالهم كحال الزعماء والمسؤولين، «إن دعوناهم لم يستجيبوا لنا»[٣]، ومن جانبٍ آخر لم يعد هناك في هذا التيّار الانحرافيّ ـ الّذي أصبح كلّ شيء فيه، حتّى الدرس والبحث والفقه والكلام والحديث والتفسير لمصلحة أماني ورغبات الطواغيت الأمويين ـ أيّ أمل مفتوح لهم،

---

١. بحارالأنوار، كتاب تاريخ علي بن الحسين و...، أبواب تاريخ ابي جعفر الباقر، باب ٤، ح ١.

٢. ومنها رواية أبي حمزة الثمالي: «حتى أقبل أبو جعفر عليه السلام وحوله أهل خراسان وغيرهم يسألونه عن مناسك الحج» (بحارالأنوار، ج ٤٦، ص ٣٥٧)؛ وينقل رواية تذكر ما جرى بين أحد علماء خراسان مع عمربن عبدالعزيز وفيها عبرةً بالغة. (بحارالأنوار، ج ٤٦، ص ٣٣٦) (الكاتب)

٣. بحارالأنوار، كتاب تاريخ علي بن الحسين و...، أبواب تاريخ ابي جعفر الباقر، باب ٦، ح ١١.

ولو لم ينهض التشيّع لأجل دعوتهم وهدايتهم، لأُغلق عليهم طريق الهداية كلّيًا، «وإن تركناهم لم يهتدوا بغيرنا »[١].

على أساس الإدراك العميق لهذا الواقع الاجتماعيّ السيّئ، يعلن الإمام موقفه العدائيّ تجاه القوى الفكريّة والثقافيّة المنحرفة، أي الشعراء والعلماء الّذين باعوا أنفسهم ـ والّذين كانوا مختلقي الأجواء غير السليمة على صعيد فكر المجتمع ـ فبتوبيخه هؤلاء، أحدث أمواجًا من التنبيه واليقظة، في أذهان أتباعهم وقلوب الغافلين. وبلهجته المعترضة على كُثير الشاعر يقول: هل مدحت عبدالملك؟! فيجيب بسذاجةٍ أو غفلةٍ وهو بصدد تبرير معصيته، ويقول: لم أخاطبه بإمام الهدى، بل مدحته بكلمات الأسد والشمس والبحر والأفاعي والجبال، فالأسد كلبٌ؛ والشمس جسمٌ جامدٌ، والبحر جسمٌ بلا روح، والأفاعي حشراتٌ، والجبل صخرةٌ صمّاء. وهنا يتبسّم الإمام مقابل هذا العذر والتبرير غير الوجيه، بطريقة ذات مغزى، وهنا ينهض الكُميت ـ الشاعر الثوريّ والهادف ـ وينشد واحدة من قصائده الهاشميّات[٢] ليضع في أذهان الحاضرين معنى المقارنة بين هذين النوعين من العمل الفنّي، ويوصل ذلك إلى كلّ الّذين سمعوا بهذه الواقعة [٣].

عكرمة، التلميذ المعروف لابن عبّاس، والّذي كان يتمتّع بشأنيّة ومقام عظيم بين الناس، يذهب لرؤية الإمام عليه السلام فيتأثر بوقاره ومعنويّاته وشخصيّته الروحية والعلميّة، بحيث يرمي نفسه بدون إرادةٍ بين يدي الإمام عليه السلام ويقول بذهولٍ: لقد جالست عظماء كابن عبّاس، ولم يحدث أن جرى ما جرى معي الآن بين أيديهم. فقال الإمام في جوابه: «ويلك يا عبيد أهل الشام إنّك بين يديّ بيوتٍ أذن الله أن تُرفع ويُذكر فيها اسمه».[٤]

وكان الإمام عليه السلام يستغلّ كلّ فرصةٍ مناسبة لتحريك مشاعر النّاس الغافلين وعواطفهم من

---

١. م. ن.

٢. القصيدة الّتي بدأت بهذا البيت الشعري: من لقلب متيّم مُستهام غير ما صبوة ولا أحلام

ووصلت إلى هذا البيت البليغ والقاصم والمليء بالمعرفة: ساسة لاكمن يرى الناس سواء ورعية الأنعام (الكاتب)

٣. مناقب آل أبي طالب، ج ٤، باب في امامة ابي‌جعفر الباقر، فصل في معالي اموره.

٤. بحارالأنوار، كتاب تاريخ علي‌بن‌الحسين و...، أبواب تاريخ ابي‌جعفر الباقر، باب ٥، ح ٥٩.

خلال بيان زاويةٍ من الوقائع المرّة لحياة الشيعة، وذكر الضغوط وأنواع العنف والتشدّد الّتي كانت تُمارس على الإمام وأتباعه من قبل القوى المهيمنة، وبذلك كان يهزّ عروقهم الميّتة والراكدة، ويزلزل قلوبهم الفاترة، أي أنّه يعدّهم لتلك التوجّهات الشديدة والتحرّكات الثوريّة.

وقد أجاب الامام رجلًا سأله ذات يوم، كيف أصبحت يا ابن رسول الله، «أوما آن لكم أن تعلموا كيف نحن، إنّما مثلنا في هذه الأمة مثل بني إسرائيل، كان يذبح أبناؤهم وتستحيا نساؤهم، ألا وإن هؤلاء يذبحون أبناءنا ويستحيون نساءنا».

وبعد هذا البيان البليغ والمحرّك يجرّ الكلام إلى القضيّة الأساسية ـ أي أولوية الدعوة الشيعيّة وحكومة أهل البيت عليهم‌السلام ـ .

«زعمت العرب أنّ لهم فضلًا على العجم، فقالت العجم: وبماذا؟ قالوا: كان محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم عربي. قالوا لهم: صدقتم، وزعمت قريش أنّ لها فضلًا على غيرها من العرب، فقالت لهم العرب من غيرهم: وبما ذاك؟ قالوا: كان محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم قرشيًا. قالوا لهم: صدقتم؟ فإن كان القوم صدقوا فلنا فضل على الناس، لأنّا ذرية محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم، وأهل بيته خاصة وعترته، لا يشركنا في ذلك غيرنا فقال له الرجل: والله إني لأحبكم أهل البيت عليهم‌السلام. قال: فاتخذ للبلاء جلبابًا، فوالله إنّه لأسرع إلينا وإلى شيعتنا من السيل في الوادي، وبنا يبدأ البلاء ثم بكم، وبنا يبدأ الرخاء ثم بكم»[١].

وعلى نطاقٍ أضيق وأكثر وثاقةً، تمتّعت علاقة الإمام بشيعته بخصائص أخرى. ففي هذه العلاقات نشاهد الإمام وكأنّه العقل المفكّر في جسمٍ حيّ، وفي علاقته مع الأعضاء والجوارح، كقلبٍ نابضٍ في تغذية الأجهزة والأعضاء. إنّ النماذج الموجودة بمتناول أيدينا بشأن علاقات الإمام عليه‌السلام مع هذه المجموعة تشير من ناحيةٍ إلى الصراحة في مجال التعاليم الفكريّة، ومن جهةٍ أخرى تشير إلى الروابط والتشكيلات المدروسة بين هؤلاء والإمام.

ونجد الفُضيل بن يسار[٢]، وهو من أقرب أصحاب سرّ الإمام، يرافقه في مراسم الحج، فينظر

١. الأمالي الشيخ الطوسي، المجلس السادس، ح ٧.
٢. راجع تفصيل مدح الإمام لفضيل في قاموس الرجال، ج ٩٧، ص ٣٤٥-٣٤٣ (الكاتب).

الإمام إلى الحجّاج وهم يطوفون حول الكعبة، ويقول: هكذا كانوا يطوفون في الجاهلية! إنّما أمروا أن يطوفوا بها، ثم ينفروا إلينا فيُعْلمونا ولايتهم ومودتهم، ويعرضوا علينا نصرتهم! ثم قرأ هذه الآية: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾. أي لم يقل: إليها! ويوصي جابر الجعفيّ في أوّل لقاء له مع الإمام عليه السلام أن لا يخبر أحدًا أنّه من الكوفة، بل أن يتظاهر أنّه من أهل المدينة. وبهذه الطريقة يعلّم الإمام عليه السلام مثل هذا التلميذ الحديث الّذي ربّما لديه قابليّات كبيرة لتحمّل أسرار الإمام عليه السلام والتشيّع كما ظهر عليه ذلك من البداية، دروس كتمان السرّ، ونفس هذا التلميذ المستعدّ والّذي يُعرف فيما بعد كأحد أصحاب سرّ الإمام عليه السلام، ويصل به الأمر إلى أن يكون داخل جهاز الخلافة.

يقول النعمان بن بشير: «كنت ملازمًا لجابر بن يزيد الجعفيّ. فلمّا أن كنّا بالمدينة، دخل على أبي جعفر ـ الإمام الباقر عليه السلام ـ ثمّ ودّعه وخرج من عنده وهو مسرور، حيث وردنا ـ الأخيرجة ـ (من نواحي المدينة) يوم جمعة، فصلّينا الزوال، فلما نهض بنا البعير إذا أنا برجل طويل آدم (أسمر) معه كتابٌ، فناوله، فقبّله ووضعه على عينيه، وإذا هو من محمد بن علي (الباقر) إلى جابر بن يزيد، وعليه طين أسود رطب. فقال له: متى عهدك بسيّدي؟ فقال: الساعة، فقال له: قبل الصلاة أو بعد الصلاة؟ فقال: بعد الصلاة. فقال: ففكّ الخاتم وأقبل يقرأه ويقبض وجهه حتّى أتى على آخره، ثم أمسك الكتاب، فما رأيته ضاحكًا ولا مسرورًا، حتّى وافى الكوفة.

يقول النعمان بن بشير: فلمّا وافينا الكوفة ليلًا بتّ ليلتي، فلمّا أصبحت أتيت جابر الجعفيّ إعظامًا له، فوجدته قد خرج عليّ وفي عنقه كعاب قد علّقها وقد ركب قصبة (كما يفعل المجانين) وهو يقول: أجد منصور بن جمهور. أميرًا غير مأمور، وأبياتًا من نحو هذا فنظر في وجهي ونظرت في وجهه فلم يقل لي شيئًا، ولم أقل له، وأقبلت أبكي لما رأيته، واجتمع عليّ وعليه الصبيان والناس، وجاء حتّى دخل الرّحبة، وأقبل يدور مع الصبيان، والناس يقولون: جُنّ جابر بن يزيد. فوالله ما مضت الأيام حتّى ورد كتاب هشام بن عبد الملك إليّ وإليه أن انظر رجلًا يقال له: جابر بن يزيد الجعفيّ، فاضرب عنقه وابعث إليّ برأسه. فالتفت إلى جلسائه فقال لهم: من جابر بن يزيد الجعفيّ؟ قالوا: أصلحك الله كان رجلًا له علم وفضل وحديث، وحجّ فجنّ

وهو ذا في الرّحبة مع الصبيان على القصب يلعب معهم. قال: فأشرف عليه، فإذا هو مع الصبيان يلعب على القصب.

فقال: الحمد لله الّذي عافاني من قتله»[١].

هذا أنموذجٌ من كيفية تعامل الإمام وارتباطه مع أصحابه المقرّبين، وشاهدٌ على وجود العلقة والرابطة المحسوبة بدقّة والتشكيلات؛ وأيضًا هو نموذجٌ حول موقف الحكومة تجاه هؤلاء الأصحاب. من الواضح أنّ أيادي الحكومة ـ والّتي لا تفكّر بأكثر من الحفاظ على نفسها وسلطتها، وترسيخ موقعيّتها ـ لا تبقى في غفلةٍ مطبقة عن علاقات الإمام عليه السلام مع أصحابه المقرّبين وأنشطتهم، ولا شك بأنّهم سيشمّون رائحة مثل هذا الموضوع وسيسعون لكشفه ومواجهته[٢]. وبالتدريج يبرز نهج الاعتراض في حياة هذا الإمام عليه السلام وكذلك في الجوّ الشيعيّ العام، ويبشّر ببداية فصلٍ جديد في تاريخ حياة أئمّة الشيعة.

هذا وإن لم يكن في متون التواريخ الإسلاميّة و كذلك في كتب الأحاديث وغيرها، حديثٌ صريحٌ عن أنشطة الإمام الباقر عليه السلام الاعتراضيّة والحادّة ـ وبالطبع إنّ هذا نفسه ناشئٌ من أسبابٍ وعوامل عدّة، أهمّها القمع المسيطر على الأجواء وضرورة التقيّة من قبل أصحاب الإمام عليه السلام، الّذين كانوا المراجع الوحيدين المطّلعين على مجريات الحياة السياسية للإمام عليه السلام ـ ولكن يمكن دومًا اكتشاف عمق أداء أيّ إنسان من خلال ردود الفعل المحسوبة بدقّة من قبل أعدائه المتيقّظين. إنّ الجهاز المقتدر والمدبّر كجهاز هشام بن عبدالملك الّذي عدّه المؤرّخون أكثر الخلفاء

---

١. قاموس الرجال، ج ٢، ص ٣٢٩-٣٣٠ وبحارالأنوار، ج ٤٦، ص ٢٨٢-٢٨٣ (الكاتب).

٢. والذي يؤيّد هذه الحقيقة بالصراحة، غير حادثة جابر والحوادث الأخرى المشابهة لتلك الرواية، أن عبدالله بن معاوية الجعفري ينقل أيضًا رسالة تهديد حاكم المدينة للإمام الباقر عليه السلام، «روي عن عبدالله بن معاوية الجعفري قال: سأحدثكم بما سمعته أذناي ورأته عيناي من أبي جعفر عليه السلام أنه كان على المدينة رجل من آل مروان وإنه أرسل إليّ يومًا فأتيته وما عنده أحد من الناس، فقال: يا معاوية إنّما دعوتك لثقتي بك، وإني قد علمت أنه لا يبلغ عني غيرك، فأجبت (فأحببت) أن تلق عميك محمد بن علي وزيد بن الحسن عليهما السلام وتقول لهما: يقول لكما الأمير لتكفان عما يبلغني عنكما، أو لتنكران، فخرجت متوجهًا إلى أبي جعفر فاستقبلته متوجهًا إلى المسجد فلما دنوت منه تبسم ضاحكًا فقال: بعث إليك هذا الطاغية ودعاك وقال: الق عميك وقل لهما كذا؟ قال: فأخبرني أبو جعفر بمقالته كأنه كان حاضرًا ثم قال: يا ابن عم قد كفينا أمره بعد غد، فإنه معزول ومنفي إلى بلاد مصر والله ما أنا بساحر ولا كاهن، ولكني أتيت وحدثت، قال: فوالله ما أتى عليه اليوم الثاني حتى ورد عليه عزله ونفيه إلى مصر وولى المدينة غيره». الخرائج والجرائح، ج٢، ص٥٥٩.

الأمويين اقتدارًا، إذا كان يواجه الإمام الباقر عليه السلام أو أي شخص آخر بذلك الوجه العنيف، فهذا لا شكّ ناشئٌ من أنّه كان يرى في أدائه وعمله تهديدًا لنفسه، ولم يعد قادرًا على تحمّل وجوده. فلا يمكن الشكّ بأنه لو كان الإمام الباقر عليه السلام مشغولًا فقط بالحياة العلميّة وليس بالبناء الفكريّ و التنظيميّ، فإنّ الخليفة ورؤوس نظام الحكم لما رأوا من مصلحتهم ونفعهم أن يتصرّفوا بشدّة وعنف، لأنّهم بذلك سوف يستفزّون الإمام عليه السلام، لمواجهتهم بشدّة ـ مثلما حدث في زمنٍ قريبٍ لهم، أن شاهدنا أنموذجًا لهذه القضية ومنها قيام حسين بن عليّ «شهيد الفخّ»[١] ـ وأيضًا سوف يغضبون منهم جماعة الأنصار والمعتقدين بالإمام عليه السلام ـ ولم يكن عددهم قليلًا ـ ويسخطونهم على جهازهم الحاكم. خلاصة الحديث أنّ ردّ الفعل الحادّ نسبيًّا من قبل نظام الخلافة في أواخر عمر الإمام الباقر عليه السلام يمكن أن يكون سببًا أن نستنتج منه شدّة عمل الإمام عليه السلام وحدّته.

إحضار الإمام الباقر عليه السلام إلى الشام

من الحوادث المهمّة في أواخر حياة الإمام وأكثرها شهرةً إحضاره إلى الشام، الّتي كانت عاصمة الحكم الأمويّ. فلأجل معرفة موقف الإمام تجاه جهاز الخلافة، أمر الخليفة الأمويّ باعتقال الإمام الباقر ـ وطبق بعض الروايات، مع ابنه الإمام الصادق الّذي كان شابًّا ملازمًا لأبيه ـ ونقلهما إلى الشام. فأُحضر الإمام إلى الشام إلى قصر الخليفة. وقد أملى هشام قبل ذلك على حضّار مجلسه وحاشيته ليقوموا بالإجراءات اللازمة حينما يدخل الإمام ويواجهوه، فكان من المقرّر أن يبدأ الخليفة نفسه، ومن بعدها حضّار المجلس ـ الّذين كانوا جميعًا من الرجال والزعماء ـ وينهالون عليه بالطعن والشماتة؛ وقد أراد بهذا العمل تحقيق هدفين:

الأوّل: أن يُضْعِف روحيّة الإمام بمثل هذه التصرّفات الشديدة والمسيئة، وليكون ذلك أرضية من أجل أيّ عملٍ، يبدو لهم لازمًا. والآخر أن يدين الخصم في لقاءٍ بين أعلى قيادات الجبهتين

---

١. حسين بن علي ـ حسين الفخ ـ ابن علي بن الحسين بن الحسن بن الحسن المجتبى، وأمه زينب بنت عبدالله بن الحسن الذي خرج في زمن موسى الهادي حفيد المنصور، وفتح اسم بئر يبعد فرسخًا عن مكة.

المتعاديتين، وبهذه الوسيلة ينتزع سلاح كلّ عناصر جبهته من خلال نشر خبر هذه الإدانة، والّتي ستحصل بفضل الأبواق الجاهزة دومًا لخدمة الخليفة، كالخطباء والعملاء والجواسيس.

يدخل الإمام وبخلاف الرّسوم والعادات المتعارفة الّتي تقتضي أنّ كلّ من يدخل إلى المجلس يجب أن يسلّم على الخليفة بذلك اللقب المخصوص بأمير المؤمنين، فإنّه توجّه إلى جميع الحاضرين، وأشار بيده مخاطبًا إيّاهم وقال: السلام عليكم، ومن دون أن ينتظر أيّ ردٍّ، يجلس. وبهذا التصرّف يشعل نيران الحقد والغضب في قلب هشام، فيبدأ هشام برنامجه قائلًا: أنتم يا أبناء عليّ كنتم دومًا تشقّون عصا المسلمين بدعوتهم إلى أنفسكم، وتنشرون بينهم الشقاق والنفاق، وتدعون الإمامة لأنفسكم بجهلكم وسفاهتكم.

يتفوّه هشام بمثل هذه الترّهات ثمّ يسكت. و بعد ذلك، كلّ واحد من عبيده وأصحاب معلفه، ينهضون ويتفوّهون بمثل هذه الكلمات، ويتوجّهون بألسنتهم بطعن الإمام عليه السلام وتوبيخه.

وقد كان الإمام عليه السلام طيلة هذه المدّة ساكنًا وهادئًا. وعندما سكت الجميع، ينهض الإمام ويقف أمام الحاضرين ويتوجّه إليهم، وبعد الحمد والثناء على الله تعالى والسلام على النبيّ، يردّ بكلماته المختصرة والمزلزلة كيد أولئك إلى نحورهم، وكأنّه يوجّه لهم بهذه الكلمات صفعةً قاضية، ويبيّن موقعه وأصول عائلته المفتخرة، الّتي تنطبق مع أعلى المعايير الإسلاميّة ـ وهي الهداية ـ وفي النهاية يبيّن عاقبة طريقهم بحسب السّنن الإلهية في التاريخ ويزلزل روحيّتهم أكثر ممّا كانت متزلزلة: «أيها الناس! أين تذهبون؟ وأين يراد بكم؟ بنا هدى الله أوّلكم، وبنا يختم آخركم، فإن يكن لكم ملك معجّل، فإنّ لنا ملكًا مؤجّلًا، وليس بعد ملكنا ملك، لأنّا أهل العاقبة، يقول الله عزّوجلّ: والعاقبة للمتقّين[1]»[2].

في هذا البيان المختصر والمليء بالمعنى ـ الّذي تضمّن التظلّم والبشارة والتهديد والإثبات

١. قوله «أيّها الناس» موجّه الخطاب إلى مجموعة أصحاب الرتب العالية في الحكومة الذين اجتمعوا في مجلس بمثل هذه الحساسية والهيبة، حول الخليفة وأرادوا الدفاع عنه، وفي الواقع هو نفيٌ لكل القيم التي كانت تفصل، في ذلك المجتمع الطاغوتي، هؤلاء المستكبرين عن عامّة الناس وتميّزهم عنهم. وأرادوا بذلك أن يميّزوا أنفسهم عنهم. إنّها مواجهة أصولية وعميقة في قالب خطابٍ بسيط (الكاتب).

٢. بحارالأنوار، كتاب تاريخ علي بن الحسين و...، أبواب تاريخ ابي جعفر الباقر، باب ٥، ح ٦٣.

والردّ ـ تحقّق التأثير والجاذبيّة إلى درجة أنّه لو أذيع ووصل إلى أسماع الناس لكان من الممكن أن يجعل كلّ من يسمعه معتقدًا بحقّانية قائله. ولأجل الردّ على هذا الكلام، كان المطلوب وجود خطيبٍ متفوّه مقنعٍ ومنطقيّ. ولم يكن أيٌّ من هذا في من خاطبهم الإمام، ولهذا لم يعد أمامهم سوى استخدام العنف والقهر. فيأمر هشام بإلقاء الإمام في السّجن؛ وهو يعترف من الناحية العمليّة بضعف معنويّاته وضعف منطقه، فيقوم الإمام في السّجن ببيان الحقائق، ليؤثّر في نزلائه في السّجن، بحيث أنّه لا يبقى أيّ واحدٍ منهم لا يعتقد من أعماق قلبه، بما قاله. فينقل مأمور السّجن مجريات الأحداث إلى هشام. وقد كان هذا الموضوع غير قابلٍ للتحمّل من قبل جهازٍ كان بعيدًا طيلة عشرات السنين داخل الشّام عن الخطاب العلوي. فيأمر هشام بإخراج الإمام عليه السلام ومن معه من السّجن، ولم يكن من مكانٍ أنسب لهم من المدينة المنوّرة، تلك المدينة الّتي كانوا يعيشون فيها، وبالطبع، مع وضعهم تحت المراقبة وكلّ أنواع التشدّد المستمرّ وأكثر، وعند الضرورة، إنزال الضربة الأخيرة وإبادة الخصم دون ضجيج في بيته، والتنصّل من وبال تهمة قتل الإمام عليه السلام ووضعه في رقبته. لهذا وُضعوا بأمرٍ من هشام على مراكب سريعة ـ كان عليها أن تقطع كلّ الطريق من دون توقّف ـ ويحملونهم إلى المدينة. وكانوا قبل ذلك قد منعوا أيّ إنسان في كلّ المدن الّتي تقع على الطريق من أن يتعامل مع هذه القافلة المغضوب عليها، أو أن يبيعهم الماء والخبز[1]. وقد

---

١. وطبق بعض الروايات فقد أشيع بين أهل المدن الواقعة على الطريق أنّ محمدبن علي وجعفربن محمّد أصبحا نصرانيين وارتدّا عن الإسلام، بحارالأنوار، ج ٤٦، ص ٣٠٦. وشبيهٌ بهذه الواقعة حدث في حركة تحرير الهند وفي عقود منتصف التاسع عشر: (فمولانا) الذي كان من علماء الدين المعروفين والمعتبرين في الهند وأول قادة المقاومة لمسلمي الهند ـ وهم من روّاد حركة تحرير شبه القارّة ـ قد ذُكر من جانب مجموعة من العلماء المعارضين للجهاد كشخص وهّابي. ولم يكن من حاجةٍ لأي تبريرٍ أو مناسبة من أجل إشاعة هذه التّهمة؛ فكان يكفي لأجل إسقاط مثل هذه الوجوه المحبوبة والمعروفة والمجاهدة من أعين عامّة الناس الجاهلين والغافلين حتى يُتّهم أيّ شخصٍ بالوهّابيّة. لم يكن عوام الناس يعلمون ولم يكونوا قادرين أن يعلموا ما هي الوهّابيّة، وما هو منشؤها، وماذا تقول، وماذا تريد أن تفعل، وهل أنّه من الممكن أن يكون العلماء المنزّهون الذين قضوا حياتهم في النّضال ضدّ الاستعمار الإنكليزي وهّابيين ـ أي أداة بيد الإنكليز ـ ؟ الشيء الوحيد الذي كانوا يعلمونه، هو أنّ الوهّابية هي عبارة عن مذهب خاطئ وانحرافيّ، وها هم يسمعون أنّ هؤلاء العلماء المناضلين وهّابيّون ويكفي مثل هذا. (راجع كتاب المسلمون في حركة تحرير الهند، «طباعة آسيا»). وأنا عندما أطبّق قصّة إحضار الإمام الباقر والإمام الصادق عليهما السلام إلى الشام واتّهماهما بالتنصّر على المئة سنة ونيّف في الهند في العصر الحديث ثمّ ألقي نظرةً على الأوضاع والأحوال الجارية في زماننا ومكاننا أسترجع في ذاكرتي هذا المصرع للبيت الشعري العربي بكلّ حيرة مؤسفة، «الناس كالناس والأيام واحدة.» (الكاتب)

استمرّ هذا الوضع طيلة الطريق ثلاثة ليالٍ وأيّام فنفذ ما كان لديهم من الماء والخبز.

ووصلوا «مدين». وأغلق أهل المدينة بحسب ما لديهم من أوامر، أبواب مدينتهم، وأبوا أن يبيعوا متاعًا. اشتدّ على أتباع الإمام عليه السلام الجوع والعطش، صعد الإمام عليه السلام على مرتفع يطلّ على المدينة ونادى بأعلى صوته: «يا أهل المدينة الظالم أهلها، أنا بقيّة الله. يقول الله: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾[١].

يقول الراوي: وكان بين أهل المدينة شيخٌ كبير، فأتاهم فقال: «يا قوم هذه والله دعوة شعيب عليه السلام. والله لئن لم تخرجوا إلى هذا الرجل بالأسواق لتؤخذنّ من فوقكم ومن تحت أرجلكم فصدّقوني وأطيعوني... فإنّي لكم ناصح. استجاب أهل المدينة لدعوة الشيخ فبادروا وأخرجوا إلى أبي جعفر وأصحابه الأسواق»[٢].

والقسم الأخير من هذه الرواية التاريخيّة ـ والّذي يمكن أن يكون من جهاتٍ عدّة عرضًا للوضع السياسي والقمع وكذلك الاستخفاف الشامل بجميع الأذهان في ذلك الزمان ومن جانبٍ آخر يمثّل بيانًا للموقف الخاص للإمام الباقر عليه السلام مقابل جهاز حكم بني أميّة ـ هو على الشكل التالي: عندما وصل خبر المدينة إلى هشام، أمر قبل كلّ شيء بمعاقبة ذلك الرجل المتمرّد على خيانته لأنّه تجرّأ على الإعراب عن مخالفته لخطّة زعماء نظام الخلافة وجنّب النّاس من غفلةٍ كبرى. وقد أُخذ هذا الرّجل وقُتل بأمرٍ من الخليفة.

ومع كلّ ذلك، يتجنّب الإمام أيّة مواجهة حادّة ومجابهة مباشرة مع الجهاز الحاكم. فلا يعمد إلى سيف، ولا يسمح للأيدي المتسرّعة إلى السلاح أن تشهره، ويوجّهها توجيهًا حكيمًا، وسيف اللسان أيضًا لا يشهره، إذا لم يتطلّب عمله التغييريّ الأساسيّ الجذريّ ذلك. ولا يسمح لأخيه زيد، الّذي بلغ به الغضب مبلغه، وثارت عواطفه أيّما ثورة، أن يخرج (يثور)، بل أن يركّز نشاطه العام على التوجيه الثقافي والفكري. وهو بناء أساس أيديولوجي في إطار مراعاة التقية السياسية.

---

١. سورة هود، الآية: ٨٦.

٢. بحارالأنوار، كتاب تاريخ علي بن الحسين و محمد بن علي، أبواب تاريخ ابي جعفر محمد بن علي بن الحسين باقر، باب ٥، ح ٦٣.

ولكن هذا الأسلوب لم يكن يمنع الإمام عليه السلام، كما أشرنا، من توضيح «حركة الإمامة» لأتباعه الخلّص. وإذكاء أمل الشيعة الكبير، وهو إقامة النظام السياسي بمعناه الصحيح العلويّ في قلوب هؤلاء، بل يعمد أحيانا إلى إثارة عواطفهم بالقدر المطلوب على هذا الطريق.

التلويح بمستقبلٍ مشرق هو أحد السبل الّتي مارسها الإمام الباقر عليه السلام مع أتباعه. وهو يشير أيضًا إلى تقويم الإمام عليه السلام للمرحلة الّتي يعيشها من الحركة. يقول الحكم بن عتيبة: بينما أنا مع أبي جعفر عليه السلام والبيت غاص بأهله، إذ أقبل شيخ يتوكّأ على عنزة (عكازة) له، حتّى وقف على باب البيت، فقال: السلام عليك يا ابن رسول الله ورحمة الله وبركاته. ثمّ سكت، فقال أبو جعفر: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته. ثم أقبل الشيخ بوجهه على أهل البيت وقال: السلام عليكم، ثم سكت حتّى أجابه القوم جميعًا، وردّوا عليه السلام. ثم أقبل بوجهه على الإمام عليه السلام وقال: يا ابن رسول الله أدنني منك جعلني الله فداك. فوالله إنّي لأحبّكم وأحبّ من يحبّكم، ووالله ما أحبّكم وأحبّ من يحبّكم لطمع في دنيا، وإنّي لأبغض عدوّكم وأبرأ منه، ووالله ما أبغضه وأبرأ منه لوترٍ كان بيني وبينه. والله إنّي لأحلّ حلالكم وأحرّم حرامكم، وأنتظر أمركم، فهل ترجو لي، جعلني الله فداك؟ فقال الإمام عليه السلام: إليّ إليّ حتّى أقعده إلى جنبه، ثم قال: «أيها الشيخ، إنّ أبي عليّ بن الحسين عليه السلام، أتاه رجل فسأله عن مثل الّذي سألتني عنه، فقال له أبي عليه السلام : إن تمت، ترد على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلى عليّ والحسن والحسين وعلى عليّ بن الحسين، ويثلج قلبك، ويبرد فؤادك، وتقرّ عينك، وتستقبل بالروح والريحان مع الكرام الكاتبين... وإن تعش، ترى ما يقرّ الله به عينك، وتكون معنا في السنام الأعلى». قال الشيخ وهو مندهش من عظمة البشرى: كيف يا أبا جعفر؟ فأعاد عليه الكلام، فقال الشيخ: الله أكبر يا أبا جعفر، إن أنا متّ أرد على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلى عليّ والحسن والحسين وعلي بن الحسين وتقرّ عيني ويثلج قلبي ويبرد فؤادي وأُستقبل بالروح والريحان مع الكرام الكاتبين لو قد بلغت نفسي ههنا. وإن أعش أرى ما يقرُّ الله به عيني، فأكون معكم في السنام الأعلى؟ ثم أقبل الشيخ ينتحب حتّى لصق بالأرض. وأقبل أهل البيت ينتحبون لما يرون من حال الشيخ. ثم رفع الشيخ رأسه وطلب من الإمام عليه السلام أن يناوله يده فقبّلها ووضعها على عينه وخدّه،

ثم ضمّها إلى صدره وقام فودّع وخرج والإمام عليه السلام ينظر إليه ويقول: «من أحبّ أن ينظر إلى رجل من أهل الجنّة فلينظر إلى هذا»[١].

عن أبي‌حمزة الثمالي قال، سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: إنّ الله تبارك وتعالى قد كان وقّت هذا الأمر في السبعين، فلمّا قُتل الحسين عليه السلام اشتدّ غضب الله تعالى على أهل الأرض فأخّره إلى الأربعين ومائة، فحدّثناكم، فأذعتم الحديث، فكشفتم قناع الستر، ولم يجعل الله له بعد ذلك وقتًا عندنا، ويمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أمّ الكتاب. قال أبو حمزة: فحدّثت بذلك أبا عبدالله عليه السلام فقال: قد كان كذلك.[٢]

مثل هذه التصريحات، تزكّي روح الأمل في قلوب تعيش جوّ الاضطهاد والكبت، فتكسبها زخمًا ودفعًا نحو الهدف المنشود المتمثّل في إقامة النظام الإسلامي العادل.

تسعة عشر عامًا من إمامة الباقر عليه السلام تواصلت على هذا الخط المستقيم المتماسك الواضح. تسعة عشر عامًا من التعليم الأيديولوجي، والبناء، والتكتيك النضالي، والتنظيم، وصيانة وجهة الحركة، والتقيّة وإذكاء روح الأمل. تسعة عشر عامًا من مسير شائكٍ وعرٍ يتطلّب كثيرًا من الجدّ والجهد. وحين أشرفت هذه الأعوام على الانتهاء وأوشكت شمس عمره المبارك على المغيب، تنفّس أعداؤه الصعداء، لأنّهم بذهاب هذا القائد الموجّه سوف يتخلّصون من مصدر إثارةٍ، لطالما قضّ مضاجعهم وسرق النوم من عيونهم. لكنّ الإمام عليه السلام خيّب آمالهم وفوّت عليهم هذه الفرصة، حين جعل من وفاته مصدر عطاء، ومنطلق إثارة ووسيلة توعية مستمرّة! لقد وجّه ولده الصادق عليه السلام في اللحظات الأخيرة من حياته توجيهًا يمثّل نموذجًا رائعًا من نماذج التقيّة الّتي مارسها الإمام الباقر عليه السلام والأسلوب الّذي استعمله في مرحلته الزمنيّة الخاصة. في الرواية عن أبي‌عبدالله الصادق عليه السلام قال: «قال لي أبي: يا جعفر أوقف لي من مالي كذا وكذا لنوادب تندبني. عشر سنين بمنى أيام منى».

وهذه الرواية لم يقف عندها من بحث في حياة الإمام الباقر عليه السلام وغفلوا عما فيها من دلالات

---

١. بحارالأنوار، كتاب تاريخ علي‌بن‌الحسين و محمدبن‌علي، أبواب تاريخ ابي‌جعفر محمدبن‌علي‌بن‌الحسين باقر، باب ١٠، ح ٣.

٢. الكافي، كتاب الحجة، باب كراهية التوقيت، ح ١.

كبيرة. لقد خلّف الإمام (٨٠٠) درهم، وأوصى أن يخصّص جزء منها لمن يندبه في منى. وندب الإمام عليه السلام في منى له معنى كبير. إنه عملية إحياء ذلك المصدر الّذي كان يشعّ دائمًا بالتوعية والإثارة وخلق روح الحماسة والمقاومة.

واختيار منى بالذات يعني مواصلة العمل في وسط تمركز الوافدين من كلّ أرجاء العالم الإسلامي، خلال فترة الاستقرار الوحيدة في موسم الحج. فكلّ مناسك الحج يمرّ بها الحاج وهو في حركة دائبة مستمرّة، إلاّ في منى، حيث يبيت الليلتين أو الثلاث، فيتوفّر لديه الوقت الكافي يسمع ويطّلع. وندب الإمام عليه السلام في هذا المكان سيثير التساؤل عن شخصية هذا المتوفّى، من هو؟ فيحصلون على الجواب من أهل المدينة الّذين عاصروه. أنه من أبناء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأستاذ الفقهاء والمحدّثين. ولماذا يندب في هذا المكان؟ ألم يكن موته طبيعيًا؟ من الّذي قتله أو سمّه؟ هل كان يشكّل خطرًا على الجهاز الأمويّ؟ و... و... عشرات الأسئلة كانت تثار حين يندب الإمام عليه السلام في هذا المكان. ثم يحصل السائلون على الإجابة، وتنتشر الأخبار في أطراف البلاد وأكنافها بعد عودة الحجيج إلى أوطانهم. وكان هناك في مواسم الحج من يأتي من الكوفة والمدينة ليجيب عن هذه التساؤلات مغتنمًا فرصة تجمّع المسلمين. وليبثّ روح التشيّع من خلال أعظم قناة إعلامية آنذاك. هكذا عاش الإمام عليه السلام، وهكذا خطط لما بعد وفاته، «وجعله مباركًا أينما كان، وسلام عليه يوم ولد ويوم جاهد ويوم استشهد في سبيل الله ويوم يبعث حيًّا»[١]. القائد الصادق

---

١. هذا الدعاء مقتبس من الآيات القرآنية الواردة في حق نبي الله عيسى عليه السلام، (سورة مريم،١٥ و٣١).

الفصل العاشر

الإمام الصّادق عليه السلام

عندما انتقل الإمام الباقر عليه السلام من هذه الدنيا، وعلى أثر النشاطات المكثّفة الّتي جرت طيلة مدّة إمامته وإمامة الإمام السجّاد عليه السلام، فإنّ الأوضاع والأحوال تغيّرت كثيرًا لمصلحة آل البيت. وأبيّن لكم بكلمتين خطّة الإمام الباقر والإمام الصادق عليهما السلام الّتي كانت بالطبع في ذلك الزمان من الأسرار، تلك الأسرار الّتي تسمعون أنّه يُقال مثلًا، أنّ جابربن‌يزيد الجعفيّ كان من أصحاب السرّ، فكلّ من ينشر سرّنا فسوف تحلّ عليه لعنة الله وغيرها وغيرها؛ تلك الأسرار الّتي لو أذيعت في ذلك الزمان، لحلّت لعنة الله على من يذيعها، هي نفسها الّتي أريد الآن أن أكشفها، لكن غاية الأمر أنّ اليوم لا يوجد أيّة مشكلة في إظهارها بل هو أمرٌ واجبٌ أن يعلم الناس ماذا كان يريد الإمام عليه السلام أن يفعله. كانت خطّة الإمام الصادق عليه السلام هي أن يجمع بعد رحيل الإمام الباقر عليه السلام الأمور وينهض بثورة علنيّة ويسقط حكومة بني أميّة ـ والّتي كانت في كلّ يوم تتبدّل من حاكمٍ إلى آخر، ممّا يحكي عن منتهى ضعف هذا الجهاز ـ ويأتي بالجيوش من خراسان والريّ وأصفهان والعراق والحجاز ومصر والمغرب وكلّ المناطق الإسلاميّة، الّتي كان فيها أيضًا شبكات حزبية للإمام الصادق عليه السلام، أي الشيعة؛ ويحضر كلّ القوّات إلى المدينة ليزحف نحو الشام ويسقط حكومتها ويرفع بيده راية الخلافة ويأتي إلى المدينة ويعيد حكومة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إليها؛ هذه كانت خطّة الإمام الصادق. لهذا، عندما كان يجري الحديث عند الإمام الباقر عليه السلام في الأيّام الأخيرة من عمره ويُسأل مَن هو قائم آل محمّد[1]، كان

---

١. الكافي، كتاب الحجة، باب الإشارة والنص على ابي‌عبدالله جعفربن‌محمد الصادق، ح ٧.

ينظر إلى الإمام الصادق عليه السلام ويقول: كأنّني أنظر إلى قائم آل محمد هذا. بالطبع، أنتم تعلمون أنّ قائم آل محمّد هو اسمٌ عام وليس اسمًا خاصًّا، فليس هو اسم وليّ العصر عجل الله تعالى فرجه الشريف. فإنّ وليّ العصر هو قائم آل محمد النهائيّ، لكن كلّ الّذين نهضوا من آل محمّد على مرّ الزمان ـ سواءٌ انتصروا أم لا ـ كلّ واحدٍ منهم قائم آل محمّد. وتلك الروايات الّتي تقول أنّه عندما يقوم قائمنا يفعل كذا و كذا ويحقّق ذلك الرفاه ويقيم ذلك العدل، لم يكن المقصود منه حضرة وليّ العصر، في ذلك الوقت، بل المقصود أنّ ذاك الرجل من آل محمّد الّذي من المقرّر أن يقيم حكومة الحقّ والعدل، فإنّه عندما يقوم سوف يفعل هذه الأمور، وهذا أمرٌ صحيحٌ. وكان من المقرّر للإمام الصادق عليه السلام أن يكون قائم آل محمّد في ذلك الزمان. لقد تولّى الإمام الصادق عليه السلام منصب الإمامة في مثل تلك الحالة.

كان الإمام الصادق عليه السلام رجل الجهاد والمواجهة ورجل العلم والمعرفة ورجل التنظيم والتشكيلات. لكن أكثر ماسمعتم عن علمه ومعرفته، فمحافل دراسته وميادين تعليمه الّتي أوجدها، لم يكن لها نظير في تاريخ حياة أئمّة الشيعة، لا قبله ولا بعده؛ فلقد بيّن الإمام الصادق عليه السلام كلّ ما ينبغي أن يُقال بشأن المفاهيم الإسلامية الصحيحة والقرآنية الأصيلة الّتي تعرّضت للتحريف طيلة قرنٍ ونيّف من الزمان بواسطة المغرضين والمفسدين أو الجاهلين، وهذا الأمر هو الّذي أدّى إلى أن يشعر العدوّ بخطره، لكنّكم قليلًا ما سمعتم عن جهاده. لقد كان الإمام الصادق عليه السلام، مشغولًا بجهادٍ واسع النطاق؛ الجهاد من أجل الإمساك بالحكومة والسلطة، من أجل إيجاد حكومة إسلامية وعلويّة. أي أنّ الإمام الصادق عليه السلام، كان يهيّئ الأرضية للقضاء على بني أميّة والمجيء بحكومة علويّة أي حكومة العدل الإسلامي. وإنّ هذا ما يتّضح من حياة الإمام الصادق عليه السلام لكلّ من يطالع ويدقّق.

أمّا ذاك البعد الثالث الّذي لم يُسمع عنه من الأساس، هو أنّه كان رجل تنظيم وتشكيلات. لقد أوجد الإمام الصادق، تشكيلات عظيمة، من المؤمنين به ومن أتباع تيّار الحكومة العلوية في مختلف أرجاء العالم الإسلامي، من أقصى خراسان وما وراء النهر إلى شمال أفريقيا. فماذا تعني التشكيلات؟ أي أنّه عندما يريد الإمام الصادق عليه السلام أن ينقل أيّ شيءٍ فإنّ وكلاءه المتواجدين في مختلف آفاق العالم الإسلامي، سينقلون ذلك إلى النّاس لكي يعلموه. ويعني أيضًا أنّها ستجمع

كلّ الحقوق الشرعية والميزانية المطلوبة لإدارة مواجهة سياسية عظيمة لآل عليّ. ويعني ذلك أنّ وكلاءه وممثّليه المتواجدين في جميع المدن سيرجع إليهم أتباع الإمام الصادق عليه السلام لمعرفة تكليفهم الدينيّ والسياسيّ من الإمـام. التكليف السياسي هو كالواجب الدينيّ من حيث الوجوب. ذاك الّذي يكون بالنسبة لنا واجب الطاعة ووليّ الأمر، فإنّ فتواه الدينية والإسلامية في باب الصلاة والزكاة والصيام وباقي الواجبات لا تختلف عن فتاواه وأوامره السياسية في مجال الجهاد والعلاقات السياسية والعلاقات الداخلية وجميع القضايا، فكلّ ذلك يجب تنفيذه. لقد أوجد الإمام الصادق عليه السلام مثل هذه التشكيلات العظيمة، وبهذه التشكيلات وبمساعدة من كان داخلًا فيها من الناس، كان يواجه جهاز بني أميّة. وبالطبع، إنّ ما جرى على الإمام الصادق عليه السلام هو أمرٌ مهمٌّ جدًا ومليءٌ بالعبر، فقد كان يواجه بني أميّة لمدّة عشر سنوات وبني العبّاس لمدّة طويلة أيضًا، وعندما كان انتصاره على بني أميّة حتميًّا جاء بنو العبّاس كتيّارٍ انتهازيٍّ ونزلوا إلى الميدان ومن بعدها صار الإمام الصادق عليه السلام يواجه بني أميّة وبني العبّاس أيضًا.

وقد نُقل عن الطبريّ ـ المورّخ المعروف ـ أمورٌ تتعلّق بأنّ الإمام عليه السلام كان يحارب بني أميّة في بداية السنوات العشر لإمامته. وكانت مواجهة الإمام الصادق عليه السلام في هذه المرحلة علنيّة، لم يعد فيها أيّ إخفاء أو تقيّة أو كتمان. وسبب ذلك أنّ حكّام بني أميّة كانوا مشغولين إلى درجة أنّه لم تُتح لهم الفرصة ليلاحقوا الإمام الصادق وشيعته ولم يكن لديهم القدرة على قمعهم؛ لهذا السبب لم يكن الإمـام الصادق عليه السلام بحاجة إلى إخفاء عمله. كان الإمام الصادق يوم عرفة يذهب إلى عرفات ويقف بين هذه التجمّعات الكبيرة ـ والّتي جاءت من مختلف مناطق العالم الإسلامي، من أفريقيا والشرق الأوسط والحجاز والعراق ومن إيران ذلك الزمان، ومن خراسان وأفغانستان وتركستان الشرقية ـ أي كان هناك أشخاصٌ من مختلف المناطق. فإذا فجّرت قنبلةً في هذا المكان كأنّك فجّرتها في كلّ العالم الإسلامي، وإذا قلت شيئًا في هذا المحفل والتجمّع، فكأنّك نشرتها عبر شبكة إعلامية عالمية. كان الإمام الصادق عليه السلام يأتي إلى داخل هذا التجمّع الكبير ويعلن بصراحة وبشكلٍ رسميّ للناس أنّ الإمام والحاكم بحقّ في هذا اليوم هو جعفربن محمد وليس أبي جعفر

المنصور، ثمّ يستدلّ على ذلك كلاميًا وعقلانيًا ولم يكن الناس في ذلك الزمان كما هو واضحٌ، مستعدّين للاستماع إلى هذا الاستدلال، لكنّ الاستدلال كان من نوع آخر، لأنّ المنصور العبّاسي وأمثاله ولأجل أن يقنعوا أذهان الناس ويتظاهرون بأنّهم خلفاء النبيّ، قد جعلوا لانفسهم سلسلة نسبيّةً يصلون بها الى النبي مباشرة وغير مباشرة، وكانوا يقولون أنّنا نحن أبناء العبّاس؛ كانت لهم سلسلتي نسب، كانوا يصرّحون كلّ مرّة عن واحدة منها.

أحدها أنّهم كانوا يقولون نحن أبناء العبّاس عمّ النبيّ، وأنّه بعد رحيل النبيّ كانت الخلافة لبني هاشم، ومن بين بني هاشم، فإنّ الأسنّ والأنسب هو العبّاس عمّ النبيّ. فالخلافة بعد النبيّ كانت للعبّاس ولأنّنا نحن أبناؤه فإنّها تصل إلينا، إنّ هذا من كلامهم. وكانوا يظهرون سلسلةً نسبيّةً أخرى، ويقولون نحن أبناء عليّ العبّاسي، عليّ بن عبدالله بن عبّاس، وكانوا يقولون حقًّا، لأنّهم كانوا أحفاد عليّ العبّاسي أو أبناؤه، وهو تلميذ محمد بن الحنفيّة، ومحمّد بن الحنفيّة هو ابن أميرالمؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام الّذي هو صهر النبيّ. فالخلافة انتقلت من النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إلى عليّ عليه السلام ومن عليّ عليه السلام إلى محمّد بن الحنفيّة ـ لا إلى الحسن والحسين ـ ومنه وصلت إلى ابن عبدالله بن العبّاس ـ الّذي هو جدّنا ـ ومنه وصلت إلينا، فنحن إذًا خلفاؤه.

وكانوا يؤلّفون سلسلةً نسبيّةً لهذه الطريقة، وكان مثل هذا مقنعًا لأذهان النّاس في ذاك الزمان، لأنّ مستوى فكرهم كان متدنّيًا، لهذا كان الإمام يقف وسط هذا التجمّع الكبير، ويبيّن السلسلة الصحيحة للإمامة: «أيها الناس إنّ رسول الله كان الإمام»،«ثمّ من بعده علي بن أبي طالب»، وهو منطق الشيعة المعروف ومن بعده الحسن ثمّ الحسين ومن بعده عليّ بن الحسين، ومن بعده محمّد بن عليّ، ومن بعده أنا. فيعرّف نفسه كإمامٍ ومثل هذا كان يتطلّب شجاعة كبيرة. ولم يكن بالكلام العاديّ البسيط، بل كان ذلك أكبر إعلانٍ للمخالفة والمعارضة؛ وكان الإمام الصادق يقوم بمثل هذا العمل في أواخر عصر بني أميّة. أمّا في عهد بني العبّاس فلم يعد الأمر كذلك، بل كان يجري بالتقيّة والكتمان، وسبب ذلك أنّ بني العبّاس كانوا يرفعون شعارات آل عليّ ومواقفهم باللسان فكان ظاهرهم ظاهر آل عليّ، وعملهم عمل بني أميّة.

لقد كانت المواجهة في عصر حكومة بني أميّة بهذا الشكل، وفي عصر بني العبّاس ـ الّذي كان أطول مدّة ـ كانت أكثر خفاءً وكان بنو العبّاس يمثّلون ذلك التيّار الانحرافيّ الّذي انتهز الفرصة، وحرّفوا الثورة الّتي كان الإمام الصادق عليه السلام بصددها، وهذا هو الخطر الدائم لكلّ الثورات. فذاك الخطّ الصحيح للثورة الّذي يتطابق مع معاييرها وضوابطها الأساسيّة، يُستبدل أحيانًا بخطٍّ بديلٍ منحرفٍ فاسدٍ باطلٍ تحت شعارات الحقّ. من هنا على الإنسان أن يكون حذرًا وواعيًا. ولم يكن أهل ذلك الزمان يمتلكون مثل هذا الوعي بحيث أنّهم ولسنواتٍ لاحقة، لعلّها أكثر من ثلاثين سنة، كانوا يتصوّرون من مختلف المناطق ـ بعد أن جاء بنو العبّاس إلى الحكم ـ أنّ ذلك كان نتيجة جهادهم من أجل آل عليّ، كانوا يتصوّرون أنّ حكومة آل علي هي هذه، ولم يكونوا يعلمون أنّهم غاصبون. ١٩٨٠/٩/٥

الإمام الصادق عاصر مرحلتين في هذه الفترة. الأولى تمتد من عام ١١٤ هـ.ق. إلى ١٣٢ أو ١٣٥هـ.ق. يعني إلى سنة انتصار بني العبّاس واستلام المنصور للخلافة، وكانت هذه المرحلة تُعتبر مرحلة هدوء وسعة. وذلك بسبب النزاع الّذي كان دائرًا بين بني أميّة وبني العبّاس، فوجد الأئمّة عليهم السلام في تلك الفترة فرصة لنشر العلوم الإسلامية. ولم يمرّ الإمام الباقر عليه السلام بمثل هذه الظروف لأنّها كانت خاصّة بعصر الإمام الصادق عليه السلام. ففي عهد الإمام الباقر عليه السلام كانت الفترة، فترة غطرسة بني أميّة. وكان هشام بن عبدالملك ـ الّذي قيل فيه كان هشام رجلهم، حيث كان أكبر شخصية بعد عبدالملك ـ في سدّة الحكم وكانت فترة حكمه في عهد الإمام الباقر عليه السلام، ولم يكن في عهده اختلاف بين جهات أو قوى ليستطيع الاستفادة منها. فالحروب الداخليّة والاختلافات السياسية كانت في عهد الإمام الصادق عليه السلام وفي المرحلة الأولى من عهده عليه السلام، ولكن بالتدريج اتّسعت دعوة بني العبّاس وفي نفس الوقت كانت الدعوة الشيعية في العالم الإسلامي قد وصلت إلى أوجها.

ومع وصول المنصور إلى سدّة الحكم والخلافة، تبدّلت الأوضاع وبدأت المشاكل والمصاعب في حياة الإمام الصادق عليه السلام. ولربّما هذه الفترة من حياة الإمام الصادق عليه السلام تشبه الفترة الّتي مرّت على الإمام الباقر عليه السلام، حيث ساد جوّ القمع وممارسة الضغوطات على الإمام حتّى أنّه عليه السلام أُحضر ونُفي

عدّة مرّات إلى الحيرة وواسط والرميلة ومناطق أخرى. وكان الخليفة يخاطب الإمام الصادق عليه السلام بقساوة وغضب، حيث قال له مرّة: قتلني الله إن لم أقتلك[١]، ومرّة من المرّات خاطب الخليفة وإلي المدينة قائلًا له: «أنْ أحرِق على جعفربن‌محمد داره»، وحينما أُحرق داره أظهر الإمام الغربة والوحدة الّتي ألمت به آنذاك، وذلك من خلال حركاته وسكناته وهو يعبر النار المضرمة، حيث قال: «أنا ابن أعراق الثرى»[٢]. ممّا أدّى إلى زيادة سخط أعدائه أكثر. إنّ معاملة المنصور للإمام الصادق عليه السلام كانت معاملة صعبة جدًا وقاسية للغاية ولطالما هدّد المنصور الإمام عليه السلام.

وهناك روايات تنقل أنّ الإمام عليه السلام كان يتذلّل ويظهر الخضوع للمنصور. وبالتأكيد إنّ هذه الروايات لا أساس لها من الصحّة. فأنا بحثت حول هذه الروايات ولم يكن لأيّ واحد منها أساس وسند صحيح ومعتبر. وغالبًا ما تنتهي في سندها إلى ربيع الحاجب، هذا المقطوع بفسقه، الّذي كان من المقرّبين للمنصور. ومن العجب أنّ البعض نقل بسذاجة أنّ الربيع كان يُعتبر من الشيعة المحبّين لأهل البيت عليهم السلام، فأين التشيّع من ربيع؟! إنّ الربيع كان يُعتبر الخادم المطيع والمخلص لأوامر المنصور. ومنذ طفولته استطاع أن يجد طريقًا ومكانًا في الحكومة العبّاسية، وخدم بني العبّاس حتّى أصبح حاجب المنصور. وقدّم له الخدمات الكثيرة حتّى استطاع أن يتسلّم الوزارة؛ ولو لم يكن الربيع موجودًا، لخرجت الحكومة والخلافة من آل المنصور بعد موته. ولربّما قد استلمها أعمامه من بعده، فعند احتضار المنصور لم يكن عنده سوى الربيع، ولهذا كتب الوصية بنفسه عن المنصور زورًا وجعل الخلافة باسم المهديّ‌بن‌المنصور؛ وهذا الفضل‌بن‌الربيع الّذي نسمع به هو ابن هذا الشخص. فهذه العائلة عرفت بوفائها لبني العبّاس. ولم يكن لهم أي ولاء لأهل البيت عليهم السلام. وما نُقل عن الربيع حول الإمام فهو كذب وبهتان. ولم يرد من كذبه هذا إلا أن يظهر الإمام عليه السلام للمسلمين آنذاك بالإنسان المتذلّل والخاضع أمام الخليفة حتّى يعتبر الآخرون أنّ تكليفهم هو أيضًا

١. بحارالأنوار، كتاب تاريخ علي‌بن‌الحسين و...، أبواب تاريخ الإمام جعفربن‌محمد، باب ٦، ح ٢١.

٢. الكافي، كتاب الحجة، أبواب التاريخ، باب مولد أبي‌عبدالله جعفربن‌محمد، ح ٢ «وجّه المنصور إلى حسن‌بن‌زيد وهو واليه على الحرمين أن أحرق على جعفربن‌محمد داره فألقى النار في دار أبي‌عبدالله فأخذت النار في الباب والدهليز، فخرج أبو عبدالله يتخطّى النار ويمشي فيها ويقول: أنا ابن أعراق الثرى، أنا ابن إبراهيم خليل الله».

مثل تكليف الإمام، أي التذلّل والخضوع للخليفة. وكما قلنا فقد كانت معاملة المنصور للإمام الصادق عليه السلام معاملة قاسية جدًّا حتّى انتهت بشهادة الإمام عليه السلام وذلك في عام ١٤٨ هـ.ق. ١٩٨٦/٧/١٩

والمعالم الهامة البارزة في حياة الإمام الصادق عليه السلام وجدتها، من منظار بحثنا، تتلخّص بما يلي:

١. تبيين مسألة الإمامة والدعوة إليها.

٢. بيان الأحكام وتفسير القرآن وفق ما ورثته مدرسة أهل البيت عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

٣. إقامة تنظيم سرّي أيديولوجي ـ سياسي. القائد الصادق

دعوة الإمام الصادق عليه السلام للإمامة

الآن نرجع إلى الحديث الأساسيّ؛ أي أنّ ما كان يشكّل بيت القصيد لدعوة الإمام الصادق عليه السلام، كغيره من أئمّة الشيعة الآخرين، هو موضوع الإمامة. ومن أجل إثبات هذه الواقعية التاريخية فإنّ أكثر الوثائق قاطعيةً، هي الروايات الكثيرة الّتي نُقل فيها دعوى الإمامة عن لسان الإمام الصادق عليه السلام بوضوحٍ وصراحةٍ تامة.

وكما سنبيّن، كان الإمام عليه السلام أثناء ترويج هذا الأمر وتبليغه يرى نفسه في مرحلةٍ من الجهاد، حيث ينبغي عليه أن يتبرّأ بشكل مباشر وصريح من حكّام زمانه، وأن يعرّف الناس على نفسه كصاحب حقٍّ واقعيٍّ للولاية والإمامة؛ وفي الأساس إنّ هذا العمل لا يمكن أن يتحقّق إلّا إذا طُويت المراحل السابقة للجهاد والنّضال بنجاح؛ فتبرز مظاهر الوعي السياسي والاجتماعي في شريحةٍ واسعةٍ؛ ويتم استشعار الجهوزيّة والاستعداد الكامن في كلّ الأماكن؛ وتكون قد أُسّست الأرضية الأيديولوجية في جماعةٍ معتدٍّ بها، ويكون قد ثبت لعددٍ كبيرٍ من الناس ضرورة حكومة الحقّ والعدل؛ وفي النهاية يتّخذ القائد قراره الرّاسخ من أجل المواجهة النهائية. فبدون كلّ هذه الأمور إنّ طرح اسم أي شخص محدّد كإمامٍ وقائدٍ محقّ للمجتمع، سيكون عملًا متهوّرًا لا ثمرة وراءه.

النقطة الأخرى الّتي ينبغي الالتفات إليها هي أنّ الإمام عليه السلام لا يكتفي في العديد من الموارد بأن يثبت الإمامة لنفسه؛ بل عليه أن يذكر إلى جانب اسمه أسماء أئمّة الحقّ الّذين سبقوه أيضًا، وفي

الحقيقة يطرح سلالة إمامة أهل البيت المتّصلة والّتي لا يمكن التفكيك بينها. ومثل هذا العمل، بالالتفات إلى أنّه بحسب الفكر الشيعي يدين كلّ الحكّام السابقين الجائرين ويعدّهم طواغيت، يمكن أن يكون إشارة إلى استمرار جهاد الشيعة واتّصاله في هذا الزمان بالأزمنة السابقة. وفي الواقع فإنّ الإمام الصادق عليه السلام بهذا البيان يعدّ إمامته كنتيجة حتميّة لإمامة من سبقه، وبهذه الطريقة يخرجها من تلك الحالة المنقطعة والفاقدة للجذور والأصول، ويوصل سلالته بتلك القناة الموثوقة والثابتة إلى النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله وسلم. والآن، التفتوا إلى عدّة نماذج من كيفية دعوة الإمام عليه السلام:

إنّ الرواية الّتي لفتت نظري في هذا الباب، هي رواية عمروبن أبي المقدام والّتي ترسم لنا مشهدًا عجيبًا. ففي التاسع من ذي الحجّة ـ يوم عرفة ـ اجتمع عددٌ كبير من الخلائق في عرفات من أجل أداء مراسم ذلك اليوم الخاص، ومن الطبيعي أن يجتمع فيه ممثّلون عن كلّ المناطق الّتي يسكنها مسلمون من أقصى خراسان إلى ساحل البحر المتوسط. ومن الممكن لكلمةٍ واحدةٍ في غير موضعها في هذا المكان، أن تستأصل عمل أكثر الشبكات الإعلاميّة العامّة انتشارًا في ذلك الزمان.

فيوصل الإمام عليه السلام نفسه إلى هذا الجمع، ويحمل له رسالةً. ويقول الراوي: رأيت الإمام عليه السلام يقف بين الناس ويعلن نداءه ثلاث مرّات ويرفع صوته بأقصى ما يقدر عليه، بنداءٍ ينبغي أن يطرق أسماع الجميع في كلّ الأماكن وليصل عبرهم إلى كلّ أنحاء العالم الإسلامي.

فنجده يتلفّت إلى كلّ الجهات، ويكرّر كلامه ثلاث مرّات، وهكذا يفعل حتّى يبلغ تكرار كلام هذا الإمام اثنا عشرة مرّة. وقد أطلق نداءه هذا بمثل هذه العبارات: «أيّها الناس إنّ رسول الله كان الإمام، ثم كان عليّ بن أبي طالب، ثمّ الحسن، ثمّ الحسين، ثمّ عليّ بن الحسين، ثمّ محمّد بن عليّ، ثمّ...»[1].

وحديثٌ آخر، عن أبي الصّباح الكنانيّ، يصف فيه الإمام الصادق عليه السلام نفسه وباقي أئمّة الشيعة بمثل هذه العبارات: «نحن قوم فرض الله طاعتنا، لنا الانفال، ولنا صفو المال...»[2]. وصفو المال

---

١. بحارالأنوار، كتاب تاريخ علي‌بن‌الحسين و...، أبواب تاريخ الإمام جعفربن‌محمد، باب ٤، ح ١٠٧.

٢. الكافي، كتاب الحجه، أبواب التاريخ، باب الفيء والانفال وتفسير الخمس وحدوده ومايجب فيه، ح ١٧.

هي الأموال المصطفاة الّتي يخصّ الطواغيت المتجبّرون أنفسهم بها، ويقطعون أيدي المستحقّين عنها، وعندما تخرج هذه الأموال المغصوبة بفضل انتصار المقاتلين المسلمين من أيدي الظالمين المهزومين، فإنّها لا تُقسّم كغيرها من الغنائم لتكون في اختيار شخصٍ ما، فتمنحه مقامًا كاذبًا وفخرًا مزيّفًا، بل إنّها تودع بيد الحاكم الإسلامي الّذي عليه أن يستعملها في جهة مصالح المسلمين العامّة. فالإمام عليه السلام في هذه الرواية يعرّف نفسه على أنّه صاحب صفو المال وكذلك الأنفال ـ الّتي هي أيضًا من متعلّقات الإمام ـ وبهذا البيان يوضّح أنّه هوالحاكم الحالي للمجتمع الإسلامي، وأنّه يجب أن تصل إليه كلّ هذه الأموال وأن تكون بيده وأن تُستعمل بحسب رأيه في مواردها الصحيحة.

وفي حديثٍ آخر، يسمّي الأئمّة السابقين واحدًا واحدًا، ويشهد على إمامتهم ولزوم طاعتهم واتّباعهم، وعندما يصل إلى اسمه يسكت. والّذين كانوا يسمعون حديث الإمام عليه السلام يعلمون جيّدًا أنّ ميراث العلم والحكومة بعد الإمام الباقرعليه السلام هو بيد الإمام الصادق عليه السلام. وبهذا الإجراء يطرح حقّه في قيادة المجتمع وحكومته، مثلما أنّه يبيّن بأسلوبٍ استدلالي علاقته واتّصاله بجدّه الأكبر، عليّ بن أبي طالب[1]. ويمكن أن نجد الكثير من الشواهد، في أبواب كتاب الحجّة من الكافي، وكذلك في المجلّد السابع والأربعون من بحارالأنوار، على مثل هذا الحديث الّذي يعلن فيه الإمام دعوى الإمامة بالتصريح أو الكناية.

الوثيقة القاطعة الأخرى، تذكر شواهد على الشبكة التبليغيّة الواسعة للإمام عليه السلام في كلّ أنحاء الدولة الإسلامية، وتجعل وجود مثل هذه الشبكة أمرًا مسلّمًا. هذه الشواهد، من الكثرة والثبوت بحيث أنّه لو لم يكن هناك حديثٌ واحدٌ صريح فإنّ ذلك لا يخدش بحتميّة الموضوع. فمن يطالع حياة الأئمّة عليهم السلام غير المدوّنة، يتساءل في نفسه: ألم يكن لأئمّة الشيعة في نهايات عصر بني أميّة من الدعاة والمبلّغين في أطراف وأكناف الدولة الإسلامية، الّذين يبلّغون لإمامتهم ويأخذون من الناس الطاعة والدعم لهم؟ في هذه الحالة، إذًا كيف يمكن تفسير هذه العلائم والروابط التنظيميّة

---

١. الكافي، كتاب الحجه، باب فرض طاعة الإئمة ع، ح ٢.

الّتي تُشاهد بوضوح والّتي تظهر في العلاقات الماليّة والفكريّة، بين الأئمّة والشيعة؟ فما معنى حمل هذه الحقوق الشرعية والأموال من مختلف أطراف العالم إلى المدينة؟ وكلّ هذه الأسئلة حول القضايا الدينية؟ وهذه الدعوة الواسعة المنتشرة للتشيّع؟ وأيضًا هذا الشرف والمحبوبيّة الّتي لا نظير لها، لآل عليٍّ في مناطق مهمّة من الدولة الإسلاميّة؟ وهذا الجمع الغفير من المحدّثين والرواة الخراسانيين والسيستانيين والكوفيين والبصريين واليمانيين والمصريين الّذين اجتمعوا حول الإمام عليه السلام؟ فأيّة يدٍ مقتدرة أوجدت كلّ هؤلاء؟ فهل يمكن أن نعتبر الصدفة أو الحدث التلقائي عاملًا أساسيًّا وراء كلّ هذه الظواهر المنسجمة والمترابطة؟

مع وجود كلّ هذا الإعلام المخالف الّذي كان يُبثّ من جانب الأبواق الهائلة لنظام الخلافة الأمويّة إلى مختلف المناطق ويذكر اسم عليّ بن أبي طلاب كأكثر الوجوه الإسلاميّة المدانة وذلك على المنابر وفي الخُطب، فهل يمكن ومن دون وجود شبكة إعلاميّة قويّة، أن يصبح آل عليٍّ بمثل هذه المحبوبيّة والجاذبيّة في تلك المناطق البعيدة والمجهولة، بحيث يطوي أولئك النّاس كلّ هذه المسافات الواسعة ويأتون إلى الحجاز والمدينة لمجرّد اللقاء والاستفادة وعرض المحبّة والعلقة، ويتلقّون معارف الدين، والّتي هي بحسب عقيدة الشيعة كالسياسة والحكومة، ويطلبوا في بعض الموارد، لفقدانهم الصبر، الاقدام على التحرّك العسكري، وبحسب لسان الرّوايات القيام والخروج؟ فلو كان سلاح الشيعة منحصرًا في إثبات علم الأئمّة وزهدهم فماذا سيكون معنى المطالبة بالثورة العسكرية؟!

من الممكن أن يُسأل أنّه لو كان هناك مثل هذه الشبكة الإعلاميّة الوسيعة والفعّالة، فلماذا لا يوجد في التاريخ ذكرٌ لها، أو أن يُنقل بالصّراحة ما يتعلّق بوقائعها؟ والجواب ـ كما أُشير سابقًا ـ وباختصار، هو أنّه يجب البحث أوّلًا عن سبب عدم هذا الظهور في البداية، في تمسّك أصحاب الإمام عليه السلام الشديد بأصل التقيّة المُعتبر والراقي، والّذي يمنع نفوذ أيّ غريبٍ إلى تشكيلات الإمام عليه السلام؛ ويؤدّي في النهاية إلى فشل جهاد الشيعة في هذه المرحلة وعدم وصولهم إلى السلطة والّذي هو أيضًا بذاته معلولًا لعوامل عدّة. لو لم يصل العبّاسيّون إلى السلطة، لبقيت مساعيهم

ونشاطاتهم السرّية وذكرياتهم المرّة والحلوة من نشاطاتهم الإعلاميّة بلا شك في الصدور، ولما عرف أيّ أحدٍ شيئًا عنهم ولما سجّلها التاريخ. القائد الصادق

عندما نتحدّث عن التقيّة من الممكن أن تقولوا أنّ التقيّة ترتبط بذلك الزمان الّذي كانت فيه الحكومة الجائرة ممسكة بزمام السلطة ونحن كنّا في خفاءٍ ولا نقول شيئًا بسبب الخوف منها. كلا، في ذلك الوقت لم تكن التقيّة قضيّة خوف. «التقيّة ترس المؤمن»[1] فأين يُستعمل التّرس؟ إنّه يُستخدم في ميدان الحرب وأثناء القتال. إذًا، التقية تكون في مورد المواجهة والقتال، حيث الترس والحرز والخندق والرمح.

وقد كان الأمر هكذا في ذلك الزمان. عندما كنّا نستعمل التقيّة لم يكن معنى ذلك أنّنا كنّا ننزل ضربة السيف على جسد العدوّ المنحوس، لكنّه كان بطريقةٍ لا يرى فيها ولا يدرك أنّ هناك سيفًا ويدًا تحمل السيف، أو ترفعه وتضرب به، بل كان يشعر بالألم فقط. هكذا كانت التقيّة. أولئك الّذين كانوا يستعملون التقيّة في تلك الأيّام هكذا كانوا يفعلون، فقد كانوا على سبيل المثال، يعدّون المنشورات بعيدًا عن أعين العدوّ وفي البيوت السرّية رغم المراقبة الشديدة، وعندما توزّع كانت تهتك سمعة النّظام. هذا العمل، كان كضربة السيف عندما يُرفع، فإنّه ينزل على رأس العدوّ وعاتقه. وبناءً عليه، كنّا نتّقي أي أنّنا لم نكن نسمح للعدوّ أن يدرك ماذا يجري. فالتقيّة ترسٌ والمتّقي يختبئ خلف الترس. هذا هو معنى التقيّة وهي الآن تعطي هذا المعنى نفسه. ١٩٩٠/١/٢٩

المواجهة السياسية عند الإمام الصادق عليه السلام

هذا أيضًا يُعدّ خطًّا واضحًا في حياة الإمام الصادق عليه السلام؛ بحيث أنّنا يمكن أن نراه بشكلٍ أكثر تميّزًا وصراحةً وصحّةً ممّا نراه في حياة الأئمّة الآخرين. فحتّى لو حصل الاختلاف على تسمية فقه الشيعة بالفقه الجعفري، أو وجدنا من ينكر النشاط السياسي للإمام عليه السلام أو يغضّ النظر عنه، فإنّ الجميع متّفقون على أنّ الإمام الصادق كان له أوسع الحوزات العلميّة والفقهيّة في زمانه، أو إحدى

١. بحارالأنوار، كتاب العشرة، أبواب حقوق المؤمنين بعضهم على بعض و بعض احوالهم، باب ٨٧، ح ٦.

أوسعها. في هذا المجال، إنّ ما بقي خفيًّا عن أعين أكثر الباحثين حول حياة الإمام عليه السلام، هو المفهوم السياسي والبعد المعارض لهذا العمل، ونحن نقوم بتناوله.

كمقدّمة، ينبغي العلم بأنّ جهاز الخلافة في الإسلام يختلف عن جميع الأجهزة الأخرى للحكم، من جهة أنّه ليس مجرّد تشكيل سياسي، بل يمثّل قيادةً سياسيّةً دينيّة. فاسم الخليفة ولقب الخليفة للحاكم الإسلامي يدلّ على هذه الحقيقة وهي أنّه أكبر من القائد السياسي؛ فهو خليفة النبيّ، والنبيّ هو من جاء بالدين والتعاليم الأخلاقية؛ وبالطبع، في نفس الوقت، هو قائدٌ وحاكمٌ سياسيّ. فالخليفة في الإسلام، بالإضافة إلى السياسة، يتكفّل الأمور الدينيّة للناس ويُعدّ إمامهم الدينيّ.

هذه الحقيقة المسلّمة أدّت إلى أن يقوم من جاء من الحكّام ـ بعد السلسلة الأولى للخلفاء الإسلاميين، والّذين كانوا، (أي الحكّام اللاحقين) لا يتمتّعون بالمعرفة الدينيّة أو كانوا ذوي معرفة محدودة في هذا المجال ـ لجبران هذا النقص من خلال رجال الدين المرتبطين بهم وإلحاق الفقهاء والمفسّرين والمحدّثين المأجورين بجهاز حكمهم، وذلك من أجل أن يجعلوا هذا الجهاز مركّبًا من الدين والسياسة.

والاستفادة الأخرى من وجود هؤلاء الممثّلين للشريعة في جهاز الحكم، هي أنّهم كانوا يستطيعون بسهولة أن يبدّلوا أحكام الدين بحسب ما تقتضيه المصالح، وذلك تحت غطاء الاستنباط والاجتهاد ـ والّذي لم يكن للناس العاديين وعوامهم القدرة على تحديد معاييره ـ فكانوا يبدّلون حكم الله من أجل السلاطين والأمراء.

لقد ذكر الكتّاب ومؤرّخو القرون السابقة، نماذج غريبة من اختلاق الأحاديث، والتفسير بالرأي والّذي كان في معظم الأحوال مؤشّرًا على تدخّل السلطات السياسية. هذا العمل الّذي كان في العصور الأولى ـ وحتّى أواخر القرن الهجري الأوّل ـ يتّخذ شكل الرواية والحديث، تحوّل شيئًا فشيئًا إلى شكل الإفتاء؛ ولهذا نجد في أواخر العصر الأمويّ وبدايات العصر العبّاسي، الكثير من الفقهاء الّذين يصدرون الأحكام الإسلاميّة بحسب آرائهم ـ والّتي كانت في الواقع آراء وتوجّهات القوى الحاكمة ـ باستخدام الأساليب المبتدعة، كالقياس والاستحسان. وقد حصل

مثل هذا أيضًا فيما يتعلّق بتفسير القرآن. فتفسير القرآن بالرأي كان من الأعمال الّتي يمكن بسهولة أن تنجرّ إلى تبديل حكم الله أمام أعين الناس، وجعلهم يعتقدون بما يريده المفسّر، والّذي كان في الغالب ما يمثّل إرادة الحاكم.

وبهذه الطريقة فإنّ الفقه والحديث والتفسير قد انقسم إلى تيّارين عامّين منذ بدايات العصور الإسلامية: التيّار الأوّل هو المرتبط بأجهزة الحكم الغاصب، والّذي كان في الكثير من الحالات يجعل الحقيقة فداءً لمصالح تلك الأجهزة، ويحرّف أحكام الله لقاء أثمانٍ بخسة؛ والتيّار الآخر هو التيّار الأصيل والأمين الّذي ما كان ليقدّم أيّة مصلحة على مصلحة الأحكام الإلهيّة الصحيحة. ومن الطبيعيّ أن يكون في مواجهةٍ مباشرة مع أجهزة الحكم والفقاهة العميلة مع كلّ خطوة يخطوها؛ ومنذ ذلك اليوم كان يتّخذ في أغلب الأوقات شكل عمل خفيّ وغير رسميّ.

وبهذا الوعي يمكن و بوضوح أن نعلم أنّ الفقه الجعفري لم يكن مجرّد خلافٍ عقائديٍّ دينيٍّ بسيط مع فقه فقهاء ذلك الزّمان في زمان الإمام الصادق عليه السلام، بل كان هذا الخلاف في نفس الوقت يحمل مضمونين للمواجهة أيضًا. الأوّل والأهمّ هو إثبات عدم تمتّع جهاز الحكم بالوعي الدينيّ والمعرفة وعجزه عن إدارة الأمور الفكرية للناس، وهذا في الواقع يعني عدم صلاحيّته للتصدّي لمقام الخلافة؛ والآخر هو تشخيص موارد التحريف في الفقه الرّسمي والناشئ عن المصلحة والمنفعة للفقهاء في بيان الأحكام الفقهيّة ومداراتهم لما يُمارسه ويرغب به أرباب السلطة والحكم. فالإمام الصادق، وبنشره لبساط العلم والمعارف الإسلامية وتفسير القرآن بمنهجٍ مخالفٍ لمنهج علماء البلاط، يكون في الواقع قد نهض لمعارضة ذلك الجهاز. فهو عليه السلام بهذه الوسيلة كان يخطّئ جميع التشكيلات المذهبية والفقهية الرّسميّة، والّتي كانت تُعدّ ضلعًا مهمًّا لحكومة الخلفاء، ويعتبر جهاز الحكم خاويًا من ناحية البعد الدينيّ.

أمّا إلى أي مدى التفت جهاز حكم بني أميّة إلى بعد المواجهة في النشاط العلميّ والفقهيّ للإمام الصادق عليه السلام، فلا يوجد لدينا سندٌ أو وثيقةٌ واضحةٌ، ولكن أغلب الظنّ هو أنّه في زمان بني العبّاس، وخصوصًا المنصور الّذي كان يتمتّع بدهاء وحنكةٍ كبيرة، ولأنّه كان قد أمضى كلّ حياته

السابقة على خلافته، في بيئة النضال والمواجهة ضدّ الأمويين، فإنّه كان مطّلعًا على النّكات الدقيقة في مجال مواجهات وجهاد العلويين، وكان يوجّه زعماء ومسؤولي جهازه إلى الدّور المؤثّر لهذه المواجهة غير المباشرة.

إنّ التهديدات والضغوط والشدائد اللامحدودة للمنصور تجاه النشاطات التعليميّة والفقهيّة للإمام عليه السلام، قد ذُكرت ودُوّنت في العديد من الروايات التاريخية، ومنها ما نشأ من هذا التوجّه والشعور؛ وأيضًا تأكيده وإصراره الكبير على جمع الفقهاء المعروفين في الحجاز والعراق في مقرّ حكومته ـ وهو ما يُستنتج من مضمون العديد من الروايات التاريخيّة ـ فكلّ ذلك ناشئٌ من شعوره بذلك الاحتياج. ففي مباحثات الإمام ووصاياه إلى أصحابه والمقرّبين، يُشاهد بوضوحٍ استفادته من عامل «أن لا نصيب للخلفاء من العلم»، كدليل على أنّه لا يحقّ لهم الحكم بالمنظار الإسلاميّ؛ أي أنّ الإمام كان يطرح بصراحةٍ ذاك المضمون الاعتراضيّ الّذي كان موجودًا في تدريسه للفقه والقرآن.

ويُنقل في حديثٍ عنه: «نحن قومٌ فرض الله طاعتنا وأنتم تأتمّون بمن لا يُعذر الناس بجهالته»[1]، أي أنّ الناس وبسبب جهالة الحكّام والقادة غير المؤهّلين ابتلوا بالانحراف والضلالة وسلكوا طريقًا غير طريق الله، وهم لذلك لا يمكنهم أن يكونوا معذورين عند الله كأن يقولوا أنّنا أخطأنا في تشخيصنا للطريق؛ وهؤلاء الزعماء وقادتنا، هم الّذين جرّونا إلى هذا الطريق بسبب الجهالة؛ لأنّ طاعة أمثال هؤلاء القادة هو بحدّ ذاته عملٌ خلافيّ ومعصية فلا يمكن عندها تبرير المعاصي اللاحقة[2].

هذا المفهوم المتعلّق بالقيادة السياسية في مجتمع الإسلام الثوريّ، أي القيادة الثورية والتي ينبغي أن تكون متلازمة بالضرورة مع القيادة الفكرية والأيديولوجيّة، يوجد بوضوحٍ في تعاليم

١. الكافي، كتاب الحجة، باب فرض طاعة الأئمه، ح ٣.

٢. وقد كرّر القرآن المضمون ذاته في العديد من المواطن وبألفاظ مختلفة؛ فذكر التخاصم بين الذين اتّبعوا والذين اتُّبعوا على طريق الضلالة، وشكوى الذين اتّبعوا من الذين أضلّوهم... وفي النهاية يذكر أنّ هذا العذر لا يُقبل من أحد وأنّ كلتا الفئتين لهما نصيبهما من العذاب. يُراجع الآية ١٦٧ من سورة البقرة والآية ٩١-١٠٢ من سورة الشعراء، والآية ٣١-٣٣ من سورة سبأ، والآية ٩٧ من سورة النساء.(الكاتب)

الأئمّة الّذي جاؤوا قبل الإمام الصادق عليه السلام وبعده. ففي روايةٍ عن الإمام عليّ‌بن‌موسى عن جدّه الأكبر، الإمام محمّد الباقر عليه السلام، يساوي ما بين «السّلاح» في سلالة الإمامة والتابوت الّذي كان عند بني إسرائيل السابقين: «السلاح فينا كالتابوت الّذي كان عند بني إسرائيل، فمن كان عنده كانت النبوّة (وفي رواية الحكومة) له. ومن كان عنده السلاح كانت القيادة والزعامة له». وبالالتفات إلى الشكل الرمزيّ والمفهوم العميق جدًا لهذا التعبير يسأل الراوي هنا: «أفيكون السلاح مزايلًا للعلم»؟[١] والإمام يجيب قائلًا: كلا. أي أنّ قيادة المجتمع والقيادة الثورية للأمّة المسلمة تكون لمن يكون عنده السلاح مع العلم.[٢]

فالإمام من جهةٍ، يعتبر شرط الإمامة، معرفة الدين والفهم الصحيح للقرآن؛ ومن جانبٍ آخر، فإنّه من خلال نشر صروح العلم وجمع عدد كبير من التائقين لمعارف الدين حول نفسه، وتعليم الدين بأسلوبٍ خاص مخالفٍ للمنهج المعتمد في الفقه والحديث والتفسير، بل المغاير بشكل تام للمعرفة الدينية الرائجة عند العلماء والمحدّثين والمفسّرين المرتبطين بالبلاط، قد أثبت معرفته الدينيّة وعدم معرفة الدّين من قبل جهاز الخلافة مع كلّ ما عنده من علماء وأصحاب شهرةٍ ومقام، يتبعونهم. وبهذه الطريقة، يضفي الإمام الصادق عليه السلام بعدًا جديدًا على معارضته المستمرّة والعميقة والهادئة في المواجهة.

وكما أشير من قبل فإنّ الحكّام الأوائل من بني العبّاس، والّذين كانوا قبل وصولهم إلى السلطة متواجدين في البيئة الجهاديّة للعلويّين وإلى جنب أنصار آل علي و أتباعه، و هم أرباب البصيرة والاطّلاع على الكثير من أسرار تفاصيلهم وتشعّباتهم، أدركوا أكثر من أسلافهم الأمويين الدور الاعتراضيّ لهذه الدروس والمباحث والأحاديث والتفسير. ولعلّه لأجل هذا، منع المنصور العبّاسي أثناء مواجهته الشريرة للإمام الصادق عليه السلام، الإمامَ لمدّة من الجلوس مع الناس، وتعليمهم الدين والتواصل معهم، والإجابة عن أسئلتهم؛ إلى أن وصل الأمر بحسب نقل المفضّل‌بن‌عمر ـ هذا

---

١. وقد أخذنا هذا المعنى لكلمة مزايلًا من كلامٍ للمحدّث المعروف العلّامة المجلسي في كتاب مرآة العقول. (الكاتب)

٢. الكافي، كتاب الحجة، باب ان مثل سلاح رسول الله مثل التابوت في بني اسرائيل، ح ٨.

الوجه الشيعيّ اللامع والمعروف ـ أنّ كلّ من كان لديه مسألةٌ في باب الزواج والطلاق وأمثالها لم يكن يستطيع بسهولة أن يصل إلى الإمام الصادق ليجيبه[١]. القائد الصادق

التشكيلات السرّية الأيديولوجية والسياسية

لقد استطاع الإمام الصادق عليه‌السلام وبمساعدة آبائه ـ الإمام السجّاد والإمام الباقر وخصوصًا في أواخر حياة الإمام الباقر عليه‌السلام ـ إعدادَ عدّةٍ مؤمنةٍ مسلمة دينية أصيلة ثورية مضحيّة من أجل المخاطرة في كلّ أنحاء العالم الإسلامي. ولم يكن هؤلاء أشخاصًا عاديين، لا يعني ذلك أنّهم كانوا من طبقات مميّزة، كلا، فمنهم التاجر والكاسب والغلام وأمثالها، ولكن من ناحية الركيزة المعنوية، لم يكونوا يشبهون أشخاصًا عاديين بأيّ شكلٍ من الأشكال. كانوا أشخاصًا تُختصر حياتهم في هدفهم وفي مذهبهم، وكانوا منتشرين في كلّ الأماكن. من المدهش أنّ أتباع الإمام الصادق عليه‌السلام كانوا منتشرين في كلّ مكان، لا تتصوّر أنّ ذلك كان فقط في المدينة، بل كانوا في الكوفة أكثر من المدينة، وفي الشام أيضًا. فهؤلاء كانوا يمثّلون الشبكة العظيمة لتشكيلات الإمام الصادق عليه‌السلام. الحزب العلويّ وحزب التشيّع، وما ذكرته هنا بشأن تلك الشبكة، هو نفس التشيّع. وهذا من الفصول الّتي لم تُعرف من حياة الإمام الصادق، إنّه من الأمور الّتي أؤكّد عليها وأصرّ، كان هناك شبكة تنظيمية عظيمة وحزبٌ كامل يُدار من قبل الإمام الصادق عليه‌السلام في كلّ أرجاء العالم الإسلامي وكانت هذه من نقاط القوّة. ١٩٨٠/٩/٥

كان هناك شبكة، هي الّتي كانت تتحمّل مسؤولية الأنشطة الواسعة والمثمرة المتعلّقة بقضية الإمامة في الكثير من المناطق النائية لدولة المسلمين، وخصوصًا في نواحي العراق العربي وخراسان. ولكن هذا أحد وجوه القضية وجزء صغير جدًا منها. إنّ موضوع التشكيلات السرّية في ساحة الحياة السياسية للإمام الصادق عليه‌السلام وللأئمّة أيضًا، هو من أهم فصول هذه الحياة والسيرة الجيّاشة، وفي نفس الوقت من أكثرها غموضًا وإبهامًا.

---

١. مناقب آل أبي طالب، ج ٤، باب إمامة أبي‌عبدالله جعفربن‌محمد الصادق ع، باب في الخرق العادات له.

وكما قلنا سابقًا، من أجل إثبات وجود مثل هذه المنظّمة، لا يمكن أن نتوقّع وجود ذلك بصراحةٍ في الوثائق. لا ينبغي توقّع أن يعترف أحد الأئمّة أو أحد أصحابهم المقرّبين بالصراحة بوجود تشكيلات سياسيّة فكريّة شيعيّة؛ فمثل هذا لا يمكن الاعتراف به. المعقول هو التنكّر التام لوجود هذا الامر، في حال اذا اطّلع العدوّ على وجود هذه التشكيلات، وسأل هذا الإمام عليه السلام أو أحد أصحابه حوله، بل ينبغي اعتبار ذلك ظنًّا سيّئًا أو تهمةً باطلة. فمثل هذا الأمر هو من خصائص العمل السرّي الدائم. من خلال البحث في تاريخ حياة الأئمّة، لا يمكن القبول بمثل هذه التشكيلات دون وثيقةٍ معتبرة أودليلٍ مقنعٍ. فيجب السعي للوصول إلى القرائن والشواهد وبواطن الحوادث الّتي تبدو بالظاهر بسيطةً، وإن لا تلفت نظر المشاهد العادي، ولكن بالدقّة والتأمّل نرى أنّ الشواهد تنبئ عن أحداثٍ سرّيةٍ كثيرة. لو أنّنا نظرنا من هذا المنظار إلى كلّ مرحلة من حياة الأئمّة الّتي استغرقت قرنين ونصف، فسوف نقرّ ونعترف، وجود مثل هذه التشكيلات السريّة الّتي تعمل تحت إمرة الأئمّة. القائد الصادق

الفصل الحادي عشر

الإمام الكاظم عليه السلام

هذا المقطع الزمني الممتدّ لـ٣٥ سنة ـ من عام ١٤٨ للهجرة إلى ١٨٣ ـ وهو مرحلة إمامة الإمام أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام، يُعدّ أهم (مقطع) في مسيرة حياة الأئمّة عليهم السلام. ففيه حكمَ اثنان من أكثر سلاطين بني العبّاس اقتدارًا ـ المنصور وهارون الرشيد ـ واثنان من أكثرهم تجبّرًا، المهدي والهادي. ولقد تمّ القضاء على الكثير من الثورات والانتفاضات وتطويعها، في خراسان وأفريقيا والموصل والديلم وجرجان والشام ونصيبين ومصر وآذربايجان وأرمينيا وغيرها من الأقطار. وفي نواحي الشرق والغرب والشمال، من النطاق الإسلامي الوسيع، أُضيفت فتوحات جديدة وأموال وغنائم وافرة، فزادت قدرة عرش العبّاسيين واستحكمت.

في هذه المرحلة وصلت بعض التيّارات الفكرية والعقائدية إلى أوجها، وبعضها تولّد وخلقَ جوًّا فكريًّا مليئًا بالشبهات، ومنح لأصحاب السلطة والقدرة حربةً جديدة وأضحى آفةً في الوعي الإسلامي والسياسي للناس، وضيّق على رواة المعارف الإسلامية الأصيلة وأصحاب الدعوة العلويّة وتصعّب عليهم الأمر.

وقد تحوّل الشعر والفنّ والفقه والحديث، وحتى الزهد والورع إلى خدمة أصحاب السلطة؛ وأكمل لهم أدوات الهيمنة والتسلّط. في هذا العصر، لم يعُد الوضع كما كان عليه في نهاية عصر بني أميّة، ولا كان شبيهًا بالسنوات العشر الأولى لحكم العبّاسيين، ولا شبيهًا من مرحلة ما بعد وفاة هارون، بحيث يمثل في كلّ منها تهديدًا للحكومة المتسلّطة في تلك الأزمنة؛ فأي تهديدٍ جدّي، لم يزلزل جهاز الحكومة

وما كان أرباب الحكم، في هذا المقطع الزمني، غافلًا عن التيّار العميق والمستمرّ لدعوة أهل البيت عليهم السلام.

في هذا العصر، الشيء الوحيد الّذي كان من الممكن أن يمنح مجالًا لاستمرار جهاد أهل البيت عليهم السلام وحركتهم الفكرية والسياسية، هم وأتباعهم المقرّبين، هو السعي دون هوادة، والجهاد الخطير واعتماد أسلوب التقيّة. ومن هنا تتضّح العظمة المدهشة لجهاد موسى بن جعفر عليه السلام.

يجب أن أقول إنّ المحقّقين والمتعمّقين في التاريخ الإسلامي عندما قاموا بتتبّع ودراسة حياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، فإنّهم لم يخصّصوا القدر اللازم من التوجّه والانتباه لتلك الحادثة العظيمة والّتي لا نظير لها وهي «مدة السجن الطويلة» لهذا الإمام الهمام، ولهذا كانت النتيجة أن غفلوا عن جهاده الخطير.

وفي سيرة حياة هذا الإمام الغالي، فإنّ الحديث عن الأحداث المختلفة وغير المترابطة فيما بينها، والتأكيد على مقامه العلمي والمعنوي، ونقل قضايا آل بيته وأصحابه وتلامذته، ومناظراته العلمية والكلامية وأمثالها، دون التوجّه إلى خطّ الجهاد المستمرّ الّذي شمل مدّة إمامته المباركة الممتدّة لـ٣٥ سنة، كلّ ذلك يبقى ناقصًا وغير تام. فبتبيين هذا الخطّ الّذي يربط جميع أجزاء هذه الحياة المليئة بالبركة فيما بينها، وبتقديم صورةً واضحةً ومتكاملةً وهادفةً فيها، تتّضح معاني كلّ ظاهرة أو حادثة أو حركة.

فلماذا يقول الإمام الصادق عليه السلام للمفضّل: لا تخبر أحدًا عن أمر إمامة هذا الفتى إلا لمن تثق بهم؟ ويقول لعبدالرحمن بن الحجّاج تلميحًا لا تصريحًا: لقد كان الدرع على مقاسه؟ ويعرّفه على شيعته المقرّبين كصفوان الجمّال بالعلامة والصفة؟ ولماذا في آخر الأمر، في وصيّته يذكر اسم ابنه كوصيّ له بعد ذكر أربعة أسماء، أوّلهم المنصور العبّاسي ومن ثمّ حاكم المدينة ومن ثمّ امرأتين؛ بحيث أنّ جمعًا من كبار الشيعة لا يعرفون بعد ارتحاله، أنّ خليفته هو هذا الفتى ابن العشرين سنة؟ ولماذا في حديثه مع هارون الّذي خاطبه قائلًا: «خليفتان يجيء إليهما الخراج»[1] يتنكّر ويلاطف، في حين أنّه في بداية خطابه لذلك الرجل الزاهد وصاحب الكلمة النافذة، المدعوّ حسن بن عبدالله، ينجرّ الحديث إلى معرفة الإمام، ويعرّفه بعنوان الإمام

---

١. الإحتجاج، إحتجاج أبي ابراهيم موسى بن جعفر ع في اشياء شتى على المخالفين، ح ١٠.

المفترض الطاعة، أي صاحب المقام الّذي كان في ذلك اليوم، الخليفةُ العبّاسي قابضًا عليه؟

ولماذا يأمر علي بن يقطين، الّذي كان صاحب منصبٍ رفيعٍ في جهاز هارون وهو من محبّي الإمام عليه السلام، بالتقيّة، لكنّه يوبّخ صفوان الجمّال على خدمته في نفس ذلك الجهاز ويدعوه إلى قطع علاقته مع الخليفة؟ وكيف وبأيّة وسيلة يوجد تلك العلقة والرابطة على امتداد انتشار الإسلام بين أتباعه وشيعته، فتمتدّ تلك الشبكة إلى الصين؟ لماذا يعزم كلّ من المنصور والمهدي وهارون والهادي، في مرحلة حكمه، على قتل الإمام وحبسه ونفيه؟ لماذا؟، كما يُعلم من بعض الروايات، أنّ الإمام عليه السلام يتخفّى مدّة من الزمن، أثناء هذه الـ٣٥ سنة، ويلجأ إلى بعض قرى الشام أو مناطق طبرستان، فتتمّ ملاحقته من قبل خليفة ذلك الزمان ويوصي أتباعه بالتنكّر له وعدم معرفته فيما لو سألهم الخليفة عنه؟

لماذا يقوم هارون في موسم الحجّ بتجليله إلى أعلى حدّ، وفي حجةٍ آخرى يأمر بحبسه ونفيه؟ ولماذا يقوم الإمام عليه السلام ببيان حدّ فدك الّذي يشمل كلّ العالم الإسلاميّ المترامي، في بداية خلافة هارون، حينما انتهج أسلوب اللين والصفح وحرّر العلويين من السجون إلى الدرجة الّتي يجيبه الخليفة معترضًا: إذًا قم واجلس مكاني؟ ولماذا يتبدّل سلوك هذا الخليفة اللّين بعد عدّة سنوات إلى الشدّة والعنف حتّى أمر بحبس الإمام عليه السلام وفيما بعدها بسنوات لم يعد يتحمّل وجوده في السجن، فيأمر بقتله بالسمّ وارتكاب تلك الجريمة؟

هذه ومئات الأحداث الملفتة والمليئة بالمضمون، والّتي بحسب الظاهر غير مترابطة وأحيانًا متناقضة فيما بينها، نراها في حياة موسى بن جعفر عليه السلام، تصبح ذات معنى وارتباط عندما نشاهد تلك السلسلة المستمرّة منذ بداية إمامته وإلى لحظة شهادته. وهذه السلسلة هي خطّ الجهاد والمواجهة للأئمّة عليهم السلام والّذي استمرّ طيلة ٢٥٠ سنة وبأشكالٍ مختلفة وكان الهدف منه أوّلًا، تبيين الإسلام الأصيل والتفسير الصحيح للقرآن، وتقديم صورة واضحة عن المعالم الإسلامية؛ وثانيًا، تبيين قضية الإمامة والحاكمية السياسية في المجتمع الإسلامي؛ وثالثًا، السعي من أجل تشكيل ذلك المجتمع وتحقيق هدف نبيّ الإسلام المعظّم وجميع الأنبياء، أي إقامة القسط والعدل وعزل أنداد الله عن ساحة الحكومة، وإيداع زمام إدارة الحياة إلى خلفاء الله وعباده الصالحين.

لقد أوقف الإمام موسى بن جعفر عليه السلام كلَّ حياته لهذا الجهاد المقدّس؛ وكان تعليمه وفقهه وحديثه وتقيّته وتربيته كلّه في هذه الجهة. بالطبع، كان لزمانه خصائص، لهذا كان جهاده أيضًا متناسبًا مع مقتضيات زمانه، مثلما كان الأمر بالنسبة للأئمّة الثمانية من زمن الإمام السجّاد عليه السلام، إلى زمن الإمام العسكري، حيث كان لكلّ واحدٍ أو لمجموعة منهم خصائص في زمانه وبتبع ذلك في جهاده؛ فكانت حياتهم بالمجموع عبارة عن المرحلة الرابعة من مسيرة حياة الـ٢٥٠سنة والّتي يمكن تقسيمها أيضًا إلى مراحل. ١٩٨٩/١٠/١٨

السعي دون كللٍ واعتماد أسلوب التقيّة

كانت حياة موسى بن جعفر عليه السلام، حياةً مدهشة وعجيبة. ففي حياته الخاصّة، كان الأمر واضحًا بالنسبة للمقرّبين. فلم يكن أيٌّ من هؤلاء المقرّبين والخواص من الأصحاب مَن لا يعلم بالهدف من وراء جهاده. وكان الإمام موسى بن جعفر عليه السلام نفسه يصرّح بهذا في كلماته وإشاراته وأعماله الرمزية لغيرهم أيضًا، حتّى في محلّ إقامته، تلك الغرفة الخاصّة الّتي كان يستقرّ فيها، كان الأمر بحيث إنّ الراوي الّذي كان من المقرّبين من الإمام عليه السلام يقول: لقد دخلت ورأيت في غرفة موسى بن جعفر ثلاثة أشياء؛ أحدها لباسٌ خشن بعيدٌ كلّ البعد عن الحال المعتمد المرفّه العاديّ، أي بحسب مصطلح اليوم يمكن الفهم ويمكن القول أنّه لباس حربٍ. لقد وضع موسى بن جعفر هذا اللباس الذي لم يلبسه كحالةٍ رمزية. و«سيفٌ معلّق» أي إما أن يكون متدلّيًا من السقف أو معلّقًا بالجدار، و«المصحف»[1] أي القرآن. فانظروا أيّ رمزٍ هذا وأيّة إشارةٍ جميلة هذه، حيث نشاهد في غرفته الخاصّة الّتي لا يدخلها سوى أصحابه الخواص، علامات ومؤشّرات رجل دين حربيٍّ. والسيف الموجود كان يشير إلى أنّ الهدف هو الجهاد. واللباس الخشن يشير إلى الوسيلة وهي الحياة الثورية القتالية الخشنة؛ والقرآن يشير إلى أنّ الهدف هو أنّنا نريد أن نصل إلى حياة القرآن بهذه الوسائل وهذه الصعاب الّتي نتحمّلها؛ وأعداء الإمام عليه السلام كانوا يشعرون بهذه الأمور.

١. بحارالأنوار، كتاب تاريخ علي بن الحسين و...، أبواب تاريخ الإمام موسى بن جعفر، باب ٥، ح ١.

إنّ حياة موسى بن جعفر، ومدّة إمامته، بدأت في أصعب المراحل والمقاطع الزمنيّة. فباعتقادي لايوجد عصر من بعد عصر الإمام السجّاد عليه السلام بشدّة وصعوبة عصر موسى بن جعفر عليه السلام. فموسى بن جعفر عليه السلام صار إمامًا عام ١٤٨ بعد وفاة أبيه الإمام الصادق عليه السلام. وفي هذا العام كانت أوضاع بني العبّاس قد استتبّت، بعد فراغهم من الصراعات والخلافات والحروب الّتي كانت دائرة فيما بينهم في بداية حكمهم. فلقد قضوا على التهديد الكبير لخلافتهم والّذي كان يجيء من شخصيات وجيهة كبني الحسن ـ محمّد بن عبدالله بن الحسن وإبراهيم بن عبدالله بن الحسن وبقية أولاد الإمام الحسن الّذين كانوا من أشدّ الناس عداءً ونقمةً على بني العبّاس ـ حيث قتل العبّاسيّون عددًا كبيرًا من رؤسائهم ووجهائهم، وتبيّن هذا الأمر بعد فتح الأسطوانات والأنبار عند موت المنصور العبّاسي، حيث وجدوا فيها عددًا كبيرًا من الشخصيّات المقتولين الّذين رُميت أجسادهم وظهرت هياكلهم العظمية. فلقد قتل المنصور من الشخصيات المشهورة والمعروفة من بني الحسن وبني هاشم من أقاربه ومن الّذين كان يعدّون من المقرّبين لهم، بحيث إنّه بنى لذلك مخازن خاصّة. وبعد أن فرغ من كلّ هؤلاء، وصل الأمر إلى الإمام الصادق عليه السلام، فقتله بالسمّ غيلةً. ولم يعد في أجواء الحياة السياسية للعبّاسيين أيّ غبارٍ، في مثل هذه الظروف الّتي كان يتمتّع فيها المنصور بأوج السلطة الظاهرية والقدرة، جاء دور إمامة موسى بن جعفر عليه الصلاة والسلام، الّذي كان شابًّا في مقتبل العمر، وكان يخضع لكلّ هذه الرقابة. وكان الأمر بحيث إنّ الّذين كانوا يريدون أن يعرفوا إلى من يرجعون بعد الإمام الصادق عليه السلام كانوا يجدون صعوبة بالغة في شقّ الطريق والوصول إلى موسى بن جعفر عليه السلام. وكان موسى بن جعفر عليه السلام يوصيهم بالحذر لأنّه لو عُرف أنّهم قد سمعوا منه وأخذوا من تعاليمه وارتبطوا به، سيكون مصيره القتل[1]. ففي مثل تلك الظروف، وصل الإمام موسى بن جعفر عليه السلام إلى الإمامة وبدأ جهاده.

وهنا لو سألتم أنّه كيف بدأ موسى بن جعفر جهاده عندما وصل إلى الإمامة، وماذا فعل، ومن جمع، وأين ذهب، وأيّة أحداثٍ جرت عليه طيلة هذه الـ٣٥ سنة، فللأسف ليس لنا جوابٌ واضح، وليس لي سوى الغصص كمحقّقٍ في حياة صدر الإسلام. فلا يوجد في يد أحد، سيرةٌ مرتّبة ومدوّنة عن

---

١. الكافي، كتاب الحجة، باب ما يفصل به بين دعوي المحق والمبطل في امر الإمامه، ح ٧.

هذه المرحلة الممتدّة على ٣٥ سنة. إنّ ما أذكره هنا لم يُكتب، ولم يجرِ حوله أبحاثٌ وتحقيقات، ويجب أن يحصل ذلك من أجل هذا الأمر. هناك أشياءٌ متفرّقة يمكن أن نفهم من مجموعها أشياء كثيرة.

إحداها أنّ هناك أربعة خلفاء حكموا في مرحلة إمامة موسى بن جعفر عليه السلام في هذه السنوات الـ ٣٥. ومنهم المنصور العبّاسي والّذي امتدّ حكمه في بداية إمامة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام لمدة ١٠ سنوات، ثم جاء ابنه المهدي من بعده وحكم أيضًا لعشر سنوات. ومن بعد المهدي، جاء الهادي العبّاسي ليحكم سنةً واحدة، ومن بعده هارون الرشيد الّذي حكم لمدّة ١٢ سنة تقريبًا، وقد كان الإمام موسى بن جعفر عليه السلام مشغولًا بالتبليغ والدعوة إلى الإمامة. وكلّ واحد من هؤلاء الخلفاء الأربعة، ضايقوا موسى بن جعفر عليه السلام وضغطوا عليه.

فالمنصور استدعى الإمام عليه السلام (نفاه أو أحضره) جبرًا إلى بغداد. وبالطبع، مثل هذه الأمور جرت بعد تلك الأحداث. عندما ينظر المرء إلى حياة موسى بن جعفر يرى الكثير من هذه الحوادث. وإحداها هو استحضاره من المدينة إلى بغداد وجعله تحت الرقابة والضغوط. وما نستنتجه من الروايات، أنّ الإمام عليه السلام، قد وُضع تحت الكثير من المحظورات. وكم امتدّت هذه الحالة، ليس معلومًا. ففي مقطعٍ من حكومة المنصور، وبحسب الظاهر، جلبوا الإمام عليه السلام إلى منطقة في العراق تُدعى أبجر، ووضعوه فيها مدّة معيّنة. يقول الراوي أنّني وصلت إلى محضر موسى بن جعفر عليه السلام، وهو هناك في تلك الحوادث، فقال لي الإمام عليه السلام كذا وفعل كذا. وفي زمن المهديّ العبّاسي، أُحضر الإمام عليه السلام مرّة واحدة على الأقل من بغداد إلى المدينة. يقول الراوي: إنّني التقيت بموسى بن جعفر على طريقٍ وهم يحضرونه إلى بغداد «في المقدّمة الأولى»[1] ــ فيُعلم من هذا التعبير أنّ الإمام عليه السلام قد أُحضر عدّة مرّات ولعلّ ثلاث مرّات في زمن المهدي ــ فوصلت إلى الإمام عليه السلام وتأسّفت وتألّمت. فقال لي الإمام: كلّا، لا تحزن، سأرجع من هذا السفر سالمًا، وهؤلاء لن يتمكّنوا من أن يضرّوني بشيء؛ وكان هذا في زمان المهديّ.

وفي زمن الهادي العبّاسي، أرادوا إحضاره من أجل قتله، وهناك حزن أحد الفقهاء المحيطين بالهادي العبّاسي وتألّم قلبه عندما رأى ابن النبيّ يُفعل به هذا، فتوسّط للهادي العبّاسي، فانصرف

---

١. بحارالأنوار، كتاب تاريخ علي بن الحسين و...، أبواب تاريخ الإمام موسى بن جعفر، باب ٤، ح ٩٩.

عن قتله. وفي زمن هارون، حينما جلبوا الإمام عليه السلام إلى بغداد، وسُجن لمدّة طويلة وعلى مراحل، كما يبدو أنّه جرى ذلك في زمن هارون أكثر من مرّة، لكنّ المسلّم به أنّ ذلك حصل مرّة واحدة، حيث أُحضر الإمام عليه السلام من المدينة ووُضع في سجون مختلفة وكان أحدها في بغداد، وكان آخرها سجن السنديّ بن شاهك، الّذي قتل فيه الإمام عليه السلام.

انظروا، طيلة هذه السنوات الـ٣٥، حينما كان موسى بن جعفر عليه السلام مشغولًا بالدعوة إلى الإمامة والقيام بالتكليف والجهاد، قد استُدعي عدّة مرّات وأُحضر من قبل الحكومة. هذا بالإضافة إلى أنّ خلفاء عصره عزموا عدّة مرّات على قتله، وخططوا لذلك. فالمهدي العبّاسي ابن المنصور بمجرّد أن وصل إلى الحكم، قال لوزيره أو حاجبه الربيع، أنّه عليك أن تعدّ العدّة لقتل موسى بن جعفر عليه السلام والقضاء عليه. كان الخليفة يشعر أنّ الخطر الأساسي يأتي من جانب موسى بن جعفر عليه السلام. والهادي العبّاسي، كما قلت، قد عزم في بداية حكومته على قتل الإمام. حتّى أنّه أنشد شعرًا وقال: لقد مرّ الزمان الّذي نعامل فيه بني هاشم باللين ونستسهل أمرهم، وإنّني عازمٌ وحازمٌ على أن لا أبقي منهم أحدًا، وأوّل من سأقضي عليه هو موسى بن جعفر. وفيما بعد كان هارون الرشيد أيضًا يريد أن يفعل نفس هذا الأمر، وقد فعله وارتكب هذه الجريمة الكبرى. فانظروا أيّة حياةٍ مليئة بالأحداث مرّت على موسى بن جعفر عليه السلام.

وتوجد نقاطٌ كثيرةٌ ودقيقةٌ في حياة موسى بن جعفر عليه السلام، لم تتّضح بعد. فباليقين كان موسى بن جعفر عليه السلام يعيش في مرحلة ما في الخفاء، ولم يُعلم أين كان يتستّر. وهناك نجد أنّ الحاكم يستدعي أشخاصًا ويحقّق معهم فيما لو رأوا موسى بن جعفر عليه السلام أو علموا أين هو. وكانوا يصرّحون بأنّهم لم يشاهدوه، حتّى أنّ بعض هؤلاء ـ كما جاء في رواية ـ قد أخبرهم موسى بن جعفر عليه السلام بأنّهم سيستدعونه ويسألونه عنه وعن مكان رؤيته، فأنكِر عليهم ذلك، ولا تعلِن أنّك رأيتني، فحصل ذلك وسجنوه وحقّقوا معه في ذلك.

فانظروا إلى حياة إنسانٍ لايفعل سوى بيان الأحكام والمعارف الإسلامية ولا يتدخّل في الحكومة أو يمارس المواجهة السياسية كيف وضعوه تحت هذه الضغوط. حتّى أنّني رأيت في

روايةٍ أنّ موسى‌بن‌جعفر أضحى يفرّ ويختفي في قرى الشام، «دخل موسى‌بن‌جعفر عليه السلام بعض قرى الشام هاربًا متنكّرًا فوقع في غار»[1]. حيث إنّه وفي حديثٍ رُوي، أنّ موسى‌بن‌جعفر لم يكن لمدّةٍ في المدينة، وكان يلاحَق في قرى الشام من قبل الأجهزة الحاكمة، فتُرسل بتبعه الجواسيس وتلاحقه من قرية إلى قرية، الى أن يصل الإمام عليه السلام إلى غارٍ ويدخله يجد نصرانيًا فيه، وهناك تجري مناظرة بينه وبين الإمام، وكأنّ الإمام عليه السلام حتّى في مثل تلك الظروف لم يغفل عن تكليفه الإلهيّ في بيان الحقيقة، فيتحدّث مع ذلك النصرانيّ الّذي يُسلم في النهاية.

لقد كانت حياة موسى‌بن‌جعفر عليه السلام المليئة بالأحداث هكذا، ترونها حياةً مليئةً بالمفاجآت والحماسة. نحن اليوم عندما نقرأ تاريخ حياته نظن أنّ موسى‌بن‌جعفر عليه السلام هو مجرّد شخص مظلوم، كان يعيش حياةً هادئةً ومرفّهة في المدينة، فيأتي عمّال الخليفة إليه ويأخذونه إلى بغداد أو إلى الكوفة أو إلى البصرة، لحبسه وتسميمه فيما بعد، فيستشهد وتنتهي الأمور. لم تكن القضية هكذا. بل كانت عبارة عن جهادٍ طويلٍ ومواجهة منظّمة تشمل الكثير من الأفراد. كان لموسى‌بن‌جعفر أتباعٌ في جميع أرجاء العالم الإسلامي يحبّونه. وفي ذلك الزمان نجد ابن عمّه السيّئ الذكر، والّذي كان من التابعين للجهاز الحاكم، يقول لهارون بشأن موسى‌بن‌جعفر عليه السلام هذه الجملة: «خليفتان يجيء إليهما الخراج». كأنه يقول لهارون أنّه لا تتصوّر أنّك الخليفة الوحيد على هذه الأرض، وداخل المجتمع الإسلامي، والوحيد الّذي تُجبى إليه الخراج. بل يوجد خليفتان أحدهما أنت والآخر موسى‌بن‌جعفر عليه السلام. فكما أنّ الناس يعطونك الخِراج فهم أيضًا يعطون موسى‌بن‌جعفر عليه السلام. وقد أراد بهذا الخبث السعاية في الإمام، وإن كان يذكر الواقع. لقد كان لموسى‌بن‌جعفر عليه السلام روابط وعلاقات ممتدّة عبر جميع مناطق العالم الإسلامي، غاية الأمر أنّ هذه العلاقات لم تصل إلى حيث يتمكّن موسى‌بن‌جعفر عليه السلام من القيام بحركةٍ عسكريةٍ علنيّة.

لقد كان حال موسى‌بن‌جعفر عليه السلام هكذا إلى أن وصل الأمر إلى هارون الرشيد. فكان هذا في الوقت الّذي لم يعد في المجتمع الإسلامي أيّة معارضة للجهاز الحاكم، وكان هارون الرشيد يحكم

---

١. بحارالأنوار، كتاب تاريخ علي‌بن‌الحسين و...، أبواب تاريخ الإمام موسى‌بن‌جعفر، باب ٥، ح ٨.

فارغ البال تقريبًا، لكنّ وضع حياة موسى بن جعفر عليه السلام وانتشار دعوته لم يجعل مواجهة أمره من قبلهم سهلًا. وقد كان هارون سياسيًا محنّكًا. ومن أعماله أنّه عندما توجّه إلى مكّة لمقاصد، منها، ما يحتمله الطبري ـ المورّخ المعروف، أو يذكر ذلك على نحو اليقين ـ أنّ هارون الرشيد لمّا عزم الحج، كان هدفه في الخفاء أن يذهب إلى المدينة، ويطّلع على أوضاع موسى بن جعفر عليه السلام عن قرب. وأراد أن يرى هذه الشخصية الّتي يجري كلّ هذا الحديث حوله، وحول أتباعه في بغداد. هل ينبغي أن يخاف منه؟ فجاء والتقى بموسى بن جعفر عليه السلام وكان هذا اللقاء مهمًّا جدًا وحسّاسًا للغاية. أولى هذه اللقاءات كان في المسجد الحرام حينما التقى كلّ من موسى بن جعفر عليه السلام وهارون خفاءً وجرت بينهما محادثات شديدة وحادّة، وحطّم موسى بن جعفر عليه السلام هيبة هذا الخليفة في محضر الموجودين، وهناك لم يكن هارون ملتفتًا إلى أنّ هذا هو موسى بن جعفر عليه السلام.

بعدها حينما أتى إلى المدينة، عقد عدّة جلسات مع موسى بن جعفر عليه السلام، وكانت هذه اللقاءات مهمّة. وإنّني أشير بهذا المقدار، عسى أن يتابع أهل الدراسات والتحقيق والمهتمّين بهذه القضايا الموضوع؛ فمثلًا، أنّ هارون الرشيد في هذه اللقاءات قد استعمل كلّ ما يمكنه أن يستعمله من التهديد والرشوة والحيلة، لأجل السيطرة على هذا الرجل المخالف والمجاهد الحقيقي. ١٩٨٥/٤/١٢

إنّ هارون خلال المرحلة الأولى من تصدّيه للحكم، كان يعامل الإمام الكاظم عليه السلام معاملة جيّدة وحسنة. والقصّة الّتي ينقلها المأمون حول الإمام الكاظم عليه السلام معروفة وملخّصها أنّ الإمام عليه السلام كان يمتطي دابّة وجاء ودخل إلى المكان الّذي كان يجلس فيه هارون وأراد الإمام عليه السلام أن يترجّل ولكن هارون لم يرضَ بذلك وأقسم عليه أن يبقى راكبًا ويأتي بدابّته إلى بساطه، وعندما جاء الإمام عليه السلام راكبًا على بساط الخليفة، احترمه هارون وبقيا مدّة يتبادلان الحديث. فعندما عزم الإمام عليه السلام الرحيل طلب هارون مني (أي من المأمون) ومن الأمين أن نأخذ بركاب أبي‌الحسن، إلى آخر القصّة. والشيء الملفت في هذه القصّة هو ما نقله المأمون عن أنّ أباه هارون، أعطى جميع الحاضرين في المجلس ٥ آلاف و١٠ آلاف دينار (أو درهم) كهدية وجائزة، ولكن أعطى لموسى بن جعفر عليه السلام ٢٠٠ دينار، علمًا بأنّه عندما كان الخليفة يسأل عن وضع الإمام عليه السلام كان الإمام عليه السلام يجيبه مبيّنًا له

المشكلات والأوضاع المعيشية السيّئة وكثرة العيال. فهذا الكلام من الإمام عليه السلام يحمل في طيّاته معنى دقيق، فأنا وبقيّة الّذين عاشوا تجربة التقيّة في زمان مواجهة الشاه نستطيع أن نفهم وندرك لماذا ذكر الإمام عليه السلام ولمثل هارون وضعه السيئ وعدم كفاية المعيشة، فهذا الكلام ليس فيه تذلّلًا.

الكثير منكم وفي عهد القمع والظلم، على عهد الشاه قد فعلتم مثل ما فعل الإمام عليه السلام، لأنّ الإنسان ومن خلال هذا الكلام يستطيع أن يبعد نظر العدوّ عن أعماله ونشاطاته. ومن الطبيعيّ أنّ هارون وبعد استماعه إلى مثل هذا الكلام كان ينبغي أن يعطي الإمام مبالغ طائلة ٥٠ ألف دينار (أو درهم) أو أكثر. ولكنّه رغم هذا كلّه لم يعطه أكثر من ٢٠٠ دينار! يقول المأمون سألت أبي عن سبب إعطائه القليل، فأجابني إذا أعطيته المبلغ الّذي في ذمّتي لخرج بعد فترة وجيزة ضدّي، ولقام معه مئة ألف فارس من الشيعة. فهذا كان استنتاج وفهم هارون، وبرأيي إنّ هارون كان صائبًا في فهمه. هنا يتصوّر البعض أنّه قد تمّت السعاية والوشاية بالإمام عليه السلام، لكن حقيقة القضية عكس ذلك وهو ما قلناه. لأنه لو كان الإمام عليه السلام يملك من الأموال الكافية في زمان جهاده ونضاله ضدّ هارون لاستطاع استقطاب الكثيرين ليحاربوا إلى جانبه. وهذا الوضع لاحظناه في زمان أبناء الأئمّة عليهم السلام وبالتأكيد أنّ الأئمّة لو كانوا يملكون المال الكافي لاستطاعوا جمع عدد أكبر من الناس حولهم، وعلى هذا نجد أنّ عهد الإمام الكاظم عليه السلام كان عهدًا وصل فيه الجهاد والكفاح إلى أوجه حتّى انتهى باعتقال الإمام وسجنه. ١٩٨٦/٧/١٩

رُوي أنّه قيل لموسى بن جعفر عليه السلام: «أنتم يا بني هاشم قد حُرمتم من فدك، وقد أخذوا فدك من آل علي، وأنا أريد أن أرجعها إليكم، قولوا لي أين هي فدك وما هي حدودها حتّى أرجعها إليكم». وكان واضحًا أنّ هذا مجرّد خداع، من أجل أن يظهر كأنّه قد أرجع حقّ آل محمد الضائع، وليُعرف بذلك بين الناس. فيقول له الإمام حسنًا: إذا أردت أن ترجع لنا فدك، فأنا سأعيّن لك حدودها. وهكذا تقرّر أن يحدّد له فدك. وما ذكره الإمام موسى بن جعفر عليه السلام في تعيين فدك كان عبارة عن كلّ العالم الإسلامي؛ وفدك هي هذه. أي أنّك إذا كنت تتصوّر أنّ نزاعنا معك هو حول بستان ما وعدد من الأشجار والنخيل، فهذه سذاجة. وليست قضيّتنا هنا عبارة عن بستان فدك مع نخيله، بل كانت القضية هي قضية خلافة النبيّ واستخلاف الحكم. غاية الأمر أنّه في ذلك اليوم كان

يُظنّ، إنّ الشيء الّذي سيحرمنا منه، هو مصادرة فدك. لهذا كنّا نصرّ ونؤكّد على هذه القضية. أمّا اليوم فإنّ الشيء الّذي غصبتنا إيّاه ليس فدك، الّتي لم يعد لها قيمة. وإنّ ما غصبته هو المجتمع الإسلامي والبلاد الإسلامية. فيذكر موسى بن جعفر أربعة حدودٍ ويقول هذه فدك، فارجعها إلينا. أي أنّ الإمام موسى بن جعفر عليه السلام يصرّح بدعوى الحاكمية والخلافة في ذلك المجلس. ١٩٨٥/٤/١٢

روي ان هارون الرشيد قال لموسى بن جعفر عليه السلام يومًا: «خُذ فدكًا حتّى أردّها إليك»، امتنع الإمام عليه السلام في البداية ثمّ بعدها قال: «لا آخذها إلا بحدودها». فيقول له بعدها: «حسنًا خذها». وعندها ـ من الملفت جدًّا ـ يعيّن الإمام عليه السلام له حدودها ويقول: «أمّا الحدّ الأوّل فعدن». ولأنّهما كانا جالسين مثلًا في المدينة أو في بغداد يتحدّثان. إذا قال «عدن» أي نهاية جزيرة العرب. «فتغيّر وجه الرشيد، وقال: تيهًا»، قال: «والحدّ الثاني سمرقند»، فاربدّ وجهه، «والحدّ الثالث إفريقيا»(أي الحدّ الثالث كان تونس) فاسودّ وجهه؛ أي هارون الرشيد؛ وقال: «هيه، عجيب أيّ كلامٍ هذا». قال: «والرابع سيف البحر مما يلي الجزر وأرمينيا». والآن هي أرمينيا وما يليها من الانحاء حتى البحر المتوسط. فقال الرشيد: «لم يبقَ شيء، فتحوّل إلى مجلسي». فرد عليه موسى بن جعفر عليه السلام: «قد أعلمتك أنّني إن حدّدتها لن تردّها» فعند ذلك عزم على قتله[1]. ١٩٨٦/٧/١٩

عندما يريد هارون الرشيد أثناء دخوله إلى حرم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة في ذلك السفر أن يتظاهر بين المسلمين الّذين يزورونه، ويعلن قرابته من النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، ينزل إلى قبر رسول الله ويقول: «السلام عليك يا بن العمّ»، فلا يقول: «يا رسول الله»، فيأتي موسى بن جعفر عليه السلام مباشرةً، ويقف قبال الضريح ويقول: «السلام عليك يا أبة»[2]، أي إذا كنت أنت ابن عمّه، فهو أبي. فيفضح هذا الأسلوب التزويري لهارون في نفس المجلس.

---

١. راجع: بحارالأنوار، كتاب تاريخ علي بن الحسين و...، أبواب تاريخ الإمام موسى بن جعفر، باب مناظراته ع مع خلفاء الجور/ح٢٠. في مناقب آل أبي طالب، في كتاب أخبار الخلفاء أن هارون الرشيد كان يقول لموسى بن جعفر عليه السلام: «خذ فدكا حتى أردها إليك، فيأبى حتى ألح عليه فقال عليه السلام لا آخذها إلا بحدودها قال: وما حدودها؟ قال عليه السلام: إن حددتها لم تردها، قال: بحق جدك إلا فعلت؟ قال عليه السلام: أما الحد الأول فعدن، فتغير وجه الرشيد وقال: أيها، قال عليه السلام: والحد الثاني سمرقند، فأربد وجهه قال: والحد الثالث إفريقية فاسود وجهه وقال: هيه، قال عليه السلام: والرابع سيف البحر مما يلي الجزر وأرمينية، قال الرشيد: فلم يبق لنا شئ، فتحول إلى مجلسي، قال موسى عليه السلام: قد أعلمتك أنني إن حددتها لم تردها فعند ذلك عزم على قتله».

٢. بحارالأنوار، كتاب تاريخ علي بن الحسين و...، أبواب تاريخ الإمام موسى بن جعفر، باب ٦، ح ٨.

وقد شعر من كان من حواشي هارون الرشيد، أنّ أكبر خطر على جهاز الخلافة هو وجود موسى‌بن‌جعفر‌عليه‌السلام. ومنها، قيل ان هناك رجلٌ من أتباع السلطة كان واقفًا فرأى راكبًا يأتي دون أي نوع من الاعتبارات، ودون أن يمتطي حصانًا فاخرًا، وبمجرّد وروده، فُتح له الطريق ـ وعلى الظاهر في نفس سفر المدينة ذاك، على ما أظن ـ ودخل، فسأل الرجل: «من هذا الّذي إذ دخل، خضع الجميع مقابله، وفتح له حواشي الخليفة الطريق ليدخل». قيل له: هذا موسى‌بن‌جعفر». وبمجرّد أن قالوا له ذلك، قال: «ويلٌ لحماقة هؤلاء»، أي بني العبّاس، يجلّون شخصًا يريد زوالهم والقضاء على حكومتهم. كانوا يعلمون أنّ خطر موسى‌بن‌جعفر‌عليه‌السلام على جهاز الخلافة، هو خطرُ قائدٍ كبير يتمتّع بالعلم الوسيع والتقوى والصلاح، ويعرفه الجميع. وله أتباعٌ ومحبّون في جميع أرجاء العالم الإسلامي. ويتمتّع بشجاعةٍ لا تخاف أيّة قوّةٍ مهما بلغت، ولهذا يقف مقابل الأبّهة الظاهرية لسلطة هارون ويتحدّث دون أيّة محاباةٍ أو مجاملة.

مثل هكذا شخصية مجاهدة ومناضلة ومتّصلة بالله ومتوكّلة على الله، لها أنصارٌ في جميع أرجاء العالم الإسلامي، ولديها خطّة لأجل إقامة الحكومة والنظام الإسلاميّ. وكان هذا يمثّل أكبر خطر لحكومة هارون. لهذا قرّر هارون أن يزيل هذا الخطر من أمامه. بالطبع، لقد كان هارون رجلًا سياسيًّا، لذلك لم يقم بهذا العمل دفعةً واحدة. وفي البداية كان يرغب أن يتمّ هذا الأمر بطريقة غير مباشرة. بعدها رأى أنّه من الأفضل أن يسجن موسى‌بن‌جعفر‌عليه‌السلام، لعلّه يستطيع في السجن من التفاوض معه، أو إعطائه امتيازات، أو يضعه تحت الضغوط من أجل حمله على القبول والإذعان والتسليم. لهذا أمر باعتقال موسى‌بن‌جعفر‌عليه‌السلام وإحضاره من المدينة، ولكن بطريقة لا تخدش مشاعر أهل المدينة ولا يعرفون ما حلّ بموسى‌بن‌جعفر‌عليه‌السلام. فصنعوا مركبين ومحملين ووجّهوا واحدًا منهما إلى العراق والآخر إلى الشام، من أجل أن لا يعرف الناس إلى أين يأخذون موسى‌بن‌جعفر. فجاؤوا بموسى‌بن‌جعفر إلى مركز الخلافة في بغداد وسجنوه هناك، وكان هذا السجن لمدّة طويلة. بالطبع، هناك احتمال أنّه ليس من المسلّم أنّ الإمام‌عليه‌السلام قد أُخرج من السجن دفعةً واحدة واعتُقل مجدّدًا، ولكن من المسلّم أنّه اعتُقل مرّة أخرى من أجل أن يُقتل في السجن وهذا ما فعلوه.

بالتأكيد كانت شخصية موسى بن جعفر عليه السلام داخل السجن هي تلك الشخصيّة الّتي تشبه منار الهداية لكلّ من كان يحيط به. فانظروا، هو هذا الحقّ، إنّ حركة الفكر الإسلامي والجهاد الّذي يقوم على أساس القرآن هي مثل هذه الحركة، فلا يمكن أن تتوقّف لحظةً واحدة حتّى في أصعب الظروف وهذا هو العمل الّذي قام به موسى بن جعفر عليه السلام؛ يوجد في هذا المجال قصصٌ كثيرة وروايات عديدة؛ وواحدة من أكثرها جمالًا ولفتًا للنظر، أن السنديّ بن شاهك المعروف والّذي تعلمون كان سجّانًا عنيفًا وشديدًا ومن عبيد العبّاسيين، الأكثر وفاءً لهذه السلطنة والخلافة في تلك الأيام، كان هذا سجان موسى بن جعفر عليه السلام، فسجن الإمام في منزله، في زنزانة مخيفة تحت الأرض. كانت عائلة السنديّ بن شاهك في بعض الأوقات تنظر إلى داخل السجن وقد أثّر وضع حياة موسى بن جعفر عليه السلام فيهم، وغرس فيهم بذر محبة أهل البيت. فأحد أبناء السنديّ بن شاهك، ويُدعى كشاجم أصبح من كبراء التشيّع وأعلامهم؛ كان كشاجم من أكبر الأدباء والشعراء وأعلام التشيّع في زمانه، وقد ذكره الجميع باسم كشاجم السندي، وهو من أبناء السندي بن شاهك المعروف.

هذا هو حال حياة موسى بن جعفر الّتي كانت تجري معه في السّجن. بالتأكيد لقد جاؤوا مرّات إلى الإمام في السجن، هدّدوه واستطمعوه وأرادوا أن يحتالوا عليه، لكنّ هذا الإنسان العظيم الّذي قاوم ووقف أمام الظالمين بتلك الصلابة الإلهيّة، وبالتوكّل على الرّب المتعال واللطف الإلهي، ونفس هذا الصمود هو الّذي حفظ القرآن والإسلام إلى اليوم. اعلموا هذا، أنّ استقامة أئمّتنا في مقابل تيّارات الفساد هي الّتي أمكنتنا اليوم من أن ندرك الإسلام الحقيقيّ، وبفضل هؤلاء تتمكن الأجيال المسلمة وأبناء البشر اليوم أن يدركوا شيئًا باسم الإسلام والقرآن وسنّة النبيّ في الكتب، أعم من كتب الشيعة وحتى في كتب أهل السنة. لو لم تكن هذه الحركة المجاهدة المباركة للأئمّة عليهم السلام طيلة هذه الـ ٢٥٠ سنة، لكان الكتّاب والخطباء العملاء في عصر الأمويين والعبّاسيين لبدّلوا الإسلام بالتدريج، وكانوا يفعلون ذلك، حيث إنّه وبعد مرور قرنين من الإسلام لما كان يبقى منه شيء. أو لما بقي القرآن، أو لكان القرآن محرّفًا. إنّ هذه الرايات الخفّاقة وتلك المشاعر المتّقدة وهذه المنارات الرفيعة، هي الّتي وقفت في تاريخ الإسلام، وأطلقت شعاع الإسلام، بحيث إنّ كلّ المحرّفين والّذين أرادوا أن يقلّبوا

الحقائق في تلك البيئة المظلمة لم يتمكّنوا من أن يحقّقوا إرادتهم. أمّا تلامذة الأئمّة عليهم السلام، فكانوا من جميع الفرق الإسلامية ولم يكونوا من الشيعة فقط؛ وتلامذة الأئمّة الّذين لم يكونوا يعتقدون بأهداف التشيّع أي الإمامة الشيعية، كانوا أكثر عددًا، وقد تعلّموا التفسير والقرآن والحديث وسنّة النبي من الأئمّة. إنّ هذه المقاومة هي الّتي حفظت الإسلام إلى يومنا هذا.

في النهاية قُتل موسى بن جعفر عليه السلام في السجن مسمومًا. ومن أشدّ مرارات سيرة الأئمّة هي شهادة موسى بن جعفر عليه السلام. وبالطبع لقد كانوا يريدون في ذلك الوقت أن يتظاهروا بالحسنى. ففي الأيام الأخيرة، جاء السنديّ بن شاهك بمجموعة من الوجوه والمشاهير الكبار الّذين كانوا في بغداد وطلب إليهم ليجتمعوا حول الإمام عليه السلام، وقال لهم انظروا إنّ وضع حياته جيّد ولا توجد أيّة مشكلة. فقال الإمام عليه السلام: نعم، ولكن اعلموا أنّهم سيقتلونني مسمومًا. وقد قتل الإمام مسمومًا في بضعة حبوب من التمر، وتحت تلك الأغلال والقيود الّتي قيّدوا بها عنقه وقدميه، وهكذا ارتفعت روح الإمام العظيم والمظلوم والعزيز في السجن، إلى الملكوت الأعلى ونال الشهادة.

بالطبع، كانوا هؤلاء يخافون أيضًا، يخافون من جنازة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، وكذلك من قبر موسى بن جعفر عليه السلام. ولهذا عندما أخرجوا جنازة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام من السجن، كانوا يطلقون الشعارات الّتي تدل على أن هذا الشخص كان خارجيًا، ثائرًا على الحكومة، كانوا يقولون هذه الكلمات لكي يجعلوا شخصية موسى بن جعفر عليه السلام في مورد التهمة. وقد كانت أجواء بغداد بالنسبة لجهاز الحكم أجواء غير مستقرّة إلى درجة بحيث أنّ أحد عناصر جهاز الحكم نفسه وهو سليمان بن جعفر ـ سليمان بن جعفر بن المنصور العبّاسي أي ابن عم هارون الّذي يُعدّ من أشراف العبّاسيين ـ وجد أنّ هذا الوضع من الممكن أن يخلق لهم مشكلة، فقام بدور آخر، أحضر جنازة موسى بن جعفر عليه السلام ووضع كفنًا قيّمًا على الجنازة، وجاء بكلّ احترام إلى الإمام في مقابر قريش، الّتي تُعرف اليوم بـ«الكاظميين»، ودفنوا الإمام عليه السلام في المرقد المطهّر القريب من بغداد، وهكذا ختم موسى بن جعفر حياةً مليئةً بالجهاد. ١٩٨٥/٤/١٢

الفصل الثاني عشر

الإمام الرضا عليه السلام

عندما استشهد موسى بن جعفر عليه السلام مسمومًا بعد سنين من الحبس في سجون هارون، سيطر جوٌّ عام من القمع على البلاد الخاضعة للسلطة العبّاسية. وفي ذلك الجوّ الخانق الّذي وصفه أحد أتباع علي بن موسى عليه السلام محمد بن سنان قائلًا: «وسيف هارون يُقطِّر الدّم»[1]، كان أكبر تدبير الإمام الجليل هو أنّه استطاع أن يحافظ على شجرة التشيّع وسط أعاصير الحوادث، ويمنع من تشتّت عزم أتباع أبيه الجليل وفتورهم. وبأسلوب التقيّة الحكيمة استطاع أن يحفظ حياته الّتي هي محور التشيّع وروح الشيعة، ليستمرّ في جهاد الإمامة العميق في عهد أكثر خلفاء بني العبّاس قدرةً، وفي زمن الاستقرار والثبات الكامل لذلك النّظام. لم يتمكّن التاريخ من رسم صورةٍ واضحة عن مرحلة السنوات العشر لحياة الإمام الثامن في زمن هارون، وفيما بعده في مرحلة الحروب الداخليّة الّتي امتدّت لخمس سنوات بين خراسان وبغداد، لكن بالتدبّر يمكن إدراك أنّ الإمام الثامن في هذه المرحلة، أكمل تلك المواجهة الممتدّة لأهل البيت عليهم السلام والّتي استمرّت في كلّ العصور بعد عاشوراء بنفس تلك التوجّهات والأهداف.

وبمجرّد أن حسم المأمون تلك الحرب لمصلحته عام ١٩٨ وتحوّل إلى خليفة بلا منازع، كان من أوّل تدابيره التفرّغ لحلّ مشكلة العلويين وجهاد التشيّع. ولأجل هذا الهدف، وضع أمام عينيه تجربة مَن سلفه من الخلفاء.

---

١. الكافي، كتاب الروضة، حديث القباب، ح ٣٧١.

تجربةٌ أظهرت القدرة والشموليّة والعمق المتزايد لهذه النهضة وعجزت أجهزة السلطة عن اقتلاعها أو إيقافها ومحاصرتها. لقد كان يرى أنّ سطوة هارون وهيبته، حتّى مع السّجن الطويل وتسميم الإمام السابع في السّجن لم تتمكّن من منع الانتفاضات والمواجهات السياسية والعسكرية والإعلاميّة والفكريّة للشيعة. ولأنّه لم يكن بمستوى القدرة الّتي كانت لأبيه ومن سلفه، بالإضافة إلى تأثير الحروب الداخليّة بين العبّاسيين، فقد كان يرى بأن السلطة العبّاسية مهدّدة بمشكلات كبيرة، ولهذا وجد من الضروريّ أن ينظر بجدٍ إلى خطر نهضة العلويين.

لعلّ تفكير المأمون في تقييمه لخطر الشيعة على جهازه، كان تفكيرًا واقعيًّا. وأغلب الظّن أنّ في السنوات الخمسة عشرة بعد شهادة الإمام السابع، خاصةً سنوات الحروب الداخليّة الخمس، تمتّع تيّار التشيّع بالمزيد من الاستعداد على رفع راية الحكومة العلويّة.

وقد كان المأمون يشعر بهذا الخطر بحدسه الذكيّ ويفكّر في مواجهته، وبتبع هذا التقييم والتشخيص خطّط لدعوة الإمام الثامن من المدينة إلى خراسان واقتراح ولاية العهد الإلزاميّة عليه، وهذه الحادثة الّتي جرت لم يحدث ما يشبهها، ولم يكن لها شبيه ولا نظير في جميع عهود الإمامة الطويلة.

وهنا من الجدير أن نطالع قصّة ولاية العهد للإمام. فقد واجه الإمام الثامن عليّ بن موسى الرضا عليه السلام فيها تجربةً تاريخيّةً عظيمةً في معرض حربٍ سياسيّةٍ خفيّة تحدّد نتيجتها انتصار أو هزيمة مصير التشيّع. ففي هذه المعركة، نزل الخصم وهو المأمون إلى الميدان بعدّته وعُدّته. وقد نزل المأمون إلى الميدانٍ متمتّعًا بدهاء واسع وتدبير قويّ وفهم ودراية غير مسبوقة، بحيث لو انتصر واستطاع أن يطبّق خطّته الّتي أعدّها، لحقّق الهدف الّذي لم يتمكّن أيّ واحدٍ من الخلفاء الأمويين أو العبّاسيين تحقيقه منذ السنة الأربعين للهجرة (أي بعد شهادة عليّ بن أبي طالب)، ورغم كلّ جهودهم، وهو عبارة عن اقتلاع شجرة التشيّع وتيّار المعارضة الّذي كان دومًا كشوكةٍ في أعين زعماء الخلافات الطاغوتية.

لكنّ الإمام الثامن عليه السلام، وبالتدبير الإلهيّ، تغلّب على المأمون وهزمه في ذلك الميدان السياسيّ

الّذي أوجده بنفسه. فلم تكن النتيجة أنّ التشيّع لم يضعف فحسب، بل كانت سنة الـ٢٠١ هجري هي سنة ولاية العهد للإمام عليه السلام، من أكثر سنوات تاريخ التشيّع بركةً وثمرًا، وقد بثّت روحًا جديدةً في جهاد العلويين. و كلّ ذلك كان ببركة تدبير الإمام الثامن عليه السلام وأسلوبه الحكيم الّذي أظهره هذا الإمام المعصوم في هذا الامتحان الكبير.

ولأجل أن نضيء على وجه هذه الحادثة المدهشة نقوم بعرض شرحٍ مختصر لخطّة المأمون وتدبير الإمام في هذه الواقعة.

لقد كان المأمون بدعوته للإمام الثامن عليه السلام إلى خراسان يسعى وراء عدّة مقاصد أساسيّة:

أوّلها: وأهمّها تبديل ساحة المواجهات الثوريّة الحادّة للشيعة إلى ساحةٍ للنشاط السياسيّ الهادئ البعيد عن الخطر. وكما ذكرت فإنّ الشيعة كانوا يمارسون في ظلّ التقيّة مواجهات ونضال لا يعرف التّعب والتوقّف. وهذه المواجهات النضالية، الّتي كانت متلازمة مع خاصّيتين، كان لها تأثيرٌ لا يوصف في القضاء على بساط الخلافة، وأحدهما المظلوميّة والأخرى القداسة.

وكان الشيعة وبالاعتماد على هذين العاملين النافذين يوصلون الفكر الشيعيّ الّذي هو عبارة عن تفسير الإسلام وتبيينه بحسب رؤية أئمّة أهل البيت إلى زوايا قلوب مخاطبيهم وأذهانهم، وكان أيّ شخصٍ يمتلك أقل استعداد، يميل إلى هذا النوع من الفكر ويؤمن به، وهكذا كانت دائرة التشيّع تتّسع يومًا بعد يوم في العالم الإسلامي.

وكانت تلك المظلوميّة والقداسة الّتي تنطلق من ركيزة الفكر الشيعي، تنظّم هنا وهناك، وفي جميع العصور تلك النهضات المسلّحة والحركات الثورية ضدّ أجهزة الخلافة.

كان المأمون يريد أن يخرج ذاك الجمع المناضل من حالة الخفاء والاستتار دفعةً واحدة، ويجرّ الإمام عليه السلام من ميدان المواجهة الثوريّة إلى ساحة السياسة، ويوصل بهذه الطريقة فعاليّة نهضة التشيّع الّتي كانت تتزايد يومًا بعد يوم، على أثر ذلك الاستتار والاختفاء إلى درجة الصفر. وبهذه الطريقة سلب المأمون جماعةَ العلويين هاتين الخاصيّتين المؤثّرتين والنافذتين. لأنّ الجماعة الّتي يكون قائدها شخصية مميّزة في جهاز الخلافة ووليّ عهد الملك في زمانه، والمتصرّف في أمور البلاد،

ليس مظلومًا وليس مقدّسًا كما يُدّعى. وكان بهذا التدبير، يجعل الفكر الشيعي كسائر العقائد والأفكار الّتي لها أتباعها في المجتمع، ويخرجه من حيثية الفكر المخالف لجهاز السلطة، إلى التيار الموافق للنظام؛ الفكرة الّتي كانت بنظر الأجهزة ممنوعًا ومبغوضًا، لكنّه كان بنظر الناس، وخصوصًا الضعفاء، مقبولًا وتمتلك جاذبية كبيرة، فبهذا التدبير كان الحكم يكسب رضى عامة الناس.

والثاني: تخطئة ادّعاء التشيّع كون خلافة الأمويين والعبّاسيين غاصبة، وإضفاء الشرعيّة على هذه الخلافات. وكان المأمون بهذا العمل يثبت لجميع الشيعة بالتزوير، أنّ ادّعاء غصب الخلافة المتسلّطة وعدم شرعيّتها الّذي كان يُعدّ دومًا من الأصول الاعتقاديّة للشيعة هو كلامٌ بلا أصل وناشئ من الضعف وعقدة الحقارة، لأنّه لو كانت الحكومات السابقة فاقدة للشرعيّة وظالمة فينبغي أن تكون خلافة المأمون وحكومته الّتي هي وريثة تلك الحكومات غير شرعيّة وغاصبة، ولأنّ علي‌بن‌موسى الرضا عليه السلام بدخوله في هذا الجهاز وقبول الإمام لولاية عهد المأمون، كان بمعني قانونيّة الخلافة ومشروعيّتها، فعلى هذا يكون باقي الخلفاء شرعيّين، وكان هذا بذاته نقدٌ لجميع ادّعاءات الشيعة.

وبهذا الفعل لم يكن المأمون ينتزع من عليّ‌بن‌موسى الرضا عليه السلام شرعية حكومته ومن سلفه فحسب، بل كان يدمّر أحد أركان الاعتقاد الشيعي المبنيّ على ظلم الحكومات السابقة من أساسها.

إضافة إلى نقض الفكرة السائدة والمعروفة عن زهد الأئمّة وعدم اهتمامهم بزخارف الدنيا ومقاماتها، أرادت الحكومة أن تُظهر بأن الأئمّة يلجأون إلى الزهد في الظروف الّتي لا تصل فيها أيديهم إلى الدنيا، أي عندما يمنعون عنها، وعندما تفتح أمامهم أبواب جنات الدنيا يسرعون نحوها. وحالهم في هذا حال الآخرين. فهم يتنعّمون بالدنيا إن أقبلت عليهم.!!

والهدف الثالث: هو جعل الإمام المعصوم، الّذي كان دومًا ركيزة المعارضة والمواجهة للجهاز الحاكم، وكذلك بقية القادة العلويين ومن معهم من أهل الصلاح ممّن اجتمع حول الإمام عليه السلام، يدخلون تحت سيطرة المأمون. وبالفعل كان هذا نجاح لم يتمكّن أحد من العبّاسيين و الأمويين أن يحقّقه على الإطلاق.

والهدف الرابع: هو جعل الإمام عليه السلام، الّذي يمتلك العنصر الشعبي، ويُعدّ مرجع الناس و قبلة الآمال في كلّ أسئلتها و حاجاتها، تحت مراقبة أجهزة الحكومة. وبذلك يفقد الامام شيئًا فشيئًا الطابع الشعبي، ويبني حاجزًا بينه وبين الناس حتّى يضعف بالتالي الرابط العاطفي بينه وبين الطبقة الشعبية.

الهدف الخامس: أن يكسب الخليفة سمعة معنويّة ووجاهة. فمن الطبيعي عندها يمدح الجميع ذلك الحاكم الّذي اختار ابنَ بنت النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وصاحب الشخصية المقدّسة والمعنويّة، لولاية عهده ؛ وفي المقابل يحرم إخوته وأبنائه من هذا المنصب.

والمعروف دائمًا أنّ التقرّب من الصالحين والمتديّنين من قبل طلّاب الدنيا يُذهب ماء وجه الصالحين ويزيد من ماء وجه أهل الدنيا.

الهدف السادس: كان المأمون يعتقد أنّ الإمام عليه السلام بتسلّمه لولاية العهد، سيتحوّل إلى عاملًا تبريريًّا لجهاز الحكم. فمن البديهي أنّ شخصًا كالإمام بما لديه من تقوى وعلم ومقام لا نظير له، وهو في أعين الجميع من أبناء النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، إذا قام بشرح وتبرير ما يقوم به جهاز الحكومة، سوف يأمن النظام من أيّ صوت مخالف ولن يطعن به أحد. وبذلك أيضًا لا يستطيع أحد أن ينكر شرعية تصرّفات هذا النظام. فهذا الأمر كان عند المأمون قلعةً منيعةً يمكنه من خلالها أن يخفي عن الأعين أخطاء الخلافة وقبائحها.

بالإضافة إلى هذه كان للمأمون أهدافُ أخرى بحسب تصوّره.

وكما يُشاهد فإنّ هذا تدبير لم يكن لأحدٍ غير المأمون القدرة على القيام به، و كان أنصار المأمون والمقرّبون غافلين عن أبعاده وجوانبه. ويُستنتج من بعض الوثائق التاريخيّة، أنّ الفضل بن سهل، الوزير والقائد الأعلى، وأكثر الأفراد قربًا من جهاز الخلافة، كان غير مطّلعٍ على حقيقة هذه السياسة ومحتواها، لئلا تتعرّض أهدافه في هذه الحركة إلى أيّة نكسة.

ولأجل ذلك كان المأمون يخترع القصص من أجل توجيه هذا الفعل ودوافعه، ويتوسّل بهذا القول وذاك. حقًا يجب القول أنّ سياسة المأمون كانت تتمتّع بتجربة وعمق لا نظير لها، لكن

الطرف الآخر الّذي كان في ساحة الصراع مع المأمون هو الإمام علي‌بن‌موسى الرضا عليه‌السلام، الّذي كان يحوّل أعمال المأمون وخططه المتّصفة بالدهاء والمكر والممزوجة بالشيطنة، المعدّة بدقّة وشمولية، إلى أعمال لا فائدة لها ولا تأثير، إلى حركات صبيانية. بينما المأمون الّذي بذل هذه الجهود وأنفق من رأسماله الكبير في هذا السبيل، لا أنّه فقط لم يحقّق أي شيء من الأهداف الّتي كان يسعى لها، بل إنّ سياسته الّتي اتّبعها انقلبت عليه. فالسّهم الّذي كان يريد أن يرمي به مقام الإمام علي‌بن‌موسى الرضا عليه‌السلام ومكانته، أصاب المأمون، بحيث أنّه وبعد مضيّ فترة قصيرة أصبح رأى أن كلّ تدابيره وإجراءاته الماضية ذهبت هباءً منثورًا، كأنّها لم تكن. وفي نهاية المطاف عاد المأمون ليختار نفس الأسلوب الّذي سلكه أسلافه من قبله، وهو قتل الإمام عليه‌السلام. فالمأمون الّذي سعى جاهدًا لتكون صورته حسنة ومقدّسة، وليتّصف بأنّه خليفة طاهر عاقل، سقط في النهاية في تلك المزبلة الّتي سقط فيها كلّ الخلفاء السابقين له. أي انجرّإلى الفساد والفحشاء ووُسمت حياته بالظلم والكبر.

ويمكن مشاهدة نماذج من حياة المأمون خلال ١٥ عامًا بعد حادثة ولاية العهد تكشف ستار الخداع والتظاهر عند المأمون. فكان قاضي قضاته، فاسق وفاجر مثل يحيى‌بن‌الأكثم. وكان المأمون يُحضر المغنّيات إلى قصره، وكان له مغنٍّ خاص يُدعى إبراهيم‌بن‌مهدي، وقد عاش مرفّهًا، مسرفًا، حيث أنّ ستائر دار خلافته في بغداد كانت من الدرّ.

بعد عرض سياسة المأمون، نتعرّض إلى السياسة والإجراءات الّتي قام بها الإمام علي‌بن‌موسى الرضا عليه‌السلام لمواجهة هذا الواقع:

عندما دُعي الإمام عليه‌السلام من قبل المأمون، لينتقل من المدينة إلى خراسان، نشر في المدينة جوًّا يدلّ على انزعاجه وتضايقه من هذه الخطوة، بحيث أنّ كلّ شخص كان حول الإمام عليه‌السلام تيقّن أنّ المأمون يضمر سوءً للإمام عليه‌السلام من خلال إبعاده عن موطنه. ولقد أعرب الإمام للجميع عن سوء ما يرمي إليه المأمون بكلّ الأساليب الممكنة، فقام بذلك عند توديع حرم النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وعند توديع عائلته وأثناء خروجه من المدينة وفي طوافه حول الكعبة من أجل الوداع، وبكلامه وسلوكه

ودعائه وبكائه، كان واضحًا للجميع أن هذا السفر هو رحلته الأخيرة ونهاية حياته عليه السلام.

كان يتوقع المأمون في تعيينه الامام ولي عهد له، أن يُنظر إليه نظرة حسنة، و يُنظر إلى الإمام عليه السلام الّذي قبل طلب المأمون، نظرة سيئة؛ ولكن نرى أن قلوب الجميع، ونتيجةً لردّ الفعل الّذي قام به الإمام عليه السلام في المدينة، ازدادت حقدًا على المأمون منذ اللحظة الأولى لسفر الإمام عليه السلام. فقد أبعد المأمون إمامهم العزيزعليه السلام عنهم بهذا الشكل الظالم ووجّهه إلى مقتله. كانت هذه الخطوة الأولى للإمام عليه السلام.

وعندما اقترح موضوع ولاية العهد على الإمام في «مَرْو»، رفض الإمام عليه السلام هذا الطرح بشدّة. ولم يقبل، حتّى هدّده المأمون صراحةً بالقتل. ولقد انتشر في كلّ مكان رفضُ الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام لولاية العهد من قبل الخلافة. كما أنّ العاملين في الحكومة، الّذين لم يكونوا على علم بدقائق سياسة وتدابير المأمون، قاموا وعن غباء بنشر رفض الإمام عليه السلام في كلّ مكان. حتّى أن الفضل بن سهل صرّح في جمع من العاملين في الحكومة، أنّه لم يرَ على الإطلاق خلافة بهذا القدر من المذلة، فالمأمون الّذي هو أميرالمؤمنين يقدّم الخلافة أو ولاية العهد لعلي بن موسى الرضا وهو يردّها عليه رافضا[1].

ولقد سعى الإمام عليه السلام في كلّ فرصة تُتاح له، أن يبيّن أنّه مجبر على تسلّم هذا المنصب (ولاية العهد) ودائمًا كان يذكر أنّه هُدد بالقتل حتّى يقبل بولاية العهد. وكان من الطبيعي أن يصبح هذا الحديث، الّذي هو من أعجب الظواهر السياسية، متناقلًا على الألسن، ومن مدينة إلى مدينة. فكل العالم الإسلامي في ذلك اليوم وفيما بعد فهم أنّ شخصًا مثل المأمون حارب أخاه الأمين حتّى قتله، لأجل أن يبعده عن ولاية العهد ووصل به الأمر من شدّة غضبه على أخيه أن قام برفع رأسه، وآلافٍ آخرين، على الرّمح وطاف بهم من مدينة إلى مدينة. وشخصٌ مثل علي بن موسى الرضا عليه السلام، يظهر وينظر بلا مبالاة إلى ولاية العهد، ولا يقبلها إلا مكرهًا وتحت التهديد. وعند المقارنة

---

١. الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، باب تاريخ الإمام علي بن موسى الرضا، فصل الإمام الرضا وولاية العهد وصلاة العيد، «فما رأيت خلافة قطّ كانت أضيع منها، إنّ أميرالمؤمنين يتفصّى منها ويعرضها علي بن موسى الرضا، وعلي بن موسى يرفضها ويأبى».

بين الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام والمأمون العبّاسي، نرى أن كلّ ما جهد المأمون لتحقيقه ووفّر في سبيله كلّ ما لديه،كانت نتيجته عكسية بالكامل. هذه هي الخطوة الثانية للإمام عليه السلام.

أما النقطة الثالثة في سياسته عليه السلام والّتي واجه بها سياسة المأمون، هي أنه مع كلّ الضغوطات والتهديدات الّتي قاموا بها، لم يقبل بولاية العهد إلا بشرط الموافقة على عدم تدخّله في أي شأن من شؤون الحكومة من حرب وصلح وعزل ونصب وتدبير وإشراف على الأمور. و كان المأمون يظن أنّ هذا شرط يمكن قبوله وتحمله في بداية الأمر، و يستطيع فيما بعد يجرّ الإمام عليه السلام إلى ساحة الأعمال ونشاطات الحكومة، فوافق على قبول شرط الإمام عليه السلام الّذي ينص على عدم التدخّل بأي شيء مهما كان. ومن الواضح أنّ قبول المأمون بهذا الشرط جعل خطته كمن يكتب على وجه الماء. فأكثر أهدافه الّتي كان يرمي إلى تحقيقها من وراء هذه الخطوة لم تتحقّق من جراء موافقته على هذا الشرط. والإمام عليه السلام، الّذي كان يُطلق عليه لقب وليّ العهد ويستفيد بسبب موقعه من إمكانات جهاز الحكم، كان دائمًا يقدّم نفسه على أنّه مخالف ومعترض عليه. فهو لم يكن يأمر ولا ينهى، ولا يتصدّى لأيّ مسؤولية ولا يقوم بأي عمل للسلطة، ولا يدافع عن الحكومة، ولا يقدّم أي تبرير لأعمال النظام. لذا كان من الواضح أنّ هذا الشخص الّذي يُعتبر عضوًا في النظام الحاكم والّذي أدخل إليه بقوّة وكان يتنحّى عن كلّ المسؤوليات، لا يمكن أن يكون شخصًا محبًّا ومدافعًا عن هذا النظام. ولقد أدرك المأمون جيدًا هذا الخلل والنقص. فحاول عدّة مرات وباستخدام لطائف الحيل أن يحمل الإمام على العمل خلافًا لما تعهّد به سابقًا. فيجرّ بذلك الإمام عليه السلام إلى التدخّل في أعمال الحكومة ويقضي على سياسة الإمام عليه السلام الرافضة. لكن الإمام كان في كلّ مرّة يُحبط خطّته بفطنته وبراعته.

وكنموذج على هذا الأمر يذكر معمّربن خلّاد نقلًا عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، أنّ المأمون كان يقول للإمام أنّه إذا أمكن أن تكتب شيئًا لأولئك الّذين يسمعون كلامك ويطيعونك حتّى يخفّفوا من حدّة التوتر والأوضاع المضطربة في مناطقهم، لكن الإمام عليه السلام رفض، وذكّره بشرطه السابق، بعدم تدخّله في أيّ من الأمور. نموذجٌ آخر مهمٌّ جدًا وملفتٌ هو حادثة قضية صلاة

العيد، حيث إنّ المأمون وبحجّة أنّ الناس يعرفون قدر الإمام عليه السلام وقلوبهم تهفو حبًّا له، طلب من الإمام عليه السلام أن يؤمّ الناس في صلاة العيد، رفض الإمام عليه السلام في البداية لكن بعد إصرار المأمون على طلبه، وافق بشرط أن يخرج إلى الصلاة ويصلي بنفس طريقة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وعلي بن أبي طالب عليه السلام. فلمّا استفاد الإمام عليه السلام من هذه المناسبة وانتهزها كفرصة جيدة لصالح مشروعه، ندم المأمون الّذي كان قد أصرّ على ذلك وأرجع الإمام عليه السلام من منتصف الطريق قبل أن يصلي، معرّضًا بفعله هذا، سياسة نظامه المخادعة والمتملقّة لضربة أخرى في صراعه مع الإمام عليه السلام[1].

النقطة الرابعة في سياسة الإمام عليه السلام، استفادته من مسألة ولاية العهد كانت أهم من كلّ ما ذكر، فبقبوله بولاية العهد، استطاع أن ينهض بحركة لا نظير لها في تاريخ حياة الأئمّة (بعد انتهاء خلافة أهل البيت في سنة ٤٠ هجرية حتّى آخر عهود الخلافة الإسلامية)، ولقد تمثّل ذلك بظهور دعوة الإمامة الشيعية على مستوى كبير في العالم الإسلامي، وخرق ستار التقية الغليظ في ذاك الزمان، حيث تمّ إيصال نداء التشيّع إلى أسماع جميع المسلمين، فمنبر الخلافة جُعل تحت تصرّف الإمام عليه السلام، وقد قام الإمام عليه السلام من خلاله برفع ندائه وإعلان ما كان يُقال طيلة ١٥٠ سنة في الخفاء والتقية للخواص والأصحاب المقرّبين، وبالاستفادة من الإمكانات الرائجة في ذلك الزمان الّتي كانت تحت سيطرة الخلفاء والمقرّبين منهم في الرّتب العالية، أوصل ذلك النداء إلى أسماع الجميع.

وكذلك أيضًا مناظرات الإمام عليه السلام الّتي جرت بينه وبين جمع من العلماء في محضر المأمون، حيث بيّن أمتن الأدلّة على مسألة الإمامة، وهناك أيضًا رسالة جوامع الشريعة الّتي كتبها الإمام للفضل بن سهل، حيث ذكر فيها أمهات المطالب العقائدية والفقهية للتشيّع، وأيضًا حديث الإمامة المعروف الّذي قد ذكره الإمام عليه السلام في مرو لعبد العزيز بن مسلم، إضافة إلى تلك القصائد الكثيرة الّتي نظّمت في مدح الإمام بمناسبة تسلّمه ولاية العهد، ومنها قصيدتا دِعبل وأبو نوّاس التي تعدّ من أهم القصائد المخلّدة في الشعر العربي. إن كلّ ما ذكرناه من استفادة الإمام عليه السلام من مسألة قبوله بولاية العهد، يدلّ على مدى النجاح العظيم الّذي حققه الإمام عليه السلام في صراعه ضد سياسة المأمون.

---

١. م. ن.

وفي تلك السنة، نجد الخطب حافلة بذكر فضائل أهل البيت في المدينة، ولعله في الكثير من الأقطار الإسلامية، وذلك عندما وصلهم خبر ولاية علي‌بن‌موسى الرضا عليه السلام. فأهل بيت النبيّ الّذين كانوا يُشتمون علنًا على المنابر لسبعين سنة، وفي السنوات الّتي تلتها، لم يجرؤ أحد على ذكر فضائلهم، فعاد في زمانه عليه السلام ذكرُ عظمة أهل البيت وفضائلهم في كلّ مكان، كما أنّ أصحابهم ازدادوا جرأة وإقدامًا بعد هذه الحادثة، وتعرّف الّذين كانوا يجهلون مقام أهل البيت عليهم السلام، عليهم، وصاروا يحبونهم، وأحسّ الأعداء الّذين أخذوا على عاتقهم محاربة أهل البيت، بالضعف والهزيمة. فالمحدّثون والمفكّرون الشيعة أصبحوا ينشرون معارفهم ـ الّتي لم يكونوا ليجرؤوا في ما قبل على ذكرها إلا في الخلوات ـ في حلقات دراسية كبيرة وفي المجامع العامّة علنًا.

فرأى المأمون أنّ الافضل هو فصل الإمام عليه السلام، عن الناس. فهذا الفصل والإبعاد هو في النهاية وسيلة لقطع العلاقة المعنوية والعاطفية بين الإمام والناس. وهذا ما كان يريده المأمون؛ ولمواجهة هذه الخطوة لم يكن الإمام عليه السلام يترك أيّة فرصة تمكّنه من الاتّصال بالناس إلا ويستفيد منها خلال تحرّكه ومسيره. مع أنّ المأمون كان قد حدّد الطريق الّتي سيسلكها الإمام من المدينة إلى مرو، بحيث لا يمر على المدن المعروفة بحبها وولائها لأهل البيت، مثل قم والكوفة، لكنّ الإمام عليه السلام استفاد من كلّ فرصة في مسيره، لإقامة علاقات جديدة بينه وبين الناس، فأظهر في منطقة الأهواز آيات الإمامة، وفي البصرة الّتي لم يكن أهلها من محبّي الإمام سابقًا، جعلهم من محبّيه ومريديه، وفي نيشابور ذكر حديث السلسلة الذهبية، ليبقى ذكرى خالدة، إضافة إلى ذلك، الآيات والمعجزات الّتي أظهرها. وقد اغتنم الفرصة لهداية الناس وإرشادهم في هذا السفر الطويل. وعندما وصل إلى مرو الّتي كانت مركز إقامة الخلافة، كان كلما سنحت له الفرصة وأفلت من رقابة الجهاز الحاكم، يسارع للحضور في جمع الناس.

والإمام عليه السلام فضلًا عن أنّه لم يحضّ ثوار التشيّع على الهدوء أو الصلح مع جهاز الحكومة، بل أن القرائن الموجودة تدل على أنّ الوضع الجديد للإمام المعصوم كان عاملًا محفزًا ومشجعًا لأولئك، الّذين أصبحوا بفعل حماية الإمام ومؤازرته لهم، محلّ احترام وتقدير ليس فقط عند عامّة

الناس، بل حتّى عند العاملين وولاة الحكومة في مختلف المدن، بعد أن كانوا ولفترات طويلة من عمرهم يعيشون في الجبال الصعبة العبور والمناطق النائية البعيدة، فشخص مثل دعبل الخزاعي صاحب البيان الجريء، لم يكن على الإطلاق يمدح أي خليفة أو وزير أو أمير ولم يكن في خدمة الجهاز الحاكم، بل لم يسلم من هجائه ونقده أي شخص من حاشية الخلافة، وكان لأجل ذلك ملاحقًا دومًا من قبل الأجهزة الحكومية، وظل لسنوات طوال مهاجرًا ليس له موطن، يحمل داره على كتفه ويسير من بلد إلى بلد ومن مدينة إلى مدينة، فأصبح بإمكانه الآن مع وجود الإمام علي‌بن‌موسى الرضا عليه السلام أن يصل الى محبوبه بحرية و يلتقي بمقتداه، وأن يُوصل في فترة قصيرة شعره إلى كلّ أقطار العالم الإسلامي، ومن أشهر قصائده وأبهاها، تلك الّتي تلاها للإمام عليه السلام، حيث اشتهر بها، والّتي تبيّن وثيقة الثورة العلوية ضدّ الأنظمة الأموية الحاكمة؛ حتّى أنّه وفي طريق عودته من عند الإمام، سمع تلك القصيدة نفسها يرددها قطاع الطرق. وهذا يدلّ على الانتشار السريع لشعره. والآن نعود لنلقي نظرة عامة على ساحة الصراع الخفي الّذي بدأ المأمون باعداده، ودخل الإمام علي‌بن‌موسى الرضا فيه، للأسباب الّتي قد أشرنا إليها. والآن لنرَكيف كان الوضع بعد مضي عامٍ على تسلّم الإمام ولاية العهد.

لقد جعل المأمون عليّ‌بن‌موسى متمتّعًا بالإمكانيات والمكانة المرموقة، لكن الجميع كانوا يعلمون أنّه هذا الولي للعهد صاحب المقام الرفيع لا يتدخّل في أي من أعمال الحكومة، ويمتنع برغبته عن التدخل في كلّ ما يرتبط بجهاز الحكم، وكانوا يعلمون أيضًا أنّه وليّ العهد بذلك الشرط، أي عدم تدخّله في عمل من الأعمال. إنّ المأمون سواء في رسالة تسليم ولاية العهد، أو في كلماته وتصريحاته الأخرى، مدح الإمام عليه السلام بالفضل والتقوى، وأشار إلى نسبه الرفيع ومقامه العلميّ المنيع، بعد أن كان عددٌ من الناس لا يعرف سوى اسم الإمام عليه السلام (حتى أن مجموعة من الناس كانت قد ترعرعت على بغضه)، أصبح الإمام عليه السلام و في غضون سنة، يُعرف عند الناس بالشخصية الّتي تستحق التعظيم والإجلال واللياقة، لاستلام الخلافة، فهو أكبر من الخليفة المأمون سنًا، وأغزر علمًا، و أتقى وأقرب إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأعظم وأفضل من الخليفة. وبعد مضي

سنة لم يستطع المأمون أن يكسب ودّ الشيعة المعارضين ورضاهم في جلب الإمام عليه السلام إلى قربه، و قام الإمام عليه السلام بدور أساسي في تقوية عزيمة أولئك الشيعة الثائرين وإيمانهم. وعلى خلاف ما كان ينتظره المأمون، ففي المدينة ومكة وفي أهم الأقطار الإسلامية لم يقذف الإمام علي‌بن‌موسى الرضا عليه السلام بتهمة الحرص على الدنيا وحب الجاه والمنصب، ولم يخبُ نجمه الساطع، بل على العكس من ذلك تمامًا، ازداد تقدير مرتبته المعنوية و احترامه لدرجةٍ، فُتح الباب أمام المادحين والشعراء بعد عشرات السنين ليذكروا فضل آبائه المعصومين المظلومين ومقامهم. وخلاصة ما نريد قوله أنّ المأمون في هذه المقامرة و المغامرة الكبرى، فضلًا عن أنّه لم يحصل على شيء، فإنّه فقد مكاسب كثيرة، وكان ما تبقّ له على طريق خسارة. بعد مضي سنة على تسلّم الإمام عليه السلام ولاية العهد، وأمام هذا الواقع الّذي أشرنا إليه، شعر المأمون بالهزيمة والخسارة. ولكي يعوِّض عن هذه الهزيمة ويَجبُر خطأه الفاحش، وجد نفسه مضطرًا ـ بعد أن أنفق كلّ ما لديه واستنفذ كلّ الوسائل في مواجهة أعداء حكومته الّذين لا يقبلون الصلح، أي أئمّة أهل البيت عليهم السلام ـ إلى أن يستخدم نفس الأسلوب الّذي لجأ إليه كلّ أسلافه الظالمون والفجّار، يعني، القتل.

وكان من الواضح عند المأمون، أنّ قتل الإمام عليه السلام الّذي يتمتّع بهذه المكانة العالية والمرتبة الرفيعة، ليس بالأمر السهل. والقرائن التاريخية تدل على أنّ المأمون قام بعدّة إجراءات وأعمال، قبل أن يصمّم على قتل الإمام عليه السلام، لعلّه من خلالها يسهل أمر قتل الإمام عليه السلام، ويحدّ من خطورة قتله وحساسيّته. فلذلك لجأ إلى نشر الأقوال والأحاديث الكاذبة عن لسان الإمام، كواحدة من هذه التمهيدات. وهناك ظنّ كبير بأنّ نشر الشائعة الّتي تقول أنّ علي‌بن‌موسى الرضا عليه السلام يعتبر كلّ الناس عبيدًا له، بهذا الشكل المفاجئ في مرو، لم يكن ممكنًا، لولا قيام عمّال المأمون بنشر هذه الافتراءات.

وحينما نقل أبو الصّلت هذا الخبر للإمام، قال الإمام عليه السلام: «اللَّهُمَّ فاطِرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ عالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ أَنْتَ شَاهِدٌ بِأَنِّي لَمْ أَقُلْ ذَلِكَ قَطُّ وَلَا سَمِعْتُ أَحَدًا مِنْ آبَائِي عليهم السلام قَالَهُ قَطُّ وَأَنْتَ الْعَالِمُ بِمَا لَنَا مِنَ الْمَظَالِمِ عِنْدَ هَذِهِ الْأُمَّة وأنَّ هَذِه مِنْهَا...»[١].

---

١. عيون أخبار الرضا، باب ٤٤، ح ٦.

إضافة إلى هذا الإجراء، كان تشكيل مجالس المناظرات مع أي شخص لديه أدنى أمل في أن يتفوّق على الإمام، واحدة من الإجراءات الّتي مارسها المأمون. ولما كان الإمام عليه السلام يتفوّق ويغلب مناظريه من مختلف الأديان والمذاهب في كافة البحوث، كان يذيع صيته بالعلم والحجّة القاطعة في كلّ مكان، وفي مقابل ذلك كان المأمون يأتي بكلّ متكلّم من أهل المجادلة إلى مجلس المناظرة مع الإمام، لعل أحدًا منهم يستطيع أن يغلب الإمام عليه السلام؛ وكما نعلم فإنه كلما كانت تكثر المناظرات وتطول، كانت القدرة العلمية للإمام عليه السلام تزداد وضوحًا وجلاءً. وفي النهاية يئس المأمون من تأثير هذه الوسيلة.

وحاول أن يتآمر لقتل الإمام عليه السلام كما تذكر الروايات من خلال حاشيته وخدم الخليفة، وفي إحدى المرات سُجن الإمام في سجن سرخس (منطقة شمال شرق إيران) لكن هذا لم يكن نتيجته إلا إيمان الجلاوزة والسجانين أنفسهم، بالمقام المعنوي للإمام عليه السلام. وفي النهاية لم يجد المأمون العاجز والغاضب أمامه وسيلة إلا أن يسممّ الإمام، وبنفسه، دون أن يكلِّف أحدًا بذلك، وهذا ما قام به فعلًا. ففي شهر صفر من سنة ٢٠٣ هـ.ق. أي تقريبًا بعد سنتين من خروج الإمام عليه السلام من المدينة إلى خراسان وبعد سنة ونيّف من صدور قرار ولاية العهد قام المأمون بجريمته النكراء الّتي لا تُنسى وهي قتل الإمام عليه السلام. ١٩٨٤/٨/٩

الفصل الثالث عشر

الإمام الجواد عليه السلام
والإمام الهادي عليه السلام
والإمام العسكري عليه السلام

الإمام الجواد عليه السلام وبنيان الحرية

إنّ الإمام الجواد عليه السلام وكغيره من المعصومين، قدوةٌ وأسوةٌ ونموذجٌ لنا. وإنّ الحياة القصيرة لهذا العبد الصالح لله، انقضت بالجهاد ضدّ الكفر والطغيان. وقد أضحى في موقع قيادة الأمّة الإسلامية في حداثة عمره، وقد جاهد مجاهدة مركّزة ضدّ العدوّ في هذه السنوات القصيرة، حيث إنّه وفي عمر الـ٢٥ سنة أي أنّه كان ما يزال في مقتبل العمر، لم يعد وجوده قابلًا للتحمّل من قبل أعداء الله، فاستُشهد وقتلوه بالسمّ. ومثل الأئمّة الأطهار عليهم السلام الّذي أضاف كلّ واحدٍ منهم بجهاده صفحةً على تاريخ الإسلام المليء بالمفاخر، فإنّ هذا الإمام العظيم قد أضاف بعمله إلى الإسلام دعامة مهمّة من الجهاد الشامل، وقدّم لنا درسًا عظيمًا. وذاك الدرس العظيم هو أنّه عندما نكون في مواجهة القوى المنافقة والمرائية يجب أن نسعى من أجل أن نستنهض وعي الناس لمواجهة هذه القوى. فلو أنّ العدوّ يظهر عداءه بنحو صريح وعلنيّ ولا يرائي، فإنّ التعامل معه أسهل. ولكن عندما يكون العدوّ كالمأمون العبّاسي الّذي يتظاهر بالقداسة والدفاع عن الإسلام فإنّ التعرّف عليه سيكون صعبًا بالنسبة للناس. في عصرنا هذا، وفي جميع عصور التاريخ، كان المتسلّطون يسعون دائمًا للتوسّل بالحيلة والرياء والنفاق عندما يعجزون عن مواجهة الناس وجهًا لوجه... وقد بذل الإمام علي بن موسى الرضا (صلوات الله عليه) والإمام الجواد (صلوات الله عليه)، الهمّة من أجل كشف قناع التزوير والرياء هذا، عن وجه المأمون ونجحوا في ذلك. ١٩٨٠/١٠/١٠

إنّ هذا العظيم هو مظهر المقاومة وعلامتها. إنسانٌ عظيمٌ أمضى كلّ عمره القصير بمواجهة السّلطة المـزوّرة والمرائية للخليفة العبّاسي ـ المأمون ـ ومعارضته، ولم يتراجع خطوةً واحدةً، وتحمّل جميع الظروف الصعبة وجاهد بكلّ الأساليب الجهادية الممكنة. وكان أوّل من أشاد بنيان الحوار الحرّ بصورةٍ علانية. وكان يباحث العلماء والدعاة والمدّعين ومختلقي الأعذار ويحاورهم، في محضر المأمون العبّاسي بشأن أدقّ القضايا، ويستدل ويثبت أفضليّة كلامه وحقّانيته. إنّ بحث الحرّية هو من تراثنا الإسلاميّ، وقد راج هذا البحث في زمان أئمّة الهدى، وقد تطرّق الإمام الجواد عليه السلام، هذا الإمام الجليل إليه في زمانه، وتعرّض له بصورةٍ صافية ونقيّة. ۱۹۸۱/٥/۱٥

في المواجهة الّتي جرت بين الإمام الهادي عليه السلام وحكّام زمانه فإنّ الّذي انتصر في الظاهر والباطن هو هذا الإمام عليه السلام. ففي زمن إمامته حكم ستّةٌ من الخلفاء، واحدًا تلو الآخر، وهلكوا جميعًا، واحدًا بعد الآخر. وآخرهم كان المعتزّ الّذي قتل الإمامَ عليه السلام، ولم يلبث من بعده إلا قليلًا. وهؤلاء الخلفاء ماتوا أذلّاء في الغالب، أحدهم قتله ابنه، والآخر قتل على يد ابن أخيه، وبهذه الطريقة تشتّت العبّاسيّون وانقرضوا، بعكس الشيعة. فالشيعة في زمن الإمام الهادي والإمام العسكري عليهما السلام، ورغم ما فيه من عنفٍ وقمعٍ كانوا يزدادون يومًا بعد يوم، انتشارًا وقوّةً.

لقد عاش الإمام الهادي عليه السلام ٤٢ سنة قضى ۲۰ سنة منها في سامرّاء. وكان يمتلك فيها مزرعةً، وفي تلك المدينة كان يعمل ويعيش. وكانت سامرّاء في الواقع كمعسكر بناه المعتصم لغلمانه التّرك المقرّبين له ـ وهؤلاء التّرك هم غير الأتراك الّذين يعيشون في إيران أو في آذربايجان أو سائر النقاط ـ هم الّذين أحضرهم الخليفة من تركستان وسمرقند، ومن منطقة مانغوليا وآسيا الشرقية واحتفظ بهم في سامرّاء. وهؤلاء الأتراك، ولحداثة إسلامهم، لم يكونوا يعرفون الأئمّة ولا المؤمنين ولا يفهمون عن الإسلام شيئًا. لهذا صاروا يضايقون الناس، وأوجدوا بينهم وبين العرب ـ أهالي بغداد ـ نزاعات ومشاجرات. وفي مدينة سامرّاء نفسها، اجتمع عددٌ ملحوظٌ من كبراء الشيعة في زمن الإمام الهادي عليه السلام وتمكّن الإمام عليه السلام من إدارتهم، وإيصال رسالة الإمامة بواسطتهم إلى مختلف مناطق العالم الإسلامي بواسطة الرسائل؛ وهذه الشبكات الشيعية في قم وخراسان و الريّ والمدينة واليمن

وفي المناطق البعيدة وفي جميع أقطار العالم، هي الّتي استطاعت أن تروّج هذا المذهب وتنشره وتزيد المؤمنين يومًا بعد يوم. وقد استطاع الإمام الهادي عليه السلام أن يقوم بكلّ هذه الأعمال تحت ظلّ بريق السيوف الحادّة الداميّة لأولئك الخلفاء الستّة ورغمًا عن أنوفهم. ويوجد حديثٌ معروفٌ حول وفاة الإمام الهادي عليه السلام يُعلم من عباراته تواجد جمعٍ ملحوظٍ من الشيعة في سامرّاء؛ بحيث أنّ الجهاز الحاكم لم يكن يعرف عنهم شيئًا، لأنّه لو كان يعلم بهم لقضى عليهم عن بكرة أبيهم. لكنّ هذه الجماعة، ولأنّها استطاعت أن توجد شبكة قويّة، فإنّ الجهاز الحاكم لم يتمكّن من الوصول إليها.

إنّ يومًا من جهاد هؤلاء العظماء ـ الأئمّة عليهم السلام ـ يؤثّر بمقدار سنوات. ويومٌ واحدٌ من حياتهم المباركة يساوي سنواتٍ من جماعةٍ تعمل ليل نهار على مستوى التأثير في المجتمع. هؤلاء العظماء قد حفظوا الدين بهذه الطريقة، وإلّا فإنّ الدين الّذي يرأسه المعتزّوالمتوكّل والمعتصم، والمأمون، ويكون علماؤه رجالٌ كيحيى‌بن‌أكثم ـ الذي رغم أنّه كان عالم البلاط، فقد كان من الفسّاق والفجّار المتجاهرين ـ لا ينبغي أساسًا أن يبقى؛ ولكان ينبغي والحال هذا، أن يُجتثّ من جذوره وينتهي كلّ شيء. فجهاد الأئمّة عليهم السلام وسعيهم لم يحفظ التشيّع فحسب، بل حفظ القرآن والإسلام والمعارف الدينية؛ وهذه هي خاصيّة العباد الخالصين والمخلصين وأولياء الله. فلو لم يكن للإسلام أمثال هؤلاء من أولي العزم، لما استطاع أن يعود غضًّا طريًّا ويوجد هذه الصحوة الإسلامية بعد ١٢٣٠ سنة؛ بل كان ينبغي أن يزول شيئًا فشيئًا. لو لم يكن للإسلام، هؤلاء الّذين جذّروا هذه المعارف العظيمة بعد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في الأذهان، على مرّ التاريخ الإنسانيّ والإسلامي، لكان ينبغي أن يزول الاسلام من الوجود وينتهي كلّ شيء، ولا يبقى منه أي شيء. ولو بقي، فلم يكن ليبقى من معارفه شيءٌ، كالمسيحية واليهودية، اللتين لم يبقَ من معارفهم الأساسية أيّ شيء تقريبًا. فأن بقاء القرآن سالمًا، و دوام الحديث النبويّ، وكلّ هذه الأحكام والمعارف الإسلامية وذلك بعد أكثر من ١٠٠٠ سنة، والتمكّن من تبيين المعارف الإنسانية، فهذا ليس بالأمر الطبيعيّ، بل كان هذا عملٌ غير طبيعيّ، يؤدّى من خلال الجهاد. وبالتأكيد، كان على طريق هذا العمل الكبير الضرب والسجن و القتل وكلّ هذه لم تكن بالنسبة لهؤلاء العظماء شيئًا.

يوجد حديثٌ حول طفولة الإمام الهادي عليه السلام، حينما أحضر المعتصمُ في عام ٢١٨ هجريّة، الإمامَ الجواد عليه السلام، قبل شهادته بسنتين من المدينة إلى بغداد، وبقي الإمام الهادي عليه السلام حينها مع أهله في المدينة، والّذي كان وقتها في السادسة من عمره. وبعد أن أُحضر الإمام الجواد عليه السلام إلى بغداد، سأل المعتصم عن أسرته وأهله، وعندما سمع أنّ ابنه، عليّ بن محمّد ست سنوات، قال إنّه خطرٌ علينا، ويجب أن نفكّر بحلٍّ له. فأمر المعتصم رجلًا من أقاربه ليذهب من بغداد إلى المدينة، وأن يجد فيها من هو عدوّ لأهل البيت، وأن يودع عنده هذا الطفل، ليكون معلّمًا له ويربّيه ليصبح عدوًّا لأسرته ومنسجمًا مع الجهاز الحاكم. فجاء هذا الشخص من بغداد إلى المدينة، واختار أحد علمائها المدعوّ الجنيدي الّذي كان من أشدّ المخالفين والمعاندين لأهل البيت ـ وكان في المدينة عددٌ من أمثال هؤلاء العلماء ـ لينهض بهذا العمل، وقال له: إنّني مأمورٌ أن أجعلك مربٍّ ومؤدّبٍ لهذا الطفل؛ ولا ينبغي أن تسمح لأيّ شخصٍ بالتواصل والارتباط معه، وأريدك أن تربّيه بهذه الطريقة وبهذا الشكل. وقد سجّل التاريخ اسم هذا الشخص الجنيدي؛ وكان الإمام الهادي عليه السلام ـ كما ذكرت ـ بعمر ست سنوات في ذلك الوقت، والأمر كان أمر الحكومة، فمن الّذي يستطيع أن يعترض على مثل هذا الأمر.

وبعد مدّةٍ جاء أحد المقرّبين من الجهاز الحاكم ليطّلع على الجنيدي، ويسأل عن أحوال ذلك الطفل الّذي أودعه إيّاه. فقال الجنيدي: «أي طفلٍ هذا، أهذا هو الطفل؟ إنّني أبيّن له مسألةً في الأدب، فيبيّن لي أبوابًا من الأدب، حيث أتعلّم منه! فأين درس هذا الطفل وتعلّم؟ وأحيانًا أطلب منه عندما يدخل إلى الحجرة أن يقرأ سورةً من القرآن، وعندما يدخل (وهو يريد أذيّته) يسأل أيّة سورةٍ أقرأ، فأقول له: اقرأ سورة كبيرة، كسورة آل عمران مثلًا، فيقرأها عليّ ويبيّن لي مواضع الإشكال في قراءتها. إنّهم علماءٌ وحفّاظٌ للقرآن، وعلماء بالتأويل والتفسير، أيّ طفلٍ هذا؟». وقد استمرّ ارتباط هذا الطفل ـ الّذي كان في الظاهر طفلًا، ولكنّه وليّ الله، ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾[١] ـ مع هذا الأستاذ لمدّة، وأصبح هذا الأستاذ من الشيعة المخلصين لأهل البيت.[٢]

---

١. سورة مريم، الآية: ١٢.

٢. كلستان سعدي.

ذهب غلامٌ ليأتي بالماء، فحمله النّهر معه!!

لقد كان النصر حليف الأئمّة واصحابهم في جميع الميادين، وهزموا الجميع في كلّ المواضع؛ فدِعبل الّذي كان معارضًا لكلّ الخلفاء العبّاسيين، وذمّ آباءهم في أشعاره، وترك لكلّ واحدٍ منهم سجلًّا في التاريخ، كان له عدّة أبياتٍ حول المعتصم؛ يقول فيه أنّنا قرأنا في الكتب أنّ بنو العبّاس هم سبعة خلفاء، والآن يقولون لنا ثمانية؛ فمن هو الثامن؟ وأراد أن يشبّههم بأصحاب الكهف الّذي كان كلبهم ثامنهم، ثمّ يقول بعدها: «فأين أنت من ذاك الكلب؟» فذاك الكلب لم يرتكب أيّة معصيةٍ أو ذنبٍ بين يديّ الله، وأنت مليءٌ بالذنوب والمعاصي: «ملوك بني العبّاسِ في الكتبِ سبعةٌ ولم تأتِنا عن ثامن لهمُ كُتبُ، كذلك أهل الكهفِ في الكهفِ سبعةٌ خيارٌ إذا عُدُّوا وثامنهم كلبُ، وإني لأُعلي كلبَهم عنك رفعةً لأنّك ذو ذنْب وليس له ذنْبُ». ٢٠/٨/٢٠٠٤

أحضرت الحكومة الإمامَ من المدينة إلى سامرّاء ليكون تحت مراقبتهم، ولكنّهم لم يبلغوا مآربهم. فلو اطّلعتم على حالات هؤلاء الأئمّة الثلاثة في المناقب[١] وغيرها، لالتفتّم إلى أنّ شبكة العلاقات الشيعية في زمان هؤلاء الثلاثة، كانت أكثر تشكّلًا منها في زمن الإمام الباقر والإمام الصادق عليهما‌السلام. فكانت تُرسل إليهم الكتب والرسائل من أقصى نقاط العالم وكذلك الأموال والمسائل، في حين أنّهم كانوا يعيشون ضمن نطاقٍ ضيّق. وقد أضحى الإمام الهادي عليه‌السلام في سامرّاء محبوبًا بين الناس وكان الجميع يحترمونه، ولم يكن يتعرّض لأيّة إهانة. وعند وفاته انقلبت احوال المدينة كلّها، وهذا الأمر تكرّر مع الإمام العسكري عليه‌السلام؛ وهناك أدرك الحكّام وجود سرٍّ ما، وكان عليهم أن يشخّصوه ويتعاملوا معه. فالتفتوا إلى قضية قدسيّة هؤلاء. فنجد المتوكّل يحضر الإمام عليه‌السلام إلى مجلسه، الّذي هو مجلس خمرٍ وسكرٍ، لكي ينتشر الخبر في كلّ مكان، أنّ علي‌بن‌محمد، كان نديمًا للمتوكّل، وقد جالسه في مجلس الخمر واللهو! فانظروا أنتم أيّ تأثيرٍ تركه هذا الخبر. فنظر الإمام عليه‌السلام إلى القضيّة من زاوية الإنسان المجاهد، ووقف مقابل هذه المؤامرة. فذهب الإمام عليه‌السلام إلى بلاط

---

١. مناقب آل ابي طالب، باب إمامة أبي‌ابراهيم موسى‌بن‌جعفر الكاظم ـ باب إمامة أبي‌الحسن علي‌بن‌موسى الرضا ـ باب إمامة أبي‌جعفر محمدبن‌علي التقي.

المتوكّل، واستطاع أن يبدّل مجلس سكره إلى مجلسٍ عابقٍ بالمعنويّات. فبذكر الحقائق وإنشاد تلك الأشعار الشامتة، هزم المتوكّل بحيث أنّ هذا المتوكّل، وبمجرّد أن انتهى الإمام من كلماته، نهض من مكانه وأحضر للإمام الغالية(عطر مركّب من المسك والعنبر) وشيّعه بكلّ أدبٍ واحترام. فقد قال له الإمام، هل تتصوّر أنّك إذا جلست هنا، فإنّك ستهرب من قبضة الموت؟! وهكذا بيّن للمتوكّل كلّ ما يجري عند الموت وما بعده، حتّى أكل الديدان له. فاستطاع الإمام أن يبدّل المجلس، ويقلبه رأسًا على عقب، و يخرج من البلاط.

وهذه المواجهة الّتي ابتدأها الخليفة المتسلّط والمتعجرف، وكان في المقابل شابٌّ لا دفاع له، يبدو في الظاهر هو الأضعف، تحوّلت إلى حربٍ نفسية، لم يكن فيها الحربة والسيف. نحن لو كنّا هناك لما استطعنا أن نفعل ما فعله الإمام عليه السلام. إنّ الإمام عليه السلام هو الّذي استطاع أن يشخّص هذه الوضعية، ويتحدّث بطريقة لا تغضب الخليفة. كان من الممكن مثلًا أن ينتفض الإمام عليه السلام فجأةً ويرمي بكلّ كؤوس الشراب أرضًا. ولكن هذا ما كان ليكون ردّة فعلٍ جيّدة، وما كانت لتؤتي ثمرتها، لكنّ الإمام عليه السلام تصرّف بطريقةٍ أخرى. وهذا البعد في القضية مهمٌّ جدًا.

يجب عليكم أن تلتفوا إلى هذه النقطة في حياة الأئمّة وهي أنّ هؤلاء العظماء كانوا دائمًا في حالة جهاد، جهادٌ روحه سياسيّة. وذلك لأنّ من يجلس على مسند الحكم، كان يدّعي الدين. وكان يراعي ظواهر الدين. حتّى أنّه كان يتقبّل في بعض الأوقات، رأي الإمام الدينيّ. مثل تلك المسائل الّتي سمعتموها في حياة المأمون، حين كان يقبل رأي الإمام عليه السلام علنًا. أي أنّه لم يكن يأبى أبدًا أن يقبل الرأي الفقهيّ أحيانًا. فالشيء الّذي كان يؤدّي إلى وجود مثل هذه المواجهة والمعارضة ضدّ أهل البيت هو، أنّ أهل البيت كانوا يعدّون أنفسهم الأئمّة، وكانوا يقولون نحن أئمّةٌ، وفي الأساس إنّ هذا كان يُعدّ أكبر مواجهةٍ للحكّام. لأنّ الّذي صار حاكمًا، كان يُعدّ نفسه إمامًا للناس، و كان يرى أنّ الشواهد والقرائن المطلوبة في الإمام، موجودةٌ فيهم أيضًا، ولم تكن فيه، لأنّه ليس إلّا مدّعٍ! وكان الحاكم يعتبر هذا الإمام خطرًا على حكومته، فكان الحكّام يحاربون مثل هذه الروحية العدائيّة، امّا الأئمّة عليهم السلام، فكانوا يقفون امامهم كالطود الشامخ. من البديهيّ في مثل

هذه المواجهة أن تكون للمعارف والأحكام الفقهيّة والأخلاق الّتي كان الأئمّة يروّجون لها، مكانها الطبيعيّ. وكانت تربية المزيد من التلامذة والأتباع وتوسعة الروابط الشيعية تزداد يومًا بعد يوم.

وهذا ما حفظ الشيعة. فانظروا أنتم إلى مرامٍ تعمل ضدّه الحكومات لمدّة ٢٥٠سنة فهل ينبغي أن يبقى منه شيء. بل يجب أن يزول بالكامل، ولكن أنتم ترون الآن حال الدنيا، وإلى أين وصلت الشيعة.

ينبغي أن نلاحظ هذه النقطة في الأشعار الّتي أُنشدت في الإمام الصادق والإمام الهادي والإمام العسكري عليهم السلام. لقد جاهدوا وضحّوا بأنفسهم في هذا الجهاد. هذا الطريق الّذي استمرّ نحو هدفٍ معيّن. فأحيانًا، يرجع أحدهم، وأحيانًا يذهب أحدهم من هذه الجهة، إلا أنّ الهدف واحد. إنّ هؤلاء العظماء حقّقوا نجاحًا أكبر من الإمام الحسين عليه السلام، الّذي وضع هذا الأساس؛ لأنّه بعد شهادة الإمام الحسين عليه السلام، «ارتدّ الناس بعد الحسين إلّا ثلاثة». لكن في زمن الإمام الهادي عليه السلام عندما تنظرون، فإنّ كلّ العالم الإسلامي كان قد اصبح في قبضة الأئمّة عليهم السلام. حتّى أنّ العبّاسيين وقفوا عاجزين ولم يعرفوا ماذا يفعلون، فلذلك أقبلوا على الشيعة.

كان أحد الخلفاء العبّاسيين قد كتب رسالةً أمر فيها بذكر أهل البيت في الخُطب، وأن يُقال أنّ الحقّ مع أهل البيت. وقد سجّل التاريخ هذه الرسالة. كُتب فيها أنّ وزير البلاط أسرع يعدو إلى الخليفة وقال: «ماذا تفعل؟!» فلم يجرؤ أن يقول أنّ الحقّ ليس مع أهل البيت! لكنّه قال: «اليوم هناك من ثار في جبال طبرستان وأماكن أخرى تحت شعار أهل البيت، فلو أنّ كلامك هذا يُنشر في كلّ الأماكن، فإنّهم سيجيّشون الجيوش ويأتون إليك للتخلّص منك». فرأى الخليفة أنّ ذلك الوزير يقول حقًّا، فقال: «لا تذيعوا الرسالة»، أي أنّهم كانوا يخافون على حكومتهم. هذا وإن كان لديهم الاعتقاد، ولكنّ حبّ الحكومة والدنيا والملك منعهم من أن يؤمنوا. ٢٠٠١/٩/٢١

إنّ ما يُقال من أنّ هؤلاء العظماء كانوا في غربةٍ تامة، هوهكذا في الواقع، عاشوا بعيدًا عن المدينة وبعيدًا عن أهلهم، وعن بيئتهم الّتي أَلِفوها. ولكن إلى جانب ذلك، يوجد بشأن هؤلاء الأئمّة الثلاثة ـ من الإمام الجواد وحتى الإمام العسكري ـ نقطة أخرى وهي أنّه كلّما اتّجهنا إلى نهاية إمامة الإمام العسكري عليه السلام، فإنّ هذه الغربة تزداد. إنّ دائرة نفوذ الأئمّة وسعة دائرة الشيعة في زمان هؤلاء الأئمّة

الثلاثة، إذا ما قورنت بزمان الإمام الصادق والإمام الباقرعليهما السلام، فإنّها ازدادت عشرة أضعاف، وهذا شيءٌ عجيب. ولعلّ السبب في أنّهم قد وُضعوا تحت هذه الضغوط والتضييقات، هو هذا الموضوع. فبعد توجّه الإمام الرضا عليه السلام نحو إيران، ومجيئه إلى خراسان، جرت حوادث كثيرة. ولعلّ هذا الأمر كان في أصل حسابات الإمام الثامن عليه السلام، وقبله كان الشيعة منتشرين في كلّ الأماكن، لكنّهم لم يكونوا على اتصال ببعضهم البعض، وكانوا آيسين، وليس لديهم أي تطلّع نحو المستقبل، أو رجاء أو تفاؤل. وكانت سلطة حكومة الخلفاء في كلّ الأماكن؛ وكان قبل المأمون، هارون بقدرته الفرعونية. وعندما توجّه الإمام عليه السلام نحو خراسان وعبر هذا المسير، ظهرت شخصيّةٌ أمام الناس هي تجلٍّ للعلم والعظمة والصدق والنورانية؛ وما كان الناس قد شاهدوا مثل هذه الشخصية من قبل. فكم كان عدد الشيعة الّذين كان بإمكانهم قبل هذا أن يمرّوا من خراسان إلى المدينة ليروا الإمام الصادق عليه السلام؟ ولكن في هذا المسير الطويل، شاهد الجميع هذا الإمام عن قرب. وكان شيئًا عجيبًا مدهشًا، وكأنّ المرء ينظر إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم. فتلك الهيبة والعظمة المعنوية والعزّة والأخلاق والتقوى والنورانيّة والعلم الوسيع أحدثت هزّة، فمهما سُئل وأيّ شيءٍ طُلب منه كان الأمر بيده، وهو الشيء الّذي ما كان الناس ليروه من قبل.

وصل الإمام الرضا عليه السلام إلى خراسان ومرو وكانت مرو هي مركز تركمانستان الحالية. وبعد سنةٍ أو سنتين، استُشهد الإمام عليه السلام و فُجع الناس. وقد كان مجيء الإمام عليه السلام ـ وهو المُظهِر لتجلّيات أشياء لم يسمع بها الناس ولم يروها من قبل وكذلك شهادته ـ الّتي أدّت إلى فاجعة كبيرة فقد جعل مجيء الإمام عليه السلام أجواء هذه المناطق أجواء شيعية؛ لا يعني ذلك أنّ الجميع أصبحوا شيعة، لكنّهم أصبحوا محبّين لأهل البيت. ففي هذا الجوّ انكبّ الشيعة على العمل. أنتم ترون كيف أنّه وفجأةً تظهر إقامة الأشعريين في قم. فلماذا جاؤوا؟ فالأشعريون عربٌ، لقد نهضوا وجاؤوا إلى قم وبسطوا فسطاط الحديث والمعارف الإسلامية في هذه المدينة وأسّسوا مركزًا فيها. وكذلك نجد في الريّ من هم أمثال الكليني[١]. فشخصٌ مثل الكليني، لا يترعرع إلّا في بيئةٍ شيعيّة وبيئةٍ اعتقادية، حتّى

---

١. أبو جعفر محمدبن يعقوب الكليني الرازي، المعروف بـ«الكليني»، صاحب الكتاب الجليل القدر «أصول الكافي»، عاش في النصف الثاني من القرن الثالث والنصف الأول من القرن الرابع الهجري، وتوفي في شهر شعبان من سنة ٣٢٩.

يصبح هذا الشاب بتلك الخصوصيات، الكليني. وفيما بعد أيضًا، حينما استمرّت هذه الحركة، أنتم ترون الشيخ الصدوق[١] كيف أنّه يسافر إلى هرات وخراسان وأماكن أخرى ويبدأ بجمع أحاديث الشيعة، فهذا أمرٌ مهمٌّ جدًّا. فماذا كان يفعل محدّثو الشيعة في خراسان؟ وماذا يفعلون في سمرقند؟ من كان في سمرقند؟ إنّه الشيخ العيّاشي السمرقندي، هو الّذي قيل بشأنه: «في داره الّتي كانت مرتعًا للشيعة وأهل العلم»[٢]، كما ورد في كلمات الشيخ الكشّي[٣]. والكشّي نفسه سمرقنديٌّ. لهذا فإنّ الإمام الرضا عليه السلام، وفيما بعد شهادته كان مظلومًا، وهذه المظلوميّة هي الّتي جعلت مثل هذه الأجواء لصالح الأئمّة عليهم السلام؛ وقد استفاد الأئمّة من هذا الأمر. فالرسائل والزيارات المتبادلة الّتي كانت تجري، ما كانت تحدث بطريقة عاديّة، بل كانت كلّها تجري في خفاء، ولو كانت علنيّةً لكانوا يقضون على أصحابها ويقطّعون أيديهم وأرجلهم. على سبيل المثال، هل يمكن مع مثل ذلك العنف والقمع الّذي مارسه المتوكّل، ومنع فيه زيارة كربلاء، أن تصل أسئلة الناس إلى الإمام عليه السلام بسهولة، ثم ترجع إليهم الإجابات؟ أو أن تُرسل الحقوق الشرعية إلى الإمام عليه السلام، ثم يصلهم منه الإيصالات؟ فكلّ هذا دليلٌ على وجود شبكةٍ إعلاميّة وتعليميّة عظيمة لهؤلاء الأئمّة العظماء الثلاثة.

وفيما بعد الإمام الرضا عليه السلام وإلى زمن شهادة الإمام العسكري عليه السلام، حدثت مثل هذه القضايا. فالإمام الهادي والإمام العسكري عليهما السلام استطاعا في مدينة سامرّاء، تلك الّتي كانت في الواقع بمثابة معسكر كبير ـ لم تكن كبيرة و واسعة، بل كانت عاصمةٌ حديثة البناء تسرّ كلّ من رآها(سُرّ من رأى) حيث يجتمع فيها الرؤساء والأعيان ورجال الحكومة وبعض الناس العاديين الّذين يؤمّنون الحوائج اليوميّة ـ أن ينظّما كلّ هذه الروابط فيما بين جميع أقطار العالم الإسلامي. عندما ننظر إلى أبعاد حياة الأئمّة نفهم ماذا كانوا يفعلون. لهذا، لم تنحصر القضيّة في تلك الفتاوى الّتي يجيبون بها

---

١. أبو جعفر محمدبن علي بن بابويه القمي المعروف بـ«الشيخ الصدوق»، من جملة فقهاء وعلماء الشيعة في القرن الرابع للهجرة. وُلد في السنة ٣٠٦ للهجرة في مدينة قم. من جملة آثاره الكتاب القيّم «من لا يحضره الفقيه» الذي هو الكتاب الثاني من الكتب الشيعية الأربعة. فارق هذا الفقيه الرفيع الشأن الدنيا في عام ٣٨١ للهجرة في مدينة الري.

٢. محمدبن مسعود العياشي السمرقندي، يُعتبر من جملة علماء ومفسّري الشيعة المشهورين لأواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع للهجرة.

٣. محمدبن عمروبن عبد العزيز المشهور بـ«الشيخ الكشي»، وكنيته «أبو عمرو»، من الوجوه الّتي سطعت في أواسط النصف الأول من القرن الرابع للهجرة وهو من العلماء المعروفين وأستاذ في علم الرجال والأخبار ومن محدّثي الشيعة.

على أسئلة الناس حول الصلاة والصوم والطهارة والنجاسة. بل كانوا ينطلقون من موقعية الإمام بذلك المعنى الإسلاميّ الخاص، ويتحدّثون الى الناس و يرتبطون بهم، وفق الظروف. وبرأيي إنّ هذا البعد يمكن الالتفات إليه إلى جانب غيره من الأبعاد. ألا ترون أنّهم عندما أحضروا الإمام الهادي عليه السلام من المدينة إلى سامرّاء، وقتلوه في سنّ الشباب عن عمرٍ يناهز ٤٢ سنة، أو عندما يقتلون الإمام العسكري في سنّ الـ٢٨ سنة، فكلّ ذلك دليلٌ على هذه الحركة العظيمة للأئمّة والشيعة وأصحابهم الكبار، عبر التاريخ. ومع أنّ جهاز الحكم كان نظامًا بوليسيًّا ويعمل بشدّة و عنف، فقد استطاع الأئمّة في مثل هذه الاوضاع أن يحقّقوا مثل هذه النجاحات. الغرض أنّه ينبغي مشاهدة هذه العزّة والعظمة إلى جانب تلك الغربة. ٢٠٠٣/٥/١٠

لا يوجد أيّ زمنٍ شوهدت فيه تعزيز روابط الشيعة وانتشار تشكيلاتهم في كلّ أرجاء العالم الإسلامي، مثل زمن الإمام الجواد والإمام الهادي والإمام العسكري عليهم السلام. فوجود الوكلاء والنوّاب، وتلك القصص الّتي تُنقل عن الإمام الهادي عليه السلام والإمام العسكري عليهما السلام ـ مثلًا عندما كان يُحضر له المال والإمام يحدّد ماذا ينبغي أن يُفعل به ـ دليلٌ على هذا الأمر. أي أنّه بالرغم من الإقامة الجبريّة لهذين الإمامين الجليلين في سامرّاء، وقبلهما الإمام الجواد عليه السلام بنحوٍ ما، والإمام الرضا عليه السلام بنحوٍ آخر، فإنّ الارتباط والتواصل مع النّاس كان يتّسع على هذه الشاكلة. وهذه الروابط والتواصلات كانت موجودة قبل زمن الإمام الرضا عليه السلام. لكن غاية الأمر أنّ مجيء الإمام إلى خراسان كان له تأثيرٌ كبيرٌ جدًّا في هذه القضية. ٢٠٠٥/٨/٩

إنّ أئمّتنا وطيلة الـ٢٥٠سنة للإمامة ـ أي منذ رحيل نبيّ الإسلام المكرّم صلى الله عليه وآله وسلم وإلى زمن وفاة الإمام العسكري ـ قد لاقوا الكثير من التعذيب والقتل والظلم، وحريٌّ بنا أن نبكيهم، إنّ مظلوميّتهم تستحضر القلوب والعواطف، لكنّ هؤلاء المظلومين قد انتصروا سواءً في مقطعٍ من الزمان أو في كلّ هذا الزمان وطوله. ٢٠٠٤/٨/٢٠

الفصل الرابع عشر

غاية حركة الإنسان بعمر٢٥٠ سنه

غاية حركة إنسان بعمر ٢٥٠سنة

إنّ أصل المهدوية هو محلّ اتّفاق جميع المسلمين. وفي عقائد الأديان الأخرى، يوجد أيضًا انتظار المنجي في آخر الزمان. فقد فهم الجميع هذا المطلب بنحوٍ صحيح في بُعدٍ من أبعاد القضيّة، ولكن في البُعد الأساسيّ المتعلّق بتحديد ومعرفة الشخص المنجي، ابتُلوا بنقص المعرفة. والشيعة يعرفون المنجي بالاسم والعلامة والخصائص وتاريخ الولادة، من خلال الأخبار المسلّمة والقطعيّة عندهم. ٢٠٠٥/٩/٢٠

إنّ خصوصية اعتقادنا نحن الشيعة هي أنّنا قد بدّلنا هذه الحقيقة في مذهب التشيّع من حالة الأُمنية والأمر الذهنيّ المحض، إلى حالة واقعيّة موجودة. الحقيقة هي أنّ الشيعة عندما ينتظرون المهديّ الموعود فإنّهم ينتظرون اليد المنجية تلك، ولا يغرقون في عالم العقليات بل يبحثون عن واقعيّة موجودة. وحجّة الله حيٌّ بين الناس وموجودٌ ويعيش فيما بينهم ويرى الناس وهو معهم، ويشعر بآلامهم وأسقامهم. وأصحاب السعادة والاستعداد، يزورونه في بعض الأحيان بصورة خفيّة. إنّه موجودٌ، هو إنسانٌ واقعيّ مشخّص باسمٍ معيّن، له أبٌ وأمّ محدّدين وهو بين الناس ويعيش معهم. هذه هي خصوصيّة عقيدتنا نحن الشيعة.

أولئك الّذين لا يقبلون هذه العقيدة من المذاهب الأخرى، لم يتمكّنوا في أيّ وقتٍ من إقامة أيّ دليلٍ يقبل به العقل لردّ هذه الفكرة وهذه الواقعيّة.

فجميع الأدلّة الواضحة والراسخة، الّتي يصدقّها الكثير من أهل السنّة أيضًا، تحكي بصورة قاطعة ويقينيّة عن وجود هذا الإنسان العظيم، فهو حجّة الله، وهو الحقيقة الواضحة والساطعة ـ بتلك الخصائص الّتي نعرفها، أنا وأنتم ـ وأنتم تشاهدون هذه الأمور في العديد من المصادر غير الشيعيّة.

فالابن المبارك والمطهّر للإمام الحسن العسكري عليه الصلاة والسلام، معروفٌ بتاريخ ولادته، ومن هم والداه وأصحابه ومعجزاته، وقد منحه الله عمرًا طويلًا، وما زال يعيش بيننا. وهو تجسيدٌ لتلك الأمنية الكبرى، لجميع أمم العالم، وقبائله وأديانه وأعراقه عبر جميع العصور. هذه هي خصوصيّة مذهب الشيعة بشأن هذه القضيّة المهمّة. ٢٠٠٨/٨/١٧

هناك نقاط بشأن الاعتقاد بالمهدويّة أشير إليها بالإجمال:

الأولى هي أنّ الوجود المقدّس لحضرة بقيّة الله أرواحنا فداه، هو عبارة عن استمرار النبوّات والدعوات الإلهية منذ بداية التاريخ وإلى يومنا هذا، أي كما تقرأون في دعاء النّدبة من: «وبعضهم أسكنتهم جنّتك»، الّذي هو آدم، وإلى: «أن انتهيت بالأمر»، أي الوصول إلى خاتم الأنبياء ﷺ؛ ومن بعدها قضيّة الوصيّة وأهل بيت هذا النبيّ العظيم إلى أن يصل الأمر إلى إمام الزمان، فالجميع عبارة عن سلسلة متّصلة ومرتبطة ببعضها في تاريخ البشريّة. وهذا بمعنى أنّ تلك الحركة العظيمة للنبوّات وتلك الدعوات الإلهيّة بواسطة الرّسل، لم تتوقّف في أيّ مقطعٍ من الزمان. فالبشريّة تحتاج إلى الأنبياء والدعوات الإلهيّة، والدُعاة الإلهيين، وهذا الاحتياج باقٍ إلى يومنا هذا، وكلّما مرّ الزمان فإنّ البشر يقربون إلى تعاليم الأنبياء.

لقد أدرك المجتمع البشريّ اليوم من خلال التقدّم الفكريّ والمدنيّة والمعرفة، الكثير من تعاليم الأنبياء ـ والّتي لم تكن قابلة للإدراك من قبل البشر قبل عشرات القرون من هذا ـ فقضيّة العدالة هذه، وقضيّة الحريّة، وكرامة الإنسان، وهذه الألفاظ الرائجة في عالم اليوم، هي كلماتُ الأنبياء. في ذلك الزمن، لم يدرك عامّة الناس والرأي العام هذه المفاهيم. وبعد مجيء الأنبياء وانتشار دعوتهم، غُرست هذه الأفكار في أذهان الناس وفي فطرتهم وفي قلوبهم جيلًا بعد جيل.

فالدّعاة الإلهيّون لم تنقطع سلالتهم الى اليوم، والوجود المقدّس لبقيّة الله الأعظم أرواحنا فداه، هو استمرار سلالة الدعاة الإلهيين، حيث تقرأون في زيارة آل ياسين: «السلام عليك يا داعي الله وربّانيّ آياته». أي أنّكم اليوم ترون تجسيدًا، لدعوة إبراهيم وموسى، و عيسى، ودعوة جميع الأنبياء والمصلحين الإلهيين ودعوة النبيّ الخاتم في وجود بقيّة الله. فهذا الإنسان العظيم هو وارثهم جميعًا، وبيده دعوتهم ورايتهم جميعًا، وهو يدعو البشريّة إلى الهدى ويعرض عليها تلك المعارف الّتي جاء بها الأنبياء عبر الزمان الممتدّ. هذه هي نقطةٌ مهمّة.

النقطة اللاحقة في باب المهدويّة، هي انتظار الفرج. فانتظار الفرج مفهومٌ واسعٌ جدًّا. وأحد أنواعه، هو انتظار الفرج النهائيّ؛ أي أنّ الناس عندما يرون طواغيت العالم مشغولين بالنّهب والسلب والإفساد والاعتداء على حقوق النّاس، لا ينبغي أن يتخيّلوا أنّ مصير العالم هو هذا. لا ينبغي أن يُتصوّر أنّه في نهاية المطاف لا بدّ ولا مناص من القبول والإذعان لهذا الوضع، بل ينبغي أن يُعلم أنّ هذا الوضع، هو وضعٌ عابر ـ «للباطل جولة»[1] ـ وأمّا ما هو مرتبطٌ بهذا العالم وطبيعته فهو عبارة عن استقرار حكومة العدل وهو سوف يأتي. إن انتظار الفرج والفتح في نهاية العصر الّذي نحن فيه، حيث تعاني البشرية من الظلم والعذاب هو مصداقٌ لانتظار الفرج، ولكن لانتظار الفرج مصاديق أخرى أيضًا.

فعندما يُقال لنا انتظار الفرج، فلا يعني انتظار الفرج النهائيّ، بل يعني أنّ كلّ طريقٍ مسدود قابلٌ للفتح. الفرج يعني هذا، الفرج يعني شقّ الطريق والفتح. فالمسلم يتعلّم من خلال درس انتظار الفرج أنّه لا يوجد طريق مسدود في حياة البشر ممّا لا يمكن فتحه، وأنّه لا يجب عليه أن ييأس ويُحبط ويجلس ساكنًا ويقول لا يمكن أن نفعل شيئًا؛ كلا، فعندما يظهر في نهاية مطاف حياة البشر ومقابل كلّ هذه الحركات الظالمة والجائرة، عندما تظهر شمس الفرج، فهذا يعني أنّه في كلّ هذه العقبات والسدود الموجودة في الحياة الآن، هناك فرجٌ متوقّع ومحلّ انتظار. هذا هو درس الأمل لكلّ البشرية. وهذا هو درس الانتظار الواقعيّ لجميع النّاس.

---

١. تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم، ح ١٠٢٤.

لهذا، عُدّ انتظار الفرج من أفضل الأعمال، ويُعلم من ذلك أنّ الانتظار هو عملٌ، لا بطالةٌ. فلا ينبغي الاشتباه والتصوّر أنّ الانتظار يعني أن نضع يدًا فوق يد ونبقى منتظرين حتّى يحدث أمرٌ ما. الانتظار عملٌ وتهيّؤٌ وباعثٌ على الاندفاع والحماس في القلب والباطن، وهو نشاطٌ وتحرّكٌ وتجدّدٌ في كلّ المجالات. وهذا هو في الواقع تفسير هذه الآيات القرآنية الكريمة ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[1] أو ﴿إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[2] أي أنّه لا ينبغي أن تيأس الشعوب والأُمم من الفرج في أيّ وقتٍ من الأوقات.

لهذا ينبغي انتظار الفرج النهائيّ، مثلما ينبغي انتظار الفرج في جميع مراحل الحياة الفردية والاجتماعية. لا تسمحوا لليأس أن يسيطر على قلوبكم، فانتظروا الفرج واعلموا أنّ هذا الفرج سيتحقّق؛ وهو مشروطٌ في أن يكون انتظاركم انتظارًا واقعيًّا، وأن يكون فيه العمل والسعي والاندفاع والتحرّك. ۲۰۰٥/۹/۲۰

إنّنا اليوم ننتظر الفرج. أي أنّنا ننتظر مجيء يدٍ مقتدرةٍ تنشر العدل وهي، هزيمة الظلم والجور الّذي سيطر على كلّ البشرية تقريبًا، فيتبدّل هذا الجوّ من الظلم والجور وينتشر نسيم العدل في حياة البشر، لكي يشعر الناس بالعدالة. إنّ هذا هو حاجة أيّ إنسانٍ واعٍ بشكل دائم، الإنسان الّذي لم يجعل رأسه في حجره، ولم يستغرق في حياته الخاصّة. الإنسان الّذي ينظر إلى الحياة العامّة للبشر بنظرة كلّية فإنه من الطبيعي أن يكون في حالة انتظار، هذا هو معنى الانتظار. فالانتظار يعني عدم الاقتناع والقبول بالوضع الموجود لحياة البشر، وهو السعي من أجل الوصول إلى الوضع المطلوب؛ و الايمان بأنّ هذا الوضع المطلوب سوف يتحقّق على يد وليّ الله المقتدرة، الحجّة بن الحسن المهديّ، صاحب الزمان، أرواحنا فداه (صلوات الله عليه وعجّل الله فرجه).

يجب أن نعدّ أنفسنا كجنودٍ مستعدّين لتلك الظروف والشرائط، ونجاهد في هذا المجال. لا

---

١. سورة القصص، الآية: ٥.

٢. سورة الأعراف، الآية: ١٢٨.

يعني انتظار الفرج أن يجلس الإنسان ولا يفعل أيّ شيء، ولا ينهض لأيّ إصلاحٍ، بل يمنّي نفسه بأنّه منتظرٌ لإمام الزمان عليه الصلاة والسلام، فهذا ليس انتظارًا.

ما هو الانتظار؟ الانتظار يعني أنّه لا بدّ من مجيء يدٍ قادرةٍ مقتدرةٍ ملكوتيّةٍ إلهيّةٍ، تستعين بهؤلاء الناس من أجل القضاء على سيطرة الظلم، ومن أجل غلبة الحقّ على الباطل وحاكمية العدل في حياة البشريّة ورفع راية التوحيد؛ اليد الّتي تجعل البشر عبادًا حقيقيين لله. يجب الإعداد لهذا الأمر. فكلّ إقدامٍ على طريق استقرار العدالة يمثّل خطوةً نحو ذلك الهدف الأسمى. الانتظار يعني هذه الأمور. الانتظار حركةٌ وليس سكونًا. ليس الانتظار إهمالٌ وقعودٌ إلى أن تصلح الأمور بنفسها. الانتظار، حركةٌ واستعدادٌ. هذا هو انتظار الفرج. ٢٠٠٨/٨/١٧

إنّ المجتمع المهدويّ هو ذلك العالم الّذي يأتي فيه إمام الزمان ليصلحه، وهو نفس المجتمع الّذي ظهر من أجله جميع الأنبياء. أي أنّ كلّ الأنبياء كانوا مقدّمة لتشكيل ذلك المجتمع الإنسانيّ المثاليّ، والّذي سيتحقّق في نهاية الأمر بواسطة وليّ العصر والمهديّ الموعود. مثل بناءٍ شامخٍ، يأتي شخصٌ فيسطّح الأرض ويزيل منها الأشواك والعوائق ثمّ يأتي شخصٌ آخر من بعده ويضع فيها الأسس، ثمّ يأتي شخصٌ آخر ليرفع فيها الأعمدة والأركان، وهكذا شخصٌ بعد آخر، يأتون لعمارة الجدران حتّى يصل هذا القصر المرتفع، وهذا البنيان الرفيع إلى شكله النهائيّ. لقد جاء الأنبياء الإلهيّون، ومنذ بداية تاريخ البشرية، واحدًا بعد آخر، من أجل أن يقرّبوا المجتمع والبشريّة خطوةً خطوة نحو ذاك المجتمع المثاليّ وذاك الهدف النهائيّ. لقد نجح جميع الأنبياء ولم يفشل أيّ واحدٍ من رسل الله على هذه الطريق، وفي هذا المسير، لقد كانت هذه المسؤوليّة، حملًا على عاتق هؤلاء الرسل الشامخين، وكلّ واحدٍ منهم تقدّم به خطوةً نحو المقصد والهدف النهائيّ وسعوا بكلّ جهدهم من أجل القيام بهذا العمل. وعندما كانوا يصلون إلى آخر حياتهم، كان هناك من يأتي من بعدهم ليضع هذا الحمل على عاتقه ويتقدّم به مسافةً أخرى، مقتربًا بذلك من ذلك الهدف. ووليّ العصر صلوات الله عليه، هو وارث جميع الأنبياء الإلهيين، فعندما يأتي ستكون الخطوة الأخيرة على طريق إيجاد ذلك المجتمع الإلهيّ.

أتحدّث قليلًا حول صفات ذلك المجتمع. بالطبع، لو أنّكم دقّقتم في الكتب الإسلامية وفي المصادر الإسلاميّة الأساسيّة للاحظتم جميع خصائص ذلك المجتمع. فدعاء النّدبة، الّذي تُوفّقون بإذن الله لقراءته أيّام الجمعة، يذكر خصائص ذلك المجتمع. فعندما يقول: «أين معزّ الأولياء ومذلّ الأعداء» مثلًا، فذلك المجتمع هو مجتمعٌ يكون فيه أولياء الله أعزّاء وأعداء الله أذلّاء، أي أنّ القيم والمعايير الحاكمة في ذلك المجتمع تكون هكذا. «أين المُعدّ لإقامة الحدود»، ففي هذا المجتمع تُطبّق الحدود الإلهيّة وتُراعى كلّ الحدود الّتي عيّنها الله تعالى والإسلام في مجتمع إمام الزمان. فعندما يظهر إمام الزمان يبني مجتمعًا بهذه الخصوصيّة، دقّقوا حولها في الآيات وفي الأدعية عندما تقرأونها، فتتفتّح أذهانكم في هذا المجال، وتتّسع، فمجرّد قراءة دعاء النّدبة ليس كافيًا، فالمطلوب هو الفهم و الاعتبار.

إنّ إمام الزمان صلوات‌الله وسلامه عليه، يبني مجتمعه على هذه الأسس؛

أوّلًا: على إزالة جذور الظلم والطغيان وقمعها وقلعها. فلا ينبغي أن يكون في هذا المجتمع الّذي يكون في زمان وليّ العصر صلوات‌الله‌عليه، أيّ ظلمٍ وجور، لا أنّ الأمر يكون في إيران فحسب، ولا حتّى في المجتمعات الّتي يقطنها المسلمون، بل في كلّ العالم. فلن يكون أيّ ظلمٍ اقتصاديّ أو سياسيّ أو ثقافيّ، أو أيّ نوعٍ آخر في ذلك المجتمع. فيجب اقتلاع كلّ الاختلافات الطبقيّة، وكلّ أنواع التمييز وعدم المساواة والتسلّط والهيمنة. هذه هي الخصوصيّة الأولى. ثانيًا: إنّ من خصائص المجتمع المثاليّ الّذي يشيّده إمام الزمان صلوات‌الله عليه، هو ارتقاء مستوى الفكر البشريّ، سواء على المستوى العلميّ الإنسانيّ، أو المعارف الإسلاميّة. في زمن وليّ العصر، لن تجدوا في كلّ العالم، أيّ أثرٍ للجهل والأميّة والفقر الفكري والثقافيّ. هناك يتمكّن الناس من معرفة الدين معرفة صحيحة، وقد كان هذا، كما تعلمون جميعًا، من الأهداف الكبرى للأنبياء الّذي أشار إليه أميرالمؤمنين صلوات‌الله وسلامه عليه، في خطبة نهج البلاغة الشريفة، «... ويثيروا لهم دفائن العقول...»[1]. لقد جاء في رواياتنا أنّه عندما يظهر وليّ العصر، فإنّ المرأة تجلس في بيتها وتفتح القرآن وتستخرج منه حقائق الدين وتفهمها. فماذا يعني ذلك؟ يعني ذلك أنّ مستوى الثقافة

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ١.

الإسلاميّة والدينيّة يرتقي إلى درجة أنّ جميع الأفراد، وكلّ أبناء المجتمع، والنساء اللواتي لا يشاركن في ميدان المجتمع على سبيل الفرض، ويبقين في بيوتهنّ، فإنّهنّ يتمكّن من أن يصبحن فقيهات وعارفات في الدين. فيتمكنّ من فتح القرآن، وفهم حقائق الدين بأنفسهنّ. انظروا إلى مجتمعٍ يكون فيه الجميع ـ نساءً ورجالًا ـ وعلى كافّة المستويات قادرين على فهم الدين والاستنباط من الكتاب الإلهيّ، فكم سيكون هذا المجتمع نورانيًّا، ولن يبقى فيه أية نقطة ظلمانيّة.

فكلّ هذه الاختلافات في وجهات النّظر والتحليل، لن يبقى لها أيّ أثرٍ في ذلك المجتمع.

الخاصيّة الثالثة لمجتمع إمام الزمان ـ المجتمع المهدويّ ـ هو أنّه في ذلك العصر ستكون جميع القوى الطبيعية و كلّ الطاقات البشرية في حالة انبعاثٍ، فلا يبقى أيّ شيءٍ في باطن الأرض، لا يستفيد منه البشر.

فكلّ هذه الإمكانات الطبيعيّة المعطّلة، وكلّ هذه الأراضي الّتي يمكن أن تغذّي الإنسان، وكلّ هذه الطاقات والقوى الّتي لم تُكشف بعد، كتلك الطاقات الّتي بقيت عبر قرون التاريخ. مثلًا، القدرة النووية والطاقة الكهربائية كانت عبر القرون من عمر هذا العالم، في باطن الطبيعة ولم يكن يعرفها البشر، ثمّ بعد ذلك قاموا باستخراجها بالتدريج. فكلّ الطاقات والإمكانات اللامتناهية الموجودة في باطن الطبيعة، هي من هذا القبيل، وسوف تُستخرج في عصر إمام الزمان.

جملةً أخرى وخصوصية أخرى، هي أنّ المحور في عصر إمام الزمان هو محور الفضيلة والأخلاق. فكلّ من كان صاحب فضيلة أخلاقية أكثر سيكون مقدّمًا وسبّاقًا. ١٩٨٠/٦/٢٧

وفي روايةٍ أخرى يقول: «القائم منّا منصورٌ بالرّعب مؤيّدٌ بالنصر، تُطوى له الأرض وتظهر له الكنوز، يبلغ سلطانه المشرق والمغرب»[١]، ممّا يعني أنّ كلّ الحكومات الظالمة والأجهزة الجائرة، ستكون مرعوبةً منه. في ذلك الزمن، ستكون هناك حالةٌ من الشمولية والعموميّة، بحيث يمكن أن تحقّق الحكومة العالميّة. «مؤيّدٌ بالنصر»، فنصر الله يؤيّده. و«تُطوى له الأرض»، أي أنّها ستكون بيده وفي قبضة قدرته. وتظهر تلك الكنوز وتبلغ سلطته مشرق العالم ومغربه.

---

١. كمال الدين وتمام النعمة، ج ١، بيان بعض الإعتراضات و الشبهات حول الغيبة، ح ١٦.

وبعد عدّة جملٍ يقول، «فلا يبقى خرابٌ إلا قد عمر»[١]، أي أنّ هذه السلطة سوف تُنفق في عمارة الأرض، لا في السيطرة على ثروات البشر وفي استضعافهم. وفي كلّ نقاط العالم لن تبقى أيّة نقطةٍ خراب إلا وستُعمّر؛ سواءٌ كانت خرابات حصلت على أيدي البشر أو بسبب جهلهم. هناك رواية أخرى عن الإمام الباقر عليه الصلاة والسلام، يقول فيها: «حتى إذا قام القائم جاءت المزايلة وأتى الرجل إلى كيس أخيه فيأخذ حاجته فلا يمنعه»[٢]، وهي إشارة إلى أخلاق المساواة بين البشر وإلى الإيثار. وتبشّر هذه الرواية بنجاة البشر من تسلّط البخل والحرص الّذي كان أكبر سببٍ لشقاء البشرية. وهذا في الحقيقة علامةٌ على ذلك النظام الإسلاميّ السالم، أخلاقيًا واقتصاديًّا واجتماعيًّا في ذلك الزمان. فلا يوجد أيّ قهرٍ وإجبارٍ في البين، بل أنّ البشر أنفسهم ينجون من البخل الإنساني والحرص البشريّ وستتحقّق مثل هذه الجنّة الإنسانيّة. و في روايةٍ أخرى: «إذا قام قائمنا اضمحلّت القطائع، فلا قطائع»[٣]، فتلك القطائع الّتي تمنحها الحكومات المستكبرة في العالم لأتباعها وحلفائها، وذلك الكرم الحاتميّ الّذي يحصل من حقّ الشعوب، سوف يتوقّف تمامًا في العالم. وقد كانت القطائع في الماضي بشكل وهي اليوم بشكل آخر. كانت في الماضي بحيث أنّ الخليفة أو السلطان يمنح أرضًا أو حقلًا أو قريةً أو مدينةً أو حتّى ولايةً لشخصٍ ما، فيقول له اذهب هناك وافعل ما يحلو لك فيها، خذ من أهلها الجبايات والخراج واستعمل مزارعها واستفد منها وكلّ فائدة مادّية هي لك. وكان عليه طبعًا أن يعطي السلطان حظّه. واليوم، هي بصورة الاحتكارات النفطية والتجارية والصناعيّة والفنّية المختلفة، وكلّ هذه الصناعات الكبرى وهذه الاحتكارات الّتي جعلت الشعوب مسكينةً هي في الواقع في حكم القطائع، الّتي أُشير إليها، وفيها كانت تُمارس كلّ أنواع الرشاوة والمحاباة. إنّ هذا البساط الّذي يقتل البشر ويقضي على الفضيلة سوف يُطوى وسوف توضع أسباب الاستفادة والنفع بيد جميع الناس.

وفي روايةٍ أخرى ناظرة إلى الوضع الاقتصاديّ يقول: «ويسوّي بين الناس حتّى لا ترى محتاجًا

---

١. م. ن.

٢. وسائل الشيعة، كتاب الصلاة، أبواب مكان المصلى، باب ٣، ح ٦٠٩٢.

٣. جامع أحاديث الشيعة، ج ٢٣، ص ١٠١٢.

إلى الزكاة»[١]، ما يعني أنّه لن يبقى هناك أيّ فقير يحتاج إلى زكاة أموالكم، وبالطبع سيكون لهذه الزكاة مصارفها في الأمور العامّة لا للفقراء، لأنّه لن يبقى هناك أي فقير؛ ومثل هذه الروايات ترسم الجنّة الإسلاميّة والعالم الواقعيّ. وليس هذا الأمر مشابهًا لتلك المدن الفاضلة الّتي صورها البعض في خيالاتهم وأوهامهم، كلا. إنّ كلّ تلك الشعارات الإسلامية جميعها قابلة للتطبيق، ونحن في الجمهورية الإسلامية نشعر أنّ هناك قدرة وقلب وفكر متّصل بالوحي والتأييد الإلهيّ ومعصومٌ يمكنه يقينًا أن يحقّق مثل هذا الوضع، وسوف تتقبل البشرية ذلك حتمًا. هذه هي حالة ذلك العالم. ١٩٨٧/٤/١٠

إذا راجعتم الآيات والروايات ـ وبالتأكيد إنّ المحقّقين والمتتبّعين قد فعلوا ذلك ـ فسوف تجدون خصوصيّات أخرى. المجتمع الّذي لا توجد فيه أيّة علامةٍ للظلم والطغيان والعدوان؛ المجتمع الّذي تصل فيه المعرفة الدينيّة والمعرفة العلميّة للبشر إلى حدّها الأعلى؛ المجتمع الّذي تبرز فيه كلّ هذه البركات والنعم والفضائل والجماليّات وتكون في متناول يد الإنسان؛ وفي النهاية المجتمع الّذي تكون فيه الفضيلة و التقوى والإيثار والأخوّة والعطف والانسجام أصلًا ومحورًا. فانظروا إلى مثل هذا المجتمع، فهو ذاك المجتمع الّذي سيحقّقه إمام زماننا، مهديّنا الموعود، ومحبوبنا التاريخيّ القديم، والّذي يعيش الآن تحت هذه السماء وعلى هذه الأرض وبين النّاس. هذا هو اعتقادنا بإمام الزمان. حسنٌ، ماذا نفعل بعد هذا؟ فبعد هذا تكليفنا واضح. أوّلًا، يجب أن نعلم أنّ ظهور وليّ العصر صلوات‌الله عليه، كما أنّنا بثورتنا هذه أصبحنا أقرب خطوةً منه، فهو أيضًا يمكن أن يقترب أكثر. أي أنّ نفس هذا الشعب الّذي قام بهذه الثورة، وقرّب نفسه خطوةً نحو إمام زمانه، يمكنه أيضًا أن يتقدّم خطوات أخرى نحو الإمام. فكيف(ذلك)؟ أوّلًا، كلّما استطعتم أن توسّعوا من دائرة هذا المقدار من الإسلام الّذي لدينا نحن وأنتم في إيران ـ لا نبالغ، الإسلام الكامل ليس متحقّقًا، ولكن قسمٌ من الإسلام قد طبّقه هذا الشعب في إيران ـ فهذا المقدار من الإسلام كلّما استطعتم أن تنشروه في الآفاق الأخرى للعالم، وفي البلاد الأخرى، وفي المناطق المظلمة، فإنّه بنفس المقدار سيساعد ويقرّب من ظهور وليّ الأمر وحجّة العصر.

---

١. بحارالأنوار، كتاب تاريخ الإمام الثاني عشر، أبواب النصوص من الله تعالى ومن أبائه، باب ٢٧، ح ٢١٢.

ثانيًا، إنّ الاقتراب من إمام الزمان ليس بمعنى الاقتراب المكانيّ ولا بمعنى الاقتراب الزماني. فأنتم الّذين تريدون أن تقتربوا من ظهور إمام الزمان، اعلموا إن الاقتراب من إمام الزمان ليس له تاريخٌ محدّد كأن يُقال مثلًا، بعد مئة سنة أو خمسين سنة، حتّى نقول أنّنا عبرنا سنةً أو سنتين أو ثلاث سنوات، من هذه الخمسين أو المئة سنة، فيبقى عندئذٍ هذا المقدار من السنوات، كلا، وليس أيضًا بلحاظ المكان حتّى نقول أنّنا تحرّكنا من هنا باتّجاه الشرق أو غرب العالم مثلًا، أو نحو الشمال أو الجنوب، لنرَ أين وليّ العصر لنصل إليه. كلا، إنّ اقترابنا من إمام الزمان هو اقترابٌ معنويّ، أي أنّكم في كلّ زمانٍ إذا استطعتم أن تزيدوا من حجم المجتمع الإسلامي كمًا ونوعًا إلى خمس سنوات أو عشر سنوات أخرى، أو حتّى مئة سنة أخرى، فإنّ إمام الزمان صلوات‌الله‌عليه سيظهر.

لو استطعتم أن تحقّقوا في أنفسكم وفي غيركم، في داخل مجتمعكم ـ هذا المجتمع الثوريّ ـ التقوى والفضيلة والأخلاق والتديّن والزهد والقرب المعنوي من الله، وجعلتم قاعدة ظهور وليّ العصر صلوات‌الله وسلامه عليه أكثر رسوخًا وإحكامًا، وكلّما استطعتم أن تزيدوا باللحاظ الكمّي والمقدار، عدد المسلمين المؤمنين والمخلصين فإنّكم تكونون هنا أيضًا أقرب إلى إمام الزمان وإلى زمن ظهور وليّ العصر. فنحن نستطيع أن نقرّب مجتمعنا وزماننا وتاريخنا خطوةً خطوة نحو تاريخ ظهور وليّ العصر صلوات‌الله وسلامه عليه؛ هذا النقطة الاولى.

النقطة الثانية: أنّه في ثورتنا اليوم لدينا طرق ومناهج، فإلى أيّة جهةٍ ينبغي أن تتحرّك هذه المناهج؟ فهذه النقطة جديرة بالتأمّل. فافرضوا أنّ لدينا طالبًا مجدًّا يريد أن يصبح أستاذًا مثلًا في علم الرياضيات، فكيف ينبغي أن نؤمّن تمهيدات هذا الأمر. فينبغي أن نوجّه دراساته باتّجاه الرياضيات. فلا معنى أن نعطيه دروسًا في الفقه مثلًا، إذا كنّا نريده أن يصبح عالمًا رياضيًا. أو أنّ من يريد أن يصبح فقيهًا نعطيه دروس الأحياء مثلًا، فينبغي أن تكون المقدّمات متناسبة مع النتيجة والغاية. الغاية هي المجتمع المثاليّ المهدويّ بتلك الخصائص الّتي ذكرتها. فيجب علينا إذًا أن نؤمّن المقدّمات بما يتناسب. يجب علينا أن نبعد أنفسنا عن الظلم ونتحرّك بحزمٍ ضدّه، أيّ ظلمٍ كان ومن أيّ شخص. يجب علينا أن نجعل توجّهاتنا نحو إقامة الحدود الإسلاميّة. وفي

مجتمعنا، لا نعطي أيّ مجالٍ لنشر الأفكار المخالفة للإسلام. نحن لا نقول أنه علينا بالقهر والغلبة لأنّنا نعلم أنّه لا يمكن مواجهة الفكر إلّا عن طريق الفكر، لكنّنا نقول أنّه علينا بالطرق الصحيحة والمنطقيّة والمعقولة أن ننشر الفكر الإسلاميّ.

يجب أن تصبح كلّ قوانيننا ومقرّرات بلدنا ودوائرنا ومؤسّساتنا التنفيذية إسلاميًا بلحاظ الظاهر والمحتوى، وأن نقترب نحو أسلمتها يومًا بعد يوم. هذه هي الجهة الّتي تمنحنا وتمنح حركتنا معنى انتظار وليّ العصر. أنتم تقرأون في دعاء النّدبة أنّ إمام الزمان يقاتل الفسوق والعدوان والطغيان والنّفاق ويزيل كلّ ذلك ويقضي عليه. وعلينا اليوم أن نتحرّك في مجتمعنا بهذا الاتّجاه ونتقدّم. هذا هو الشيء الّذي يقرّبنا إلى إمام الزمان صلوات‌الله‌عليه من الناحية المعنوية، ويقرّب مجتمعنا نحو مجتمع وليّ العصر صلوات‌الله وسلامه عليه، ذلك المجتمع المهدويّ العلويّ التوحيديّ ويزيده قربًا. ١٩٨٠/٦/٢٧

بوجود الحكومة الإسلاميّة لن تتأخّر عاقبة الموعود، بل سيسرّع ذلك، وهذا هو معنى الانتظار. انتظار الفرج يعني انتظار حاكميّة القرآن والإسلام. فأنتم لم تقنعوا بما هو موجودٌ الآن في العالم، حتّى بهذا التقدّم الّذي حقّقتموه عبر الثورة الإسلاميّة تريدون أن تقتربوا أكثر إلى حاكمية القرآن والإسلام، هذا هو انتظار الفرج. انتظار الفرج يعني انتظار فرج أمر البشرية.

واليوم، فإنّ حال البشرية قد وصلت إلى مضائق شديدة وعقد صعبة. إنّ الثقافة المادّية اليوم تُفرض على البشر بالقوّة وهذه معضلة. إنّ من يعذّب البشر اليوم على مستوى العالم هو التمييز، فهذه عقدةٌ كبرى. واليوم قد أوصلوا حال ذهنية الناس الخاطئة إلى حيث تضيع صرخات طلب العدالة من قبل شعبٍ ثائرٍ وسط عربدة المتسلّطين والمهيمنين وسكرهم؛ وهذه عقدةٌ أخرى أيضًا. واليوم يعاني مستضعفو أفريقيا وأمريكا اللاتينيّة، وملايين الناس الجائعين في آسيا وآسيا القصوى، وملايين ذوي البشرة الملوّنة من ظلم التمييز العنصري، وقد تطلّعت عيونهم بأملٍ نحو منجٍ ومنقذ، ولا تسمح القوى الكبرى لهذا النداء المنجي بأن يصل إلى أسماعهم، هذه معضلة. فالفرج يعني فتح هذه المضائق، وحلّ هذه المعضلات وفكّ هذه العُقد. فوسّعوا من رؤيتكم، ولا نحدّ أنفسنا في بيوتنا وحياتنا اليومية، فالعالم كلّه يطلب الفرج ولكن لا يدري ما هو الطريق.

وأنتم أيّها الشعب الثوريّ المسلم يجب أن تقتربوا بحركتكم المنظّمة في مواصلة الثورة الإسلاميّة إلى الفرج العالميّ للبشريّة، وأن تقرّبوا أنفسكم من ظهور المهديّ الموعود والثورة الإسلامية النهائية للبشرية الّتي ستشمل العالم كلّه، وتحلّ كلّ هذه العقد خطوة خطوة، وأن تقرّبوا البشرية بذلك إليه أيضًا، فهذا هو انتظار الفرج. وإنّ لطف الرّب المتعال، ودعاء وليّ العصرعجّل الله تعالى فرجه الشريف المُستجاب، سيكون دعامتنا في هذا الطريق، ويجب علينا أن نتعرّف على هذا الإمام أكثر، ونكون أكثر ذكرًا له. فلا ينبغي أن ننسى إمام الزمان. فاحفظوا ذكر وليّ الله الأعظم في قلوبكم، واقرأوا «اللهمّ إنّا نرغب إليك في دولةٍ كريمة»[١] من أعماق قلوبكم وبالضراعة الكاملة. فلتكن أرواحكم في انتظار المهديّ وكذلك فلتتحرّك قواكم الجسمانيّة في هذه الطريق. وإنّ كلّ خطوةٍ تخطونها على طريق تثبيت هذه الثورة الإسلامية، ستكون خطوة إضافية نحو ظهور المهديّ. ١٩٨١/٦/١٩

لقد تحرّك أئمّتنا جميعًا في هذا الخطّ، من أجل أن تسيطر الحاكميّة الإلهيّة وحاكميّة القانون الإلهيّ على المجتمعات.

لقد بُذلت الكثير من الجهود والجهاد والآلام والمحن والسجون والنفي والاستشهاد المليء بالجود والعطاء. واليوم أنتم وجدتم هذه الفرصة، مثلما أنّ بني إسرائيل وبعد قرونٍ قد وجدوا هذه الفرصة في زمان سليمان النبيّ وداوود عليهما السلام. ١٩٨١/٥/٨

إنّ الطريق الّذي سلكتموه يا أبناء شعب إيران العزيز، استمرّوا عليه وتحرّكوا وأكملوا هذا الطريق، وهو الطريق الّذي لحسن الحظّ، نشاهد اليوم الشعوب المسلمة في مختلف أرجاء العالم الإسلاميّ تتحرّك نحوه شيئًا فشيئًا و بالتدريج.

يقول الله تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٢] فلو أنّنا جعلنا هذه التقوى منهاج عملنا، فمن المسلّم أنّ عاقبة الأمر ستكون من نصيب الأمّة الإسلاميّة وإنّ هذا المستقبل لن يكون بعيدًا، إن شاء الله. ٢٠١١/٢/٢١

---

١. الكافي، كتاب الصلاة، باب تهيئة الإمام للجمعه، ح ٦.

٢. سورة الأعراف، الآية: ١٢٨.

أذكر جملةً واحدة في الختام، فيما يتعلّق بضرورة الارتباط العاطفي والمعنويّ والروحي بإمامنا العظيم وليّ الله المعصوم، بالنسبة لكلّ واحدٍ منّا. القضيّة لا ينبغي أن تجعلوها محدودة في إطار التحليل الفكريّ والاستنارة الفكرية. فذاك المعصوم، الّذي هو صفيّ الله، يعيش اليوم بيننا، نحن البشر في مكانٍ ما من هذا العالم ونحن لا نعلمه. إنّه موجودٌ، ويدعو، و يتلو القرآن، ويبيّن المواقف الإلهيّة، إنّه يركع ويسجد ويعبد ويدعو ويظهر في المجامع ويساعد البشر. فله وجودٌ خارجيّ ووجودٌ عينيّ، غاية الأمر أنّنا لا نعرفه. إنّ هذا الإنسان الّذي اصطفاه الله، موجودٌ اليوم، ويجب أن نقوّي علاقتنا به من الناحية الشخصية والقلبيّة والروحيّة، بالإضافة إلى الجانب الاجتماعي والسياسي والّذي بحمد الله صار نظامنا متوجّهًا نحو ما يريده هذا الإنسان العظيم إن شاء الله. فليجعل كلّ واحدٍ من أبناء مجتمعنا توسّله بوليّ العصر وارتباطه به، ومناجاته معه، وسلامه عليه، وتوجّهه إليه، تكليفًا وفريضةً، ولندعُ له كما لدينا في الروايات وهو الدعاء المعروف «اللهمّ كن لوليّك»[1] الّذي يُعدّ من الأدعية الكثيرة الموجودة، وتوجد في الكتب زياراتٌ، بالإضافة إلى وجود البعد الفكري والوعي والمعرفة، يوجد فيها بعدٌ روحيّ وقلبي وعاطفي وشعوريّ، وهو ما نحتاج إليه اليوم. إنّ أطفالنا وشبابنا ومجاهدينا في الجبهة يحصلون على الرّوحية والمعنويات بالتوجّه والتوسّل بإمام الزمان ويفرحون ويتفاءلون. وببكاء الشوق ودموعهم المنهمرة يقرّبون قلوبهم إليه، وهم بذلك يعطفون نظرته الحقّة وعنايته إليهم، مثلما أنّ ذلك يتحقّق مع الإمام ويجب أن يكون موجودًا. ١٩٨٧/٤/١٠

يا إمام الزمان! أيّها المهديّ الموعود المحبوب عند هذا الشعب! يا سلالة الأنبياء الأطهار! يا وارث كلّ الثورات التوحيدية العالمية! إنّ شعبنا هذا قد نهض بذكرك و باسمك واختبر لطفك في حياته وفي وجوده. أيّها العبد الصالح لله! إنّنا اليوم بحاجة إلى دعائك الّذي ينبعث من قلبك الإلهيّ، الربّانيّ الطاهر ومن روحك القدسيّة من أجل انتصار هذا الشعب وهذه الثورة، ونحتاج إلى يد القدرة الإلهيّة الّتي جُعلت فيك، لتساعد هذا الشعب و ترسم طريقه. «عزيزٌ عليّ أن أرى

---

١. الكافي، كتاب الصيام، باب الدعا في العشر الأواخر من شهر الرمضان، ح ٤.

الخلق ولا تُرى»[۱]، يا إمام الزمان، إنّه لصعبٌ علينا أن نرى أعداء الله في هذا العالم وفي هذه الطبيعة المترامية الّتي هي لعباد الله الصالحين، ونتلمّس آثار وجود أعداء الله ولكن لا نراك ولا ندرك فيض حضورك.

اللهمّ! بمحمد وآل محمد نقسم عليك أن تطرّي قلوبنا بذكر إمام الزمان دائمًا.

اللهمّ! نوّر أعيننا بجمال وليّ العصر.

اللهمّ! اجعل هؤلاء الّذين يجاهدون في سبيلك جنود إمام الزمان والمضحّين بين يديه. ۱۹۸۰/۶/۲۷

اللهمّ! بمحمّد وآل محمّد، ارضِ قلب وليّك المقدّس المعصوم عنّا. واجعلنا من المتوجّهين والمتوسّلين به.

اللهم! بحرمة محمّد وآل محمّد عجّل فرجه وعجّل قيام تلك الحكومة الإلهيّة.

اللهمّ! بمحمّد وآل محمّد، اجعلنا من أتباعه وشيعته في جميع أحوالنا وأمورنا. ۱۹۸۷/۴/۱۰

---

۱. بحارالأنوار، كتاب المزار، أبواب الزيارة الأئمّة ورسول الله، باب ۷، ح ۲.

رسم بيانيّ يقارن تاريخ إمامة الأئمة عليهم السلام والخلفاء المعاصرين لهم

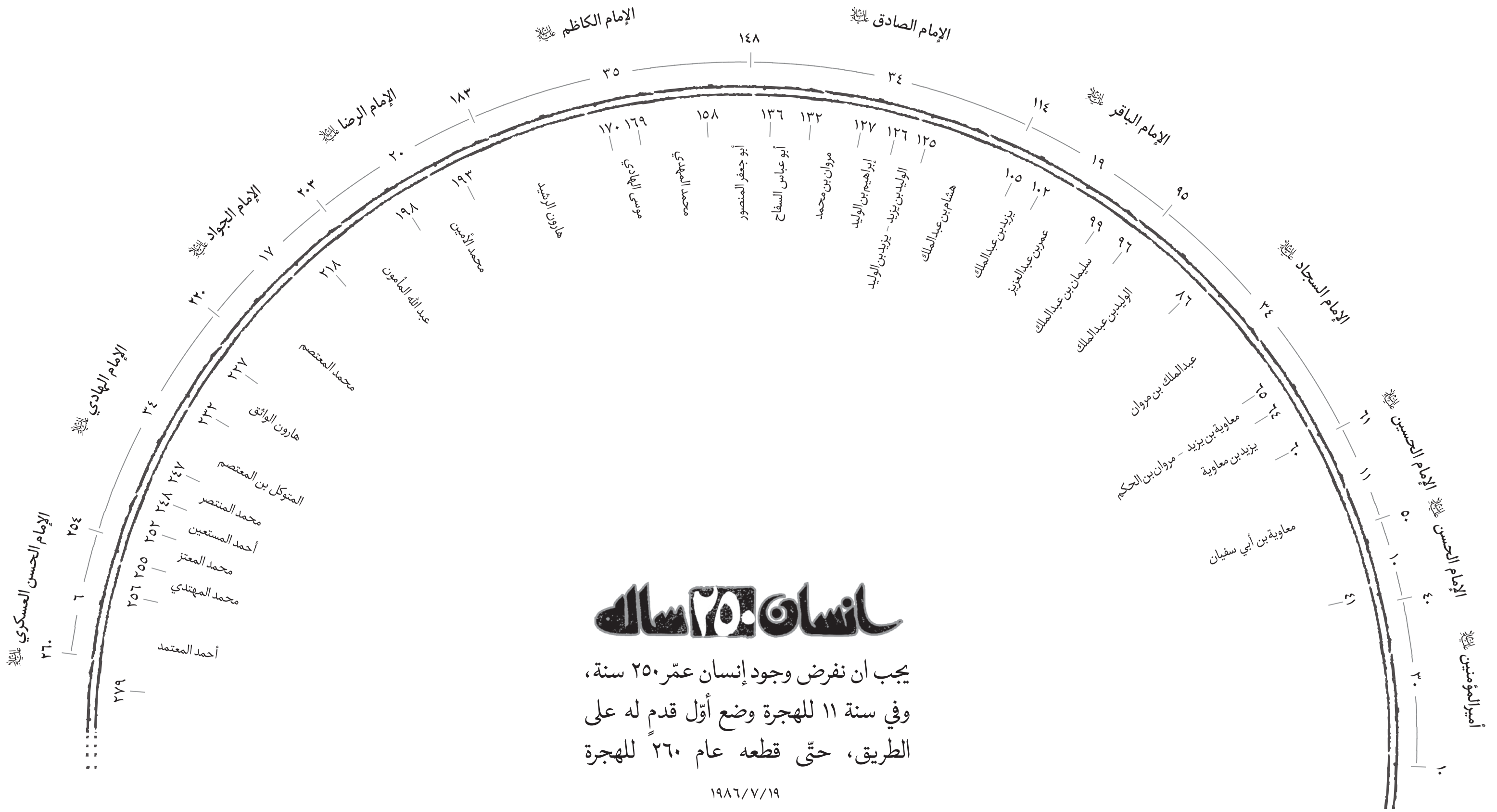

انسان ٢٥٠ ساله

يجب ان نفرض وجود إنسان عمّر ٢٥٠ سنة، وفي سنة ١١ للهجرة وضع أوّل قدمٍ له على الطريق، حتّى قطعه عام ٢٦٠ للهجرة

١٩٨٦/٧/١٩